

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

تاريخ مصر الإسلامية والمغرب والأندلس

إعداد

أ.د. يسري زيدان أ.د. محمد علي دبور

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م

القسم الأول :

مصر في ظلال الإسلام

حتى نهاية عصر الأيوبيين

أ. د/ يسري أحمد عبد الله زيدان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منزه عن الضد والند، والصاحبة والشريك والولد، لا يشبه أحدًا ولا يشبهه أحد، لا يوصف بأنه والد ولا ولد، والصلاة والسلام على خير نبي، وأفضل رسول، وأعظم مخلوق، صاحب الكلمة الأخيرة للبشرية جميعًا، التي جمعت ومنعت، وهدت الناس من جهل وحررتهم من استعباد وظلم، وأبصرتهم من عمى وتخلف.

أما بعد، فإن هذا الكتاب يتناول تاريخ مصر الإسلامية من تحريرها من الاستعمار الروماني الأوربي إلى نهاية حكم الأيوبيين، وفضل الإسلام على مصر فضل عظيم، وأثره عليها أثر كبير؛ ذلك أن الإسلام حرر مصر سياسيًّا ودينيًّا واقتصاديًّا، وأبقى على مسيحييها وما يدينون به، ولولا الفتح الإسلامي لمصر لبادت المسيحية بها ولانتهى أمر مسيحي مصر ولأضحوا أساطير وحكايات يرويها التاريخ، فلقد كانت مصر مستعمرة رومانية منذ سنة ٣١ق. م، بعد أن كانت محتلة من قبل البطالمة منذ سنة ٤٣٤ ق. م، وقبل ذلك كانت مستعمرة من قبل الفرس منذ سنة ٤٤٤ ق.م، ووقع على كاهل المصريين قبل الفتح الإسلامي أثقال وأوزار المحتلين الاقتصادية والسياسية والدينية، وزاد البطش والتنكيل والقتل، في عهد الرومان الذين اعتنقوا النصرانية على مذهب مخالف لمذهب النصارى المصريين، وحاول المستعمر الروماني بكل وسائل العنف والشدة إزاحة المصريين النصارى عن مذهبهم الديني، وارتكبوا في سبيل ذلك مذابح عديدة، لكن المصريين النصارى أبوا أن يتخلوا عن مذهبهم الديني المخالف لمذهب النصارى الرومان، ورضوا ببذل الدم والنفس دفاعًا عن عقيدتهم هذا فضلًا عن استبداد الرومان واستنزافهم لموارد مصر الاقتصادية؛ مما جعل مصر تستحق أن تكون أسوأ ولاية رومانية قبل زوال الرومان عنها.

وجاء الفتح الإسلامي لمصر ليحمي المسيحية في مصر من الاستئصال، وليحافظ على مسيحييها من الهلاك أو الذوبان، وليحرر بلدًا احتل لعشرة قرون كاملة، وكان المسلمون آية ناطقة بالتسامح الديني الذي كان عملة نادرة في تلك الفترة، فاجتذب الإسلام ببساطته وسهولته وعقلانيته جماهير نصارى مصر، الذين ضجوا من التناقضات الواقعة في صلب عقيدتهم، وملوا الاختلافات الناشبة بين طوائفهم بسبب تصادم معتقداتهم مع العقل الراجح، والفكر السوي، والرأي النقي، فأقبلوا على الإسلام

يعتنقونه، والفاتح لم يشرع بعد في فتح مصر، وإنما كان بالعريش، وكان هذا الإقبال عن إقناع وحب، واختيار وطواعية، وإرادة حرة، ووعي وإدراك.

ويستحيل أن يتخلى المصريون النصارى عن دينهم، أملًا في تخفيف مالي أو تخلصًا من ضريبة مفروضة، وهم الذين استسهلوا بذل الروح والدم عن التحول من المذهب اليعقوبي المسيحي إلى المذهب الملكاني المسيحي.

ومن رفض من المسيحيين الانضواء تحت عقيدة الحق والصدق، حوفظ على عقيدته، حميت كنائسه، وأمن ماله واختياره، مقابل عون مالي تافه وهو الجزية، علامة كف عن القتال ومصادرة الدعوة، وحماية للنفس والمال، وصونً للفكر والمعتقد، وليس ضريبة رأس كما كانت أيام الرومان، بل بديلًا عن أعباء القتال.

وأشرك المسلمون بعد الفتح جميع المصريين: نصارى ومسلمين في وظائف الدولة المختلفة، وسمح المسلمون للنصارى ببناء كنائسهم، واختيار بطاريقهم، والعيش في أمان وسلام وازدهار تحت الحكم الإسلامي.

ومن العجب أن ينكر منكر فضل الإسلام على مصر وأهلها قبل الفتح الإسلامي، ومن العجيب أن يُقابل المسلمون بسياسة ممنهجة من الكذب والنكران والجحود، ومن الوضاعة أن تشوه الحقائق، وتحرف الوقائع، وتزور الدلائل، ويُفترى على الحق الواضح بقول ممجوج باطل، وادعاء حاقد، بأن المسلمين غرباء عن مصر، أو بأنهم غزاة وليسوا محررين فاتحين.

ولن يفيد الكذب أو تزييف التاريخ من أناس ضلت عقولهم، وفسدت قلوبهم، وانحرفت نياتهم عن الصدق، وستبقى مصر إسلامية -بإذن الله تعالى- تصون الإسلام وتحميه، وتدافع عنه، ويعيش فيها المخالفون للعقيدة الإسلامية في أمن وأمان، بفضل الإسلام وشرائعه وهداياته.

المؤلف

أ.د. يسري أحمد عبد الله زيدان

القاهرة في شهر الله المحرم ١٤٣٦هـ

شهر نوفمبر ٢٠١٤م

الفصل الأول
مصر في ظلال الإسلام منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية عصر الولاة

أحوال مصر [١] قبل الفتح الإسلامي:

أصبحت مصر جزءًا من الإمبراطورية الرومانية سنة ٣١ قبل الميلاد*، بعد القضاء على حكم البطالمة [٢]، وهزيمة كليوباترا أمام أغسطس قيصر في موقعة اكتيوم البحرية في سنة ٣١ ق. م. وكان الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) قد تمكن سنة ٣٣٢ ق.م. من القضاء على الفرس، واستسلم الوالي الفارسي دون قتال ودخل الإسكندر العاصمة منف، فأصبحت مصر تابعة للبطالمة (٣٢٣-٣٠ ق. م) وكما نظر الإغريق إلى المصريين نظرة احتقار، وفرقوا بين الإغريق «والمقدونيين من باب أولى» والمصريين [٣]، فإن الحال لم يتغير كثيرًا مع الرومان.

وبضم مصر إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية أضحت ولاية من طراز فريد بسبب ما كانت تتميز به من ثروة طائلة ومركز جغرافي مهم، وكانت السلطة الرومانية تنظر إلى مصر كبقرة ينبغي حلبها لصالح روما، وليس ثمة شك في أن البقرة كانت حلوبًا، ولكن روما دأبت على استدرار لبنها حتى استنزفته. فكان معظم القمح المحصل كإيجارات من مزارعي الأراضي الملكية أو كضرائب من ملاك الأراضي يرسل إليها مع الضرائب النقدية لينتفع به الشعب الروماني فتخسره مصر تمامًا. وقد عنف

---

(١) عن اشتقاق اسم مصر راجع ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مطبعة دار الكتب ٦-٨ وراجع حتى ١٩. للوقوف على ملوكها قديمًا. وراجع ابن إياس بدائع الزهور جـ١ قسم ١ ص٩-٩٣.

* من الممكن أن نرجع تاريخ قيام الإمبراطورية الرومانية إلى شهر يناير سنة ٢٧ ق. م. راجع تشارلزوورث: الإمبراطورية الرومانية ١٨- ٣٧.

(٢) راجع عن البطالمة ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٥٨- ٦٣.

(٣) عن مصر في العصر البطلمي راجع آيدرس: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ٥٧- ١٢٣ وراجع د. ذكي على وزميليه: مصر في العصور القديمة ١٢٩-١٥٠ وراجع د. عبد العزيز نوار: تاريخ مصر الاجتماعي ٥٥- ٦٥. ويذكر هنا أن ابن العبري (تاريخ مختصر الدول ص٦٠ و ٦١) ذكر دفع اليهود بمصر للجزية إلى البطالمة الذين اضطهدوهم.

الإمبراطور تيبيريوس (١٤-٣٧م) الذي حكم بعد أوغسطس (٣٠ق.م- ١٤م) حاكمًا أرسله إليه حاصل الضريبة زائدًا عن النصاب السنوي وذكره بأنه إنما ولي على مصر ليجز صوفها لا ليسلخ جلدها [١].

وكانت مصر ملكًا خاصًا للإمبراطور الروماني، ولم تكن ولاية رومانية بالمعنى الصحيح، حيث منع الإمبراطور الروماني مجلس الشيوخ في روما المشارك معه في الإدارة والسلطة من التدخل في شئونها، وحرم عليهم ولاية شيء من أعمالها والرحلة إليهم إلا بإذن خاص منه، ونصب عليها حاكمًا من قبله كان مقره في مدينة الإسكندرية، وكان الإمبراطور يهدف بذلك إلى ألا يصل إلى مصر من تمكنه خيراتها من أن يكون خطرًا على نفوذه فيهان وقد زال هذا القيد عندما قلت ثروة مصر، ولم تعد المصدر الوحيد لما تحصل عليه روما من الغلال [٢].

وكانت الحكومة الرومانية تميز تمييزًا دقيقًا بين الإغريق بما فيهم المتأغرقين من سكان عواصم الإقليم المختلطين بغيرهم من الأجناس، وبين المصريين الذين كانوا على حد تعبير الرومان بمثابة dediticii [٣] أي أدنى مرتبة من غيرهم ولا حقوق سياسية محددة لهم، خاضعين لضريبة الرأس، وكانت هذه الضريبة صورة معدلة من نفس الضريبة البطلمية القديمة، فهذه الضريبة كانت تجبى من جميع الخاضعين لها نقدًا، بمعدل ثابت، بغض النظر عن الدخل الفردي. وقد أعفيت منها سلالة أرباب الإقطاعات في الفيوم على ما يرجح، والمواطنون الرومان والإغريق بالتأكيد والكهنة. وكانت هناك تفرقة بين مواطني العواصم أنفسهم بالرغم من أنهم جميعًا يدفعون ضريبة الرأس بالفئة المخفضة. ومعنى هذا أنه كانت هناك صفوة داخل الصفوة، وهي الطبقة المعروفة باسم طبقة «الجيمنازيوم» وكانت تتألف من المواطنين الموسرين الذين تلقوا

---

(١) راجع عن ذلك آيدرس: السابق ١٤٩ وراجع من ١٢٦- ١٩٨.

(٢) د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ١٠ وراجع حتى ١٧ وراجع تشارلزوورث: الإمبراطورية الرومانية ٨٠-١٠٠ و١٤١-١٥٩.

(٣) ومعناها الذين استسلموا بلا قيد أو شرط بعد الهزيمة ووضعوا أنفسهم تحت رحمة الدولة الرومانية لتفعل بهم ما تشاء. آيدرس بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي هامش (١) ص١٣٧.

تعليمهم في معهد التربية، والتحقوا بـ «منظمة تدريب الشباب» وكانوا وحدهم هم اللائقين لتولي المناصب البلدية بعواصم الأقاليم[١].

فالمصري العادي عاش تحت حكم روماني لا يختلف عن حكم سابقه من حيث اعتبار المصري في مرتبة أدنى من كافة الأقليات الحاكمة (الرومان) أو المتميزة (الإغريق واليهود). وكان هؤلاء يستكبرون عليه، لأن مستوياتهم الثقافية أعلى من مستواه، فلم يعد المصري يشغل الوظائف، ولم تكن له مؤسسات تدافع عن حقه، فركن إلى بيته الحقير، وإلى الأرض التي يزرعها وينتجها ليقيم أوده، إن استطاع، ويقدم محصوله للغاصبين. فإنتاج مصر الوفير من القمح ليس لأصحاب مصر الحقيقيين، وإنما لسد حاجة روما المتزايدة منه، حتى لقد عدت مصر مخزن قمح لروما، وكان إذا بيع إنتاج مصر في الأسواق الخارجية على يد الأجانب كان يباع بأربعة أضعاف قيمته في البلاد. فقمح مصر أضحى سلة إستراتيجية، وأداة يستخدمها المطالبون بالعرش الإمبراطوري، فمن كان منهم يضع يده على مصر وقمحها يستطيع أن يجيع روما فيحرج مركز خصمه وربما تغلب عليه. وظلت مصر وإنتاجها على هذه الأمية الاقتصادية معظم التاريخ الروماني، وفي أواخره أخذ إنتاج مصر يقل ويتدهور حتى أصبح المنتج منه لا يكفي البلاد ولا يسمح بالتصدير، ففقدت مصر قيمتها الاقتصادية في هذا المجال بالنسبة للرومان الذين اتجهوا إلى جلب حاجاتهم من القمح من إفريقية (تونس). وكان لهذا التدهور أسبابه التي لا تخرج عن مضاعفة الضرائب على المصري مقارنة بما يدفعه غيره من الإغريق واليهود، وتدهور نظام الري في البلاد، وفشل أساليب الدولة في تحسين أحوال الفلاحين، إلى غير ذلك من أسباب عديدة أسهمت في تدهور إنتاج مصر من المواد الغذائية وخاصة القمح [٢].

وكانت ثروة البلاد قد أخذت في التقهقر منذ منتصف القرن الثاني الميلادي، ويقول آيدرس بل: «إن تاريخ مصر الرومانية قصة محزنة من قصص الاستغلال الذي يدل على قصر النظر، وينتهي حتمًا بالانهيار الاقتصادي والاجتماعي»[٣].

---

(١) راجع آيدرس بل: السابق ١٣٨-١٤٥ وراجع تشارلزوورث: الإمبراطورية الرومانية ٦١-٧٩.

(٢) راجع د/ عبد العزيز نوار: تاريخ مصر الاجتماعي ٦٦-٧٥ وذكر أن تعداد مصر في العصر الروماني كان حوالي سبعة ملايين نسمة منهم حوالي المليون يهودي. ص٦٨.

(٣) آيدرس بل: مرجع سابق ص١٤٧.

والواقع أن البوادر المنذرة بالشر ظهرت قبل منتصف القرن الأول الميلادي، فالفيلسوف اليهودي فيلون الذي عاش في عصر الإمبراطورين: كاليجولا (٣٧-٤١م) وكلوديوس (٤١-٥٤م) ذكر صورة مؤثرة عن الأحوال المعاصرة له، فتحدث عن جباة الضرائب الذين لا يتورعون عن الحجز على جثة الشخص الذي قصر في أداء الضريبة لإرغام ذويه على دفع المتأخر عليه. وذكر لنا خبر زوجات وأطفال وأقارب آخرين زج بهم في السجن وسوموا سوء العذاب للإرشاد عن مكان اختفاء أحد الهاربين وعن قرى بأسرها، فأقفرت بلاد من سكانها. والوثائق التي وجدت في مصر تؤكد كلامه وتعززه [١].

واستمر التدهور لأحوال مصر وثروتها في منتصف القرن الثاني الميلادي، وفيه ثار اليهود (١١٥- ١١٧م) وأدى ذلك إلى مصرع جموع من الفلاحين الذين عجزوا عن التصدي لهم، وبارت مساحات شاسعة من الأراضي، وأحرقت العديد من القرى، فأبعد الزراع مدة غير قصيرة عن جانب كبير من الأراضي التي تعطل إنتاجها من أجل ذلك. وفرت جموع غفيرة من الفلاحين من قراهم إلى المستنقعات الموحشة في شمال الدلتا. ولم يكن تاريخ مصر الاقتصادي في القرن الثالث الميلادي من حكم الرومان سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر، ينتقل من سيء إلى أسوأ، فقد أهمل نظام الري، وأصبح عمل الزراع غير مثمر، ولم تنقص الحكومة الضرائب المفروضة على الفلاحين الذين فر كثير منهم عن مواطنهم، فتركت مساحات شاسعة من الأراضي دون زرع، واستمر هذا الوضع السيئ والتدهور الاقتصادي بعد ذلك[٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في خريف عام ٢٨٤م نادى الجيش الروماني في الشرق بقائد الحرس الخاص ديوكليس الذي تسمى منذ ذلك الحين باسم دقلديانوس إمبراطورا[٣] ، فاعتلى العرش عقب موت كارينوس (٢٨٢- ٢٨٦) ومنذ زمن دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) انقسمت الإمبراطورية الرومانية قسمين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتشم ضمن ما تضم مصر، وعرفت فيما بعد بالإمبراطورية البيزنطية

(١) آيدرس: السابق ١٥٠- ١٥١ وراجع حتى ١٥٦ و١٦٦- ١٦٨.
(٢) راجع د/ عبد العزيز نوار: تاريخ مصر الاجتماعي ٧١-٨٤ و د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ١٤-١٧. وراجع د/ زكي علي: مصر في العصور القديمة ١٥٩-١٦٧.
(٣) عن الأباطرة الرومان راجع ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٦٤-٨٨.

[١]، والإمبراطورية الرومانية الغربية التي أسقطها الجرمان سنة ٤٧٦م. ولم تلبث مصر –كما رأينا– أن تحولت من ولاية رومانية إلى ولاية بيزنطية [٢].

ولم تختلف حالة مصر كثيرًا في العصر البيزنطي عنها في العصر الروماني، فقد حلت القسطنطينية (بيزنطة) محل روما في استنزاف موارد البلاد إلى أقصى حد ممكن، واستمرت مصر مجرد مخزن للغلال يزود العاصمة القسطنطينية بالغلال، بينما أضحى المصريون مصادر لجباية الضرائب والحصول على حاجات الإمبراطورية من الأموال، وصارت الضرائب مصدر شكوى الفلاحين في القرى المصرية، وكذلك التجار وأهل الحرف في المدن، وعجزت محاولات الأباطرة البيزنطيين وتشريعاتهم عن وضع حل لتلك الأحوال الاقتصادية المتدهورة، وضاعت مجهوداتهم هباء أمام استفحال الأزمات الاقتصادية [٣].

ومن الأمور المهمة التي لها أثر مهم في تاريخ مصر بصفة عامة، وفي تاريخها أثناء الاحتلال الروماني والبيزنطي، انتشار المسيحية فيها، وما صاحب انتشارها من اضطهادات ومنازعات خلال تلك الفترة السابقة، وسبق عرض ذلك من خلال المصادر المسيحية نفسها.

---

(١) نسبة إلى بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة التي اختارها قسطنطين «الكبير» الأول (٣٠٦–٣٣٧م) موقعًا لعاصمته الجديدة وأطلق عليها اسم القسطنطينية. وبيزنطة أسست في القرن السابع قبل الميلاد وعرفت باسم قائد جماعة يونانية. ومصطلح بيزنطي حديث في استعماله ولم يكن معروفًا عند شعوب هذه الدولة أو حكامها والعرب قبل الإسلام وبعده يعرفون البيزنطيين باسم الروم. راجع د/عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية ص١١ وريتشارد ساليفان: ورثة الإمبراطورية الرومانية ص٤٩.

(٢)راجع آيدرس: مرجع سابق ١٩٣–٢٠٠.

(٣)راجع د/إبراهيم العدوي: مصر الإسلامية ٥–٦ ود/محمد محمد أمين: محاضرات في تاريخ مصر في العصور الوسطى ٥–٦ وآيدرس بل: مرجع سابق ٢٣٠– ٢٥٥. وعن الفلاح المصري في العصر البيزنطي راجع د/زبيدة عطا: الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي ١٩–٧٦. ولا يوجد عصر قبطي في مصر بل روماني وبيزنطي، ولذا فإن العنوان يحتوي على مجاملة واضحة على حساب التاريخ والحقيقة. وراجع د/عبد الحافظ البنا: تاريخ مصر في العصر البيزنطي ١٢٩–١٣٢ وراجع من ص٧٠–١٢٨.

ظهور المسيحية في مصر:

تسربت المسيحية من فلسطين إلى مصر في أثناء حكم الرومان، ويستبعد آيدرس بل القصة القائلة بأن ما يسمى بالقديس مرقس هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية، ويعدها قصة خرافية، لكن المسيحية لم تكن لتتأخر في الوصول إلى أكبر ميناء في شرق البحر المتوسط، ومنه إلى سائر أنحاء مصر، ومع هذا فلم تترك المسيحية أي أثر في برديات القرن الأول التي عثر عليها، بل لا تمد برديات القرن الثاني الميلادي الباحثين إلا بمعلومات ضئيلة جدًا عن مدى تأثيره [١] .

ولما أخذت المسيحية في الانتشار خفية في الإسكندرية والوجه البحري ثم وفي مصر العليا ثارت مخاوف الرومان الوثنيين، فعمدوا إلى اضطهاد دعاة المسيحية وأنصارها ومعتنقيها، ولجأوا إلى القوة الغاشمة ووسائل القهر لصد الناس عنها، وبلغ اضطهاد المسيحيين غاية في أواخر أيام الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) الذي نظم حملة اضطهاد واسعة النطاق، فأحرقت الكتب المسيحية، ودمرت الكنائس وسفكت دماء المسيحيين، مما جعل النصارى في مصر يؤرخون الأحداث التاريخية بعصر دقديانوس الذي سموه «عصر الشهداء». يقول ابن العبري [٢]: «سنة خمسمائة وست وتسعون يبتدأ تاريخ دقاديانوس للإسكندر الذي يؤرخ به القبط، ويسمونه تاريخ الشهداء، أي الذين ».

غير أن الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٦-٣٣٧م) أظهر عطفًا على النصارى، وأمر ببناء كنائسهم المهدومة، واتبع معهم سياسة التسامح الديني واعترف بالمسيحية، وعبّر الطرق أمامها لتكون ديانة الإمبراطورية الرئيسية والرسمية مع الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩-٩٥م) الذي حتم اعتناق المسيحية وحرم عبادة الأوثان [٣]. يقول غوستاف لوبون: «وعندما أصبحت النصرانية دين دولة القسطنطينية الرسمي أمر

---

(١) أيدرس: مرجع سابق ١٦٨-١٧٠ وراجع تشارلزوورث: الإمبراطورية الرومانية ١٦٠-١٨١.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٧٨ وراجع ٦٥-٩٢.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٧٩ وراجع حتى ٩٢. ويذكر هنا أن المسيحية تروت يتسمح الرومان. وراجع في ذلك على سبيل المثال: الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ الغزالي -رحمه الله- ٣٧-٣٩ والحق المر لفضيلته ٤١-٤٦.

القيصر ثيودوز في سنة ٣٨٩م بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها وجميع ما يذكر الناس بها، واكتفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التي كانت من المتانة بحيث لا يقدر على هدمها بسهولة»[١].

لكن المسيحيين الذين تنفسوا الصعداء بالاعتراف بدينهم سنة ٣١٣م ما لبثوا أن انقسموا على أنفسهم انقسامًا شديدًا، ظل يتصاعد ويزداد ويشتد، ونتج عنه نشوب فتن دموية وقيام صراعات لم تتدمل حتى الآن[٢].

ومن بين الأسباب المبكرة لانقسام المسيحيين ما ذهب إليه (آريوس) الكاهن الإسكندراني[٣] من أن المسيح مخلوق لا يمكن أن يكون إلهًا، لأن المسيح الابن مخلوق للإله الأب فهو إذا دونه ولا يمكن بأي حال أن يعادل الإله الأب الابن المستوى والقدرة، وإلا اتهم المسيحيون بعبادة إلهين. وخالفه في الرأي بطريرك الإسكندرية هو اثناسيوس الذي ذكر أن فكرة الثالوث المقدس تحتم أن يكون الابن مساويًا للإله الأب تمامًا في كل شيء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه، وإن كانا شخصين متميزين. ومن الواضح أن المذهب الأريوسي كان يتفق ومنطق المثقفين لأنه أراد أن يقيم العقائد المسيحية على أساس من المنطق والتعقل، في حين كان المذهب الأثناسيوس يستقيم وتفكير عامة الناس الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم[٤]. ومعنى هذا أن آريوس نادى بوحدانية الله أو فكرة الإله الواحد، ولم يسلم بما نادت به الكنيسة بالتساوي بين الأب والابن في دائرة الثالوث المقدس، وقال بأنه لا يمكن أن يتساوى مع الأب جوهرًا وقدسيًا وأزليًا، وبالتالي فهو لا يعترف بقدسية المسيح الابن. ولما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين الطرفين خشي الإمبراطور قسطنطين الأول من أن يؤثر ذلك في وحدة الإمبراطورية، فحاول أن يوفق بين المذهبين، وأرسل مبعوثًا إلى الإسكندرية

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ٢٠٦ وراجع من ص٢٠٣ وراجع د/سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى- التاريخ السياسي ١٨-٥٠.

(٢) جرت مذابح هائلة بأوربا بين الكاثوليك والبروتستانت سقط فيها عدة ملايين من المسيحيين.

(٣) عنه وعن معتقده راجع ابن العبري: السابق ٨٠-٨١ وسبقت الإشارة إلى الخلافات المسيحية في كتاب ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

(٤) د/سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ٣٥-٣٦.

لهذا الغرض، لكن جهوده لم تكلل بالنجاح، فلجأ إلى عقد مجمع ديني كبير كان الأول من تلك المجامع الدينية الكثيرة التي تعرف باسم المجامع المسكونية، وهذه مجامع عالمية تشترك فيها جميع الكنائس المسيحية، وتجتمع أصلًا بدعوة من الإمبراطور، ويعتقد المسيحيون أن قرارات هذه المجالس كان يوحى بها من الرب، وأن إطاعة هذه القرارات أمر واجب وأساسي إلى جانب إطاعة الكتاب المقدس. ولما دعا قسطنطين إلى عقد مجمع ديني في نيقية سنة ٣٢٥م لحسم الخلاف، عقد هذا المجمع وأدان أريوس، وأمر الإمبراطور قسطنطين رئيس المجمع بنفيه إلى إليريا وإعدام كتبه وتحريم تداولها واضطهاد أتباعه من الأريوسيين. وعقد مجمع آخر سنة ٣٣٤م ألغى قرارات مجمع نيقية، وأمر الإمبراطور قسطنطين بعزل أثناسيوس من مركزه ونفيه إلى غالة. على أن آريوس ما لبث أن توفي سنة ٣٣٦م، وتوفي بعده قسطنطين بسنة، واستمر الخلاف بين أتباع الأثناسيوسية والآريوسية بعد ذلك. وعقد مجمع مسكوني ثالث هو مجمع القسطنطينية سنة٣٨١م في عهد الإمبراطور ثيودسيوس، وقد أعلن فيه بصف نهائية عدم شرعية (الآريوسية) وفرض عقوبات شديدة على أنصارها في جميع أنحاء الإمبراطورية، وبقيت الأثناسيوسية مذهب الدولة[١].

ووقع خلاف آخر بين المسيحيين نتيجة الاختلاف حول طبيعة المسيح وصفته، فمنهم من ذهب إلى أن للمسيح طبيعتين: إلهية وبشرية، ومنهم من ذهب إلى أن له طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية. وكامن الكنيسة المصرية تتبنى الرأي الأخير، الطبيعة الإلهية والبشرية اتحدتا في طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية، بينما تبنت كنيسة القسطنطينية الرأي القائل بعدم اتحاد الطبيعة الإلهية مع الطبيعة البشرية للمسيح، ومن ثم فهما منفصلان وله طبيعتان: بشرية وإلهية.

---

(١) راجع د/سعيد عاشور: السابق ٣٦-٣٩ ود/عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية ٦٩-٧١ وراجع آيدرس بل: مرجع سابق ٢١١-٢١٦ و٢٢٥-٢٢٦. ويعلق فضيلة الشيخ الغزالي -رحمه الله- في «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» ص٩٠ بأن آريوس قرر محاربة ما شاع في عصره من بدعة التثليث، وتحولت المسيحية عن التوحيد في أيام قسطنطين. وراجع ٨٢-١٠٢ للوقوف على أصل الثالوث الهندي واضطهاد الموحدين في العالم المسيحي.

فالخلاف كان حول طبيعة المسيح الإلهية ومكانته داخل الثالوث المقدس، حيث إنّ كنيسة القسطنطينية نادت أيضًا بأن السيدة مريم هي والدة المسيح البشر لا والدة المسيح الإله. وعقد مجمع خلقدونية في آسيا الصغرى سنة ٤٥١م بأمر من الإمبراطور مارقيان (٤٥٠-٤٥٧م) انتهى إلى إقرار مذهب الطبيعتين، وعد مذهب الطبيعة الواحدة كفرًا وخروجًا على الدين الصحيح، وطالب المجمع بأن تعتنق الكنائس المسيحية في الشرق للقول بالطبيعتين، وتبنت الإمبراطورية البيزنطية مذهب الطبيعتين منذ عصر جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) وبدأت تفرض هذا المذهب فرضًا في جميع أنحاء الدولة. وهكذا انتصرت كنيسة القسطنطينية على الكنيسة المصرية التي رفضت قرارات مجمع خلقدونية، ونادت بأن للمسيح طبيعة واحدة (المونوفيزت) وأطلقوا المسيحيين على أنفسهم الأرثوذكس أي أتباع الديانة الصحيحة، (وهي كلمة يونانية معناها أتباع الديانة الصحيحة) وعرفوا أيضًا باليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف مدينة الرها (أورفة الحالية بتركيا) الذي كان يقول بمذهب الطبيعة الواحدة في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، والذي زار مصر ضمن البلاد التي زارها في الشرق لتنظيم الكنائس القائلة بمذهب الطبيعة الواحدة. أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا باسم الملكانيين لأتباعهم مذهب الملك أو الإمبراطور، ويعرفون الآن بالكاثوليك. وبدأت الكنيسة المصرية تتعرض لسلسلة طويلة من الاضطهاد، بإصرار الأباطرة على فرض مذهب كنيسة القسطنطينية على الكنيسة المصرية والمصريين[١].

وبسبب تعرض المصريين لحركة الاضطهاد الواسعة من قبل الدولة البيزنطية هرب البعض إلى الصحراء كما فعل بنيامين فارًا من البيزنطيين، ولجأ البعض إلى الرهبنة والأديرة والمعابد المصرية الفرعونية المهجورة آخذين بالمقاومة السلبية. ويذكر

(١) سبقت الإشارة إلى هذا في التمهيد وبخاصة في المصادر المسيحية وراجع تبلر: فتح العرب لمصر ١/٢-٩، ود/أحمد عبد الرازق: مصر الإسلامية ١١-١٣، ود/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ١٩-٢٢، ود/عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية ٧٢-٧٨، ود/محمد جبر أبو سعدة: محاضرات في تاريخ مصر ٨-٩، ود/حسن محمود ودكتورة/منى حسن محمود: مصر الإسلامية ٦-١٦، ود/صبحي عبد المنعم/ تاريخ مصر ٢٣-٢٨، ود/محمد محمد أمين: محاضرات في تاريخ مصر ص٩، ومحمد حسونة: تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية ص٤٠-٤٢.

البعض أن المقاومة السلبية كان وراء تزعم مصر وريادتها في مجال الرهبنة، فمنذ القرن الرابع الميلادي، وعلى يد الراهب أنطونيوس والراهب باخوميوس وضعت أسس الرهبنة في مصر، ومنها انتشرت الرهبانية إلى مختلف أنحاء العالم [١].

ويمكن من خلال بعض النقول عن بعض المراجع الأوربية المترجمة تصوير الأحوال في مصر قبيل الفتح الإسلامي، ومن ذلك قول تبلر: «استهل القرن السابع والدولة الرومانية تلوح كأنها تتحدر من حال الاضمحلال إلى حال الذهاب والفناء»[٢] وقوله: «وفي الحق لم يكن في بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى حالًا من مصر. فقد سعى جستنيان جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة، فيدخلهم في ذلك المذهب ،،،»[٣]. وقوله: «فالحق أن الإنسان كلما أمعن في درس ذلك العصر -قبل الفتح الإسلامي- تبين له وزاد عنده وضوحًا أن مصر كانت فيه من أكثر البلاد هياجًا، وأيقن أن أمورها كانت في اضطراب يكاد يكون مطردًا منذ انعقد مجلس (خلقدونية) وما أكثر الأدلة على ذلك الاضطراب في ثنايا كتاب (حنا النقيوسي) وفي كتب أخرى مثل (تاريخ بطاركة الإسكندرية)»[٤]. ويقول غوستاف لوبون: «وكان قيصر الروم هرقل سيد مصر حينما حاول العرب فتح مصر بقيادة أحد رجال الخليفة الثاني، وكان أشد البؤس والشقاء مما تعانيه مصر التي غدت ميدان قتال للمذاهب النصرانية، وكانت هذه المذاهب تكثر في ذلك الزمن وتتلاعن وتتقاتل. وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية ونهكتها مظالم الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الكئيبين، وكانت تعد من يحررونها من أيدي قياصرة القسطنطينية منقذين، فحفظ هذا الشأن للعرب»[٥].

---

(١) د/عبد العزيز نوار: تاريخ مصر الاجتماعي ٨٩ وراجع ٨٨-٩٤، وعن الرهبنة راجع د/عبد الحفيظ محمد علي: «الحركة الديرية في مصر وأثرها على بلدان البحر المتوسط في القرنين الخامس والسادس الميلاديين» ضمن كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط ص١٠٧-١٤٠.

(٢) تبلر: فتح العرب لمصر ١/١.

(٣) تبلر: السابق ٣/١ وراجع حتى ٧.

(٤) تبلر: السابق ٢٦/١-٢٧. وراجع الفصل الثالث عشر ١٤٩-١٧١ وعنوانه «الاضطهاد الأعظم للقبط على يد قيرس» أي المقوقس الذي جمع بين السلطة الدينية والزمنية أي بين الحكم والسياسة وبين الدين حيث كان قيرس (المقوقس) بطريركًا على الإسكندرية وحاكمًا لمصر في الوقت نفسه.

(٥) غوستاف لوبون: حضارة العرب ٢٠٨ وراجع ٢٠٣-٢٤٢ وراجع أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ٧١-٧٤ و٨٦-٨٨ و٨٩-٩٠ و٩١-٩٢.

وبعد فتح المسلمين لمصر يقول يوحنا النقيوسي المعاصر للفتح: «ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة إسكندرية بعد هربه من الروم في العام ١٣، وسار إلى كنائسه وزارها كلها. وكان الناس يقولون: هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا كيرسي (قيرس- المقوقس) وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر»[١].

والخلاصة أن الشرق كان محتلًا من قبل الإغريق والرومان والبيزنطيين لمدة ١٠ قرون من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد إلى هرقل في القرن السابع الميلادي، وفي هذا الاستعمار تم قهر الشرق دينيًا وثقافيًا ولغويًا وسياسيًا واقتصاديًا. والنصارى إلى الآن في الكنيسة الأرثوذكسية يحتفلون بعصر الشهداء، أي اضطهاد الرومان للنصرانية، وعاشت المسيحية تحت هذا الاستعمار ستة قرون لم يحكمها فيها مصري واحد، وجاء الإسلام فحرر الشرق من هذا الاستعمار الغربي، حرر الأرض، وحرر الضمير، وترك الناس وما يدينون [٢].

الفتح الإسلامي لمصر:

أولًا: مقدمات الفتح:

كان لقاء المسلمين بالدولة البيزنطية المحتلة لمصر والشام والمغرب وغيرها أمرًا ما بدٌ منه، لأن الإسلام دين عالمي بشهادة المنصفين والمحايدين من المستشرقين أنفسهم [٣]، وعالمية الإسلام تفرض على أتباعه تبليغه إلى كل الأمم والشعوب وأصحاب الملل الملل والنحل، وما كان الجبروت والطغيان الروماني ليقبل تحرير الشعوب الخاضعة له

---

(١) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ص٢٢٠.

(٢) د/محمد عمارة: مجلة المنار الجديدة السنة ١٠ رجب ١٤٢٨هـ/يوليو ٢٠٠٧م ص١٥٩ وراجع حواره المهم ١٤٧-١٦٥ ومجلة منبر الإسلام السنة ٦٧ العدد ١٢ ذو الحجة ١٤٢٩هـ/ديسمبر ٢٠٠٨م ص٤٦-٤٨. ويذكر هنا أن اللغة اليونانية كانت هي اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالمة وحتى الفتح الإسلامي، ولم تكن اللغة المصرية هي اللغة الرسمية. د/سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة ١٣ وراجع حتى ١٨. وراجع الشيخ الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص١٦٦-١٧٧.

(٣) راجع هذه الشهادات في كتاب (الرحمة المهداة) للمؤلف ص١٣٦.

عقليًا ودينيًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، إذ إنّ المستعمر الروماني ضن على المصريين بالحرية الدينية في إطار الدين الواحد، فهل يقبل دينًا جديدًا، بعقيدة جديدة وتعاليم جديدة تخالفه وتناقضه، وترفض ما دخل على النصرانية من تحريف وتشويه وزيادة ونقص؟. فضلًا عن دعوة الإسلام العامة إلى تحرير الشعوب المغلوبة من كل قيد ينافي الفِطر السليمة، والعقول القديمة. ولذلك دار القتال بين المسلمين والروم، بعد رفض الدولتين الكبيرتين: دولة الروم والفرس للإسلام.

ويطرح فضيلة الشيخ الغزالي (١) –رحمه الله– عدة أسئلة على المتعصبين الذين يستنكرون على المسلمين فتوحاتهم وتحريراتهم للشعوب والبلاد المحتلة لآماد طويلة وقرون عديدة فيقول: «هل كان يعقل أن يعطي الرومان حق البقاء والامتداد لدين يقوم على التوحيد وهم الذين قضوا بالقوة على مبدأ التوحيد من قبل؟ وذلك بعد أن قضى أسلاف الإمبراطور «هرقل» على مذهب التوحيد في أنحاء الإمبراطورية، وفرضوا الكثلكة التي حاربت كل المذاهب. وهل صدور لرومان تتسع لمساجد يذكر فيها اسم الله، وهم الذين انتزعوا الكنائس من مسيحيين أنفسهم؛ لأنهم خالفوهم في تقرير العلاقة بين أطراف الثالوث؟»

إنّ دعوة الإسلام إلى رد الحرية والكرامة إلى الشعوب المغلوبة والأوطان المسلوبة كان الدافع الرئيسي لأن يصطدم مع الدولتين الكبيرتين اللتين تقتسمان الأرض والعباد بينهما، وتحكمان الأمم أسوأ حكم.

وفيما يتصل بمصر خاصة، فقد وردت في القرآن الكريم ثمانية وعشرين موضعًا، وقيل بل أكثر من ثلاثين موضعًا، كناية أو تصريحًا (٢). وكتب النبي صلى الله عليه وسلم رسالة إلى عظيم القبط المقوقس يدعوه فيها إلى الإسلام في السنة السادسة للهجرة، ضمن ما كتب من رسائل إلى ملوك ورؤساء وأساقفة العالم في ذلك الوقت. وكان من ثمار رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس صاحب مصر تقوية

---

(١) راجع الشيخ الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ١٠٥–١٠٦.

(٢) راجع هذه الآيات لدى ابن الكندي: فضائل مصر المحروسة ٧–٩ وابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها ٣–٥ وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ٧١–٧٤ وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ١ ص٤–٦.

وشائج العلاقة بين الإسلام ومصر بزواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة (مارية) المصرية ابنة المنيا وإنجابها لإبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم، فنشأ رحم بين الإسلام ومصر، إضافة إلى الرحم التي نشأت بزواج إبراهيم عليه السلام بهاجر المصرية. يقول ابن الكندي: «فالعرب المسلمون كافة لهم نسب بمصر من جهة أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين، والقبط أخوالهم»(١).

ورويت عدة أحاديث (٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تستحث على فتحها وتحريرها من المغتصب الروماني، وتوصي بأهلها خيرًا، أصحها وأقواها قوله صلى الله عليه وسلم: «ستفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم ذمة ورحمًا» رواه مسلم. وقوله صلى الله عليه وسلم: «ستفتح عليكم بعدي مدينة يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا» رواه مسلم. وقوله صلى الله عليه وسلم: «الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله» رواه الطبراني في الكبير عن أم سلمة رضي الله عنها.

ثانيًا: التفكير في الفتح (٣):

يعود التفكير في فتح مصر إلى الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي خبر مصر وأحوالها في الجاهلية قبل الإسلام عندما دخلها تاجرًا (٤)، ووردت

---

(١) ابن الكندي: فضائل مصر المحروسة ١٠ وراجع قولًا لابن عمر مشابهًا للقول السابق عند ابن زولاق: فضائل مصر ص٩.

(٢) راجع هذه الأحاديث عند ابن عبد الحكم: تاريخ مصر وأخبارها ١٣-١٥ وراجع حتى ٤٦ وابن الكندي: السابق ٩-١١ وابن زولاق: السابق ٦-٨ وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٧٦-٧٧ والسيوطي: حسن المحاضرة ١٧/١ وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم١ ص٦-٧.

(٣) من الغريب أن يدعي النصراني اللبناني جاك تاجر في كتابه (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢). وهو كتاب مليئ بالشبهات- أن العرب لم يجدوا لهم مبررًا سياسيًا لفتح مصر.

(٤) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٣٦ والسيوطي: السابق ٩٤-٩٦ وابن ظهيرة: السابق ٥٧-٥٨ وابن إياس: السابق ٩٢-٩٣. وعن العرب في مصر قبل الفتح الإسلامي راجع د/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ٢٩-٣٣.

روايات بتنبؤات بحكم مصر خلال زيارته لها. ولما أتم المسلمون فتح بلاد الشام سنة ١٥هـ/٦٣٦م [١] التي كان عمرو بن العاص أحد فاتحيها، وكان مكلفًا بفتح فلسطين، وتمكن من تحرير مدنها: يافا ونابلس وعسقلان والرملة وعمواس وغيرها، وحاصر القائد الداهية الأرطبون قائد الروم ببيت المقدس، فهرب إلى مصر تاركًا عبء الدفاع عنها لبطريرك المدينة صفرنيوس الذي أعيته الحيل ورغب في الصلح وتسليم المدينة إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، فسار عمر رضي الله عنه إلى بلاد الشام والتقى بالجابية (الجولان الحالية) عمروًا الذي شرح له خطورة انسحاب قائد الروم إلى مصر، وإمكانية استغلال مواردها لضرب المسلمين بالشام.

وقد شرح الله قلب عمر لفتح مصر بعد الفراغ من تسليم بيت المقدس الذي حدث في سنة ١٥هـ/٦٣٦م أو ١٦هـ/٦٣٧م كما مر.

وفي مجلس الشورى الذي عقد بالجابية كان مما قاله عمرو رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم»[٢]. ولم يزل عمرو يعظم أمرها وخطرها على فتوحات المسلمين بالشام، ويهون عليه فتحها، حتى استجاب لذلك عمر، بعد طول تخوف، وعقد له على أربعة آلاف رجل يماني، وقيل: بل ثلاثة آلاف وخمسمائة [٣].

وتشير الروايات إلى أن عمرو بن العاص تقدم بأصحابه من فلسطين إلى مصر بغير إذن من عمر [٤]، أو أن عمر بن الخطاب لتردده في الفتح طلب من عمرو أن

---

(١) وقيل سنة ١٦هـ/٦٣٧م بفتح بيت المقدس. ابن الأثير: الكامل ٤٩٩/٢. وذكر البلاذري أن فتح بيت المقدس كان سنة ١٧هـ. فتوح البلدان ١٤٤.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٧ وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٩٤-٩٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة طبعة دار الكتب العلمية «واعتمدت عليها في الجزء الأول فقط وعلى طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة في باقي الأجزاء» ٩/١-١١، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم١ ص٩٤، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٠٦/١.

(٣)راجع المصادر السابقة والصفحات نفسها وراجع المقريزي: الخطط طبعة بولاق ٢٨٧/١-٢٨٨.

(٤) المقريزي: السابق ٢٨٧/١-٢٨٨، وابن عبد الحكم: السابق ٤٧-٤٨، وراجع الكندي: ولاة مصر ٣٠-٣١.

يسير بجيشه نحو مصر، حتى يستخير الله، ويرسل إليه رسالة، إن وصلته تأمره بالعودة عن الفتح قبل دخول مصر رجع عنها، وإلا واصل السير، فوصل رسول برسالة عمر قبل أن يبلغ مصر، فأدركه وهو برفح فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل: إنها من أرض مصر، فأشهد المسلمين على وصوله إلى قرية من مصر، ولم يصل كتاب عمر إليه إلّا بعد دخولها، فسار على بركة الله [١].

ولا شك أن هذه الروايات تتناقض مع ما اشتهر به قادة المسلمين وخليفتهم عمر من تمحيص للأمور ودقة، إذ لا يعقل أن يكون الفتح الإسلامي لمصر عملًا عفويًا أو موضع تردد، وإن تلك الروايات إن صحت، فقد تكون من باب خديعة الروم وإخفاء الأهداف الحقيقية من مسير قوات ابن العاص نحو مصر، إذ إن اختيار الخليفة لهذا القائد الخبير بدروب مصر وأحولها اختيار يدل على أن خطة الفتح الإسلامي لمصر في أيدي أمينة، وعلى دراية بالأهداف الحقيقية، وهي أن حماية الدولة الإسلامية الفتية واتساع رقعة دار الإسلام باتت ترتبط بفتح مصر، وإخراج أهلها من مظالم الروم إلى نور الإسلام وطمأنته وتعاليمه الحنيفة [٢].

فهذه الروايات تحتاج إلى مزيد من التمحيص، عرضًا على العقل وعرضًا على شخصية عمر بن الخطاب الحازمة، حاسمة القرار غير المترددة. ويمكن أن نقيس هذا الأمر باستئذان عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب بعد أن أتم فتح مصر في مواصلة فتح إفريقية (المغرب) فقد بادر عمر بن الخطاب بلا تردد في رفض هذا الأمر بحسم وكتب إلى عمرو بذلك [٣]. ويدل على اختراع هذه الروايات أن وصول الخليفة عمر إلى المدينة وإرساله الكتاب إلى عمرو وهو على حدود مصر يستغرق وقتًا أكثر من

---

(١) راجع المصادر السابقة والصفحات نفسها في هامش (١).

(٢) د/إبراهيم العدوي: مصر الإسلامية ١٧ وراجع من ص٥.

(٣) د/طاهر راغب: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية ص٢١، وراجع عدة مواقف أخرى استأذن فيها عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب في كتاب «دولة الخلافة الراشدة» للمؤلف ص١٤٠.

الوقت الذي يقضيه عمرو من غزة إلى العريش، ويزول هذا الاعتراض إذا عرفنا أن الخليفة لم يقم بفلسطين إلا ريثما عقد المعاهدة مع أهل بيت المقدس[١]. ثم إن مثل تلك الخطة كفيلة –إذا قفل عمرو راجعًا دون فتح مصر– بأن تحط من هيبة القوات الإسلامية التي ملأت انتصاراتها الآفاق، وأن تظهر المسلمين بمظهر أناس يرتجلون خططهم، وهذا ما لا تؤيده حوادث معاركهم وفتوحاتهم، فالحملة التي وجهت لفتح مصر سارت لتحقيق هدف خاص مهم، لا يخالطه التردد أو الريب[٢].

ولعل التكتم والسرية الذي صاحب انطلاق جيش عمرو بن العاص من قيسارية في فلسطين [٣] إلى عسقلان فغزة فرفح ثم العريش، بدليل قول ابن عبد الحكم: «ثم سار بهم ليلًا»[٤] وقول ابن إياس: «فسار عمرو في جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس»[٥] أقول: لعل هذا الحذر هو الذي أشاع مثل هذه الروايات، وأوحى بهذه القصص الوهمية. ويؤيد ما ذهبت إليه ما قيل لعمرو برفح «أنت تريد أن تدهم مصر على حين غفلة من أهلها»[٦] ووجود جواسيس يتحسسون أخبار وتحركات عمرو[٧].

ويلخص أحد الباحثين أهمية الفتح الإسلامي لمصر في النقاط الآتية:

١– إن هذا الفتح كان طبيعيًا لأن مصر الامتداد الجنوبي لفلسطين [٨].

٢– الخشية من أن يتخذ الرومان مصر قاعدة لاسترداد بلاد الشام التي أزاح المسلمون سلطانهم عنها، خاصة بعد فرار الأرطبون القائد الروماني الداهية إليها.

---

(١) د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ص٢٨ وراجع من ٢٥.

(٢) د/محمد جبر أبو سعدة: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية ص١٥، وراجع د/مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية ١/١٥–١٦.

(٣) من أعمال فلسطين على ساحل البحر المتوسط. واختلف في تاريخ فتحها وفيمن فتحها ولعل ذلك يعود إلى فتحها أكثر من مرة. وراجع ياقوت: معجم البلدان ٤/٤٢١–٤٤٢، والبلاذري: فتوح البلدان ١٤٦–١٤٨، والواقدي: فتوح الشام ٢/٩–١٦.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ص٩٤.

(٦) راجع الواقدي: فتوح الشام ٢/٢٦.

(٧) راجع الواقدي: السابق ٢/٢٧.

(٨) تتبع د/محمد حلمي أحمد –عليه رحمة الله– ارتباط مصر بالشام طوال التاريخ في كتابه (مصر والشام والصليبون) ١١–١٦ وذكر أم مصير الإقليمين وقدرهما واحد.

٣- الاستيلاء على مصر وثغورها البحرية يمكن المسلمين من إخضاع مدن الشام الشمالية الواقعة على ساحل البحر المتوسط، والتي كانت لا تزال تقاوم المسلمين.

٤- سهولة هذا الفتح، لأن الشعب المصري إن لم يساعد العرب فلن يقاومهم لما كان يلقاه من عنت الرومان [١].

إن الناظر إلى المنطقة من الشام إلى المغرب، يجدها منطقة غير مغلقة ولا تحدها حدود جغرافية فاصلة، فكأن هذه المنطقة من وجهة النظر العسكرية منطقة واحدة، وهي واقعة تحت سيطرة قوة واحدة، هي قوة البيزنطيين، فكان التعرض لجزء منها بمثابة التعرض لمكان واحد وعدو واحد، ومن هنا لزم النظر تجاه مصر عقب تمام الفتوح في الشام [٢].

واختيار عمرو بن العاص لفتح مصر اختيار صادف أهله، لمعرفته بمصر وأحوالها وظروفها، وهو ما ورد في حديثه لعمر بن الخطاب في الجابية: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالًا وأعجزها عن القتال والحرب»[٣].

ويقصد عمرو بالعبارة الأخيرة حال مصر العسكري في أواخر العصر البيزنطي لها. ويذكر الكندي[٤] أن عمرو بن العاص ذكر لعمر رضي الله عنهما أنه عليم بمصر وطرقها. وأن عمرًا أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل.

فعمرو بن العاص على بينة بأحوال مصر في الفترة السابقة على الفتح وكان وهو في بلاد الشام يجمع الأخبار العسكرية عن أحوال مصر، كما أن عمرًا اشتهر في الشام ببراعته في قتال الحصون الساحلية، وقد استطاع أن يستولي على المدن الساحلية المطلة على شرق البحر المتوسط، فهو القائد المسلم الوحيد الذي استطاع أن يستولي على الإسكندرية، وأن يواجه الحصون البيزنطية المنتشرة في مصر[٥].

---

(١) راجع د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٧.

(٢) د/طاهر راغب: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية ص٢٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٧، والكندي: ولاة مصر ص٣٠، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/١ وابن إياس: بدائع الزهور ٩٤ والسيوطي: حسن المحاضرة ١٠٦/١.

(٤) الكندي: ولاة مصر ٣٠.

(٥) د/حسن محمود: مصر الإسلامية ص٢٠.

وكان اختيار نوع الجنود الذين عهد إليهم بالقيام بمهمة الفتح اختيارًا موفقًا أيضًا، فأغلب قوات عمرو الأولى كانت من قبيلتين (غافق وعك) وهاتان القبيلتان من القبائل اليمنية، واختيار اليمنيين لهذا الفتح لا يخلو من أسباب كثيرة، منها: أن أهل اليمن لهم تراث حضاري قديم، ولهم خبرة بحصار الحصون والقلاع ومعرفة كاملة بفنون البحر وصناعة السفن والدفاع عن القواعد العسكرية، وهؤلاء الجنود أظهروا شجاعة في ميدان الشام وخصوصًا في فتح الحصون الساحلية، فليس كثيرًا أن يعملوا على نقل ميدان الخبرة اليمنية من الشام إلى مصرن وظهر –بعد ذلك– أن الجنود اليمنيين كانوا هو طليعة الحركة الحضارية في مصر وغيرها في ظل الإسلام(١).

بقي حديث عن عدد الفاتحين المتجهين لتحرير مصر، وآخر عن تاريخ بداية الفتح. أما فيما يتصل بعدد الفاتحين فإن المصادر الإسلامية أشارت إلى أن عددهم كان حوالي أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة(٢)، وانضم إليه بجبل الحلال(٣) راشدة وقبائل من لخم(٤). وبعد فتح أم دنين(٥) «المقس»، طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب المدد، فأمده بأربعة آلاف، تمام ثمانية آلاف(٦). ولعل أحوال مصر

---

(١) د/حسن محمود: السابق ٢١–٢٢.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٧، والبلاذري: فتوح البلدان ٢١٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/١، وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٩٥، وابن إياس: بدائع الزهور ٩٤.

(٣) جبل في طريق مصر من الشام دون العريش إلى الشام، وكان من منازل بني راشدة. ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٢٨٠–٢٨١.

(٤) ابن عبد الحكم: السابق ٤٨، وياقوت: السابق ٢٨١، والمقريزي: الخطط ٢٨٨/١.

(٥) كانت من قرى مصر وتقع على شاطئ النيل وقت أن كان يجري لعهد الدولة الفاطمية في المكان الحالي لشارع عماد الدين، ثم شارع رمسيس من النهاية الشمالية لشارع عماد الدين ثم ميدان محطة مصر وجامع الفتح ثم شارع غمرة إلى فم الترعة الإسماعيلية. محقق الفضائل الباهرة هامش (٥) ص٩٥.

(٦) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٥٠ وذكر أنه كان على كل ألف رجل مقام الألف وهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد، وقيل بل خارجة بن حذافة الرابع. وقال عمر بن الخطاب: «أعلم أن معك اثنى عشر ألفًا ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة» وراجع الكندي: ولاة مصر ٣٢، وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٩٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣/١، والمقريزي: الخطط ٢٨٨/١–٢٨٩، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٠٧/١–١٠٨، وابن إياس: بدائع الزهور ٩٥.

قيل فتحها هي التي أغرت المسلمين بفتحها من خلال العدد القليل، الذي تضاعف قبل حصار حصن بابليون[١] حيث ظهرت بوادر المعركة الكبرى وهي معركة حصن بابليون الذي يعد من أهم معاقل البيزنطيين بمصر، والانتصار عل البيزنطيين عنده وفتحه بداية النهاية الحقيقية للحكم البيزنطي لمصر.

أما فيما يتصل ببداية تاريخ فتح مصرن فإنّ خبر جدب أرض الحجاز الذي جاع الناس بسببه جوعًا شديدًا، وسمي عامه بعام الرمادة؛ لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهًا بالرماد– حاسم في تحديد بدء الفتح الإسلامي لمصر؛ وعام الرمادة كان في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثماني عشرة للهجرة، وكان لمصر دور في التوسعة على أهل الحرمين الشريفين[٢]. ومعنى هذا أن الفتح الإسلامي لمصر كان قبل سنة ١٨هـ على الأقل، ولذلك فإنّ المؤرخ الطبري[٣] ذكر عدة آراء في تاريخ فتح مصر منها: أنها فتحت سنة عشرين للهجرة، ومنها قول سيف إنها فتحت في سنة ست عشرة. ووردت لدى ابن كثير الآراء السابقة نفسها[٤]. وأورد الطبري أيضًا رواية لسيف فيها «ولما كان ذو القعدة من سنة ست عشرة، وضع عمر رضي الله عنه مسالح مصر على السواحل كلها...»[٥]. أي وضع جندًا بالسلاح لمراقبة وحفظ سواحل مصر. كل هذا يدعوني لأن أذهب إلى أن الفتح بدأ عقيب فتح بيت المقدس، أي في سنة خمس عشرة للهجرة أو ست عشرة للهجرة، وأرجح أن فتح مصر بدئ في التاريخ الأخير، لأن التسلسل الواقعي للحوادث يقتضي أن تبدأ فتوحات مصر بعد فتح القدس مباشرة. وقد

---

(١) حصن بابليون بُني في عهد بُخْتُنصَّر أول غاز فارسي حين غزا مصر في القرن السادس قبل الميلاد، وجدده الإمبراطور الروماني تراجان عام ١٠٠م. وبقايا هذا الحصن موجودة الآن في مصر القديمة بجوار كنيسة مارجرجس، ويعرف جزء منه باسم قصر الشمع وفيه المتحف القبطي والكنيسة المعلقة. وكان مجرى النيل الذي يعبره الآن كوبري الملك الصالح يتسع شرقًا إلى أحد أبواب الحصن. راجع د/ إبراهيم العدوي: مصر الإسلامية ٢٢هامش (١) ود/ محمد رفعت: تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية٤٣. ويذكر هنا أن المقريزي في (الخطط) ٢٨٦/١–٢٨٧ قد عرّف بقصر الشمع تعريفًا مفصلًا.

(٢) راجع ابن الأثير: الكامل ٥٥٥/٢– ٥٥٧، والذهبي: العبر ٢٠/١، والطبري تاريخ الطبري ٩٦/٤، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٥٦/١–١٥٧.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ١٠٤/٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية مجلد ١٣٣/٤ وراجع ١٢٨.

(٥) الطبري: السابق ١١١/٤.

أشار ابن الأثير [١] في حوادث سنة ٢٠هـ إلى أن مصر فتحت في قول البعض في هذه السنة وكذلك الإسكندرية، ثم قال: «وقيل: فتحت مصر سنة ست عشرة في ربيع الأول، وبالجملة فينبغي أن يكون فتحها قبل عام الرمادة؛ لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القُلزم من مصر إلى المدينة، والله أعلم، وقيل غير ذلك».

ثالثًا: خطوات الفتح[٢]:

لم يكد عمرو بن العاص يظفر بموافقة عمر على فتح مصر حتى انطلق تجاه مصر من قيسارية بفلسطين، وذلك على رأس جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل، وسار في طريق الصحراء الشرقية وهي الطريق التي سار فيها من قبل إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وقمبيز ملك فارس والإسكندر والفرس ثانية من وقت قريب، وهي نفس الطريق التي كان يسلكها التجار وحجاج بيت المقدس النصارى من مصر إليها.

ووصل الجيش الإسلامي إلى العريش، فاستولى عليها بسهولة، حيث كانت خالية خاوية ليس بها من يدافع عنها، واحتفل هناك بعيد الأضحى ومن العريش تابع عمرو زحفه الخاطف إلى «بلوز» أو «بلوزيم» القديمة، شرقي بور سعيد الحالية[٣]، ومفتاح

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٥٦٤/٢ وراجع حتى ص..... .

(٢)راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٧-٦٧، والواقدي: فتوح الشام ٢١/٢-٥٩، والكندي: ولاة مصر ٣٠-٣٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/١-٣٢، وابن كثير: البداية والنهاية مجلد ٤ ص١٣٠-١٣٥، والمقريزي: الخطط ٢٨٥/١-٢٩٥، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٠٦/١-١٣١ و١٤٣، وابن إياس: بدائع الزهور ٩٤-١٠٧، وراجع البلاذري: فتوح البلدان ٢١٤-٢٢٥، وياقوت: معجم البلدان ١٣٧/٥-١٤٣، وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٢٠ و٩٣-١٠٠ و١١٢-١١٣، ويوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ١٨٨-٢٢٢.

(٣) وهي طريق داخلية صحراوية، لكنها مأمونة من جانبين: أولهما: بعدها عن الساحل وخطر الأسطول البيزنطي، وثانيهما: أنها طريق مأهولة عامرة بعدة قرى، لا يعدم السائر فيها ببين موضع وآخر الماء ولا الزاد. د/طاهر راغب: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية ٢٣، وراجع د/العدوي: مصر الإسلامية ١٧-٢٨، ود/مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٨-٤٢، ود/حسن محمود: مصر الإسلامية ص٢٤-٣٥، ود/أحمد عبد الرازق: مصر الإسلامية ٢٤-٣٣، ود/مصطفى بدر: مصر الإسلامية ١٧-٣٢، ومحمد رفعت ومحمد حسونة: معالم تاريخ العصور الوسطى ٥١-٥٤، ومصر الإسلامية ٤٣-٤٦، ود/حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٢٣٥/١-٢٤٤، ود/محمد محمد أمين: محاضرات في تاريخ مصر في العصور الوسطى ١١-١٦، ود/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ٦٦-١١٤، وتبلر: فتح العرب لمصر ١٧٢/١-٢٨٣، وعبد المنعم حمادة: مصر والفتح الإسلامي ٤٣-٦٥.

مصر من الشرق، وكانت مدينة بلوز التي سماها المسلمون «الفرما» مدينة حصينة قوية وقتذاك، تقع على بعد ميل ونصف ميل من البحر المتوسط، وكان لها مرفأ بحري متصلًا بالمدينة بخليج عميق، يجري من البحر. وزاد في منعة هذه المدينة قربها من مصب أحد فروع النيل القديمة انتسب إليها فعرف بـ «الفرع البلوزي». فصارت بلوز تمثل مفتاح مصر الشرقي بسيطرتها على مدخل الطريق الصحراوي، وامتداد فرع النيل البلوزي. لكن هذه المنعة لم تحل دون سقوطها بسبب استبسال المسلمين في القتال، واعتمادهم على المفاجأة الحربية،حيث كان من بالمدينة من الرومان يخرجون لمقاتلة المسلمين خارج الأسوار، ثم يفرون إليها، وفي يوم سبقهم المسلمون إلى باب فملكوه، وحاولوا دون غلقه، فاقتحم الحصن المقاتلون المسلمون، واستولوا عليه، وذلك بعد حصار دام شهر أو شهرين.

ويذكر ابن عبد الحكم[١] أن المقاومة الحقيقية للفتح الإسلامي لمصر بدأت عند الفرما «فتقدم عمرو بن العاص، فكان أول موضع قوتل فيه «الفرما» قاتلته الروم قتالًا شديدًا، نحوًا من شهرن ثم فتح الله على يديه».

وانسحاب البيزنطيين بعد الهزيمة عند الفرما إلى الجنوب كان طبقًا لخطة بيزنطية، تعرقل الزحف، وتركز المقاومة على حصن بابليون، إضافة إلى الاعتماد على سلسلة من التحصينات العسكرية كانت في ذلك الوقت من أروع ما أنتجه الفكر العسكري، وكانت هذه التحصينات العسكرية تتألف من ثلاثة أنواع:

١- من الحصون الفرعية الممتدة من شرق الدلتا من موقع بور سعيد[٢] الحالي إلى حصن بابليون على طول الحدود الشرقية.

٢- قاعدة «بابليون» التي تتألف من الحصن نفسه ثم من جزيرة الروضة، باعتبارها قاعدة لأسطول نهري تتعاون مع الحصون البرية في الدفاع عن هذا المركز الاستراتيجي.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٨، والمقريزي: الخطط ٢٨٨/١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/١.

(٢) يذكر هنا أنه كان بالإمكان اختراق النيل بالسفن من الفرما إلى قلب مصر عبر الفرع البلوزي.

٣- الحصون الداخلية المتناثرة في الدلتا والصعيد، وهي لعرقلة الزحف، إذا سقطت الحصون الفرعية والقاعدة الكبرى، ومن أهم الحصون الداخلية في الدلتا حصن نقيوس والكريون. أما في الصعيد فحصن البهنسا والفيوم وأسوان.

هذا بالإضافة إلى الشق البحري من الخطة البيزنطية، وهو الاعتماد على أعظم قاعدة في البحر المتوسط وهي الإسكندرية بأسوارها العريضة وحصونها المنيعة ثم الأسطول البيزنطي الذي كان في ذلك الوقت أعظم قوة بحرية في العالم(١).

واستيلاء عمرو بن العاص على الفرما يعد عملًا عسكريًا جيدًا، فقد افتتح مدينة حصينة قوية: وهي أول منطقة عسكرية بيزنطية من ناحية الشرق، فتكون بذلك مفتاح الفتح العسكري للمنطقة وهمزة الوصل بين الداخلين إلى مصر وقواعدهم في الشام أو مركز الخلافة الإسلامية، المدينة المنورة. وكان ترك المسافة من حد الشام إلى الفرما بدون مناطق عسكرية قوية أمرًا مقبولًا عندما كانت الشام ومصر معًا تحت حكم البيزنطيين، لكن هزيمة هؤلاء البيزنطيين في الشام هزتهم فلم يهتموا بتحصين المنطقة الممتدة من الشام إلى الفرما(٢).

ولما كان جيش عمرو قليل العدد، فقد رحل عن الفرما دون أن يترك حامية، اكتفاء بما تم هدمه من حصون وأسوار، حتى لا يستفيد بها العدو لو عاد إلى تملكها.

وقد بدأ تبلر من فتح المسلمين للفرما في وصف المقوقس حاكم مصر بالخيانة، وتابع هذا الوصف بعد ذلك عند طلب المقوقس الصلح والمفاوضة مع المسلمين في أثناء حصارهم لحصن بابليون (٣). وادعى تبلر أن المقوقس كان يطمع في الانفصال ببطرقة الإسكندرية عن القسطنطينية، ولذلك لم يخلص في الدفاع عن مصر، على أساس وجود اتفاق بينه وبين المسلمين. ويبدوا في كلام تبلر تحسره على فتح المسلمين لمصر، هذا التحسر الذي جعله يتبنى رأيًا غريبًا لا يمكن أن يقول به أي ساذج أو مجدد الفكر. وواصل تبلر آراءه الغريبة بالتأكيد على نفي أي عون وأية مساعدة من

---

(١) د/حسن محمود: مصر الإسلامية ٢٣-٢٤.

(٢) د/طاهر راغب: مصر الإسلامية ٢٥-٢٦، وراجع د/العدوي: مصر الإسلامية ١٩.

(٣) تبلر: فتح العرب لمصر ١/١٨٨-١٨٩ و ٢٢١ و٢٢٨-٢٢٩ و٢٧٥ و٢/٢٩٠ و٣٠٩ و٣١٥.

أي نوع قدمها المصريون النصارى للفاتحين المسلمين، حتى إنه بدأ وكأنه صنف كتابه للنيل من المقوقس أولًا، ولنفي أي دور للأقباط بتقديم المساعدات للفاتحين المسلمين[١]، على الرغم من النص على ذلك من خلال بعض المصادر الكنسية، كما سبق، عند تناول «تاريخ مصر» ليوحنا النقيوسي.

إنّ ابن عبد الحكم يحدثنا صراحة عن موقف القبط من الفاتحين المسلمين، فيقول: «وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له: أبو بنيامين، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو، فيقال: إن القبط كانوا الذين بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا»[٢].

فتح شرق الدلتا:

بادر عمرو بن العاص بعد فتحه للفرما بالتوجه نحو الجنوب الغربي، حتى وصل إلى المكان الذي تشغله اليوم «القنطرة» على قناة السويس. ثم بدأ السير محاذيًا الصحراء متجهًا ناحية مدينة الصالحية، لتكون الصحراء حصنه الذي يلجأ إليه وقت الشدة، وليتجنب عبور القنوات وفروع النيل، إذ لم يكن معهم من وسائل بناء القناطر شيء [٣]. واختيار عمرو بن العاص مكان (القنطرة الحالية) ليواصل منه زحفه اختيار موفق لأنه أصلح لمفاجأة الروم داخل البلاد، إذ خالف عمرو عند هذا المكان من سار قبله من الغزاة لمصرن مثل قمبيز ملك فارس –وغيره– الذين ساروا من الفرما إلى تل بسطة «الزقازيق حاليًا» فآثر عمرو مخالفة هذا الطريق وعدم الزحف على شمال الدلتا، وفضل طريق يؤدي إلى مدينة الصالحية، لأنه يهيئ للقوات الإسلامية البقاء إلى جانب الصحراء والاعتصام بها إذا دهمها خطر مفاجئ. وهذا الطريق هو الطريق الذي تسلكه ترعة الإسماعيلية اليوم، وكان هذا الطريق أقصر الطرق للوصول إلى حصن بابليون معقل الروم الرئيسي في البلاد المصرية. وقد مر عمرو بن العاص

---

(١) راجع تبلر: السابق ١٨٧/١ و١٩٠–١٩١ و٢٠٧ و٢٢١ وراجع ٢٤٩ و٢٧٦ و٣٠٩/٢ و٣١٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/١–١٢، والمقريزي: الخطط ٢٨٨/١، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٠٧/١.

(٣) لاحظ تخطيط عمرو بن العاص وتنظيمه للفتح، ومعرفة طبيعة أرض مصر.

بجيشه بمديرية الشرقية ثم منطقة القصاصين والتل الكبير التي كانت تسمى بمدينة القواصر، ثم وصلت القوات الإسلامية إلى مدينة كبيرة، يجتمع فيها الروم، وتمثل حصنًا فرعيًا يشبه حصن الفرما وهي مدينة بلبيس(١).

وتوقف عمرو عند بلبيس حوالي شهر «أتي بُلْبَيْس، فقاتلوه بها نحوًا من شهر حتى فتح الله عليه»(٢). وكان انتصار المسلمين عند بلبيس (٣) على حامية بيزنطية يقودها أرطبون حاكم القدس الذي فر منها وجمع جنود البيزنطيين في بلبيس، فقتل منهم ألف قتيل، وأسر ثلاثة آلاف أسير، «وقتل من العرب فيه –القتال ببلبيس– عدد ليس بالقليل»(٤). وبذلك أصبح الطرق ممهدًا نحو رأس الدلتا وحصن بابليون، فواصل عمرو بن العاص زحفه حتى بلغ قرية على النيل شمال حصن بابليون هي «أم دُنَيْن» (موضعها الآن الأزبكية) كانت ميناء مهمًا على النيل ومعقلًا لحامية بيزنطية، التقى بها عمرو بن العاص وناجزهم مناجزة شديدة «ثم مضى –عمرو بن العاص– لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه قتالًا شديدًا، وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمده، فأمره بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فقاتلهم»(٥). وتمكن عمرو من الاستيلاء على قرية (أُم دُنَيْن) بعد بضعة أسابيع من الحصار والقتال.

---

(١) راجع تبلر: فتح العرب لمصر ١٨٩/١–١٩٠، ود/العدوي: مرجع سابق ١٩–٢٠، ود/حسن محمود: مرجع سابق ٢٥، ود/عبد الصبور شاهين: مرجع سابق ٦٨، ود/مصباح: مرجع سابق ٣٠–٣١، واعتمد هؤلاء الأساتذة على تبلر.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٩، والمقريزي: الخطط ٢٨٨/١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/١.

(٣) ورد أن عمرو بن العاص وجد ابنة المقوقس حاكم مصر في بلبيس وتدعى أرمانوسة كانت في طريقها إلى قيصرية لتزف إلى قسطنطين بن هرقل، فلما علمت بحصار المسلمين لتلك المدينة عادت إلى مصر، حيث وقعت في قبضة المسلمين بعد فتح بلبيس، فأرسلها عمرو بن العاص معززة مكرمة إلى أبيها حاكم مصر في (حصن بابليون) مع قيس السهمي، فسر المقوقس بقدومها. راجع الواقدي: فتوح الشام ٢٦/٢–٢٧، والمقريزي: الخطط ١٨٣/١–١٨٤.

(٤) تبلر: فتح العرب لمصر ١٩١/١.

(٥) ابن عبد الحكم: السابق ٤٩، والمقريزي: السابق ٢٨٨/١–١٨٩، وابن تغري بردي: السابق ١٣/١، وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٩٥. وهناك خلاف حول وصول مدد عمر بن الخطاب، هل وصل عند حصار أم دنين أم وصل عند حصار بابليون؟.

وينفرد تبلر برواية لم ترد في أي مصدر تاريخي إسلامي هي أن المسلمين حاولوا فتح الفيوم في الفترة التي كان فيها عمرو بن العاص ينتظر المدد من الخليفة عمر بن الخطاب، ليستولي على الأنعام التي أخذوا منها –كما يزعم– عددًا عظيمًا، واستولى المسلمون على مدينة البهنسا في هذا الزحف على الفيوم، وذلك قبل فتح حصن بابليون [١]. ويبدوا أن تبلر قد اعتمد على يوحنا النقيوسي الذي زعم استيلاء المسلمين على الفيوم قبل فتح حصن بابليون، وأن المسلمين –بزعمه– أراقوا بها دمًا غزيرًا[٢].

لكن المصادر الإسلامية ذكرت فتح الفيوم بعد الانتصار في معركة (هليوبوليس) (عين شمس) شمالي أم دنين، وبعد فتح حصن بابليون، ذلك أنّ المسلمين لم يكونوا على علم بمكانها لمدة سنة كاملة حتى دلوا عليها، فأرسل عمرو بن العاص من فتحها «فلم يكن عندهم قتال وألقوا –الروم– بأيديهم»[٣]. ولم يرد في أي مصدر تاريخي إسلامي خبر إغارة المسلمين على الفيوم قبل ذلك، وقتل عدد كبير من أهله.

والغريب أن عددًا من المؤرخين المحدثين أخذوا برأي تبلر دون أن يردد سبب محاولة فتح الفيوم [٤]، في حين أن باحثين آخرين [٥] ذكروا أن عمرو ابن العاص رأى ألا يترك جنوده بدون عمل حتى يصل المدد المطلوب، فعبر النيل إلى الضفة الغربية ليحصل على ما يلزم الجيش من مؤن وأعلاف، فاتجه جنوبًا إلى الفيوم للحصول على هذه المؤن اللازمة للجند منها، ومفاجأة الروم داخل مصر العليا، واستطلاع موقع حصن بابليون من الضفة الغربية للنيل، وقد استاق الجند المسلم ما كان يقابلهم من الأنعام، واستمروا في الزحف حتى بلغوا مدينة البهنسا، فاستولوا عليها عنوة، وقتلوا من فيها.

---

(١) راجع تبلر: فتح العرب لمصر ١/١٩٥–٢٠٠ وذكر ذلك أيضًا جلوب في «الفتوحات الكبرى». راجع هذا في «الفتوحات العربية الكبرى في ميزان الإسلام والتاريخ» للدكتور محمد حنفي ص١١٦–١١٧.

(٢) راجع يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ١٩٤ و١٩٥.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١١٥، وراجع البلاذري: فتوح البلدان ٢١٨، والسيوطي: حسن المحاضرة ١/١٤٣.

(٤) منهم: د/أحمد عبد الرزاق: مرجع سابق ٢٥.

(٥) منهم: د/العدوي: مرجع سابق ٢٠، ود/مصباح: مرجع سابق ٣٢.

غير أن باحثين محدثين [١] ناقشا هذا الأمر مناقشة علمية، ورفضا رأي تبلر رفضًا تامًا، على أساس أن جند عمرو بن العاص لم يكن كثيرًا حتى يترك بعضه عن أم دنين وحصن بابليون، ويرسل بعضه إلى الفيوم، والسير نحو الجنوب فيه مخاطرة، ويعرض الجيش لهجوم الروم عليه من الشمال والجنوب في وقت واحد، أو أقل احتمال يصبح الجيش مهددًا بقطع الطريق بينه وبين المدد المنتظر. ومن غير المنطقي أن يبدد الجيش الإسلامي قوته ليفتح إقليمًا بعيدًا مثل إقليم الفيوم، خاصة إن هذا الإقليم واحة كبيرة في الصحراء الغربية، ليس له أية قيمة عسكرية حقيقية لتأمين وجودهم بمصر.

موقعة هيليوبوليس (عين شمس):

تقع منطقة عين شمس (هيليوبوليس) شمالي أم دنين وبابليون في الجهة الشرقية من النيل، وكانت عاصمة مصرية ذات أهمية أيام الدولة الفرعونية، ومازالت تحفل هي والمطرية بالآثار الفرعونية المهمة. وكان حرص عمرو بن العاص عليها أنها ملتقى القوات الإسلامية القادمة من قبل الخلافة بقوات عمرو في مصر وما كان ليقدم جنوبًا إلى بابليون إلّا بعد تأمين ظهره شمالًا. ولم ينجح البيزنطيون في أن يحولوا دون التقاء هذه القوات، ولم ينجحوا في الفصل بين القوات الإسلامية، وكل ما فعلوه هو مزيد من التجمع لقوات جديدة بيزنطية[٢].

وجعل عمرو بن العاص خطته أن يغري الروم على الخروج من معقلهم المنيع في حصن بابليون ثم الاشتباك معهم في السهل بعيدًا عن ذلك الحصن، فعمد إلى استدراجهم خارج أسوار الحصن، وبالفعل خرج القائد الروماني (تيودور) من حصن بابليون معتمدًا على قوته المتمثلة في الفرسان والرجالة والخيالة لملاقاة المسلمين في السهل الواقع بين حصن بابليون ومدينة عين شمس وكانت في ذلك الوقت مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التي في موضع الفسطاط في الوقت الحاضر، وقد وقف عمرو على خطة الروم عن طريق عيونه المبثوثة هناك واتخذ عمرو خطة حربية ذكية تدل على عبقريته

(١) د/محمد جبر أبو سعدة: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية ٢٢، ود/عمر صابر مترجم (تاريخ مصر) ليوحنا النقيوسي ص١٩٤ هامش (٣).

(٢) د/طاهر راغب: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية ٢٨. وراجع د/مصباح: مرجع سابق ٣٤.

العسكرية حيث قسم جيشه إلى ثلاث فرق قابل الروم بمعظم جيشه، في حين سير في الظلام فرقة من جنده إلى أم دنين غربًا، وسير فرقة أخرى شرقًا إلى جبل المقطم قرب موضع قلعة القاهرة الآن، وصدرت الأوامر لهاتين الفرقتين بالانقضاض على مؤخرة الجيش الروماني عند بدء الاشتباك مع الروم، وفي الوقت المناسب.

والتقى المسلمون والرومان في المكان المعروف اليوم باسم «العباسية» في معركة حاسمة حددت مستقبل تاريخ مصر، وبذل كل فريق في هذه المعركة أقصى ما لديه من قدرة قتالية، وفي الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها، انقضت الفرقة الشرقية من ناحية الجبل على مؤخرة جيش الرومان فباغتتهم وأهوت على ساقة الجيش لروماني، فتملكهم الرعب، واضطربت صفوفهم، واضطروا إلى الانسحاب صوب أم دنين، فلقيتهم الفرقة الثانية، مما اضطرهم إلى الفرار داخل حصن بابليون والتحصن بداخله من جديد، وتم للمسلمين النصر في عين شمس(١).

وبهذا الفتح صار شمال شرقي مصر كلها في قبضة المسلمين، وجنى عمرو بن العاص أولى ثمار هذا النصر، فأصبح بانتصاره سيد المنطقة الإستراتيجية المحيطة بحصن بابليون، فأخذ يعيد تعبئة قواته للاستيلاء على هذا الحصن نفسه، وأصدر أوامره بنقل المعسكر الإسلامي إلى ناحية حصن بابليون حيث القوة العظمى للروم، وعسكر المسلمون في جهة الشرق والشمال منه، وهو نفس المكان الذي حمل اسم الفسطاط –فيما بعد–. وهكذا بعد وقعة عين شمس تمكن المسلمون من حصار حصن بابليون، وأصبحت قواتهم تشرف على حصن بابليون مباشرة.

فتح حصن بابليون:

كان حصن بابليون ينعم بكافة أسباب المنعة والقوة، فكان ماء النيل يجري تحت أسوار الحصن، وفي استطاعة السفن الحربية والتجارية الوصول إليها. وكانت تلك الأسوار على

---

(١) راجع تبلر: فتح العرب لمصر ١/٢٠٠–٢٠٨ وعليه اعتمد الباحثون المحدثون. وذكر تبلر (ص٢٠٥–٢٠٦) أن حاكم الفيوم وحاميتها تركوها بعد أن وصلتهم أنباء هزيمة عين شمس. فبعث عمرو بن العاص بكتيبة فتحت الفيوم. وأرسل جندا فتح «أثريب» بالقرب من بنها و«منوف» وغيرهما من الدلتا التي هاجر سكانها إلى الإسكندرية.

شكل مربع غير منتظم، وسمك كل سور منها ثمانية عشر قدمًا، وبناؤها من الآجر والحجارة طبقة فوق طبقة على التوالي، وتخلل الجانبين الشرقي والجنوبي من تلك الأسوار أربعة أبراج بارزة. وكان الصاعد إلى تلك الأبراج يرى منظرًا عظيمًا يمتد إلى جبل المقطم من الشرق، وإلى الجيزة والأهرامات وصحراء ليبيا من الغرب وإلى شطر كبير من نهر النيل من الشمال والجنوب. وصار في استطاعة هذا الحصن السيطرة بالتالي على هذا المفرق الاستراتيجي الذي يربط مصر العليا بمصر السفلى، فضلًا عن الهيمنة على الطريق الرئيسي المؤدي إلى الإسكندرية. وزاد في منعة الحصن الواجهة التي أطل بها على النيل، حيث كان لها برجان، ويمتد بينهما سور ساتر، ينفذ منه باب اشتهر عند المسلمين باسم «الباب الغربي» فكان هذا الباب يؤدي إلى مرسى مهم، دأبت سفن الروم إلى الرسو عنده. وامتد أمام السور أيضًا جزيرة الروضة، وكانت ذات حصون تعد جزءًا مكملًا لمعاقل حصن بابليون، وتسير المراكب بينهما دون عائق. وكان للحصن أبواب أخرى غير الباب الغربي المطل على المرسى، ومن أشهرها البابان الكبيران في الواجهة التي تضم المدخل الرئيسي. وكان هناك فضاء واقع بين هذين البابين، وهو معد للمقاومة إذا ما اقتحم أحد البابين. وفضلًا عن ذلك أشرفت أبواب الحصن على المزارع المحيطة بالحصن من الجانب الشرقي، وكذلك على الحدائق وبساتين الكروم بالناحية الشمالية وما يليها من الأديرة والكنائس الممتدة إلى جبل المقطم [١].

هكذا كان حصن بابليون [٢] في غاية المنعة والبأس عندما ضرب عمرو بن العاص الحصار عليه بجيشه كله من جميع الجهات إلّا الجهة الغربية، ناحية نهر النيل المتصلة بجزيرة الروضة والتي كان أسطول نهري عظيم، ويتحكم فيها الروم. وبدأت معركة عنيفة بين المسلمين والرومان أظهر المسلمون من خلالها الحرص الكامل على فتح الحصن، فلما شعر المقوقس بصعوبة موقف الروم وعزم وإصرار المسلمين على الفتح، واستمرار الحصار لمدة سبعة أشهر، فإنه توجه نحو جزيرة

(١) راجع تبلر: فتح العرب لمصر ٢٠٩/١-٢١٧ وراجع حتى ٢٣٩، ود/العدوي: مصر الإسلامية ٢٢-٢٣، وراجع لومبار: الإسلام في مجده الأول ٢٠٣ وراجع حتى ٢٠٢-٢٠٤.

(٢) راجع عن هذا الحصن المقريزي: الخطط ٢٨٦/١-٢٨٧.

الروضة، وبعث بمندوبيه ومن بينهم أسقف نابليون الملكاني إلى عمرو بن العاص يطلب الصلح والمفاوضة التي انتهت[١] بعقد معاهدة عُرفت بمعاهدة بابليون الأولى، تمييزًا لها عن معاهدة الإسكندرية التي يطلق عليها أيضًا معاهدة بابليون الثانية. ونصت هذه المعاهدة على فرض الجزية على «جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها فشرط هذا كله على القبط خاصة»[٢]. وأحصي عدد القبط يومئذ، خاصة من بلغ منهم الجزية، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر –أعلاها وأسفلها– من جميع القبط أكثر من ستة آلاف ألف نفس، فكانت جزيتهم يومئذ اثنى عشر ألف دينار في كل سنة. وفي رواية أخرى بلغ عدد القبط ثمانية ألف ألف[٣]. وغادر الجند الروماني الحصن بما يكفيهم من قوت لبضعة أيام واستولى المسلمون على حصن بابليون بما ضم من آلات حرب وذخائر «وأخذوا منجنيقاتهم ودمروا مساكنهم، وأخرجوهم من بين الحصن، وحصنوا –المسلمون– حصن بابليون»[٤].

---

(١) تولى عبادة بن الصامت رضي الله عنه رئاسة وفد المسلمين في المفاوضات مع المقوقس الذي أبدى امتعاضه منه لسواده، وطلب واحد غيره ليكلمه، فأعلمه المسلمون من باقي الوفد أنه نهو أفضلهم وأعلمهم وسيدهم وخيرهم والمقدم عليهم، فقبل المقوقس التفاوض معه وعن هذا وعن المفاوضات، وعن اقتحام الزبير بن العوام للحصن بالصعود على سلم، والتمهيد لاقتحام المسلمين للحصن، وذلك بعد فشل إحدى جولات المفاوضات راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٤٩–٥٦، والمقريزي: الخطط ٢٨٨/١–٢٩٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣/١–٢٤، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٠٨/١–١٢٠، وابن إياس: بدائع الزهور ٩٥–٩٩.

(٢) ابن عبد الحكم: السابق ٥٥، وابن تغري بردي: السابق ٢٢–٢٣، والمقريزي: السابق ٢٩٢–٢٩٣، والسيوطي: السابق ١١٦/١، وابن إياس: السابق ٩٨، وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٩٧.

(٣) راجع المصادر السابقة والصفحات نفسها.

(٤) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ٢٠٠ وراجع ٢٠٤–٢٠٥.

وقد أشار يوحنا النقيوسي المعاصر للفتح إشارة مهمة إلى إعانة المصريين النصارى للمسلمين بعد استيلائهم على الفيوم «وأخذوا يعينون الإسلام»[١] وعند حصار المسلمين لحصن بابليون[٢]، وبعد ذلك[٣].

وأخيرًا فإن الحاكم الروماني المقوقس لم يكن خائنًا كما وصفه تبلر[٤] عندما طلب الصلح والمفاوضة مع المسلمين، بل كان داهية بعيد النظر، رأى أن المقاومة الإسلامية سوف تشتد يومًا بعد يوم بعد انتصار المسلمين في العراق والشام، وأنها تلقي بثقلها كله في معركة الحياة أو الموت عند حصن بابليون، فلابد من الرجوع إلى الخطة الرئيسية وهي الانسحاب من قاعدة بابليون إلى القاعدة الكبرى، مدينة الإسكندرية، وكان المقوقس يفاوض من أجل هذا، ويستغل عاملًا طبيعيًا في الحياة المصرية وهو عامل الفيضان الذي بدأت تباشيره الأولى في شهر أغسطس، فعندئذ تدخل المياه إلى الحصن، ويقف المسلمين عاجزين لا يستطيعون التقدم، وكان من ناحية أخرى يريد أن يحدد مستقبل مَنْ يعيش في منف العاصمة القديمة التي كانت تمتد حتى الحصن، ولتحقيق هذا سعى إلى عقد الصلح مع القائد عمرو بن العاص وعقد معه معاهدة مصر الأولى التي تمنح الحرية الدينية والمدنية لأهل العاصمة مقابل دفع الجزية للمسلمين، في مقابل ذلك تنسحب القوات البيزنطية في سلام. غير أن انحسار الفيضان أدى إلى تطويق الحصن تطويقًا كاملًا، وشهدت تلك الفترة أكثر من محاولة لتسلق الحصن والدخول إليه، فتم تفعيل الصلح، وجلا البيزنطيون عن الحصن ودخله المسلمون[٥].

فتح الإسكندرية:

كانت الإسكندرية هي العاصمة الرسمية للرومان بمصر، وهي مدينة حصينة، موفورة الأقوات، تماثل في الأهمية حصن بابليون ومدينة منف العاصمة الفرعونية

---

(١) يوحنا النقيوسي: السابق ١٩٥.

(٢) يوحنا النقيوسي: السابق ٢٠٥.

(٣) راجع يوحنا النقيوسي: السابق ٢٠٧ وراجع ١٩٧ و٢١٢ و٢١٣ و٢١٩.

(٤) سبقت الإشارة إلى مواضع ذلك من كتاب «فتح العرب لمصر» لتبلر.

(٥) د/حسن أحمد محمود: مصر الإسلامية ٢٧ و٢٨ بتصرف.

القديمة التي كانت من أعمال الجيزة غربي النيل، والتي كانت تمتد إلى حصن بابليون. وتعد الإسكندرية آخر معقل للروم بمصر بعد فتح حصن بابليون، وثاني أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية القسطنطينية، فلم يكن من الغريب أن تكون أن تتمتع الإسكندرية بأسوار ضخمة تحول دون النَيْل منها برًا، فضلًا عن سيطرة الروم على البحر المتوسط بأساطيلهم القوية التي تمكنهم من تقديم المدد والدعم للمدينة في أي وقت، هذا فضلًا عن وجود ترعة الإسكندرية التي تمدها بالماء العذب في جنوبها، ووجود ترعة أخرى في غربها. وهذا كله مثّل مناعة وحصانة لهذه المدينة التي تعد قلعة حصينة، وليست مدينة عادية [١].

وقد قام عمرو بن العاص بعد الفراغ من فتح حصن بابليون بإعادة إقامة جسر من السفن بين الحصن والروضة، وبين الروضة والجيزة، فوصل بذلك بين شاطئ النهر، واستطاع أن يملك ناصيته ويشرف على ما ينتقل فيه من السفن والبضائع، ثم كانت لدية رغبة شديدة في أن يسير بجنده نحو الإسكندرية، بعد أن طالت مدة إقامته بمصر، وكان يعرف أنه لن تمر ثلاثة أشهر حتى يكون النيل قد أخذ في المد والزيادة، فانطلق صوب الإسكندرية بعد أن رمم حصن بابليون وجعل فيه بعض الجند عليهم خارجة بن حذافة السهمي[٢].

وسار عمرو بن العاص نحو الإسكندرية سالكًا طريقًا على الضفة الغربية للنيل وعلى حافة الصحراء الغربية تفاديًا للترع الكثيرة بالوجه البحري بين فرعي النيل، ولتعود العرب المسلمين على السير في الصحراء «ففيها مجال أوسع لخيله، لا يعوقها هناك ما يعترض مصر السفلى من الترع الكبيرة»[٣].

---

(١) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٣٦-٣٧ و٨٥، والمقريزي: الخطط ١/١٦٢-١٦٦.

(٢) راجع تبلر: فتح العرب لمصر ١/٢٤٥.

(٣) تبلر: السابق ١/٢٤٧. ويذكر د/طاهر راغب (محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية) ص٣٥ أن عمرو بن العاص آثر أن يتجه إلى الإسكندرية عن غير وسط الدلتا، وإذا احتاج إلى أن يدخل إليها، فيمكنه ذلك عن طريق ترنوط (الطرانة).

ويقول ابن عبد الحكم: «فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت، وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجهًا إلى الإسكندرية، فلم يلق منهم أحد حتى بلغ ترنوط، فلقي بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالًا خفيفًا، فهزمهم الله. ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك، فاقتتلوا به ثلاثة أيام، ثم فتح الله للمسلمين وولى الروم أكتافهم»[١].

فالمسلمون كانت خطتهم بعد حصن بابليون تطبيقًا للخطة الفارسية القديمة وهي الزحف بحذاء فرع النيل الغربي عبر مديرية البحيرة الحالية إلى الإسكندرية ومهاجمتها من الخلف. والبيزنطيون كانت خطتهم تقضي بالوقوف عند الإسكندرية مهما كلفهم ذلك. لذا عمد المسلمون إلى اختراق مديرية البحيرة وساروا شمالًا بحذاء فرع النيل الغربي في اتجاه الطريق الفارسي القديم ووصلوا إلى مدينة نقيوس[٢] الحصينة بعد ترنوط، وكانت نقيوس قلعة عظيمة تقع على الضفة الشرقية م النيل يحرسها أسطول نهري كبير، وعبر المسلمون النيل عند بلدة شبشير شمال شرق بلدة منوف الحالية وهاجموا الحصن، فتقهقرت القوات البيزنطية إلى الخلف، بينما عبر المسلمون النيل إلى دمنهور ومنها ساروا إلى الكريون آخر المعاقل الرومانية قبل الإسكندرية، وهذه المدينة (الكريون) تحتل مكانة عظيمة في سلسلة الحصون البيزنطية، كما أنها تتحكم في ترعة المياه العذبة التي تمد الإسكندرية، ومكانها الآن ترعة المحمودية[٣].

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٥٧ وراجع من ص٥٦، وراجع ابن العميد: تاريخ المسلمين ٨٩-٩٠.

(٢) سبق التعريف بها وهي قريبة من شبشير الواقعة شرقي فرع رشيد بالقرب من منوف وقيل إن نقيوس هي شبشير نفسها.

(٣) د/حسن محمود: مصر الإسلامية ٢٩، وراجع تبلر: فتح العرب لمصر ١/٢٤٥-٢٥٩، ود/العدوي: النظم الإسلامية ٣٤١-٣٥٠.

وعند الكريون بدأت مقدمات المعركة الحقيقية الكبرى، فقد كانت هذه المدينة الخط الأمامي للدفاع عن الإسكندرية «ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يومًا، وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو»(١). وقد أصيب عبد الله بن عمرو بجراحات كثيرة عند حصن الكريون ولما علم عمرو بذلك قال: «هو ابني حقًّا»(٢). وفي النهاية قضى المسلمون على استماتة الروم عن حصن الكريون وهزموهم، فانسحب الروم غلى الإسكندرية وتتبعهم عمرو إلى الإسكندرية، فتحصن بها الروم «وكان عليهم حصون مبنية لا ترام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين خلوة غلى قصر فارس، إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة»(٣).

وبدأ عمرو في الحصار الإسكندرية من الجهة الجنوبية الشرقية؛ لحمايتها من الجهات الأخرى بالبحر والبحيرات وترعة الإسكندرية، واستمر الحصار لمدة أربعة أشهر تقريبًا، لأنه من جهة واحدة، ولأن حامية المدينة لم تقل عن خمسين ألف جندي مزودين بالمؤن الوفيرة، والعدد الكثيرة، واستبطأ عمر بن الخطاب الفتح وكتب بذلك إلى عمرو بن العاص، ولما أيقن عمرو بن العاص أن حصار الإسكندرية قد يطور، عمد إلى أخذ قسم من جيشه وتوجه به إلى إخضاع ما بقي من مدن مصر في وسط الدلتا، ففتح قرى تابعة للغربية الحالية، وغيرها. وحدثت تطورات مهمة في داخل الدولة البيزنطية كانت في مصلحة المسلمين، حيث توفي هرقل بعد أن نوى الخروج بنفسه

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٥٧، والسيوطي: حسن المحاضرة ١١٨/١، وابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٩٨-٩٩.

(٢) ابن عبد الحكم: السابق ٥٧، والسيوطي: السابق ١١٩، والمقريزي: الخطط ١٦٢/١-١٦٤.

(٣) ابن عبد الحكم: السابق ٥٨، والسيوطي: السابق ١١٩، وراجع تبلر: فتح العرب لمصر ص٢٥٢، وأقر بالقتال الشديد بين المسلمين والروم عند الكريون، وأشار إلى صدق الروم في محاربة المسلمين، وألمح من جديد إلى خيانة المقوقس فيما سبق من أحداث الفتح، تلك الخيانة التي لم يتنازل تبلر عن إلصاقها بالمقوقس أبدًا، بل وألصق به تهمة أخرى هي أنه كان يدين بالإسلام سرًا. راجع ٢٨٩/٢ و ٢٩٠ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٣١٥ن ويذكر هنا أن البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» ص٢٢٢ ذكر مشاركة القبط للرومان في قتال المسلمين عند الكريون ثم قال: «ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية، فوجد أهلها معدين لقتاله إلّا أن القبط في ذلك يحبون الموادعة». وراجع تفسير د/بهاء الدين حنفي لهذا الموقف من النصارى: الفتوحات العربية الكبرى ١٢٢-١٢٣، وراجع لينبول: سيرة القاهرة ٥٣.

لمباشرة حرب الإسكندرية بنفسه، وما لبث أن خطف الموت خليفته ابنه قسطنطين بعد مرض سريع، وتولى هرقل الثاني أمر البيزنطيين، فتركت هذه الأحداث أثرًا في نفوس الروم، فضلًا عما حدث بالإسكندرية من نزاع وانقسام بين الجند البيزنطي واستغل المسلمون ذلك فقام عبادة بن الصامت بمحاولات جادة لفتح المدينة، ورأي السلطة البيزنطية تسليم الإسكندرية للمسلمين على أمل الرجوع مرة أخرى إليها بعد التخلص من مشاكلها، فأعادت المقوقس إلى الإسكندرية، ليفاوض المسلمين على الصلح، وتم الاتفاق بين المقوقس وعمرو بن العاص على معاهدة جديدة، عرفت بمعاهدة الإسكندرية أو بمعاهدة بابليون الثانية، أو بمعاهدة الفتح، وتم بمقتضى هذه المعاهدة خروج البيزنطيين آمنين من الإسكندرية، وتسلم المسلمون هذه المدينة(١).

ووردت نصوص هذه المعاهدة في بعض مصادرنا التاريخية، وذكرها يوحنا النقيوسي عرضًا، ونقلها تبلر معتمدًا عليه(٢)، ونقل عنه كل الباحثين الذين كتبوا تاريخ الفتح الإسلامي لمصر، وما ورد عند يوحنا: أن هرقل الثاني أطلق المقوقس من منفاه وأعاده ثانية على الإسكندرية ومنحه سلطانًا وحكمًا «وليعقد السلام مع المسلمين ولا يقاومهم» وأن المقوقس لم يكن وحده الذي يحب الصلح مع المسلمين، بل كل الناس والبطاركة والإمبراطورة البيزنطية (مارتينا) «واجتمعوا كلهم وتشاوروا مع كيرس البابا ليعقدوا صلحًا مع المسلمين»(٣) ثم نهض قيرس (المقوقس) وسار إلى بابليون حيث المسلمون راغبًا في أن يعمل سلامًا «وأن يؤدي لهم الضرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه، وقال له حسنًا فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له: منحكم الرب هذا البلد من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومة. وحددوا عبء الضرائب التي تؤدى ولم يقل هؤلاء الإسماعيليون –المسلمون– شيئًا ما. ومكثوا منفردين أحد عشر شهرًا –إشارة للهدنة بين الطرفين– ورحل الروم الذين كانوا بإسكندرية أخذوا أموالهم وخزائنهم وساروا بحرًا. ولم عد أحد ثانية من جنود الروم، ومن

---

(١) راجع يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ٢٠١– ٢٠٣ و٢٠٥ و٢٠٧ و٢٠٩ و٢١٢، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٥٦–٦٣، والمقريزي: الخطط ١/١٦٤–١٦٩، وراجع عن الإسكندرية حتى ص١٧٤، وراجع الطبري: تاريخ الطبري ٤/١٠٤–١١١، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٢٢–٢٢٥، وكان تسلم المدينة بعد انتهاء فترة الهدنة المقررة في الصلح –الذي سيأتي– وهي أحد عشر شهرًا، وراجع تبلر: فتح العرب لمصر ١/٢٥٠–٢٨٣، وراجع د/شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١٠٩–١٤٥.

(٢) تبلر: السابق ٢٧٧ وراجع حتى ٢٨٣، وراجع جون مارلو: العصر الذهبي للإسكندرية ٣٢٥ وراجع ٣٠٥–٣٢٨، وراجع فورستر: الإسكندرية، تاريخ ودليل ٩٨–١٠٢.

(٣) يوحنا النقيوسي: السابق ٢١٠ وراجع من ٢٠٩.

كانوا يريدون المسير برًا كانوا يؤدون الضرائب كل شهر، وأسر المسلمين لديهم ١٥٠ من الجنود و ٥٠ من أهل المدينة رهينة، وعقدوا سلامًا وكف الروم عن حرب المسلمين، والمسلمون عن الاستيلاء على الكنائس، ولم يقربوا شيئًا ما من عمل المسيحيين، وتركوا العبرانيين[١] يقيمون بمدينة إسكندرية»[٢].

أي أن هذه المعاهدة تضمنت أن يدفع كل من دخل فيها الجزية، وأن تعقد هدنة بين المسلمين والروم لمدة أحد عشر شهرًا، وأن يظل المسلمون في مواقفهم في أثناء تلك الهدنة ولا يسعون إلى حرب الروم، وأن ترحل حامية الروم من الإسكندرية ومعهم المتاع والأموال، ومن أراد أن يرحل برًا فله ذلك، على أن يدفع الجزية (دينارًا في السنة) عن شهر، وهي المدة التي يستغرقها عبورهم في أرض مصر في أثناء رحلة المغادرة، وأن لا يعود الروم إلى استرداد مصر، وألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء، وأن يبعث الروم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من المدنيين رهائن ضمانًا لإنفاذ العقد.

وقد وصلتنا نصوص هذه المعاهدة التي تعد دستورًا وضعه الفاتحون المسلمون لتنظيم العلاقة بينهم وبين المصريين وغيرهم ممن عاش في مصر، في تلك الفترة، في بعض مصادرنا التاريخية[٣] وأبرزها: «تاريخ الأمم والملوك» للطبري[٤]. و«النجوم الزاهرة» لتغري بردي[٥]، و«تاريخ ابن خلدون»[٦]. وينص هذا الدستور على:

---

(١) وردت في المصادر التاريخية أنه كان بالإسكندرية أربعون ألف يهودي فرضت عليهم الجزية. راجع المقريزي: الخطط ١٦٥/١، والسيوطي: تاريخ الخلفاء١٢٢، وابن إياس: بدائع الزهور ١٠١، وراجع ابن العميد: تاريخ المسلمين ص٩٩ وجعلهم أربعة آلاف يهودي.

(٢) يوحنا النقيوسي:تاريخ مصر ٢١١-٢١٢.

(٣) راجع عن بعضها ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٥٦.

(٤) راجع تاريخ الطبري ١٠٩/٤ في أحداث سنة ٢٠هـ التي قيل إنها تاريخ الفتح الكامل لمصر، وذكر البعض أن هذا الفتح تم سنة ٢١هـ. راجع ابن عبد الحكم: السابق ٦١، والكندي: ولاة مصر ٣٢-٣٣. وذكر الذهبي: العبر ٢٣/١ أنه في سنة ٢٠هـ سار عمرو بن العاص من الشام فافتتح بعض ديار مصر.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٠/١-٣١، ووردت بنود الصلح أيضا عند ابن كثير: البداية والنهاية ١٣١/٤-١٣٢.

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ ٢ مجلد ١١٥/٢، وراجع ١١٤. وأضاف عند ذكر شروط الصلح أن أهل مصر كان عليهم أداء الجزية عند الاتفاق على العقد وإذا ما انتهى أوان الفيض. ويذكر محقق (فتح العرب لمصر) ص ٢٧٩ هامش (١) أن هذا الخبر يفيد أن عقد الصلح كان في أوان الفيض.

المادة الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقض ولا تساكنهم النوته.

فهذه المادة تؤمن الأمة على عقيدتها وحريتها الدينية والمالية وتحترم الكنيسة وعقيدتها، بل تضمنت هذه الشروط أمرًا آخر مهمًّا وهو تعهد المسلمين بالدفاع عن الحدود المصرية برًّا وبحرًا، وحمايتهم من أهل النوبة –جمهورية السودان الحالية– الذين كانوا مصدر قلق عظيم في الحياة المصرية في العصر البيزنطي(١).

المادة الثانية: على أهل مصر أن يعطوا الجزية(٢) إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف (٣)، وعليهم ما جنى لُصوتُهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء (الجزية) بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة.

وهذه المادة تشير إلى واجبات المصريين صوب الدولة الإسلامية بمصر، وهي مقابل الحقوق التي منحت لهم بمقتضى المادة الأولى، وأهم واجب أشارت إليه المادة هو الجزية والخراج، وعلى أساسها يكون غير المسلمين في ذمة وعهد المسلمين. ولأن عدد المسلمين كان قليلًا بمصر بعد فتحها مقارنة بأهلها –وقبل إقبالهم على الإسلام– فإن على المصريين رعاية أموال الدولة المحمولة إليها وعدم التقاعس أو التكاسل أمام اللصوص.

المادة الثالثة: وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك.

ومعنى هذا أن المبدأ الاقتصادي المعمول به يتوقف على الحالة الاقتصادية في البلاد، إذا ارتفع النيل جمع الخراج، وإذا نقص ماء النيل روعي ذلك عند أخذ الخراج.

---

(١) د/ حسن محمود: مصر الإسلامية ٣٣.

(٢) سبقت الإشارة إلى أن عدد القبط عند الفتح الإسلامي كان زائدا على ستة ملايين وهو ما ذكره ابن البطريق: التاريخ المجموع طبعة بيروت ص ٢٤. وذكر د/ العدوي (النظم الإسلامية) ص ٢٥٨ أن السجلات البيزنطية أوضحت أن تعداد مصر بلغ سبعة ملايين نسمة، ولعل هذا التعداد لم يتضمن النساء والأطفال، وبذلك يقترب من تعداد المصادر الإسلامية.

(٣) هكذا في كل المصادر السابقة التي أوردت بنود الصلح، أما د/ حسن محمود في المرجع السابق ص ٣٣ فقد جعلها «خمسين ألف» فقط. ولم أجد تفسيرا لهذين الرقمين، في حين يذكر د/ حسن محمود أن المعنى هو أن هذا المبلغ هو الحد الأعلى تخصم منه المبالغ المستحقة على المتخلفين. وهذا التفسير غير مفهوم ولا واضح.

وقد ذكر د/حسن محمود أن المصريين أعفوا في بعض السنوات من الجزية بسبب انخفاض النيل[١].

المادة الرابعة: من دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا.

ومعنى هذا أن هذا الصلح لا يقتصر على المصريين النصارى، وإنما يمكن للرومان والنوبيين الدخول فيه، بالشروط نفسها والحقوق نفسها والواجبات نفسها التي تقررت مع الأقباط. ويعلق د/حسن محمود على هذه المادة ذاكرًا أن هذا النص يعطي فكرة حقيقية عن تسامح المسلمين مع المصريين وأهل النوبة والرومان الذين رفض بعضهم ترك البلاد وفضلوا الإقامة فيها والتعاون مع المسلين. فمن أراد الدخول من هؤلاء في الاتفاق سمح له بذلك، ومن أراد الهجرة هاجر تحت أمان المسلمين حتى الحدود الإسلامية[٢].

المادة الخامسة: عليهم أثلاثًا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في الكتاب، عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين.

وهذه المادة توضح أن الجزية[٣] مقسمة إلى ثلاثة أقسام حسب المواسم وفي كل موسم يدفع منها الثلث، فإذا ما انتهت السنة تكون الجزية قد سددت كلها، لأن السنة كانت مقسمة إلى ثلاثة فصول زراعية[٤].

المادة السادسة والأخيرة: وعلى النوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، على ألا يُغْزَوا ولا يُمنَعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر[٥].

---

(١) د/حسن محمود: مصر الإسلامية ٣٤.

(٢) د/حسن محمود: السابق ص٣٤ وذكر قبل ذلك ص (٢١) مشاركة جماعة من المحاربين الرومان والفرس في فتح مصر، وإحدى هذه الجماعات كانت تحت قيادة رجل اسمه عبد الله بن يوحنا قاد جماعة من الرومان تقدمت أمام جيش عمرو لتمهد الطريق لفتح مصر. وارجع د/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ٦٢.

(٣) راجع د/الريس: الخراج ١٤٩-١٥٣ للوقوف على رأيه في عدد المصريين وقت الفتح وقيمة ما فرض عليهم من جزية بعد قراءاته للعديد من المصادر وذكر (ص١٥٠) أن المؤرخين البيزنطيين قرروا أن عدد المصريين وقت الفتح كان فقط ٧ ملايين.

(٤) د/حسم محمود: مصر الإسلامية ٣٥.

(٥) د/حسن محمود: السابق ٣٥ بتصرف.

وهذه المادة تدل على الجهود الإسلامية التي بذلت لتحقيق الأمن والطمأنينة للمصريين بإخضاع أهل النوبة وقبولهم تقديم الماشية والعبيد مقابل الأمن وحرية التجارة بين السودان ومصر.

ويعلق الطبري على ذلك بقوله: «فدخل في ذلك أهل مصر كلهم، وقبلوا الصلح»[١] وقد طبقت الاتفاقية بالفعل بعد ختمها بخاتم عمر بن الخطاب وموافقة السلطة البيزنطية عليها «وحين صار الأمر هكذا، جاء المسلمون لأخذ الضرائب ....»[٢].

وبعد تمام فتح الإسكندرية وإذاعة شروط الصلح بها، أكمل عمرو بن العاص فتح سائر المدن الساحلية الواقعة على البحر المتوسط، ومدن شمال الدلتا وغيرها، ففتح دمياط ورشيد وفوه والمحلة وسمنود والبحيرة «صالحوه على بلادهم»[٣]. وامتد النفوذ الإسلامي إلى الصعيد على يد خارجة ابن حذافة «ولنا أن نقول إن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية»[٤].

وهكذا وكما يقول يوحنا النقيوسي المعاصر للأحداث «واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالًا...»[٥].

وقام عمرو بن العاص بتخصيص ربع من كانوا معه في فتح الإسكندرية للرباط بها، وجعل ربعًا آخر منهم في السواحل المصرية «والنصف مقيمون معه»[٦].

وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية. «وكان على الولاة: لا يغفلها، ويكنف مرابطها، ولا يأمن الروم عليها»[٧].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ١٠٩/٤ وراجع ص١١١ عن غزو النوبة، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٣١/١.

(٢) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ٢١٢.

(٣) الواقدي: فتوح الشام ٥٢/٢، وراجع المقريزي: الخطط ٢١٢/١-٢١٣.

(٤) تبلر: فتح العرب لمصر ٣١٠/٢ وراجع حتى ٣١١.

(٥) يوحنا النقيوسي: السابق ٢١٢.

(٦) المقريزي: الخطط ١٦٦/١، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٦٣/١ وأضاف الربع يقيمون سنة أشهر، ثم يعقبهم آخرون. وراجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٩٢-٩٣.

(٧) المقريزي: الخطط ١٦٦/١، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٦٣/١، وراجع حتى ص١٦٤ وذكر وفاة أحد المرابطين بالإسكندرية، كما ذكر أسماء من استشهد في فتح الإسكندرية راجع على سبيل المثال ص١٧٤. وذكر (ص١٦٣) وصول عدد المرابطين في عهد معاوية إلى ٢٧ ألفًا.

ولما كان عمرو بن العاص حريصًا على تثبيت الحكم الإسلامي لمصر، فقد مد نفوذه إلى برقة لتأمين حدود مصر الغربية، ففتحها وفرض عليها الجزية، ثم غزا طرابلس وفرض الجزية عليها[١]. وبذلك أكد عمرو بن العاص على فتح مصر، بتأمين حدودها الغربية. كما أنه سعى إلى تأمين حدود مصر الجنوبية، فأرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرج إلى بلاد النوبة في سنة فتح الإسكندرية نفسها، غير أن حملته لم تحقق هدفها بفتح النوبة[٢] التي غزيت بعد ذلك في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣١هـ/٦٥١م وغزاها عبد الله بن سعد، وانتهت الغزوة بعقد هدنة بين مصر وملك النوبة، عرفت بالبقط ومعناها العقد أو المعاهدة، وتضمنت هذه المعاهدة قيام علاقة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية التي ادخر فتحها للماليك[٣].

إلّا أن الفتح النهائي للإسكندرية الذي أصبحت به آمنة من أي محاولة رومانية أخرى لاحتلالها، تم سنة ٢٥هـ/٦٤٥م عندما أخرج عمرو بن العاص منها الرومان الذين اقتحموها بزعامة القائد مانويل، بعد نقض الإمبراطور الروماني قنسطانز الثاني حفيد هرقل للعهد مع المسلمين، وإرسال أسطول ضخم يتألف من ثلاثمائة سفينة تحمل العدة والعتاد، بقيادة مانويل الذي باغت المدينة، فانضم إليه من بها من الرومان دون القبط[٤]، وتمكن من هزيمة حامية الإسكندرية من المسلمين، واستطاع السيطرة عليها، والتقدم جنوب الإسكندرية، إلى أن وصل إلى نقيوس إلى الجنوب الغربي من مدينة منوف، وهناك قابلهم عمرو بن العاص الذي بعثه عثمان بن عفان لمحاربة الروم لما له من الخبرة بقتالهم. وتمكن من الانتصار على الرومان، وقتل منويل في المعركة،

---

(١) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ١١٦ و١١٧ وراجع كتاب المؤلف «المغرب والأندلس في التاريخ الإسلامي» ص٤٧-٥٠.

(٢) ابن عبد الحكم: السابق ١١٦، والمقريزي: السابق ١/١٩٨-٢٠١.

(٣) راجع كتاب «الشرق الإسلامي في ظلال المماليك والعثمانيين» للمؤلف ص٦١ وراجع المصادر هناك. وعن معاهدة البقط راجع «قراءة جديدة في نصوص معاهدة البقط» للأستاذ ربيع محمد القمر ١٦٢-١٩٤ وهو بحث بمجلة الدارة، العدد الثاني، السنة ٢١ محرم - صفر - ربيع أول ١٤١٦هـ.

(٤) ذكر ذلك تبلر: فتح العرب لمصر ٢/٤١٠ وراجع ٤٠٥-٤١٩.

وتقدم المسلمون صوب الإسكندرية فاستولوا عليها عنوة، وهدم عمرو أسوارها الشرقية حتى سواها بالأرض لئلا ينتفع بها أي غاز آخر لها، وفي المكان الذي توقف فيه عمرو عن مطاردة فلول الرومان بوسط المدينة، أمر ببناء مسجد، عُرف بمسجد الرحمة[١].

ويتصل بفتح الإسكندرية الثاني والأخير خبر ورد في مصادرنا التاريخية، وربما يفهمه البعض خطأ، وهذا الخبر هو أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد أن يكافأ عمرو بن العاص على دروه في إخراج الرومان من الإسكندرية، فعرض عليه مشاركة الوالي على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرج في الحكم، فيتولى هو (عمرو) أمر الحرب، في حين يتولى عبد الله بن سعد الخراج، فرفض عمرو هذا العرض قائلًا: «أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها»[٢].

ويعلق فضيلة الشيخ محمد الغزالي[٣] -رحمه الله رحمة واسعة- في كتابه الرائع «مع الله» على هذا الخبر ذاكرًا أن المستشرقين الذين ينقبون عن شيء ما ليرووا به حقدهم المريد على الإسلام، تلقفوا هذه الرواية -وغيرها- لإثبات أن الفاتحين المسلمين من سلفنا الصالح يستهدفون استنزاف الأمم المغلوبة، ونهبها وسلبها، ويروون عن فاتح مصر الذي محا من أذهان المصريين الذكريات السوء عن حكم الرومان، وعمرو رجل يرى في نفسه الجدارة لولاية مصر، ويرى تنحيته عنها هضمًا لكفايته أولًا، وجحدًا لصنيعته ثانية، وغاظه أن يعزل عن ولاية هو لها كفء، وأن يكلف بمساعدة وال، فقال كلمته الساخرة، ولا يفهم منها أبدًا أن المسلمين الفاتحين جاءوا لنهب مصر وسرقة خيرها، كما يفهم المستشرقين وأتباعهم.

---

(١) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١١٩ و١٢٠ و١٢١، والكندي: ولاة مصر ٣٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/٢٥٠ن وابن الأثير: الكامل ٣/٨١، وابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة طبعة وزارة الثقافة ١/٧٨، والمقريزي: الخطط ١/١٦٦-١٦٨، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٥٩-١٦٢. وذكر الواقدي: فتوح الشام ٢/٥٢ أن جامع الرحمة الذي بناه عمرو بالإسكندرية عُرف أيضًا بجامع عمرو إلى أيامه.

(٢) ابن عبد الحكم: السابق ١٢١.

(٣) راجع الشيخ الغزالي: مع الله ١٦٠-١٦١ وراجع ١٥٥-١٧٢.

ويرى د/عبد الصبور شاهين[١] أن عمرو بن العاص يرى وجوب جمع كل خيوط السلطة: السياسية والعسكرية والمالية والإدارية في يد الوالي، وأن اتجاه الحكومة المركزية في المدينة في ذلك الوقت كانت تعتبر الوالي مسئولًا عن كل شيء، وبذلك نرى عمرًا رفض تغيير المبدأ الأساسي دون أن يكون لهذا التغيير مبرر. وأضيف – كما ذهب إلى ذلك فضيلة الشيخ الغزالي– أن عمرًا عبر عن رفضه بكلمة ساخرة، لا يقصد بها حرصًا على مالٍ أو متاع.

مكتبة الإسكندرية:

أصبحت الإسكندرية أعجوبة العالم بعد أن غدت –في تاريخ غير معروف تمامًا– عاصمة البلاد بدلًا من منف (الفسطاط فيما بعد) وشهدت الإسكندرية إنشاء إحدى المؤسسات الحضارة الضخمة، المتمثلة في مكتبتها التي أقامها البطالمة على يد بطليموس الأول (٣٢٣– ٢٨٥ ق. م) بعد أن حكم مصر خلفًا للإسكندر المقدوني، وكان هدف بطليموس من بناء هذه المكتبة نقل الفنون والآداب والعلوم اليونانية إلى مصر، وقد اتسعت هذه المكتبة ونمت في عهد بطليموس الثاني والثالث، حتى قيل: أنها ضمت ما يقرب من نصف مليون لفافة بردية، ولكي يزيد بطليموس الثالث من عدد هذه المجموعة أصدر أمرًا يقضي بأن كل مسافر ينزل بالإسكندرية عليه أن يسلم أي كتب توجد بين متاعه إلى المكتبة إذا لزم الأمر، على أن يعطى نسخة رسمية بدلًا منها. ويقال أيضًا: إنه استعار من أثينا الأصول الرسمية لبعض المؤلفات، واحتفظ بها في المكتبة، وأرسل بدلًا منها نسخًا فقط. وفي مكتبة الإسكندرية وضعت أسس علوم التصنيف ونقد النصوص، ووضعت قوائم للمؤلفات الإغريقية الأدبية [٢].

وقد امتدت النيران إلى تلك الثروة العليمة الضخمة سنة ٤٨ ق. م على يد يوليوس قيصر عند غزوه لمصر، باعتراف المصادر البيزنطية نفسها، وأحرقت في هذه الحادثة أربعمائة ألف مجلد، ولما تألمت كليوباطره لهذه الخسارة العلمية، عوضت بمائتي ألف مجلد، أهداها إليها أنطونيوس الروماني –خليفة قيصر– من مكتبة برجامون بآسيا

---

(١) د/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ١١١ وراجع ١٠٨–١١٣.

(٢) راجع بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ١٠٢–١٠٥، وويلز: موجز تاريخ العالم ١١٦–١٢٠، وتبلر: فتح العرب لمصر ٣٥٣/٢، ود/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ١١٧.

الصغرى، وأضحت هذه الكتب نواة مكتبة الإسكندرية الثانية التي افتري على عمرو بن العاص بشأنها، وزعم أنه أحرقها عند فتحه للإسكندرية الفتح الأول. مع أن هذه الكتب التي بمعبد السرابيوم –الذي أنشاه بطليموس– تعرضت هي الأخرى للتدمير في القرن الرابع الميلادي بسبب الخلاف الذي اندلع بين المسيحيين والوثنيين. وقد تأكد عدم وجود هذه المكتبة الصغرى عام ٤١٦م، كما دمر عدد آخر من الكتب المسيحية أيتم اضطهاد دقلديانوس لنصارى مصر، كما شن البطريرك تيوفليس حربًا على كتب الوثنيين. وبهذا تكون كبريات المكتبات المصرية قد تعرضت للحرق أو الإحراق والتدمير ومنها مكتبة الإسكندرية قبل ظهور الإسلام(١).

لقد قرر تبلر أن المكتبة الوليدة التي قامت في السرابيوم في حجرات متصلة ببناء معبد السرابيوم قد أحرقها المسيحيون. يقول: «ولكن كان مقدورًا على السرابيوم أن يقضى عليه في أواخر القرن الرابع على يد المسيحيين يقودهم تيوفيلوس»(٢). وهو ما أكدته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة «استصدر البطريرك تيوفيلس من القيصر ثيودوسيوس إذنًا بتخريب السرابيوم، أكبر ما تبقى من الأكاديميات وآخرها، وإشعال النيران في مكتبته الثمينة. وبهذه الطريقة فقدت البشرية جزءًا هامًا من ثقافتها لا يمكن تعويضه»(٣). ويذكر تبلر أن المكتبة قد ذهبت ضحية نضال المسيحيين مع عبدة الأوثان، وكان السرابيوم حصن الوثنية وملاذها، وظل الوثنيون مدة يغيرون من هناك على المدينة ويقتلون أشد المسيحيين عليهم، وقد انتفع الوثنيون في ذلك بمناعة موقع السرابيوم، فثأر المسيحيون وأهووا إلى المعبد وعلى رأسهم تيوفيلوس وهدموه وخربوه «ولا يختلف فيه اثنان»(٤).

---

(١) راجع عما تقدم تبلر: السابق ٣٥٢/٢–٣٦٨، وهونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ٣٦٢، ود/أحمد مجاهد: مصر في ظلال الخلفاء٤٣، ود/حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٢٤٩/١–٢٥٠، ود/عبد الصبور شاهين: السابق ١١٧–١٢٢، ود/طاهر راغب: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية ٤٥–٤٦، ود/مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية ٣٩/١، وجيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ٦٤/٣–٦٦ و ٣٠١.

(٢) تبلر: فتح العرب لمصر ٣٥٨/٢.

(٣) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ٣٦٢.

(٤) تبلر: السابق ٣٥٩/٢ وراجع إلى ٣٧٠.

وعند هونكة أن أعمال المتعصبين من المسيحيين لم تنته عند هذا الحد «بل ظهرت نزوات الشباب الطائش في كل وقت» فهاجم هؤلاء المسيحيون مراكز الوثنية بالإسكندرية في القرن الخامس الميلادي وحطموها «وهكذا اختفت مراكز الحضارة الإغريقية واحد إثر واحد، وأقفلت آخر مدرسة للفلسفة في أثينا عام ٥٢٩م. وأحرقت في روما عام ٦٠٠م مكتبة اللاتين وهدم ما تبقى من آثار أبنية القدماء»(١).

وتحسم هونكة أمر مكتبة الإسكندرية فتقول: «وعندما دخل العرب الإسكندرية عام ٦٤٢م لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة. وأما ما اتهم بها قائدهم عمرو بن العاص من إحراقه لمكتبة الإسكندرية، والذي يُعبر به حتى اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية، فقد ثبت في أكثر من مناسبة وبعد أبحاث مستفيضة أنه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة. إن عمرًا فاتح الإسكندرية هو نفسه عمرو الذي ضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته، وحرّم النهب والسلب والتخريب على جنوده، وعمل ما كان غريبًا عن فهم الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء. لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة»(٢).

أما غوستاف لوبون فيقول: «وإما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء والأعلام زمنًا طويلًا؟ وهذه القصة دُحضت في زماننا، فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل ولم يبق منها ما يُحْرق»(٣).

---

(١) هونكة: السابق ٣٦٣ وراجع سيديو: خلاصة تاريخ العرب ٨١. وراجع علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ١١٤/٧-١١٥.

(٢) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٦٣ وراجع عن منهج المنتصرين ٣٦٤-٣٧٧.

(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب ٢١٣ وراجع عن الفتح الإسلامي لمصر ٢١٢-٢١٧. وهو ما ذكره سيديو الفرنسي أيضًا: خلاصة تاريخ العرب ٨١، وعن فتح مصر راجع ٧٩-٨١. وهو ما تبناه أيضًا جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ٦٥/٣ ويقول: «ولكني أميل بشدة -وهذا رأيي الخاص- إلى إنكار هذه الواقعة (حرق المسلمين للمكتبة) ونتائجها كلية. فالواقعة حقًا غريبة».

وأصل هذه الفرية، وقصة هذه الكذبة أن رجلًا من الإسكندرية اسمه يوحنا النحوي كان قسيسًا قبطيًّا من أهل الإسكندرية، واشتهر بين المسلمين بـ «يحيى» أو «بغرماطيقوس» أي النحوي، وكان يعتقد في اعتقاد النصارى اليعقوبية ثم رجع عما يعتقده النصارى من التثليث، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية «دخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها ؟؟؟ ما هاله ففتن به. وكان عاقلًا، حسن الاستماع، صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه»[١].ولما آنس الرجل بعمرو طلب منه ما في الخزائن من كتب الحكمة التي لا ينتفع بها العرب، فذكر له عمرو أنه لا يمكنه ذلك إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكتب إلى عمر وعرّفه بقول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها، فاستنفدت في ستة أشهر، وبفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب أمر عمرو بن العاص بإحراقها[٢].

وما ذكره ابن القفطي (ت٦٤٦هـ) نُقل عن عبد اللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ) الذي زار مصر بعد سنة ٥٨٠هـ، وروى هذه القصة الخرافية عرضًا في أثناء حديثه عن عمود السواري[٣] بالإسكندرية عن بعض المتعصبين من عامة الناس «وفيها كانت خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص بإذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه»[٤].

ويلاحظ على اختلاف تلك القصة وبطلانها[٥] ما يلي:

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر العرب ١٠٢-١٠٣ ولن تأت معلومات أخرى في هذه النسخة العربية، ولعل ما ذكره تبلر وعنه نقل المؤرخون المحدثون متصلًا بقصة حرق مكتبة الإسكندرية عند ابن العبري قد جاء في النسخة السريانية من الكتاب.

(٢) ابن القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) عمود السواري من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذي كان يدرس به الحكمة، وكان دار علم. المقريزي: الخطط ١٥٨/١ وراجع حتى ١٦١.

(٤) البغدادي: الإفادة والاعتبار ٥٢، وراجع المقريزي: الخطط ١٥٨/١.

(٥) فند تبلر هذه الفرية تفنيدًا دقيقًا في فصل كامل في كتابه «فتح العرب لمصر» ٣٤٨/٢-٣٧٠.

١- لم ترد هذه القصة في المصادر المسيحية التي عاصر أحد أصحابها وهو الأسقف يوحنا النقيوسي أحداث الفتح الإسلامي لمصر. ويذكر أحد الأساتذة[١] أن أفتيكويوس بطريق الإسكندرية الذي كان يتوسع في الكلام عن الفتح يجد أن المراجع القبطية هذه قد خلت من الإشارة إلى هذا الاتهام الذي لو تحقق لما سكت عن ذكره واحد منهم. ويضاف إلى هذا أن الكتاب النصارى الذين كتبوا تاريخ البطاركة بعد الفتح الإسلامي لمصر لم يشيروا لا من قريب أو بعيد لهذه الحادثة.

وتحت عنوان «مطلب في الكلام على دار الكتب الصغيرة التي كانت بالإسكندرية» ذكر علي باشا مبارك في «الخطط التوفيقية» أن «بولص أوروزو» من تلامذة (ماراي أجستان) و(ماري جيزوم) لم يجد شيئًا من الكتبخانة حين مروره بالإسكندرية سنة ٤١٤م، يعني قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة «فالظاهر أن القول بإحراق كتبخانة إسكندرية كان بأمر سيدنا عمر، محض افتراء اختلقته قسوس النصارى، فإنه قد حصل إحراقها مرارًا قبل دخول الإسلام، والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى»[٢].

٢- خلت المصادر الإسلامية من الإشارة إلى هذه القصة المزعومة، فلم ترد عند ابن عبد الحكم أو الكندي أو اليعقوبي أو الطبري أو المسعودي -أو غيرهم- وهؤلاء من المؤرخين المتقدمين، وإنما وردت لأول مرة عند عبد اللطيف البغدادي في القرن السابع الهجري، وعند ابن القفطي في القرن السابق نفسه، أي بعد الفتح الإسلامي لمصر بأكثر من ستة قرون كاملة. لم يذكر البغدادي المصدر الذي استقى منه معلوماته التي لم يسبقه إليها أحد من مؤرخي القبط واليونان والمسلمين.

٣- تحفل الرواية الخيالية بكثير من الخرافات التي لا يقرها العقل، إذ كيف يسند عمرو بن العاص إلى المسئولين عن الحمامات بحرقها؟ ألم يكن في استطاعة أصحاب الحمامات أن يبيعونها، وفي استطاعة أمثال يوحنا النحوي أن يشترونها؟ ومدة إحراق الكتب في ستة أشهر تكفي لمن يريد الحصول على شيء منها أن يجمع ما

---

(١) د/أحمد مجاهد: مصر في ظلال الخلفاء ١٤ وراجع حتى ٤٥، ود/العدوي: مصر الإسلامية ٣١.
(٢) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ١١٥/٧ وراجع ٧٩-٢٦٧.

يشاء سواء دون مقابل أو بثمن بخس ثم إن أبسط عملية إحصائية تكشف بطلان قصة حريق الإسكندرية، فلو قدرنا لكل حمام[١] مائة كتاب في اليوم، وهو قدر ضئيل بسبب صغر حجم الكتب إذ ذاك، ليبلغ عدد الكتب التي التهمتها النيران في ذلك الحريق نحو اثنين وسبعين مليونًا من الكتب، وهو ضعف عدد الكتب التي احتوتها مكتبة الإسكندرية في أزهى عصورها القديمة. وهذا ينقص العدد الذي رواه يوحنا، وهو أن المكتبة ما نبها سبعمائة ألف مجلد فقط. ثم إن الكتب القديمة التي كانت تكتب على الكاغد (القرطاس) والرّق (جلد رقيق يكتب فيه) وهما لا يصلحان وقودًا وإيقاد النار ولاسيما للاستخدام في تسخين مياه الحمامات.

ولو أراد المسلمون إحراق كتب المكتبة، لأحرقوها في مكانها في زمن يسير «إن إيراد القصة على هذه الصورة مضحك، وإنه ليحق لنا أن نسمع ما فيها ونعجب»[٢].

٤- أثبتت الأبحاث الحديثة التي قام بها نفر من المؤرخين ومن بينهم «تبلر» صاحب كتاب فتح العرب لمصر أن يوحنا النحوي الذي نسب إليه ابن القفطي روايته عن حريق مكتبة الإسكندرية لم يكن حيًّا يرزق سنة ٢١هـ/٦٤١م، أي زمن الفتح الإسلامي لمصر. إذ أشارت الروايات التاريخية أن يوحنا النحوي كان من الأشخاص الذين أسهموا مع ساويرس أسقف انطاكية وديوسقوروس في مهاجمة مجمع خلقدونية الذي انعقد سنة ٤٥١م، وأنهم ظلوا على عدائهم لقرارات هذا المجمع إلى عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧- ٥٦٥م). وإن -كان يوحنا النحوي قد رجع عن اعتقاد النصارى في التثليث، لذلك حظي عند عمرو كما يقال- وهذا يعني أن يوحنا النحوي بحساب سني حياته يكون قد توفي قبل دخول عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية بفترة طويلة، وهذا يهدم أساس رواية هذه الأسطورة[٣].

---

(١) ذُكر أنه كان بالإسكندرية وقت الفتح الإسلامي أربعة آلاف حمام. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٦٢، والمقريزي: الخطط ١٦٥/١، والسيوطي حسن المحاضرة ١٢١/١. بينما ذهب تبلر: فتح العرب لمصر ٣١٩/٢ إلى وجود مبالغة في هذا العدد، ولعله أربعمائة حمام. وراجع ٣٥١.

(٢) تبلر: فتح العرب لمصر ٣٥١/٢ وراجع ٣٤٨-٣٧٠.

(٣) تبلر: السابق ٣٥٢/٢، ود/العدوي: مصر الإسلامية٣٢ وراجع ٣٠-٣٣. ود/حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٢٤٨/١.

٥- أكد أورازيوس أحد الرحالة الرومان الذي زار مدينة الإسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي، أي قبل دخول المسلمين الإسكندرية بحوالي قرن ونصف قرن، على أنه وجد رفوف مكتبة الإسكندرية خالية من الكتب، وذلك لقيام المسيحيين بإتلافها في نهاية القرن الرابع الميلادي(١).

٦- إن معاهدة الإسكندرية تبعد بنصوصها اتهام عمرو بن العاص بحريق مكتبة الإسكندرية. إذ نصت هذه المعاهدة على أن المسلمين لم يدخلوا الإسكندرية إلا بعد هدنة مداها أحد عشر شهرًا، وأن الروم كان بمقتضى هذه المعاهدة أيضًا قادرين على حمل جميع متاعهم، وبالتالي جميع ما يروق لهم مكتبة الإسكندرية إن كان لها وجود إذ ذاك، فكان في مستطاع الرومان نقل هذه الكنوز العلمية معهم إلى القسطنطينية في أثناء الهدنة، حيث أباحت لهم الاتفاقية أن يحملوا كل ما يقدرون عليه، وكان لديهم من الوقت ما يمكنهم من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة(٢).

ومما تقدم يتبين لنا بطلان قصة نسبة حرق مكتبة الإسكندرية لعمرو بن العاص رضي الله عنه، وأن اتهامه بهذا يعد محض افتراء عليه وعلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمسلمين الفاتحين جميعًا الذين يعلي دينهم من قيمة العلم والعلوم المختلفة، ويحرم النهب والسلب والتخريب عليهم. ولهذا وغيره تقرر أن القصة من نسج الخيال، وليس لها أساس في التاريخ وقد وضعها كتاب معادن للإسلام في أثناء الحروب الصليبية، لتغطية إحراق الصليبيين لمكتبة طرابلس الشام سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م إبان الحروب الصليبية(٣).

---

(١) د/حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٢٤٩/١ وراجع ٢٤٥-٢٥٠. وعن حقيقة حرق مكتبة الإسكندرية راجع إلياس الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامي ١٧٠-١٧٩ وقد تخبط تخبطًا شديدًا في حديثه عن هذا الموضوع، وأنهاه بسروره لحدوث هذا الحريق لأنها -في اعتقاده- كانت تضم كتبًا في المجالات والمناقشات المسيحية بين الملكانيين واليعاقبة. والكتاب زاخر بالشبهات والخرافات. راجع على سبيل المثال ٩٢ و٩٤ و٩٨ و١٠٦-١١٠ و١١٤ و٢١٢.

(٢) راجع د/حسن إبراهيم حسن: السابق ٢٤٩-٢٥٠، ود/العدوي: مصر الإسلامية ٢٢. وراجع د/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ١٢٤ وراجع ١١٧-١٢٦، وراجع د/مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية ٣٣-٤٠.

(٣) راجع مؤلف «الإسلام في مواجهة الصليبية في مصر والشام» ١٧٤ وراجع ١٧٠-١٧٥.

انتشار الإسلام في مصر:

تهافت نصارى مصر على اعتناق الدين الجديد، الإسلام، وتحولوا إليه عن اختيار وطواعية وحب واقتناع بعقيدة الإسلام وهديه[١]. وكان التحول إلى الإسلام يتم عبر الأيام والشهور والقرون، إلى أن أصبح دين الإسلام كاسحًا في عصرنا هذا، فقد أثبت بيان الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء الخاص بتعداد السكان بمصر سنة ١٩٨٦م أن نسبة المسلمين بمصر في تلك السنة[٢] ٩٤,١٢% وأن نسبة المسيحيين٥,٨٧%. وهذه النسبة هي نفسها التي أثبتها الكتاب الإحصائي السنوي على مستوى العالم الذي يصدر في أمريكا طبعة ١٩٩٠م، حيث جاء في هذا الكتاب أن نسبة المسلمين بمصر ٩٤% والباقي نصارى[٣]. وتذكر الدكتورة نعمات أحمد فؤاد: : أنه إذا تتبعنا توزيع سكان مصر في التعدادات المختلفة استنادًا لبيان الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء وهو التوثيق الرسمي، أي المرجع الحجة، نجد أن هذه النسبة تكاد تكون ثابتة بفارق طفيف صعودًا وهبوطًا، فنسبة المسيحيين لسنة ١٨٩٧م تبلغ٦,٣٣%، وفي ١٩٧٦م تبلغ٦,٢٤%، وكانت في سنة ١٩١٧م قد بلغت٨,٣٤%، وفي سنة ١٩٤٧م بلغت ٧,٩٢%. وما يقول عن نسب آخر منسوبة إلى هؤلاء، من غير المسلمين فغير صحيحة بالمرة. واحتمال ثبات هذه النسبة أقوى من غيره، حتى مع إطلاق حرية النسل، بسبب بسيط، هو أن الأغلبية على الجانب الآخر مهما طبقت أو طبق عليها تحديد النسل، فلا تعدم ٦% لا يستجيبون لهذه الدعوة[٤]. وأكدت د/نعمات

---

(١) عقد فضيلة الشيخ محمد الغزالي مقارنة بين انتشار المسيحية في مصر وانتشار الإسلام بها في كتابه «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» ١٦٦-١٨٢ فارجع إليها هناك.

(٢) وهذه النسبة وردت أيضًا في كتاب الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء لسنة ١٩٨٥م. ولكن بعد سنة ١٩٨٦م أهملت الدولة ذكر عدد المسلمين وغيرهم. لكن النسبة واحدة، بل ربما تزيد نسبة المسلمين في كل يوم عن الآخر.

(٣) ص٦-٧ نقلًا عن مقال د/نعمات أحمد فؤاد بالأهرام في ١٩٩٢/٧/١٤م ص٩ بعنوان «مصريون من قبل الأديان ومصريون بعد الأديان ومصريون إلى آخر الزمان». وقد قرأت في الفترة نفسها في جريدة «النور» إحصاء لفرنسا أثبت النسبة السابقة نفسها.

(٤) مقال الدكتورة نعمات أحمد فؤاد بجريدة الأهرام السابقة في ١٩٩٢/٧/١٤م ص٩.

في مقالها الرائع على أن المسلمين في مصر، مصريون أسلموا، وليسوا دخلاء، والمسيحية جاءت من فلسطين، والإسلام جاء من الجزيرة العربية، وإذا كان بين المسلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب، فإن بين المسيحيين المصريين أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة، وغيرها[١]. وقررت الدكتورة نعمات في مقال آخر[٢] أن مصر اعتنقت الإسلام عن إيمان به لا هربًا من الجزية التي كانت دينارين لا غير في السنة على رب الأسرة، يعفى منها الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال، بينما الإسلام يفرض الزكاة، وهي عبء مادي أكبر كثيرًا من الجزية التي هي في الوقت نفسه مقابل الحماية والإعفاء من الجندية. وتؤكد من جديد أن المسلمين مصريون أسلموا، وليست مصر إذا إسبانيا يخرج منها المسلمون، لأننا مسلمون مصريون.

والعالم المصري الجليل الدكتور جمال حمدان في كتابه «العالم الإسلامي المعاصر»[٣] يقرر أن الكتلة المسيحية في مصر تمثل وشكل ٦% فقط من مجموع سكان مصر.

وقد تتبع الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله في جريدة «صوت بلدي»[٤] عدد سكان مصر من المسلمين والنصارى منذ الاحتلال الإنجليزي، الذي تم سنة ١٨٩٧م تحت إشراف القائد الإنجليزي المسيحي ألبرت بوانه وحتى العصر الحديث، فلم تخرج النسبة للنصارى عن ٦%، وتراوحت ما بين: ٦,٨%،٦,٢%، ٦,٤%، ٥,٩%، ٥,٦%.

وأورد خبرًا نشر في ٢٠١٠/٢/١٠م في المواقع الالكترونية عن الفاتيكان بروما، حيث أكدت الفاتيكان أن نسبة المسيحيين في مصر لا تتجاوز ٦%. وصور عدة

---

(١) المقال السابق والجريدة والصفحة نفسها.

(٢) د/نعمات أحمد فؤاد: مقال بالعنوان السابق بالأهرام في ١٩٩٢/٨/٤م ص٨.

(٣) د/جمال حمدان: العالم الإسلامي المعاصر، طبعة الأسرة ص٣٣.

(٤) جريدة «صوت بلدي» العدد السابع، السبت ٢٤ جمادي الأولى هـ، ٢٠١١/٤/٣٠م ص١٢-١٣. وراجع جريدة الدستور، العدد ١٩١، الإصدار الثاني ١٤ ذو القعدة ١٤٢٩هـ، ١٢ نوفمبر ٢٠٠٨م، ص٢ عمود ٣ سطر ١٧. وراجع مجلة «المختار الإسلامي» العدد ٣٣١ السنة ٣١، شهر ربيع الأول ١٤٣١هـ، ٢٠١٠/٢/١٥م ص٧٠-٧٧. وراجع د/محمد السروجي: العالم العربي في كتابات أندريه ريمون ص١٥٤، وهو بحث بمجلة حصاد الصادرة عن اتحاد المؤرخين العرب. حصاد (١٢) سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

تقارير للمخابرات الأمريكية وردت بصحيفة «المصري اليوم» في ٢٠٠٩/١٠/٨م، وصحيفة «اليوم السابع» في اليوم نفسه تثبت أن نسبة النصارى في مصر أقل من ٦%. كما صور التقرير نفسه من عدة مواقع أمريكية.

فكيف تحول المصريون إلى الإسلام؟... ألكي يفروا من دفع الجزية؟... أبسبب الاضطهاد والعنف؟... أطمعًا في المناصب والوظائف؟... أم لغير ذلك؟؟

إن الجزية لم تكن ضريبة مستحدثة في الإسلام، فقد فرضها الروم من قبل على كل شخص من الرابعة عشرة إلى الستين، وكانوا ملزمين بها، ووصلت إلى عشرين درهمًا في القرن الثاني الميلادي. ولم يعف منها في مصر سوى مواطني الإسكندرية والروم المقيمين في مصرن وأبناء الجند الإغريق وعدد من البطالمة في كل معبد، معنى ذلك أن الأقباط هم الذين تحملوا عبء دفعها إلى جانب اليهود(١). ويقول ترتون: «على أنه من المقرر تمامًا أن الأقباط كانوا يدفعون زمن عمرو بن العاص للمسلمين نفس الضريبة (الجزية) التي يدفعونها للبيزنطيين»(٢).

ويقرر أرنولد أن الجزية في الإسلام كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهل النصارى أو اليهود «وذلك إذا لاحظنا أنها أعفتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مفروضة على إخوانهم من الرعايا المسلمين»(٣). ويذكر أرنولد أنه لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة –الجزية– على المسيحيين لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين(٤). وفرضت الجزية على القادرين من الذكور في مقابل الخدمة العسكرية، ومن الواضح أن جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي(٥).

---

(١) سبق ذكر ذلك فيما مر، وراجع هنا د/محمد ضياء الدين الريس (رحمه الله) ٥٠-٥١، وراجع د/ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، وراجع د/فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية ٣/٣٢٢.

(٢) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ٢٤٦، وراجع دنييت: الجزية والإسلام ص١٢٧.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ٧٧ وراجع ٧٤-٨٨.

(٤) أرنولد : السابق ٧٩.

(٥) أرنولد: السابق ٨٠.

ويؤكد أرنولد على التسامح الإسلامي مع المسيحيين وغيرهم من أهالي البلاد المفتوحة، مما ينفي شبهة فرض الإسلام على هؤلاء بالقوة أو العنف أو الإكراه «الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق. ومن ثم لم يكن بد من أن نتلمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد»[١]. وحالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت –من الناحيتين الخلقية والروحية– لابد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوًا روحيًّا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم[٢]. فانتشار الإسلام كما يذكر أرنولد بين نصارى الكنائس الشرقية «إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي»[٣]. ولما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد (الإسلام) «لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب. ولم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة «وحينئذ ترك الشرق المسيحي وارتمى في أحضان بني بلاد العرب»[٤].

ويضيف أرنولد قائلًا: «ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية التي أقصى بها فرديناند وإيزابلا دين الإسلام من إسبانيا»[٥]. وبعد أن يبين أرنولد فضل الإسلام على مسيحي مصر، وإلى ترحيبهم بالفاتحين المسلمين، بعدما كانوا يعذبون، ويلقى بهم في اليم يقول: «جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر، حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل

(١) أرنولد: السابق ٨٨.
(٢) أرنولد: السابق ٨٩، وويلز: موجز تاريخ العالم ٢٢٥ و٢٢٧.
(٣) أرنولد: ٨٩.
(٤) أرنولد: السابق ٩٠.
(٥) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ٩٩ وراجع من ٩٤–١٠٠.

ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم عمرو أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني. ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملًا من أعمال السلب والنهب»[١].

ويؤكد أرنولد على أنه ليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن تحول القبط إلى الإسلام، وتخليهم عن دينهم «ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة»[٢].

وفي النهاية يشير أرنولد إلى أن كثيرًا من مسيحي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي. وسرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الفتح الإسلامي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة إلى جهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام[٣].

ويذكر المستشرق الفرنسي هنري دي كاستري أن العسف وجور الحكام وصل قبل ظهور الإسلام إلى درجة أزهقت النفوس، فلما جاء الإسلام تزاموا إليه، وبسبب مسالمة المسلمين ولين معاملتهم تقدم الإسلام حثيثًا وبكل سهولة، لما سبقه من ظلم الحكام التي بغضهم الناس وسئموا الحياة معهم[٤]. وقد أبقى المسلمون سكان البلاد المفتوحة على

---

(١) أرنولد: السابق ١٢٣.

(٢) أرنولد: السابق ١٢٤.

(٣) أرنولد: السابق ١٢٥-١٢٦. وراجع حتى ١٣٠. وذكر أرنولد (ص١٢٧) أن مصر الإسلامية التي كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحًا في الدين لم تخل سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام. وفي (ص١٣٠) قال: «تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعًا إلى الاضطهاد» وأشار في الصفحة نفسها إلى تمتع المسيحيين بالحرة التامة في إقامة شعائرهم.

(٤) كاستري: الإسلام خواطر وسوانح ٣٨ و ٣٩ وراجع ٣٠-٤٩.

دينهم وشرعهم وقلدوهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون في خدنة الخلفاء[١]. ويقول كاستري: «إن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة، وعلى حسن مسايرة ولطف مجاملة وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين إذ ذاك»[٢]. ويؤكد كاستري على أن الإسلام لم ينشر إلا بالحسنى، بالرغم من عدم وجود دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة إليه[٣]، وأن إفراط المسلمين في السماحة أضرت بهم، ومهدت هذه المبالغة في الإحسان إلى مخالفيهم في العقيدة إلى الثورة عليهم. يقول: «إن الدين الإسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة، بل أقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سببًا في سقوط المملكة العربية...»[٤].

وهذا هو المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون يذكر أن عمرو بن العاص عرض على المصريين حرية دينية تامة، وعدلًا مطلقًا واحترامًا للأموال، وجزية سنوية ثابتة «بدلًا من ضرائب قياصرة الروم الباهظة، فرضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفًا، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال، ونتائج مثل هذه لا تنال بالقوة -كما قلت غير مرة- ولم يظفر بمثلها من ملك مصر من الفاتحين قبل العرب»[٥].

وبعد عرض غوستاف لوبون لأحوال مصر حين الفتح الإسلامي، ولاستيلاء عمرو بن العاص عليها، يقول: «فهو لم يتعرض إلى ديانتهم ولا إلى نظمهم ولا عاداتهم ولم يطالبهم بغير جزية سنوية»[٦] فرضي المصريون بذلك، وعامل عمرو بن العاص الفلاحين بمصر بما لم يعرفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل، وشمل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا عل اختيار بطرك لهم «ومن تسامحه أن أذِن للنصارى في إنشاء الكنائس في المدينة الإسلامية التي أسسها»[٧].

---

(١) كاستري: السابق ٤١-٤٣.
(٢) كاستري: السابق ٤٤.
(٣) كاستري: السابق ٣٩ و٤٨.
(٤) كاستري: السابق ٤٨.
(٥) غوستاف لوبون: حضارة العرب ١٣٥ وراجع ١٣٤-١٤٧.
(٦) راجع غوستاف لوبون: حضارة العرب ٢١٢ وراجع ٢٠٣-٢٤٢.
(٧) غوستاف لوبون: السابق ٢١٦ وراجع من ص٢١٥.

ويذهب المستشرق كانتور إلى أنه «منذ زمن بعيد تم دحض وتفنيد الأسطورة التي تزعم بأن العرب اندفعوا بالسيف في يد والقرآن في اليد الأخرى، يخيرون شعوب البحر المتوسط بين اعتناق الإسلام أو الموت، فالحقيقة أن المسلمين تسامحوا مع من قهرهم من المسيحيين واليهود، ولم يفرضوا سوى ضريبة الجزية»(١). ويخلص بعد سرد الوقائع والحوادث التاريخية إلى خلاصة هي: «وهكذا لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الإسلام»(٢).

أما ديورانت فإنه أقر بالتسامح الإسلامي الذي انتهجه المسلمون الأولون، وبسببه «اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين وجميع الزردشتيين والوثنيين إلا عددًا قليلًا جدًا منهم، وكثيرون من اليهود....»(٣). ويذكر ديورانت أن المسيحيين اليعاقبة في مصر قد قاسوا الأمرين من جراء اضطهاد بيزنطة «ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس، وأرشدوهم إلى الإسكندرية»(٤). ثم يذكر أن عمرو بن العاص لم ينهب الإسكندرية. ومنع اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين «خالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة، فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة»(٥). وعن حكم عمرو بن العاص وسياسيته في تخفيف الضرائب يقول ديورانت: «وحكم عمرو بن العاص مصر حكمًا صالحًا، وخصص جزءًا من الضرائب الباهظة –أي التي كانت باهظة في أيام الرومان– لتطهير قنوات الري وترميم الجسور، وإعادة الخليج الذي يوصل النيل بالبحر الأحمر...»(٦). وركز ديورانت على تسامح المسلمين مع اليهود، وأنهم كانوا يعاملون على قدم المساواة مع المسيحيين «وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفي ممارسة شعائر دينهم»(٧).

---

(١) كانتور: تاريخ العصور الوسطى ٢٧٩/١. وقد أثبتت أوراق البردي أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص. د/سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ص٣٨.

(٢) كانتور: السابق ٢٨٠، وراجع دينيت: الجزية والإسلام ١٤٠.

(٣) ديورانت: قصة الحضارة مجلد ٤ جـ٢ ص١٣٣.

(٤) ديورانت: السابق ٢٦١–٢٦٢. وراجع إميل لودفيغ: النيل حياة نهر ص٦٦٨ و٦٦٩.

(٥) ديوارنت: السابق ٢٦٢.

(٦) ديورانت: السابق ٢٦٤. وراجع إميل لودفيغ: النيل حياة نهر ص٦٦٩.

(٧) ديورانت: السابق ١٣٢.

وأثري هؤلاء اليهود في ظل دولة الإسلام في مصر وغيرها «كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين»[١].

فتفشي الإسلام في المصريين لم يكن –بشهادة الغربيين المنصفين– نتيجة إرهاب أو إعنات، أو هرب من الجزية، فإن هذه الوسائل أفلست في تغيير عقائد المصريين مئات السنين، وكان هذا التحول نتيجة وعي كامل، وإدراك يقظ، ورغبة بينة، وإيمان أكبر بالتوحيد الإسلامي الخالص النقي، ومعرفة قوية بصفاء العقيدة الإسلامية التي تجعل المرء المسلم حسن الصلة بربه، قوي العلاقة به، دونما واسطة بين المسلم وربه، فلا كهنوت في الإسلام، ولا تضارب وتناقض في معتقداته حول الألوهية، ولا اصطدام مع العقل في قضايا التثليث والفداء والصلب وغيرها من أفكار ومعتقدات يستحيل على العقل القبول بها أو تمريرها[٢]، هذا فضلًا عن انقسام الكنائس في فهم حقيقة المسيح، وعن خروجها عن مهمتها الأساسية إلى الانشغال بأمور أخرى أسيء إليها بها أيما إساءة. وقد مرت إشارة أرنولد إلى هذا. إضافة إلى التسامح المطلق الذي بذله المسلمون تجاه مخالفيهم، وتطبيقهم للمساواة الكاملة بينهم وبين المقبلين على الإسلام، أو حتى الرافضين له، الذين لا يناوؤن دولته، ولا يشاغبون سلطانه، ولا يماثلون عدوه.

ولفضيلة الشيخ الغزالي في كتابه «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» لقطات نورانية، وكلمات وعبارات وخلاصات ذهبية، منها أن المصريين كانوا وثنيين متعصبين لعقائدهم، ونجح هؤلاء المتعصبون في فرض أفكارهم وعاداتهم على المسيحية نفسها، وما إن دخل الرومان واليونان والمصريون في النصرانية حتى فرضوا عليها معتقداتهم الأولى، فشققوا مبدأ التوحيد، وجعلوا الله أبًا والمسيح ابنًا له، وضموا

---

(١) ديورانت: السابق ١٣٢.

(٢) تذكر المسيحية وجود إله هو الأب، وإله ثان هو الابن، وإله ثالث هو الروح القدس، وتلحق ذلك بأن الأب هو الابن، وأن الثلاثة مع ذلك إله واحد. وهذا هو شطر الإيمان في المسيحية، أما الشكر الآخر الذي لا يتم الإيمان إلا به فهو القول بأن الإله الابن صلب كي يرضى الإله الأب عن أولاد آدم بعد خطيئته الموروثة، ولما كان الإله الأب هو نفسه الإله الابن، فمعنى هذا أن الله قتل الله ليرضي الله. راجع عن هذا الشيخ الغزالي: الجانب العاطفي في الإسلام ٣٧-٣٩، والحق المر ٤١-٤٦.

لهما إلهًا ثالثًا على مر الأيام. ولعبت مصر دورًا مع غيرها من دول العالم الوثني في توليد مسيحية جديدة يزدوج فيها مبدأ التوحيد والتعدد. والمصريون لما استبان لهم أن الثالوث المسيحي تجديد للثالوث المصري القديم أقبلوا على المسيحية باعتبارها فلسفة مصرية بحتة، وليست ديانة يفرضها الرومان الغاضبون لبلادهم(١).

وتختلف نشأة الإسلام اختلافًا كبيرًا عن نشأة النصرانية، فإن الإسلام يمتاز بأنه تحول على عجل إلى دولة تهيمن على جزيرة العرب، وكان النبي رئيسها الأعلى، وكان القرآن –وهو دستورنا الأصيل– محفوظًا بعناية رائعة، ووعته صدور القراء الذين استظهروه كلمة كلمة. وكان الإسلام صلبًا في مقاومة الوثنية على عكس النصرانية التي هادنت في البداية الوثنية ثم امتزجت بها. لقد دخل الإسلام فارس، فبقي التوحيد وبقيت المجوسية مجوسية. أما اختلاق مركب جديد من الديانة المحلية والديانة الجدية، فعبث يجب أن يقاوم، لأن التمشي معه إيذان بضياع الحق إلى الأبد، وذلك ما فعلته الوثنيات القديمة بدين عيسى. ولما دخل الإسلام مصر أحس المصريون على عجل بأنهم ليسوا أمام فاتح تغريه نشوة النصر بالبغي والاستعلاء. بل أمام رجال تحكمهم أخلاق فاضلة، وتضبط سلوكهم شريعة واضحة، وأن البون بعيد بين كبرياء الرومان وبساطة المسلمين. والحق أن هناك ألوفًا مؤلفة من النصارى تسبطن الريبة في عقيدتي الثالوث والفداء، أو تستشعر التبرم الخفي بهما. وتود لو تخلصت منهما كي يتخلص الحمال المثقل من عبء أبهظ كواهله، فإذا واتت فرصة مناسبة للدخول في عقيدة أخرى دون غضاضة تلحق النفس من الانخلاع عن عقيدتها الأولى، كان ذلك إيذانًا بتحول واسع النطاق، وذلك سر انتشار الإسلام لا في مصر وحدها، بل في الرقعة الفسيحة التي أبعد عنها سلطان الضغط والقسر. إن جماهير الأقباط الذين أسلموا عن رغبة لم يتركوا نصرانيتهم الأولى إلا بعد اقتراب نفسي وعقلي من تعاليم الدين الجديد، وكان الحكام المسلمون في العصر الأول يرقبون هذا التطور في صفوف الشعب وهم في موقف الحياد الدقيق. بل ربما كان مسلك بعضهم أقرب إلى الصد عن الإسلام من

(١) راجع الشيخ الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ١٦٦–١٧٥ وراجع ١٨٤–٢١٣ وراجع ٢٣٢.

تحبيب الناس فيه وإغرائهم باعتناقه. وقد أثبت التاريخ حقيقة رائعة، أن المسيحية أو اليهودية تستطيع أن تعيش في ظل الإسلام –إذا حكم– معيشة طيبة. لكن كلتا الديانتين إذا حكمت لا تسمح للإسلام أن يعيش في ظلها. وتلك علة بقاء الأقليات الدينية في الشرق الإسلامي، وفنائها في أوربا المسيحية[١].

أما عن التأريخ الواقعي لانتشار الإسلام بمصر، فإن الملاحظ أن الإسلام كان يمضي فر طريقه نحو الذيوع والانتشار في خطوات سريعة. ويذكر د/حسن محمود أن سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م على وجه التحديد تعد سنة حاسمة في تاريخ الدعوة غلى الإسلام في مصر، فقد أصبحت غالبية أهل البلاد من المسلمين، يدل على ذلك أن الثورات القبطية –التي كانت بسبب الخراج– قد اختفت منذ ذلك العهد، بانتهاء المقاومة ودخول أغلب الناس في الإسلام. كما أن القبائل العربية التي قاومت الدولة العباسية منذ قيامها قد استكانت منذ ذلك التاريخ؛ لانتشارها في ريف البلاد واختلاطها بالمصريين الذين أسلموا[٢].

وقد بدئ في دخول المصريين في الإسلام قبل الفتح، بل قبل أن يلتقي عمرو بن العاص الفاتح المسلم لمصر بأي جندي روماني، بشهادة الأسقف يوحنا النقيوسي نفسه المعاصر لأحداث الفتح الإسلامي، والذي ذكر أن أحد رهبان دير سيناء ويدعى يوحنا «انضم إلى عقيدة الإسلام، وترك زيه الكنسي، واتخذ له سيفًا، وطارد المسيحيين بسيدنا يسوع»[٣] ويؤكد يوحنا النقيوسي على سرعة إسلام القبط، ومشاركتهم في الفتح بقوله: «وعندما وصل هؤلاء المسلمون مع المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحية، وانضموا إلى عقيدة هذا المفترس»[٤]. وتابع يوحنا النقيوسي المعاصر للفتح الإقبال التدريجي على

(١) راجع الشيخ الغزالي: السابق ١٧٥–١٨٢ و٢١٦–٢٤٣.

(٢) د/حسن محمود: دراسات في تاريخ مصر في العصور الوسطى والحديثة ٢٨ وراجع حتى ٣٨، والإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ٨٠ وراجع حتى ١٠٢، وراجع الإسلام في حوض البحر المتوسط ٤٩–٩٥. وراجع د/سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ١٨٢–٢١٥، ومصر في عصر الولاة ١١١–١٢٥.

(٣) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ٢٢٢.

(٤) يوحنا المقيوسي: السابق ١٩٧.

الإسلام من الأقباط «والآن كثير من المصريين الذين كانوا مسيحيين كذبة، أنكروا العقيدة المقدسة الأرثوذكسية والمعمورية الحية، وساروا في عقيدة الإسلام، أعداء الرب»[١].

وأكرر هنا ما سبقت الإشارة إليه من كلام ليوحنا النقيوسي المتصل بعمرو بن العاص وبالفاتحين المسلمين لمصر «ولم يقربوا شيئًا ما من عمل المسيحيين وتركوا العبرانيين يقيمون بمدينة إسكندرية»[٢]. وقوله: «ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة إسكندرية بعد هربه من الروم في العام (١٣) وسار إلى كنائسه وزارها كلها. وكان كل الناس يقولون: هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا كيرس (المقوقس)[٣] وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر. كان عمرو يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام»[٤].

ويؤكد يوحنا النقيوسي الأسقف المعاصر للفتح الإسلامي على روح الإسلام السمحة، وتطبيقهم لهذه الروح الطيبة من خلال عزل عمرو بن العاص لنصراني زاد على الأهالي في مقدار الجزية، وعامل الأقباط بقسوة، فأبعده عن عمله وولى نصرانيًّا آخر أرأف وأحن على النصارى «وأقصى عمرو ميناس وعين يوحنا بدله، وميناس هذا زاد على المدينة الضرائب التي حددوها....»[٥]. ويصف النقيوسي العامل يوحنا بقوله: «وأشفق يوحنا هذا على الفقراء، وأعطاهم مالًا كثيرًا من ماله...»[٦].

كما سبقت الإشارة إلى ما ذكره الأسقف ساويرس بن المقفع متصلًا بالإقبال على الإسلام، وإن كان يعلل ذلك خطأ فيدعي أن السبب هو الهروب من الجزية، وفي إحدى إشاراته ينعي الإقبال على الإسلام دونما إشارة إلى الفرار من الجزية أو إلى

---

(١) يوحنا النقيوسي: السابق ٢٢٢.
(٢) يوحنا النقيوسي: السابق ٢١٢.
(٣) راجع ترجمة المقوقس لدى المقريزي: المقفى ٣/٢٣-٣٠.
(٤) يوحنا النقيوسي: السابق ٢٢٠.
(٥) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر ٢٢١.
(٦) يوحنا النقيوسي: السابق ٢٢١.

تعنت أو ظلم أو شدة أو إجبار أو إكراه، ففي ولاية حفص بن الوليد[١] على مصر أسلم مرة واحدة أربعة وعشرون ألفًا من القبط. يقول ساويرس: «يا أبانا صل لنا واجتهد، فقد أحصينا من انتقل إلى دين الإسلام من إخواننا بني المعمورية من مصر وأعمالها على يد هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان»[٢].

وللواقدي عدة إشارات تماثل أخبار وروايات يوحنا النقيوسي، وتثبت مسارعة المسيحيين بمصر إلى الإسلام قبل فتحها[٣].

ويذكر الطبري[٤] وغيره[٥] أن عمرو بن العاص خيّر الأسرى سنة ٢٠هـ/٦٤٠م بين الإسلام والنصرانية، فإذا اختار أحدهم الإسلام كبر المسلمون، وإذا اختار أحدهم النصرانية جزع المسلمون لذلك جزعًا شديدًا «حتى كأنه رجل خرج منا إليهم» حرصًا على هدايته، عرض الإسلام على رجل يسمى (أبو مريم) اختار الإسلام وأبوه وأمه وإخوته في النصرانية، حتى وثبوا عليه وشقوا ثيابه. وتركت كنائس الإسكندرية دون أن تمس.

ولأن الاحتكاك والتداخل بين المسلمين وغير المسلمين سبب للتعرف على الإسلام، وعامل من عوامل الوقوف على سلوكيات المسلمين وأفعالهم، فإن المقريزي لاحظ ذلك وبين أثره في نشر الإسلام. يقول: «فانظر –أعزك الله– إلى ما كان عليه الصحابة وتابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف. ومع هذا فكانت القرى كلها في جميع الأقاليم، أعلاه وأسفله، مملوءة بالقبط والروم. ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، عندما أنزل عبيد الله ابن الحبحاب[٦] –مولى– سلول– قيسا– من عرب الشمال– بالحوف الشرقي. فلما كان في المائة الثانية من

---

(١) عن ولايته على مصر راجع الكندي: ولاة مصر ١٠٤–١٠٦ و١٠٦–١١٠، وتغري بردي: النجوم الزاهرة طبعة وزارة الثقافة ٢٦٣/١–٢٦٤ و ٢٩١–٣٠٠ و٣٠٢–٣٠٤. وتولاها لأول مرة سنة ١٠٨هـ ثم سنة ١٢٤هـ ثم سنة ١٢٧هـ– ١٢٨هـ.

(٢) ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ٢٧١/٣–٢٧٢.

(٣) راجع الواقدي: تاريخ الشام ٢٦/٢ و ٤١ و ٤٢ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ١٠٦/٤ وراجع ١٠٥.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ص١٠٢، وابن الأثير: الكامل ٥٦٨/٢، وابن كثير: مجلد ٤ ص١٣٢.

(٦) كان عبيد الله بن الحبحاب مسئولًا عن الخراج في مصر سنة ١٠٥هـ وقبلها بقليل. راجع الكندي: ولاة مصر ٩٥، وتغري بردي: النجوم الزاهرة طبعة وزارة الثقافة وهي الطبعة المعتمدة في هذا الكتاب من هذا الصفحة ٢٥٨/١–٢٥٩.

سني الهجرة، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر وتوابعها[١]. وما برحت القبط تنقض – لأسباب مالية– وتحارب المسلمين إلى ما بعد المائتين من سني الهجرة»[٢]. وذكر الكندي أن عبيد الله بن الحبحاب كتب إلى هشام بن عبد الملك أنه لما قدم مصر لم ير إلّا قليلًا من قبيلة قيس، وبمصر كور ليس فيها حد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا، وهي بُلبَيْس، فإن رأي أمير المؤمنين أن ينزلها هذا من قيس فليفعل. فكتب إليه هشام: أنت وذلك. فبعث إلى البادية، فقدم عليه مائة أهل بيت من نضر ومائة من أهل بيت من عامر، ومائة أهل بيت من أفناء هوازن، ومائة أهل بيت من بني سُليم، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم فاشتروا إبلًا، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل. ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرحل يشتري المهر، فلا يمكن إلا شهر حتى يركب، وليس عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم. فلما بلغ ذلك عامة قومهم، خرج إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة، فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت. «فمات هشام وببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس حتى إذا كان في زمن مروان بن محمد وولي الحوثرة بن سُهيل الباهلي مصر، مالت إليه قيس، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم»[٣]. وأحصي هؤلاء في أثناء تولي محمد بن سعيد الخراج زمن الخليفة العباسي المنصور، فوجودا «صغيرهم وكبيرهم وكل من جمعت الدار منهم خمسة آلاف إلا مائتين أو ومائتين»[٤]. ويذكر المقريزي[٥] أن ابن الحبحاب خرج بنفسه فمسح أرض مصر كلها –عامرها وغامرها مما يصله النيل– فوجد ألوفًا من الفدادين العامرة والباقي تلف، ومن ثم تحتاج إلى عدة ألوف لعمارة الباقي.

وعن دور القبائل العربية السلمي في نشر الإسلام عن طريق الاختلاط والامتزاج مع المصريين النصارى والتزاوج أيضًا، يذكر د/حسن محمود أن القبائل العربية هاجرت

---

(١) راجع عن القبائل التي نزلت مصر ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٩٩.

(٢) المقريزي: الخطط ٢/٢٦٠.

(٣) الكندي: ولاة مصر ٩٨–٩٩.

(٤) الكندي: السابق ٩٩ وراجع ١٣١. ولا يفوتنا هذا أن نشير إلى دور هؤلاء العرب المسلمين في فتح بلاد أخرى كالمغرب، وأذكر هنا أنه في سنة ٥١هـ/٦٧١م نقل عدد كبير من العرب والمصريين المسلمين إلى بلاد القول//. راجع البلاذري: فتوح البلدان ص٤٠٠.

(٥) المقريزي: الخطط ١/٧٤.

إلى البلاد بعد الفتح واستقرت فيها وعملت على صبغ البلاد بالصبغة العربية الحقيقية، وبدأت مصر تصبح بمثابة مستودع لهذه القبائل العربية المهاجرة، ومن هذا المستودع بدأت هذه القبائل تتجه نحو الجنوب في حركات مستمرة فتطرق بلاد النوبة وأرض السودان وتنشر فيها الإسلام والثقافة العربية. وظاهرة هجرة القبائل العربية إلى مصر لم تتم في سنة أو بضع سنين، إنما استغرقت وقتًا طويلًا، واستمرت منذ الفتح الإسلامي للبلاد حتى القرن الخامس الهجري. وبدأت مع الفتح الإسلامي للبلاد حينما استقر جيش الفتح في الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص أو في مدينة الإسكندرية، أو في بعض المناطق الإستراتيجية الأخرى، وكان كلهم أو أغلبهم من عرب الجنوب، ثم توافدت بعض القبائل الأخرى، فزادت أعداد هذه الجالية العربية. ونقل عن الأستاذ لويس ماسينيون في كتابه «حوليات العالم الإسلامي» أن غالبية المسلمين هم من المصريين الذين أسلموا، وقد وضع الأستاذ ماسينيون نسبة مئوية للدماء المصرية على النحو التالي:

٦% من القبائل العربية الخاصة و٢% من البربر و٢% من الحاميين و٨٨% مصريون أسلموا و٢% مصريون لم يسلموا(١).

ولعل قيام المعتصم الخليفة العباسي سنة (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) في السنة الأولى لتوليه الخلافة بإسقاط من في الديوان من العرب بمصر وقطع العطاء عنهم(٢) كان دافعًا لهؤلاء إلى الاستقرار بالريف -كما ذكر المقريزي سابقًا- والاختلاط بالمصريين، واتخاذهم الزرع معاشًا، مما أثمر على تعرف الأقباط على الإسلام وإسلامهم.

---

(١) راجع عن ذلك د/محمود حسن: الإسلام والثقافة العربية ٨١-٨١ و٨٤ و٨٦ و٨٨ و٨٩. وذكر (ص٨٧) تواصل الهجرة زمن الفاطميون من طيئ وقبائل من فزارة وهلال وسليم. وهناك توزيع القبائل جغرافيًّا بمصر. وراجع الإسلام في حوض البحر المتوسط ١١٠-١١١. ودراسات في تاريخ مصر في العصور الوسطى والحديثة ٢٩ و٣٤-٣٨ وراجع د/فهمي عبد الجليل: انتشار الإسلام في مصر في القرنين الأول والثاني الهجريين، بحث بحولية كلية دار العلوم، العدد ٨ عام ١٩٧٧/١٩٧٨م ص١١٩ وراجع ١١٥-١٣٤. وراجع عبد الواحد الإمبابي: الإسلام في أفريقيا ٥٤-٢٥.

(٢) راجع الكندي: ولاة مصر ٢١٧، والمقريزي: المقفى ٣٦٧/٧.

ويدل على تسارع المصريين إلى الإسلام تناقص الخراج[١] المفروض على النصارى، ففي خلافة عمر كان اثني عشر ألف ألف دينار، بعد أن جباه المقوقس في السنة قبله مباشرة عشرين ألف ألف دينار[٢]. كما أن الجزية تناقصت أيضًا[٣]، حتى فكر الأمويون في فرض الجزية على من أسلم، ومن هؤلاء عبد الملك بن مروان ولكنه لم يفعل[٤]، وكُتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك أيضًا «أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية ...» فما كان منه إلا أن أمر عامله على خراج مصر –الذي أرسل له بذلك– : «أما بعد، فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطًا فضع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم هاديًا ولم يبعثه جابيًا، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه». ويذكر ابن عبد الحكم أنه كان لعبد الله بن يعد موالي نصارى «فأعتقهم، فكان عليهم الخراج»[٥].

والخلاصة أنه في سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م على وجه التحديد أصبح المسلمون أغلبية أهالي مصر[٦]. وأنه في سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م عند قيام الدولة الطولونية[٧]، أي مع نهاية عصر الولاة، كانت غالبية أهل مصر قد اعتنقت الإسلام وكانت نسبة من

---

(١) ذكر البعض أن المؤرخين كانوا يجمعون بين الجزية والخراج. راجع د/سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة ١٢٩، ومصر في فجر الإسلام ٢١٧. لكن د/الريس: الخراج ١٤٧–١٥٧ فرّق بين مقادير الجزية والخراج بمصر.

(٢) وأوضح عمرو بن العاص سبب انخفاض الخراج عما كان زمن المقوقس وهو أن الرفق وإمهال الفلاحين إلى حين إدراك الغلة سبب ذلك. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١١٠. والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص١٤٧.

(٣) راجع المقريزي: الخطط ١/٧٤–٧٨، وراجع مناقشة د/الريس لمقدار الخراج والجزية بمصر في كتابه «الخراج» ١٤٧–١٥٧ و٢١٧ و٢٢٠ و٢٢١ و٢٢٢ و٢٣١ و٢٤٥–٢٤٧ و٢٥٦. وذكر المقريزي: السابق ١/٨٠ أن خراج مصر قد بلغ في أيام المأمون العباسي –على حكم الإنصاف في الجباية– أربعة آلاف ألف دينار. وهذا الخبر مهم يدل على إسلام أهالي مصر، لأن عمرو بن العاص جبى الخراج –كما مر– اثني عشر ألف ألف دينار.

(٤) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٠٧، والمقريزي: الخطط ١/٧٧.

(٥) ابن عبد الحكم: السابق ١٠٧.

(٦) ذكر الواقدي أن المسلمين كانوا يعرضون الإسلام على القبط، فأسلم بعضهم في البداية. فتوح الشام ٢/٥٠.

(٧) راجع د/حسن محمود: دراسات في تاريخ مصر في العصور الوسطى والحديثة ص٢٩.

اعتنقوه نحو ٥٥% أو ٥٦%، وتوالى اعتناق الإسلام بعد هذا لتصبح النسبة الآن أكثر من ٩٤%[١].

انتشار اللغة العربية:

من الطبيعي أن تواكب العربية الإسلام في الانتشار بمصر، فهي لغة الفاتحين، وهي وعاء كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموروث الإسلام كله. وكان بمصر قبل فتحها لغتان: الإغريقية (اليونانية) والقبطية. وكانت اللغة اليونانية حتى الفتح الإسلامي لغة الدولة البيزنطية الرسمية، في حين تراجعت اللغة القبطية تراجعًا كبيرًا، حتى كادت أن تزول، لكن الفتح الإسلامي أعاد لها كرامتها وانتعاشها، ولذلك تحدث بها الأقباط بعد الفتح الإسلامي لمصر[٢]، حتى إن القاضي خير بن نعيم قاضي مصر[٣] (ت١٣٧هـ/٧٥٤م) كان يعرف القبطية «وكان يدخل إليه الخصمان فيخاطبانه بالقبطية، ويرد عليهما بها، ويشهد عند الشهود بالقبطية، فيسمع منهما ويحكم بها»[٤].

ولكن العربية وجدت دعمًا من الهجرة العربية إلى مصر، ومن خلال ديوان الخراج بمصر سنة ٨٧هـ/٧٠٥م فتكلم بها بعض الأقباط الراغبين في المحافظة على وظائفهم بالدولة[٥]. وكذلك تعلمها من أسلم من هؤلاء القبط ليؤدوا بها شعائر الدين، وليقرأوا من خلالها مصنفات المسلمين في الدين. وكان الخليفة المأمون العباسي قد زار مصر سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م بسبب غضبة للأقباط على الوالي عيسى بن منصور لظلمه في أخذه للخراج، وبالرغم من أن نسبة كبيرة من المصريين كانت مسلمة، وأوشكت أن تمثل

---

(١) راجع ما نقلته د/سيدة كاشف: أحمد بن طولون ص٢١٩ عن تقرير المستشرق الفرنسي ماسينيون لسكان مصر الحاليين. حيث ذكر أن منهم ٨٨% من القبط اعتنقوا الإسلام، بينما ٩% من العرب الخلص، و٢% من قبائل بربرية مستعربة قدمت مع الفاطميين من شمال إفريقية، وراجع د/جمال الدين الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي ٣٣-٤٧.

(٢) راجع ساويرس: تاريخ البطاركة ٢٧٢/٤ و٦٤٨/٥.

(٣) عنه راجع الكندي: الولاة والقضاة ٣٥٥-٣٥٦، والمقريزي: المقفى ٨٣٤/٣-٨٤٠.

(٤) المقريزي: السابق ٨٣٩. وذكر ص(٨٤٠) قضاءه بين اليهود، وقضاءه بين النصارى.

(٥) راجع الكندي: ولاة مصر ٨٠، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٢١٠/١ طبعة وزارة الثقافة وهي المعتمدة في هذا الكتاب منذ عدة صفحات.

الأغلبيـة، إلا أن المـأمون «كـان لا يمشـي أبـدًا، إلا والتزاجمـة بـين يديـه مـن كـل جنس»[١].

وتشير الروايات إلى أن اللغة العربية بمصر أصبحت لغة القبط في القرن الرابع الهجري، بدليل أن سعيد بن البطريق الملكاني (ت٤٥٨هـ/١٠٦٧م) قد كتب كتابه: «تاريخ الأنطاكي» باللغة العربية، وأن كتاب «سير بطاركة الكنيسة المصرية» لساويرس بن المقفع أخذ يترجم من القبطية إلى العربية في نهاية هذا القرن[٢].

ومما سبق يتبين لنا سبق الإسلام إلى القبط، وسيادة العربية منذ القرن الرابع الهجري بمصر، واندثار اللغة القبطية.

البناء والتشييد:

١- مدينة الفسطاط [٣]:

عندما تم لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية رأى أن تكون هذه المدينة حاضرة لمصر كما كانت، ومركزًا للحكم وإدارة البلاد، وقاعدة للجيش، وكتب بذلك إلى الخليفة في المدينة المنورة، ولاسيما وأن دورها وأبنيتها مشيدة قائمة. إلّا أن عمر بن الخطاب رفض أن تكون الإسكندرية عاصمة لمصر، لأن سياسته في إنشاء المدن الإسلامية الجديدة أن تكون داخل البلاد، ولا يفصل بينها وبينه شبكة من الأنهار والترع، وكان رد أمير المؤمنين عمر: «إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلًا يحول الماء بيني وبينهم

---

(١) المقريزي: الخطط ٨٠/١، وراجع المقفى ٢٨٧/٤-٢٨٨. وورد أن المأمون لما التقى بامرأة قبطية في غاية الثراء الفاحش، كان كلامها يترجم للمأمون. ويذكر د/أحمد عبد الرازق (مصر الإسلامية) ص٧٣ أن وثيقة من البردي وصلتنا عبارة عن إيصال لدفع الضرائب سنة ٢٤٦هـ عليها كتابة قبطية.

(٢) راجع ساويرس: سير بطاركة الكنيسة المصرية ١١٢/٦. ولعل كتابة وثائق الجنيزة بالعربية وبحروف عبرية دليل على انتشار العربية بين اليهود أيضًا. وراجع عن انتشار العربية بمصر: المقدسي: أحسن التقاسيم ٢٠٣.

(٣) عن بنائها راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٦٨-٧٢، والكندي: ولاة مصر ٣٢-٣٣، والمقريزي: الخطط ٢٩٥/١-٣٠٣ و ٣٣٩/١-٣٤٦. وابن العميد: تاريخ المسلمين ٩١، والسيوطي: حسن المحاضرة ١٣٠/١ و ١٥٢-١٥٤، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٦٤/١-٦٥، وابن إياس: بدائع الزهور ١٠٣.

في شتاء ولا صيف، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم إليكم قدمت». وعندئذ أخذ عمرو يبحث عن مكان تتوفر فيه رغبة الخليفة يكون آمنًا سهلًا ميسورًا، لا تقطعه موانع طبيعية عن المدينة المنورة، فوقع اختياره على الموقع الذي كان ينزل فيه المسلمون عند حصارهم حصن بابليون، بين النيل والمزارع غربًا وجبل المقطم شرقًا. وكان هذا المكان هو موضع المدينة القديمة عاصمة مصر قبل الإسكندرية: «منف» حاضرة المصريين القدماء.

ولم يكن اختيار هذا المكان مصادفة أو اعتباطًا، وإنما كان الاختيار مبنيًّا على عدة اعتبارات مهمة، مما جعل أحد الباحثين[1] يذكر أن عمرو بن العاص وفق في اختيار موقع الفسطاط؛ لأنه راعى في موقعها عدة أمور مهمة، منها:

١- موقع الفسطاط عند رأس الدلتا له الوجهتين الحربية والإدارية ما يجعله في مأمن من هجمات العدو، ويسهل وصول العتاد والأقوات لقربها من الأراضي الزراعية، كما أن له الناحيتين التجارية والصناعية مزايا ظاهرة.

٢- من مزايا موقع الفسطاط توفر الشرط الذي يجب يعنى في بناء المدن وهو أن يكون لها جانب يمكن أن يطرد فيه اتساعها. وهذا الاتجاه بالقياس إلى الفسطاط هو الشمال، فلما أريد توسعتها بنيت العسكر فالقطائع فالقاهرة، وفي العهد القريب شيدت العباسية في أعقاب الحسينية ثم مصر الجديدة ومدينة نصر.

٣- أن الضفة الشرقية مجاورة للمقطم ومرتفعة ولا يغمرها النيل في أثناء الفيضان. لذلك كان الامتداد على هذه الضفة. ولم ينقل إلى الضفة الغربية إلا في السنوات الأخيرة.

ونشأة قاعدة الإسلام في مصر في وقت الفتح الإسلامي، كانت نشأة متواضعة جدًا، ولم تكن في بدايتها أكثر من معسكر للجند الفاتح، ومركز للقيادة والإدارة، وأقيمت في نفس المكان الذي أحرز فيه المسلمون النصر الحاسم على جيش الروم. وهكذا بنيت الفسطاط في الفضاء الواقع شمال حصن بابليون وكان عبارة عن حقول مزروعة

---

(١) د/عبد الرحمن ذكي: الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ص٦ وراجع ٨-٢٨. وراجع الأستاذ محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ١٦-٢٠، وراجع د/جمال الدين الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي ٢١-٣٢، ود/حسن الباشا: قبل أن تكون القاهرة. مقال (بكتاب القاهرة) ٩-٢٤.

وصحراء تمتد من النيل حتى جبل المقطم. والفسطاط قريبة من الصحراء، ويسهل الاتصال منها بمركز الخلافة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وحدد علماء الآثار موقع الفسطاط بأنها كانت تمتد شرقًا حتى سنح جبل المقطم، وغربًا حتى النيل، وشمالًا إلى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر الذي أقيم عليه مسجد أحمد بن طولون، وجنوبًا حتى ساحل أثر النبي الذي يعرف الآن بدار السلام، ويتوسطها جامع عمرو. واختط عمرو بن العاص داره الكبرى بجوار الجامع الذي يفصل بينهما طريق، واختطت القبائل بعدها خططها، وهي عبارة عن أحياء متصلة كانت بيوتها تتكون أول الأمر من طبقة واحدة من اللبن، ثم أخذت تلك الدور تزداد في الاتساع والعلو حتى وصل ارتفاع أغلبها إلى خمس طبقات. وكانت الفسطاط قد بدئ في إنشائها سنة ٢١هـ وأخذت تنموا نمو سريعًا[١].

ويذكر ابن عبد الحكم[٢] والسيوطي[٣] أن بعض القبائل التي أسهمت في الفتح الإسلامي لمصر آثرت أن تكون المواضع المخصصة لها والمعروفة بالخطة على الضفة الغربية للنيل، فكتب بذلك عمرو إلى عمر، فأمره بتخيير هذه القبائل، وإذا اختاروا الجيزة، فليبن عليهم حصنًا، ولما عرض عليهم عمرو ذلك أعجبهم موضعهم بالجيزة، فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن سنة ٢١هـ.

وتدل أوصاف الخطط وتقدير الأبعاد، طبقًا لرواية ابن عبد الحكم على أن موقع الفسطاط القديمة كان يشغل مسطحًا طوله نحو خمسة آلاف متر، حده من الشمال جبل يشكر، الذي يقع عليه جامع ابن طولون الآن، ومن الجنوب دير الطين (دار السلام الحالية) وفي وسطه جامع عمرو ممتدًا على ضفة النيل مقابل الجزيرة التي تعرف الآن بجزيرة الروضة، وأن عرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر لأن النيل حده الغربي، وكان مجرى النيل يومئذ أقرب إلى الفسطاط من موضعه الحالي[٤].

---

(١) راجع د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٤٧-٥١.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص٩١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ١٣٦/١. وتجدر الإشارة هنا إلى أن تغري بردي (النجوم الزاهرة) ٧١/١ ذكر بناء عمرو بن العاص لبيت مال بالفسطاط. وقيل بعد ذلك سنة ٩٧هـ.

(٤) الأستاذ عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ١٩-٢٠.

٢- جامع عمرو بن العاص[١]:

بني المسجد الجامع، جامع عمرو بن العاص العتيق بعد الفراغ من بناء العاصمة «الفسطاط» وكان موضعه خانا. وهذا المسجد الذي سمي بتاج الجوامع كان في بادئ أمره عبارة عن بناء بسيط لا يزيد طوله على خمسين ذراعًا (٦٤سم) ولا يزيد عرضه على ثلاثين ذراعًا. وقد وسع في عصر الولاة أكثر من مرة أولها في سنة ٥٣هـ/٦٧٢م، ومنها: تجديد سنة ٩٢هـ/٧١١م و١٧٥هـ/٧٩١م وسنة ٢١٣هـ/٨٢٨م. وليس في المسجد الآن شيء من أصله القديم اللهم إلا اسمه.

ويذكر د/حسين مؤنس (رحمه الله) أن هذا المسجد أعيد بناؤه ست عشرة مرة، آخرها كان في سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م على يد مراد بك أثناء الحكم العثماني لمصر. والمبنى الحالي للمسجد حديث، بني في أوائل العشرينات من هذا القرن (١٩٢٢م)[٢].

وغني عن الذكر أن لجامع عمرو بن العاص دورًا عظيمًا في نشر الإسلام وتعليمه بمصر، أشارت إليه كل المصادر التاريخية[٣].

٣- حفر خليج أمير المؤمنين[٤]:

عُرف هذا الخليج -كما جاء في المصادر التاريخية- بخليج مصر، وخليج القاهرة، والخليج الحاكمي، وبخليج اللؤلؤة، وخليج أمير المؤمنين وبه عُرِف في أول الإسلام. وهذا الخليج يصل بين النيل والبحر الأحمر. وكان هناك قناة قديمة زمن الرومان تعرف باسم خليج تراجان تصل النيل بالبحر الأحمر. غير أنّ هذه القناة طمست أجزاؤها عند الفتح الإسلامي لمصر. ولما أصاب الناس جهد بالمدينة المنورة وشدة سنة ثماني عشرة

---

(١) راجع عن بنائه ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٧١-٩١ و٩٣-٩٤ وراجع ٩٤-٩٧، والكندي: ولاة مصر ٦١ و٧٣ و٨١ و٨٥، والمقريزي: الخطط ٢/٢٤٥-٢٥٥، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ١/٦٦-٧١، والسيوطي: حسن المحاضرة ١/١٣٢-١٣٣، وابن إياس: بدائع الزهور ١٠٩-١١٠. ويذكر هنا أن عددًا من الصحابة الكرام قاموا بتحديد قبلته.

(٢) د/حسين مؤنس: المساجد ٦٧، وراجع د/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ١٣٢-١٥٠.

(٣) راجع على سبيل المثال المقريزي: المقفى ٥/٢٥٣ و٥٤١ و٦/٧٠ و١٠٣-١٠٤ و١٢٠ و١٢٨ و٢١٣-٢١٤ و٧/٤٢٧.

(٤) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١١٢، والمقريزي: الخطط ١/٧٠، وابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ١١٢-١٢٠، والسيوطي: حسن المحاضرة ١/١٥٦-١٥٨.

للهجرة، حتى سميت هذه السنة بـ «عام الرمادة» كتب عمر بن الخطاب إلى واليه عمرو بن العاص رسالة يستمده فيها ويطلب عونه، ففكر عمرو في طريقة لإيصال المدد إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة في زمن يسيرن وعبر طريق آمن، فأعاد حفر القناة الواصلة بين النيل والبحر الأحمر في سنة واحدة، وإن كان بعض المؤرخين يذكر أن هذا العمل انتهى منه في ستة أشهر فقط. وجرت في هذا الخليج السفن محملة بالغلال والطعام إلى بلاد الحجاز، ورأى عمر بنفسه رسو السفن الآتية من مصر على ميناء المدينة المعروف بالجار وهو في طريقه إلى الحج[١].

ويذكر الباحثون المحدثون[٢] أن هذا الخليج لم تزل السفن تجري فيه من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم (السويس) وكان ماء النيل يصب في البحر الأحمر، حتى أمر الخليفة المنصور بردمه كيلا تصل الأطعمة إلى محمد النفس الذكية الذي خرج على أبي جعفر بالمدينة المنورة سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، وأعيد فتحه أمام الخليفة المهدي، إلا أن عدم اهتمام الولاة بتطهيره قد طمه. وظل هذا الخليج يجوس خلال القاهرة إلى مسافة ما في الشمال الشرقي، ويضفي على المدينة شيء من الجمال، حتى صدور الأوامر أوائل القرن الثالث الهجري، أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بردمه لأسباب صحية. فردم، وشق في مكانه الآن ما يعرف بطرق بور سعيد. وكان طول الخليج من فم الخليج حتى البحر الأحمر تسعين ميلًا أي حوالي ١٤٠كليومترًا. ولم يكتف عمرو بن العاص بإعادة حفر هذا الخليج، وإنما نوى حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط على نحو قناة السويس الآن، وكانت البحيرات المرة على اتصال بالبحر الأحمر زمن الفتح، أي إن هذه الوصلة كانت ضمن الحفر. وفكر عمرو بن العاص بأن يصل بحيرة التمساح والبحيرات المرة بالبحر المتوسط، وعرض ذلك على الخليفة عمر بن الخطاب، لكن الخليفة أبى عليه، لأنه يمكّن للروم من الوصول إلى البحر الأحمر وقطع طريق الحجاج. وهذه الرواية التي ذكرها تبلر[٣] تدل على بعد نظر الخليفة عمر، وفي الوقت نفسه على ذكاء وألمعية عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

---

(١) راجع ابن عبد الحكم: السابق ١١٣-١١٤.

(٢) راجع د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٥٥-٥٦ وراجع من ص٥٤، ود/عبد الرحمن ذكي: الفسطاط ٢٩-٣٠، ود/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ١٦٥ وراجع ١٦٢-١٦٧. ود/محمد حمدي المناوي: نهر النيل في المكتبة العربية ١٢٦-١٣١.

(٣) تبلر: فتح العرب لمصر ٢/٢٩٩-٣٠٠.

٤ – إنشاء مدينة العسكر:

ظلت مدينة الفسطاط عاصمة لمصر الإسلامية حتى نهاية العصر الأموي، فلما قامت الدولة العباسية وأضحت مصر إحدى ولاياتها، رأى العباسيون أن الفسطاط قد ضاقت بأهلها، فبنى صالح بن علي عم الخليفة أبي العباس السفاح، وأول وال على مصر للعباسيين، العسكر سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م في الفضاء الواسع الواقع شمال شرقي الفسطاط على مقربة من جبل يشكر في مكان عُرِف في صدر الإسلام باسم «الحمراء القصوى». وفي هذا المكان الذي أسست فيه العسكر بنيت دار للإمارة ومسجد عرف بمسجد العسكر، وفي ولاية السري بن الحكم[١] سمح للناس بالبناء حول العسكر، فكثرت فيها العمارة حتى اتصلت العسكر بالفسطاط، وأصبحتا مدينة كبيرة، شيدت فيها المساجد الدور والبساتين والأسواق. وظلت العسكر ثاني عواصم مصر الإسلامية مقرًّا للولاة العباسيين إلى أن تحول عنها أحمد بن طولون وأنشأ مدينة القطائع إلى الشمال الشرقي منها، ولما زالت الدولة الطولونية عاد أمراء مصر إلى مدينة العسكر إلى أن أنشأ الفاطميون القاهرة[٢].

الحكم والإدارة:

كانت مصر في فترة الولاة تابعة للخلافة الإسلامية الراشدة بالمدينة المنورة، ثم للخلافة الأموية بدمشق، ثم للخلافة العباسية ببغداد، وكان نظام الخلافة هو النظام المركزي، بينما ظل نظام كل قطر مفتوح على ما كان عليه من حيث الإدارة والولايات. واستفاد عمرة بن العاص في بداية الفتح الإسلامي بالخبرات الإدارية البيزنطية والقبطية، بما يهيئ لهم الإفادة من عدالة الإدارة الإسلامية، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بما ألفوه من نظم إدارية في ظل الدولة البيزنطية. وظلت مصر تنقسم إداريًّا[٣] إلى أقسام تسهل للأهالي عملهم.

---

(١) عنه راجع الكندي: ولاة مصر ١٨٦–١٨٩و١٩١–١٩٦، وتولى مصر مرتين الأولى (٢٠٠هـ) والثانية (٢٠١–٢٠٥هـ).

(٢) المقريزي: الخطط ٣٠٣/١–٣١٢و ٢٦٣/٢–٢٦٤.

(٣) عن أعمال مصر وكورها راجع المقريزي: الخطط ٧١/١–٧٣.

ويذكر العدوي[١] أن مصر قسمت إداريًّا إلى الأقسام التي أطلق عليها الكور بدلا من الكلمة البيزنطية (باجارشي) فكانت هذه الكور أو الأقاليم الإدارية التي اشتملت عليها البلاد أشبه بالمحافظات في الوقت الحاضر، ولكل إقليم حاكم حمل لقب «صاحب الكورة» ومهمته تنظيم العلاقة بين أهالي منطقته والإدارة المركزية. وجاء بعد هذه الطبقة من العمال من أصحاب الكور، رؤساء القرى ومشايخها الذين عرفتهم الإدارة الإسلامية باسم «موازيت» وهي نفس الكلمة اليونانية التي أطلقتها عليهم الإدارة البيزنطية، وتعني القومة على شئون الحكم المحلي في القرى (أشبه بالعمد الآن). وجرى تنسيق بين الإدارة الإسلامية، وتلك الإدارات المحلية وفق خطة محكمة وإشراف دقيق. واقتضى النظام المركزي قيام هيئة للإشراف على الولاة والعمال ممكن أن نسيمها على حد المصطلح الشائع في الوقت الحاضر باسم «الرقابة الإدارية» ومهمتها التوجيه والإرشاد ومنع وقوع الخطأ، وفي الوقت نفسه توقيع الجزاء الإداري على المخطئ والمنحرف، وتولى الخلفاء بطبيعة الحال هذه المسئولية الجسيمة.

فالمسلمون إذن أبقوا على نظام مصر الإداري، واستعانوا بالقبط خاصة. يقول المقريزي: «وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم، فكانت جبايتهم بالتعديل: إذا عمرت القرية وكثر أهلها يزيد عليهم، وإن قل أهلها وخربت نقصوا. فيجتمع عرافوا كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها، فيتناظرون في العمارة والخراب، حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع...»[٢].

وقد سبقت الإشارة إلى العديد من الوظائف التي تولاها القبط في عصر الولاة، ومن خلال المصادر المسيحية قبل غيرها، ومنها وظيفة «مازوت» القرى أي عمدها، ومنها ولاة بعض الأقاليم كما حدث في الصعيد، ومنها المشاركة في صناعة السفن التي كانت تتم في عصر الولاة بالإسكندرية وجزيرة الروضة والقلزم، ومنها العمل في ديوان الخراج ككتبة وهو ما ذكره المقريزي «وكثيرا ما كان هذا الكاتب من النصارى

---

(١) العدوي: مصر الإسلامية ٣٩-٤٠، وراجع إلى ٥٢.

(٢) المقريزي: الخطط ٧٦/١ وراجع النص الطويل كله هناك الدال على طريقة جمع الضرائب (الخراج) ومراعاة حالة الأرض من حيث الخصب أو الجدب، ويتوقف ذلك على فيضان النيل. وراجع السيوطي: حسن المحاضرة ١٤٥/١.

الأقباط»[١]. وكان القبط أيضا يشتركون في تقرير خراج الأرض «... وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة وساروا إلى كل ناحية»[٢].

واحتكر النصارى الإشراف على مقاييس النيل التي تراقب مقدار ارتفاع أو انخفاض النيل، والذي على أساسه يتم تقدير خراج الأرض. وقد تتبع المقريزي المقاييس بمصر قبل الفتح الإسلامي، وبعده، وذكر بناء عمرو بن العاص لمقياسين بأسوان ودندرة [٣] وبناء مقياس بأنصنا[٤] في أيام معاوية وآخر بحلوان في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان منزل والي مصر عبد العزيز بن مروان عنده. ثم بنى المتوكل بالجيزة مقياسًا ثانيًا غير الذي بني سنة ٩٧هـ/٧١٦م بها في خلافة سليمان بن عبد الملك، وكان بناء المتوكل لمقياسه سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م «وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد، وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه، فجعل يزيد بن عبد الله التركي –أمير مصر– على المقياس أبا الرداد المعلم...»[٥].

ومقياس المتوكل من أهم الآثار الإسلامية التي احتفظت إلى الآن بكثير من معالمها وحظيت بعناية المهتمين بدراسة التاريخ والآثار من شرقيين وغربيين. وقد تناولته يد الإصلاح والتجديد طوال العصور المختلفة، وكان أول الإصلاحات على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٩هـ/٨٧٩م، وآخرها على يد المهندس كامل عثمان وكيل وزارة الأشغال السابق الذي ألف كتابًا عن المقياس يعد أوفى مرجع عنه[٦].

---

(١) المقريزي: الخطط ٨٥/١.

(٢) المقريزي: السابق ٨٥/١. وعن صناعة الأسطول راجع الخطط ١٨٨/٢-١٩٦.

(٣) دَنْدَرة: بليدة على غربي النيل من نواحي الصعيد دون قوص. ياقوت: معجم البلدان. ٤٧٧/٢-٤٧٨.

(٤) أنْصَنا: مدينة من نواحي الصعيد شرقي النيل. ياقوت: السابق ٢٦٥/١-٢٦٦.

(٥) المقريزي: الخطط ٥٧/١ وراجع حتى ٦١، وراجع تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣١١/٢ وراجع ٣٠٩/٢-٣١٤. وذكر أن الاعتماد على هذا المقياس استمر إلى أيامه (ت٨٧٤هـ) وفي أيدي أولاد أبي الرداد أيضًا. كما ذكر اهتمام حكام مصر بإصلاحه والعناية به. وراجع الكندي: ولاة مصر ٢٢٩ وهناك ذكر خبرًا ملمًا عن الرباط بدمياط. واستعداد الوالي يزيد بن عبد الله للروم الذين هددوا باقتحام الفرما.

(٦) د/المناوي: نهر النيل في المكتبة العربية ١٥١ وراجع ١٤٧-١٥٤.

كما سبقت الإشارة إلى أن عمرو بن العاص استعمل مائة وعشرين ألفًا من القبط في حفر خلجان مصر وإقامة جسورها وبناء قناطرها «معهم الطور والمساحي والأداة يعتقبون ذلك لا يدعون ذلك شتاءً ولا صيفًا»(١).

وقد أبقى المسلمون أراضي مصر على حالها، ولم يتعرضوا لها، بالرغم من فتح مصر عنوة -في أحد الآراء(٢)- وفوضوا عليه -فقط- الخراج.

وكان الخراج المفروض على النصارى على قدر الطاقة، يراعى في أخذه مساحة الأرض، وكمية المحصول الناتج عن الزراعة، وحالة الأرض من حيث العمارة والخصب أو الجدب والقحط. فالاحتمال والطاقة هو سياسية المسلمين في تحصيل الخراج(٣).

وكان عمر بن الخطاب قد كتب إلى عماله بتقسيط الخراج على كل موضع من سلطانه «فوضعت الدواوين، وقسط الخراج على بلدة بلدة، وكورة كورة ومدينة مدينة وقرية قرية»(٤).

ومما يدل على عدم امتداد الحكم الإسلامي لمصر إلى أراضي الناس ما سبقت الإشارة إليه من تملك الدولة الإسلامية للأراضي التي انحسر عنها -فقط- النيل، والتأكيد على أنها ليست ملكًا لأحد. يقول الكندي (٥): «وكتب الحر -والي مصر- إلى هشام (ابن عبد الملك) يعلمه أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها، فإن الناس مضطرون إليها، فأذن له في بنائها قيسارية، فابتدأ في بنائها في رجب سنة سبع ومائة، وفرغ منها في سنة ثمان ومائة، وهي قيسارية هشام التي عند الجسر». وتذكر د/سيدة كاشف أن الأراضي التي كان يمتلكها الأباطرة قبل الفتح الإسلامي لمصر، وكانت ملكًا خاصًا لهم أو الأراضي

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٠٤.

(٢) راجع عن ذلك ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٦٤-٦٨ و١٠٦-١٠٧، والسيوطي: حسن المحاضرة ١/١٢٥-١٣٠، والمقريزي: الخطط ١/٢٩٣-١٩٤.

(٣) راجع السيوطي: السابق ١٤٦.

(٤) المنبجي: تاريخ المنبجي ٥٢.

(٥) الكندي: ولاة مصر ٩٥، وراجع خبرًا آخر المقريزي: السابق ٢/١١٦.

التي خلت بخروج أهلها من مصر أو وفاتهم هي التي آلت إلى الدولة الإسلامية، وهذا لا يمس حقوق الأهالي ولا ينقض الصلح الذي أعطاه المسلمون للمصريين [١].

وكانت الأموال المتحصلة من الجزية والخراج يصرف معظمها على مصالح مصر المختلفة[٢]، والباقي يرسل إلى الخلافة الإسلامية لتستعين به في مصالحا المختلفة، وما أكثرها!!. يقول ابن عبد الحكم: «وكان عمرو يبعث إلى عمر بن الخطاب بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه»[٣].

وكشفت أوراق البردي عن نظام الجزية والخراج في مصر وغيرها أنها كانت تحدد بدقة وإحصاء شامل[٤]. وأثبتت هذه الأوراق أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص[٥]. وكانت الضرائب المفروضة، والمتمثلة في الخراج والجزية، بسيطة إذا ما قورنت بدخول الناس، وكانت تتناسب مع القدرة على الإنتاج والقدرة على الدفع فتزداد عل الغني، وقد يعفى منها الفقير. وإذا قورنت بالسياسية المالية للبيزنطيين عدت تغيرًا جذريًّا في التفكير الاقتصادي في هذه الفترة [٦].

وقد ذكر غوستاف لوبون أن عمرو بن العاص عامل الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل[٧]. وإذا ما قارنا بين الجزية والخراج في العهد الإسلامي وفي العهد البيزنطي [٨] لوجدنا أن ما فرض على المصري من جزية[٩] أقل

---

(١) د/سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ٥٣ بتصرف.

(٢) راجع سيديو: خلاصة تاريخ العرب ٨٠-٨١.

(٣) ابن عبد الحكم: السابق ١٠٤، وراجع الكندي: ولاة مصر ٧٥ و٩٢ و٩٩، والمقريزي: المقفى ٢/٤١٠ و٤٣٥.

(٤) راجع عن ذلك د/إبراهيم العدوي: النظم الإسلامية ٢٧١-٢٧٤.

(٥) راجع عن ذلك د/سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ٣٨-٤١.

(٦) راجع د/حسن محمود: الإسلام في حوض البحر المتوسط ص ٥٧ بتصرف.

(٧) غوستاف لوبون: حضارة العرب ٢١٥، وراجع حضارة المسلمين في مصر ٢١٩-٢٤٢.

(٨) عن الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي راجع د/زبيدة عطا: كتاب بالعنوان السابق ١٠-١٢٨. وليس هناك عصر قبطي بمصر، وإنما عصر بيزنطي.

(٩) تجدر الإشارة هنا إلى أن ضريبة الرأس زمن الرومان رمز عبودية ولا علاقة بذلك بمفهوم الجزية في الإسلام التي هي ضريبة دفاع.

بكثير من مما كان يلزم بدفعه من قبل، واعترف بذلك كثيرون من كتاب النصارى والمستشرقين[١]. على أن ترتون المستشرق الإنجليزي يزعم أن الأقباط كانوا يدفعون زمن عمرو بن العاص نفس الضريبة التي كانوا يدفعونها للبيزنطيين[٢]. وإن صح ما ادعاه ترتون، فيكفي تحرر مصر من الاستبداد السياسي والاضطهاد الديني والنهب الاقتصادي، والفتن الداخلية وسوء الأحوال الاجتماعية.

وحدثت ثورات للقبط، اشترك معهم أحيانًا العرب المسلمين فيها بسبب محاولات الدولة الأموية زيادة خراج الأراضي الزراعية، وأولى هذه الثورات كان سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م «وذلك أول انتفاض القبط بمصر»[٣] وآخرها كان في خلافة العباسيين سنة ست عشرة ومائتين في أيام المأمون. وقد تتبع المقريزي[٤] هذه الثورات وذكر أن حجة ولاة مصر في زيادة الخراج الذي سبب الثورة: «أرض مصر تحتمل الزيادة». ويصور الكندي الثورة الأخيرة في تاريخ مصر الإسلامي بقوله: «ثم انتفضت أسفل الأرض كلها، عربها وقبطها في جمادي الأولى سنة ست عشرة، وأخرجوا العمال، وخالفوا الطاعة، وكذلك ذلك لسوء سيرة العمال فيهم...»[٥]. فسبب الثورات -إذن- كان إما لزيادة الخراج وإما لسوء سيرة العمال، ولم تكن -أبدًا- بسبب ديني.

---

(١) راجع هناك د/عبد الصبور شاهين: مصر في الإسلام ١٨٤-١٨٥، ود/مصطفى بدر: مصر الإسلامية ٤٧.

(٢) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ٢٤٦.

(٣) الكندي: ولاة مصر ٩٥ وراجع ص١١٨ و١٣٧-١٣٨ و١٤١ و١٤٨-١٤٩ و١٦١ و١٦٦ و١٦٩ و١٧٩ و١٧٦ و٢٠٨ و٢١٤.

(٤) راجع المقريزي: الخطط ٧٨/١-٧٩ و٧٩-٨١، وراجع المقفى ٢٨٧/٤-٢٨٨، وساويرس بن المقفع: سير بطاركة الكنيسة المصرية ١٩٢/٤-٢١١.

(٥) الكندي: ولاة مصر ٢١٤.

الفصل الثاني
(مصر في ظلال الإسلام زمن الطولونيين والإخشيديين)

أولًا: الطولونيون:

تمهيد:

عرف العالم الإسلامي لأول مرة استخدام الأتراك في خلافة الخليفة العباسي (١٧٠-١٩٣هـ) وذلك بعد استقرار الأحوال، وانتشار الإسلام بتركستان موطن الترك الأول. وقد وصل المسلمون إلى حدود «تركستان» لأول مرة بفتوحاتهم سنة ٣١هـ/٦٥١م بعد الانتهاء التام من فتح فارس (إيران). وبدأ الفتح الإسلامي الحقيقي لتركستان مع القائد العظيم قتيبة بن مسلم الذي وذل بفتوحاته إلى حدود الصين. وإذا كان الأمويين قد أخضعوا الأتراك الغربيين لدولتهم، فإنهم أيضًا تصدوا لإغارات الأتراك الشرقيين الين تمتد إمبراطوريتهم من بلاد الصين إلى تركستان. ومع العباسيين امتد النفوذ الإسلامي إلى الأتراك الشرقيين؛ وبدئ في استخدام الترك في وظائف الدولة والجيش وحدث هذا مع هارون الرشيد بصورة محددة، وتوسع المأمون قليلًا في هذا الاستخدام للترك، وتزايد الاعتماد على الترك مع الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) الذي كانت أمه تركية فاستكثر منهم، وبنى لهم مدينة «سرُ من رأى». وأصبح الترك أصحاب الحول والسطول في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤هـ). وينتسب مؤسس الدولة الطولونية إلى الجيش التركي، واعتمد على الأتراك في دولته [١].

أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢م/٨٦٨-٩٠٥م):

تنتسب الدولة الطولونية إلى أحمد بن طولون [٢] الذي كان أبوه طولون أهداه مع جماعة من الأتراك الأرقاء نوح بن أسد الساماني أمير بخارى وخراسان إلى الخليفة

---

(١) راجع كتاب «الشرق الإسلامي في ظلال المماليك والعثمانيين» للمؤلف ٣٥-٣٧ وراجع المصادر هناك.

(٢) عن بداية أحمد بن طولون راجع البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٣٣-٤٦، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٧٣-٨٧، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٣-٦، والنويري: نهاية الأرب ١٩/٢٨-٢٢. ومعنى طولون بالتركي: البدر الكامل. وراجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩٤/١٣-٩٦، والمقريزي: الخطط ٣١٢/١-٣١٣، وابن إياس: بدائع الزهور ١٦١-١٦٩.

المأمون سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، فصار من مماليكه، ونشأ طولون في البلاط العباسي وظهرت عليه أمارات الذكاء والنبوغ، فتدرج في الوظائف، حتى أصبح يتولى منصب رئيس حرس الخليفة المأمون، ثم المعتصم من بعده، وكان ابنه أحمد قد ولد من جارية تركية سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م ببغداد قبل اختطاط مدينة سامرا بشمالي بغداد بسنة واحدة. ونشأ أحمد بن طولون كأطفال الترك بأن أخذ قسطًا من علوم الإسلام واللغة العربية، وتفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وتعلم العلوم العسكرية التي تؤهله للعمل فر حراسة الخليفة. وتوفي والده طولون سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وأحمد ابنه في العشرين من عمره. وتزوجت أمه من الأمير التركي «باكباك» أحد أقوى الأتراك في العصر العباسي الثاني، عصر نفوذ الترك. ولما كانت مدينة طرسوس الواقعة في أقصى الشمال الغربي لبلاد الشام إحدى الثغور مع الروم [1]، وتزخر بالمرابطين، ومنهم العلماء والفقهاء، فإن أحمد بن طولون أستأذن الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) لينضم إلى حامية (طرسوس) ليكون في جهاد دائم ذد البيزنطيين، وهناك رابط في سبيل الله، وأخذ المعارف والعلوم على أيدي العلماء، وبخاصة الحديث النبوي. وهكذا استفاد أحمد بن طولون من فترة رباطه بطرسوس بتلقي العلوم الدينية وتكوينه حربيًّا.

وعاد أحمد بن طولون إلى عاصمة العباسيين سُر من رأى من طرسوس عقيب مقتل الخليفة العباسي المتوكل، وتشير المصادر إلى حسن علاقته بالخليفة المستعين (٢٤٨-٢٥١هـ/٨٦٢-٨٦٥م) الذي تولى بعد المنتصر وكانت ولايته لا تتعدى ستة أشهر فقط. ولم يشارك أحمد بن طولون في قتل الخليفة المستعينوأعلن رفضه لقتله «لا رآني الله قتلت خليفة بايعته أبدً» وقام بدفن الخليفة، الأمر الذي جعله موضع تقدير رجال البلاط وكبار الضباط من الترك، والرأي العام المعاصر.

وبتولي المعتز للخلافة (٢٥١-٢٥٥هـ/٨٦٥-٨٦٨م) كوفئ المقربون منه والمخلصون له، ومن بينهم التركي باكباك وأعطاه الخليفة المعتز مصر إقطاعًا، نظير دفع مبلغ معين من المال إلى خزانة الخليفة كل عام، ولما كان الولاة آنذاك يفضلون

---

(١) درس الدكتور فتحي عثمان: أحوال الثغور في كتابه «الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري» ووقع في ثلاثة أجزاء وفي الجزء الثالث تناول الأحوال الثقافية بالثغور راجع ٢٥٥-٣٦٢.

البقاء إلى جانب الخليفة بحاضرة الدولة، ويرسلون إلى الأمصار من يحكمها نيابة عنهم، فإن زوج أم أحمد بن طولون اختاره ليكون نائبًا عنه في مصر، ووكيلًا يطمئن إليه بها، فسار إلى مصر في رمضان سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م، وتمكن من إنشاء دولة مستقلة بها، تمتعت باستقلال ذاتي عن الخلافة العباسية.

ولاية أحمد بن طولون على مصر(١):

حضر أحمد بن طولون إلى مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٢٥٤هـ ومعه بعض الجند ليتولى أمر مصر دون خراجها، ودون الإسكندرية وبرقة والساحل، التي لها حاكم عسكري متفرغ للدفاع عنها «متقلدًا للقصبة دون غيرها من الأعمال الخارجية عنها كالإسكندرية ونحوها»(٢). ووجه أحمد بن طولون بمصر بصعوبات، تغلب عليها كلها بمقدرة فائقة وذكاء واضح ودهاء شديد، وبنظام الجاسوسية الدقيقة التي استطاع بها أن يتعرف على الوشايات التي وشي بها إلى الخلافة، وأن يقضي على أعدائه ومن فرط اهتمامه بالتجسس على الناس أصبح له غرام به (٣).

ويمكن حصر الصعاب التي واجهها ابن طولون في مصر في الآتي:

١- لم تكن الإسكندرية وبرقة والساحل تابعة له، بل لإسحاق بن دينار المسئول عن الإسكندرية ولأحمد بن عيسى المسئول عن برقة. وهما خاضعان للخلافة العباسية مباشرة.

٢- كان خراج مصر مسئولية أحمد بن المدبر الذي تولاه منذ سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م وكان له نفوذ قوي في مصر «لما تسلم أحمد بن طولون مصر، كان على الخراج أحمد بن المدبر -وهو من دهاة الناس وشياطين الكتاب- فأهدى إلى أحمد بن طولون هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار، بعدما خرج إلى لقائه هو وشقير الخادم، غلام قبيحة أم المعتز وهو يتقلد البريد»(٤) فرفض ابن طولون المال، وأعلن رغبته في قبول الحرس

---

(١) راجع عن ذلك الكندي: المغرب في حلى المغرب ٧٦-١٣٣، والمقريزي: الخطط ١/٣١٣-٣١٧، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٦-٤٩.

(٢) المقريزي: السابق ١/٣١٣.

(٣) راجع البلوي: السابق ٥٦-٥٧ و١١٥ و١١٨ و١٢٢ و١٢٤ و١٢٥ و١٢٨ و١٣٣.

(٤) المقريزي: الخطط ١/٣١٣.

الخاص المحيط بابن مدبر، فاستجاب ابن مدبر، فاستجاب ابن المدبر، وفقد بذلك جزءًا من هيبته وجاهه.

٣- كان عامل البريد شقير على صلة قوية بالخلافة العباسية، وكان عينها على الولاة والموظفين بمصر، كما هو الحال مع أصحاب البريد في كل إقليم.

ولما كان أحمد بن طولون شديد الطموح، واسع الأمل، فإنه لم يقف بولايته المنقوصة لمصر عند الفسطاط فحسب التي لا يجاوزها سلطانه وإنما سعى في التغلب على المصاعب التي واجهته، وعلى منافسيه من كبار الدولة، وتمكن من بسط نفوذه على مصر؛ بأن أصبح أميرًا عليها، وليس مجرد تابع لإقطاعي يقيم بحاضرة العباسيين، وأتم سيادته على مصر بالسيطرة على البريد والخراج، وتولية موظفين عليها يدينون له بالولاء والطاعة.

وكانت سياسة أحمد بن طولون لتدعيم نفوذه بمصر، وتحقيق آماله به تقوم على إغداق الهدايا والعطايا والهبات لأصحاب النفوذ وكبار الشخصيات في البلاط العباسي، فأفسد هؤلاء السعايات والوشايات التي انطلقت من ابن المدبر للنيل من أحمد ابن طولون. كما استغل ابن طولون كل فرصة للتمكين لنفسه، ومن ذلك حاجة الخلافة العباسية إلى المال، وانشغالها بثورة الزنج[١]، وخروج والي الشام عيسى بن الشيخ على الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) ورفض الاعتراف بسلطانه، ومحاولة الاستقلال بفلسطين والأردن، بل وبمصر أيضًا بعيدًا عن العباسيين [٢].

وقد خدمت الأحداث والظروف أحمد بن طولون لتحقيق آماله وطموحاته[٣] إذ قُتِل باكباك والي مصر من الأتراك زوج أم أحمد بن طولون الذي ينوب عنه بمصر سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م في خلافة المهتدي، ورد جميع ما كان بيده إلى يارجوخ التركي حمى

---

(١) بدأت فتنة الزنج سنة ٢٥٥هـ وقضي عليها سنة ٢٧٠هـ. وعنها راجع بالتفصيل «المسلمون في ظلال العباسيين» للمؤلف ١٩٥-٢٠٢.

(٢) راجع الكندي: ولاة مصر ٢٤١-٢٤٢، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٧.

(٣) لاحظ أن ابن إياس: بدائع الزهور ص١٦١ ذكر أن ابن طولون عندما دخل مصر كان ضيق الحال، يحتقره كل من يراه، وقبل مالًا من أحد الأعيان، ولم يقبل من ابن المدبر، وطلب عبيدة وحرسه الخاص، وفي ذلك مغزى عميق، أدركه ابن المدبر الذي أرسل لتوه يغري به عند المعتز. راجع المقريزي: الخطط ٣١٣/١-٣١٤.

(والد زوجته) أحمد بن طولون الذي تولى مصر من قبل الخليفة العباسي، فأرسل إليه حموه يارجوخ «تسلم من نفسك لنفسك» وأمره بتسلم الإسكندرية من إسحاق بن دينار، «وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر». ويعلق المقريزي على ذلك بقوله: «فعظمت لذلك منزلته، وكثر قلق ابن المدبر وغمه، ودعته ظروف الخوف من ابن طولون –إلى ملاطفته والتقرب من خاطره. وخرج ابن طولون إلى الإسكندرية وتسلمها من إسحاق بن دينار»[١]. وبذلك أضحى ابن طولون نائبًا عن حميه في حكم مصر وبرقة، ومنحه سلطانًا كاملًا على مصر.

وانتهز أحمد بن طولون ورود كتاب من الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م) يستحثه في حمل الأموال إلى الخلافة «فكتب إليه: لست أطيق ذلك والخراج بيد غيري، فأنفذ المعتمد نفيسًا الخادم إلى أحمد بن طولون بتقليده الخراج بمصر، وبولايته على الثغور الشامية، فأقر أحمد بن طولون أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع خليفة له عليه»[٢] وعلق تغري بردي على ذلك بقوله: «فصار الأمر كله بيد أحمد بن طولون وقويت شوكته بذلك، وعظم أمره بديار مصر»[٣].

أما صاحب البريد شقير الخادم فقد فقد سنده، فاستدعاه أحمد بن طولون راجلًا من داره، وأمره بدفعه بعنف في أثناء سيره إليه «وكان شقير الخادم مُبَدَّنًا مُرَفّهًا، وقصد أحمد بن طولون، لعلمه بذلك منه أن يقتله بالتعب، فلم يصل إليه إلا وقد كادت نفسه تخرج. فلما مثل بين يديه أمر بأن تحضر السياط والعقابان –خشبتان يشج الرجل بينهما– فأحضرا، وأمر بشده في العُقابين، وغفل عنه، فاستغاث ساعة، وسقطت قوته ووقع، وتبين فيه الموت فلم يضرب، وأمر برده إلى داره راكبًا، فلما حصل فيها مات آخر نهار يومه»[٤].

---

(١) المقريزي: الخطط ٣١٣/١-٣١٤، وراجع أيضًا الكندي: السابق ٢٤٢-٢٤٣، وتغري بردي: السابق ٦.

(٢) الكندي: السابق ٢٤٣-٢٤٤، وتغري بردي: السابق ٧.

(٣) تغري بردي: السابق ٧. ويذكر هنا أن ابن المدبر تولى خراج دمشق والأردن وفلسطين إلى سنة ٢٦٤هـ عندما استولى ابن طولون على الشام وقبض على ابن المدبر وحبسه بمصر ومات بمحبسه.

(٤) البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٥٨، وعن انتقام احمد بن طولون من موظف كبير آخر ص٨٨-٨٩.

وسنحت لابن طولون فرصة نادرة لإنشاء جيش خاص، ذلك أن والي فلسطين والأردن عيسى بن الشيخ الشيباني طمع في ولاية الشام كله، وأراد الاستقلال بالشام عن خلافة المعتمد العباسي، واستولى على مبلغ كبير من المال كان مرسلًا من مصر إلى عاصمة الخلافة، ولم يقف عيسى بن الشيخ عند هذا الحد، وإنما امتدت أطماعه إلى ضم مصر أيضًا، فأرسل المعتمد إلى ابن طولون يطلب إليه إخضاع هذا الوالي المتمرد، ومناه بضم الشام إلى ولايته إن نجح في تلك المهمة، وبزيادة جيشه، ولما خرج ابن طولون من مصر ليؤدي تلك المهمة، أمره الموفق طلحة بالعودة إلى مصر وتكليف قائد تركي يدعى أماجور بالقيام بتلك المهمة، فلم يجد صعوبة ولا حرجًا في إتمام مهمته. بإخضاع عيسى بن الشيخ وهزيمة جيشه، فأسند حكم الشام إلى أماجور حتى سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م. وفيها استولى ابن طولون على بلاد الشام[١].

وقضى ابن طولون على الثورات التي هددت حكمه بمصر، ومنها ثورة الشيعة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م [٢]. وثورة ابن العباس التي استمرت ثلاث سنوات (٢٦٥-٢٦٨هـ) وكان العباس الابن الأكبر لابن طولون قد خرج على أبيه بالجيزة، ومنها توجه إلى الإسكندرية فبرقة، بينما كان ابن طولون بثغور الشام، يقاتل الروم، وقد هُزم العباس -الطامع في تكوين إمبراطورية بالشمال الأفريقي- أمام جيش إبراهيم ابن الأغلب بشمال إفريقية، وأمام قوة من البربر، ووقع أخيرًا في قبضة قوة صغيرة أرسلها ابن طولون للقضاء على ثورته، فسجن بالفسطاط حتى مات إثر وفاة أبيه سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م في سجنه [٣].

على أن أحمد بن طولون دخل في صراع مرير مع الموفق طلحة أخي الخليفة المعتمد، وهو رجل قوي نهض بالخلافة العباسية في عصرها الثاني، وعمل على إقصاء أحمد بن طولون من مصر، بعدما أرسل مبلغًا قليلًا عما طلبه ليواجه به الزنج،

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٨-١١-١٤، والمقريزي: الخطط ٣١٤/١، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٣، وراجع البلوي: السابق ٨٩-١٠٠، وراجع البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٩١-٩٣.

(٢) راجع البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٦٢-٦٣، و تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢١/٣-٢٢، وراجع فتنة أخرى: النجوم الزاهرة ٤٤.

(٣) راجع الكندي: ولاة مصر ٢٤٦-٢٥٠، والنويري: نهاية الأرب ١٤/٢٨-١٦، وتغري بردي: السابق ٤٠.

وتعلل أحمد بن طولون بكثرة إصلاحاته ومنشآته بمصر التي تتطلب أموالًا كثيرة. وعلى إثر ذلك أرسل الموفق طلحة جيشًا قاده القائد التركي موسى بن بغا لينزل مصر وليحكمها بدلًا من ابن طولون الذي عزله الموفق طلحة عن حكمها، إلّا أن جنو موسى بن بغا ثاروا عليه مطالبين بالعطاء والأرزاق المتأخرة، فعاد دون أن يصل مصر، وفشلت المحاولة الأولى لاقتحام مصر، كما فشلت محاولات أخرى تالية، وانتهى الأمر بين الرجلين القويين بإسقاط ابن طولون اسم الموفق من الخطة، واستصدار أمر من المفتين بعزله عن ولاية العهد، بينما أصدر الموفق أمرًا بلعن ابن طولون على المنابر [١]. ولم يتوقف العداء بين الموفق طلحة وخليفة ابن طولون ابنه خمارويه، وجرت لقاءات عسكرية بين الجانبين انتهت سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م بصلح تضمن منح مصر والشام والثغور لخمارويه وأولاده مدة ثلاثين سنة، في مقابل إرسال ثلاثمائة ألف دينار للخلافة سنويًّا [٢].

أعمال ومنشآت أحمد بن طولون بمصر:

يذكر بعض الباحثين أن همة أحمد بن طولون لم تكن لتقنع بالنيابة في الفسطاط عن التركي باكباك، وإنما كان يفكر في استقلال لا يبعده عن كونه سنيًّا مواليًا للعباسيين، وخطا من أجل ذلك خطوات منسقة تتجه لتحقيق هدفه المرسوم، وهو التمكين لنفسه في مصر أولًا، ثم الاستقلال بهذا البلد الاستقلال الذي كانت العقلية الإسلامية المعاصرة تفهمه، وكان أحمد يعمل لهذا في دار الخلافة في ضوء ما كان يشيع فيها من الفتن والمؤامرات السياسية مستعينًا بالجاسوسية الدقيقة التي مكنته من تكييف رسائله وتحديد أهدافه. وعظماء الرجال دائمًا آمالهم أبعد من تفكير معاصريهم، وهم لا يكشفون في العادة عن نيتهم سافرة، وإنما يشكلون هذه النية حسب الظروف. ونحيل أن مشروعات ابن طولون الاستقلالية لم تسفر عن وجهها فجأة، إنما ظهرت بالتدريج على صورة خطوات متتابعة تتجه نحو هدفها وهو التمكين والاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية. وتمكن ابن طولون أن يبسط سلطانه على القطر كله، وشرع منذ

(١) راجع تغري بردي: السابق ٣/٢٤، والبلوي: السابق ٧٩-٨٨ و ٩١.

(٢) راجع تغري بردي: السابق ٣/٥١-٥٢، وراجع النويري: السابق ٢٢-٢٨.

البداية في إعلاء شأنه باستقلال يكاد يكون تامًا، وبرخاء تنعم به البلاد في عصره، واعتمد في سبيل تحقيق ذلك الغرض على جيش عظيم، هو الذي أعده لنفسه ولابنه من بعده، وكان هذا الجيش وافر العدد والنظام، وقائمًا حتى زمن السلم [١].

الجيش [٢]:

من أهم خطوات أحمد بن طولون في سبيل التمكين لنفسه وتحقيق أهدافه هي بناء الجيش المصري الذي لا يعتمد على الخلافة، وإنما يعتمد عليه، ويدين بالولاء لابن طولون، وكانت نواة جيشه مائة غلام كانوا حرسًا خاصًا لعامل الخراج أحمد بن المدبر الذي سلب منه أحمد بن طولون السلطة بدهائه وقوة شكيمته، حيث إنه لما وصل مصر رد هدية ابن المدبر المالية، وقبل هديته الأخرى المكونة من مائة غلام كانت النواة الأولى لجيش بن طولون في مصر، أضيفت إلى عدد من الجند كان ابن طولون قد اصطحبهم حين قدومه إلى مصر، وأدت ثورة ابن الشيخ والي الشام، إلى تمكنه بمساعدة الخليفة المعتمد على إنشاء جيش كبير، وأصبح لمصر لأول مرة جيش عظيم مستقل عن الخلافة. وخدمت الظروف أحمد بن طولون عندما عدل الخليفة عن رأيه الأول، فلم يفقد الجيش الطولوني شيئًا في قتال ابن الشيخ، بل أعفى من هذه المهمة وتولتها جيوش عراقية أرسلها الخليفة، وكان ذلك مكسبًا كبيرًا لمصر [٣].

---

(١) راجع د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٤٠، ود/حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني ٣٣ و٣٩، ود/سيدة كاشف: أحمد بن طولون ١٢٥، وراجع د/محمد رفعت: تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية ٨٨.

(٢) راجع أخبارًا عنه لدى المقريزي: سيرة أحمد بن طولون ص٣٣٦ وراجع ٥٢ و٥٣ و١١١، وذكر كثرة نفقاته على الجيش. والمقريزي: الخطط ٣١٤/١ وذكر كثرة الجيش الطولوني وعرضه. وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٩/٣ وذكر رزق الجيش المصري في أيام خمارويه بن أحمد بن طولون في السنة تسعمائة ألف دينار. وراجع ابن إياس: بدائع الزهور ص١٦٢ وذكر كثرة جند ابن طولون وعدم استيعاب الفسطاط لهم فبنى شرقي مدينة الفسطاط مدينة أخرى هي القطائع. وراجع الكندي: ولاة مصر ٢٤١.

(٣) أشار الكندي إلى بناء ابن طولون لحصن بجزيرة الروضة سنة ٢٦٣هـ ليكون معقلًا لأهل بيته وذخائره ووزع أعمال البناء على أمراء الجيش. ولاة مصر ص٢٤٤، وراجع البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٨٧.

وكان جيش ابن طولون خليطًا من عدة عناصر منها: الترك والريلم والعرب والسودان، ولا يستبعد أنه قد استعان بفريق من الجند المصريين تمشيًا مع سياسته المعروفة بميله لأهل البلاد. وقد استفاد ابن طولون من التجربة التي عاشتها في بغداد وما عرفه من غلبة الترك واستبدادهم، فخاف أن يغلب على الجيش المصري عنصر واحد يستبد بالأمر، ولم يكن من المعقول أن يتخذ جنده كلهم من القبائل العربية التي استقرت في مصر منذ الفتح. ولما خلف خمارويه والده لم تقل عنايته بالجيش عن عناية ابن طولون، بل قد فاقتها، فزاد عدد الجند وأدخل عناصر جديدة إليه، واستكثر من الأتراك في الجيش، وضم إليه طائفة من المصريين(١).

البحرية(٢):

لم يهمل ابن طولون الناحية البحرية، يقول الكندي: «واجتهد أحمد بن طولون في بنيان المراكب الحربية، وإطافتها بالجزيرة»(٣). وكان ابن طولون عني بالأسطول عنايته بالجيش، ولكن يبدوا أن بناء الأسطول جاء متأخرًا بعض الشيء، ولم تتضح الحاجة الماسة للأسطول إلا بعد توسع ابن طولون في بلاد الشام، واضطراره إلى حمايته والدفاع عن شواطئه، ومواجهة الهجوم البيزنطي ثم المحافظة على طرق الاتصال البحري بين الشام ومصر. ثم زادت عنايته بالناحية البحرية لما وضحت مشروعات الموفق للقضاء عليه، وتفكيره في غزو مصر، وخوف ابن طولون من أن يطأ العدو من ناحية النيل، لذلك شرع في بناء حصن الجزيرة والإكثار من بناء السفن، وعني

---

(١) راجع عن الجيش الطولوني د/عبد الرحمن ذكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي ١/١٠-١٥، ود/أحمد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٥٤، ود/سيدة كاشف: أحمد بن طولون ١٢٥-١٣١، ود/مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية ١٥٠-١٥١، وراجع د/حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني ٤٦-٤٨. وأذكر هنا أن د/حسين مؤنس في «مصر ورسالتها» ص٨٧ ينفي أن يكون ابن طولون قد ارتفع بمصر ويقول: الصحيح أن مصر هي التي رفعته وجعلت منه شيئًا. أما هو فقبل أن يدخلها لم يكن شيئًا.

(٢) عن الأسطول زمن ابن طولون راجع الكندي: ولاة مصر ٢٤٤، والمقريزي: الخطط ٢/١٩٥-١٩٦، والبلوي: سيرة أحمد بن طولون ٨٧ و٨٨ و٢٠٨ وذكر عناية ابن طولون بأسطوله.

(٣) الكندي: السابق ٢٤٤.

بدور الصناعة. وينقل البلوي عن المشرف على الأسطول الطولوني أبي كامل بن أسلم قوله: «ألزمني دار الصناعة»[١]. كما ذكر البلوي سفن هذا الأسطول «واتخذ مائة مركب عربية كبارًا ومائة مركب حربية سوى ما ينضاف إليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسناديل وقوارب الخدمة»[٢].

وأسطول هذا شانه لابد أنه لعب دورًا كبيرًا في حياة ابن طولون وفي مشروعاته العسكرية بعكس ما يظن. ويخيل إلينا أن مشروعاته في بلاد الشام كانت تعتمد على حماية بحرية عظيمة، كما أن تصديه لغارات البيزنطيين كان يعتمد بدوره على هذه الحماية البحرية. حملته على الشام أتاحت له استخدام أسطوله، بل إنه أنشأ قاعدة بحرية في عكا، وحصن هذا الميناء على يد مهندس من بيت المقدس، وهو جد المقدسي الجغرافي المعروف [٣].

إنشاء مدينة القطائع [٤]:

من أهم المنشآت التي أقامها أحمد بن طولون بمصر عاصمته التي تسمى القطائع، وقد كان من عادة ولاة مصر وحكامها منذ الفتح الإسلامي أن يهتموا باتخاذ حاشرة لهم. وقد رأى احمد بن طولون أم مدينة العسكر ضاقت ببلاطه وحاشيته وجنده، ولا تتناسب مع رغبته في الاستقلال بمصر، فرأى أن يختط حاضرة جديدة لمصر، ووقع اختياره على الفضاء على جبل يشكر بين المقطم في الشرق، وميدان زين العابدين الحالي من الغرب وشارع الصليبة من الشمال وفضاء شمالي الفسطاط من الجنوب، وسميت المدينة الجديدة باسم القطائع؛ لأنها قسمت إلى أحياء وقطائع، كل قطيعة منها لطائفة أو جنس من طوائف الجيش الطولوني، فكل طائفة من رجاله

---

(١) البلوي: السابق ٢٠٨.

(٢) البلوي: السابق ٢٠٨.

(٣) عن الأسطول الطولوني راجع د/حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية ٤٨، ود/أحمد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٥٥، ود/سيدة كاشف: أحمد بن طولون ١٣٥-١٤١. وراجع عن البحرية في مصر د/حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط ص٤٥ و٦٠ و٦١ وذكر اشتراك القبط في موقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ/٦٥٥م وهو على دينهم.

(٤) راجع عن إنشائها البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٥٢-٥٦ ووصفها بأنها أعمر من مدينة كبيرة من مدن الشام وأكبر وأحسن. والمقريزي: الخطط ١/٣١٤-٣٢٦ و٢/٢٦٨، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/١٤-١٧، وابن إياس: بدائع الزهور ١٦٢-١٦٤. وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٨٣. وراجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/٢٢.

اتخذوا لهم فيها قطيعة من الأرض وعمروها، وكان ذلك سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م. فموضع القطائع مكان بين الفسطاط والمقطم يحده الآن من الشرق قلعة الجبل، ومن الغرب مسجد السيدة زينب، ومن الشمال شارع الخضيري والصليبة، ومن الجنوب أطلال مدينة العسكر بجوار سلخانة القاهرة، وكانت القطائع تجمع بين المناعة والفخامة. وبنى أحمد بن طولون في عاصمته الجديدة قصرًا كبيرًا له أبواب عديدة، ويعرف القصر الآن بالمنشية، واتخذ له ميدانًا كبيرًا، وأنشأ فيه أماكن للطيور، ومرابط للسباع، وغرس فيه الأزهار والرياحين. ويقال: إنه أنفق عليه خمسين ألف دينار، بخلاف ما أنفقه على المنشآت الأخرى التي أقامها أحمد بن طولون وأنفق عليها أموالًا طائلة. وكان هذا القصر والعمائر التي أقامها أحمد بن طولون يشبه إلى حد كبير تخطيط سامراء بالعراق، ولذلك أطلق علي مدينة سامراء أيضًا اسم «القطائع». وأنشأ ابن طولون إلى جوار قصره وميدانه مسجده الذي لا يزال يعرف باسمه حتى الآن. وقد اشتملت مدين القطائع على المنازل والأسواق والحمامات ودواوين الدولة والبيمارستان وغير ذلك من المنشآت التي زال معظمها واندثر. وإنشاء القطائع –عاصمة أحمد بن طولون– لم يقض على العسكر أو الفسطاط. والواقع أن القطائع والعسكر لم تكونا في الحقيقة إلا ضاحيتين للفسطاط أو امتداد لها، مع أن الناس حينئذ كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها، كما اعتبروا القطائع بعد ذلك. وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية، تضم القبائل العربية التي شاركت في فتح مصر أو هاجرت إليها بعد الفتح، بينما كانت القطائع خططًا للعناصر التي طرأت على الحياة الإسلامية في القرن الثالث الهجري. وحفلت مدينة القطائع بالعلماء والمحدثين والأدباء والمؤرخين، منهم على سبيل المثال القاضي بكار بن قتيبة [١] الذي كان من أبرز القضاة [٢] وأعلمهم بالفقه الإسلامي، ومن المحدثين الربيع بن سليمان[٣] تلميذ الإمام الشافعي، وغيرهم. وكان سقوط الأسرة الطولونية إيذانًا بسقوط هذه الحاضرة الجديدة وتخريبها، ولكن ذكراها لا تزال قائمة بفضل المسجد الجامع الذي يقوم فيها[٤].

---

(١) عنه راجع الكندي: الولاة والقضاة ٤٧٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٩–٦٠٥.

(٢) عن القضاة في مصر حتى زمن الطولونيين راجع الكندي: السابق ٣٠٠–٤٧٦.

(٣) عنه راجع الذهبي: السابق ١٢/٥٩١–٥٩٢.

(٤) راجع د/مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية ١٦٥–١٦٦، ود/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٥٦–٢٥٨، ود/سيدة كاشف: أحمد بن طولون ٢٤٠–٢٤٥.

إنشاء جامع أحمد بن طولون [١]:

يعد جامع أحمد بن طولون ثالث جامع أنشئ بمصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر الذي زال من الوجود بزوال مدينة العسكر (منطقة زين العابدين والمذبح). وأراد أحمد بن طولون أن يكون له مسجد «جامع كبير» ينافس جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر ويكون عنوانًا لعظمة الأمير ولرخاء البلاد في عصره، فاختار ابن طولون مكانًا لهذا الجامع على جبل يشكر. وهذا المكان يتوسط القطائع عاصمة ابن طولون الجديدة. وقد بدأ بناءه سنة ٢٦٣هـ وفرغ من بنائه سنة ٢٦٥هـ. وتبلغ مساحة جامع ابن طولون حوالي ستة أفدنة ونصف، وكان لنشأة ابن طولون في العراق أثرها في نقل الأساليب المعمارية العراقية إلى مصر في عهده، وظهور تلك المؤثرات على عمارة المسجد سواء من ناحية التصميم أو التخطيط والزخرفة، ويوجد بالرواق الشرقي جزء من لوحة رخامية تضمنت اسم المنشئ وتاريخ إنشاء المسجد مكتوبة بالخط الكوفي. ومئذنة الجامع تدل على التأثر بمآذن العراق، إذ إن هذه المئذنة متأثرة إلى حد كبير بمئذنة مسجد سامرا، المعروفة «باللولوية»، وتقع هذه المئذنة في الزيادة الغربية وتكاد لا تتصل بسائر بناء الجامع وتتميز بشكلها الحلزوني الذي لا نظير له في البلاد الإسلامية اللهم إلا في الجامع الكبير بسامرا. ويرجح أن يكون مهندس الجامع عراقيًّا، وذكرت المصادر أن اسمه «سعيد بن كاتب الفرغاني». وكان سعيد هذا قبل بناء المسجد قد أنشأ لابن طولون قناطر توصل الماء من بئر بمنطقة البساتين إلى قصره الذي أنشأه بمدينة القطائع، وكان الماء يسير في عقود إلى القطائع، ولا تزال بعض عقودها قائمة حتى الآن. ويعد جامع أحمد بن طولون من أهم وأقدم الآثار الإسلامية في مصر، ذلك أن جامع عمرو بن العاص وهو أقدم جامع في مصر لم يبق على حاله كما كان في عصر بنائه، إذ أدخل عليه على مر العصور الإسلامية إصلاحات كثيرة، وأضيف إليه من الأبنية ما غير معالمه

---

(١) عنه راجع الكندي: ولاة مصر ٢٤٣ و٢٤٥، والبلوي: سيرة أحمد بن طولون ٥٦، والمقريزي: الخطط ١/٣١٥ و٢/٢٦٤-١٤٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٨-١٢، وابن إياس: بدائع الزهور ١٦٣.

الأولى. أما جامع أحمد بن طولون فقد احتفظ تقريبًا بكل تصميماته الأولى، وأصبح البناء الوحيد الذي توافرت فيه الشروط في مصر والشام قبل العصر الفاطمي [١].

ويذكر المقريزي أن ابن طولون ألزم أولاد المصلين بمسجده للجمعة بتلقي العلم بعد الصلاة في مجلس الربيع بن سليمان «ليكتبوا العلم». وذكر المقريزي أن النفقة بلغت على هذا الجامع مائة وعشرين ألف دينار. وأمر ابن طولون بتجهيز خزانة شراب (صيدلية) فيها جميع الأشربة والأدوية «وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة، لحادث يحدث للحاضرين للصلاة. وبناه على بناء جامع سامرا، وكذلك المنارة»[٢].

بناء البيمارستان [٣]:

ذكر المقريزي أنه في سنة تسع وخمسين ومائتين بنى أحمد بن طولون بيمارستانًا في أرض العسكر، ولم يكن قبل ذلك بمصر بيمارستان، ولما فرغ من بنائه أوقف عليه الأوقاف، واشترط ألا يعالج في هذا البيمارستان جندي ولا مملوك، وأقام حمامين للمارستان: أحدهما للرجال، والأخرى للنساء «حبسهما على المارستان وغيره». واشترط أيضًا أنه إذا جيئ بمريض تنزع ثيابه ويؤخذ ما معه من مال، ويحفظ هذا عند أمير المارستان، ثم يلبس المريض ثيابًا، ويفرش له «ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبدأ، فإن أكل فروجًا ورغيفًا. أمر بالانصراف، وأعطي ماله وثيابه»[٤].

وكان ابن طولون قد أنفق على هذا البيمارستان ستين ألف دينار. «وكان يركب بنفسه كل يوم جمعه، ويتفقد خزائن المارستان (الصيدلية) وما فيها، والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر الإعلام»[٥].

---

(١) راجع د/سيدة كاشف: أحمد بن طولون ٢٤٥-٢٥٢، ود/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٥٨-٢٦٠، ود/كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر ٣٣-٣٨، د/مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية ١٦٦-١٦٨، ود/حسين مؤنس: المساجد ٢٠٢-٢٠٤، ود/أحمد عبد الرازق: مصر الإسلامية ١٠٤. ويذكر هنا أن ابن طولون أنشأ مسجد آخر على جبل المقطم سنة ٢٥٩هـ عرف بمسجد التنور في المكان الذي يوجد فيه الآن مسجد الجيوشي. راجع د/أحمد مجاهد: السابق ٢٥٩-٢٦٠، ود/بدر: السابق ١٦٨.

(٢) المقريزي: الخطط ٢٦٥/٢.

(٣) عنه راجع الكندي: ولاة مصر ٢٤٣، والمقريزي: الخطط ٤٠٤/٢، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/٣، وابن إياس: بدائع الزهور ١٦٤، وراجع البلوي: سيرة أحمد بن طولون ١٨٠.

(٤) المقريزي: السابق ٤٠٤/٢.

(٥) المقريزي: السابق والصفحة نفسها.

ويبدوا أن هذا البيمارستان كان به قسم للمرضى النفسيين الذين حظوا بعناية ابن طولون أيضًا[١].

ويذكر البلوي[٢] أن البيمارستان ضم خزانة بها من العقاقير النفسية الخطيرة الكثير، والدرياقات المعروفة «التي ليست إلى في خزائن الملوك والخلفاء. فلم يكن يعدم في بيمارستانه شيء من الأدوية ولا العقاقير الرئيسية مثل دواء المسك وغيره مما لا يوجد مثله. واشترى له المستغلات النفسية التي يفي بعضها لجميع حوائجه».

أعمال ومنشآت أخرى:

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من أعمال ومنشآت لابن طولون بمصر، فإن هناك أعمالًا ومنشآت أخرى منها ما سبقت الإشارة إليه من إصلاح مقياس النيل في جزيرة الروضة. وكذلك تطهير الخليج الذي يربط الإسكندرية بالنيل المعروف بترعة الإسكندرية التي بموضعها الآن ترعة المحمودية، ومن ذلك إصلاح منارة الإسكندرية[٣]، والسقاية التي أقامها خارج القطائع في الصحراء في المنطقة الواقعة الآن بين جهة البساتين وبين القرافة الكبرى. وقد أوصل إليها الماء على قناطر معلقة كالتي يراها في طرسوس. ويقال إن المهندس الذي بنى هذه السقاية هو نفسه الذي بنى جامع أحمد بن طولون فيما بعد. وكان قد أحكم بناءها حتى صارت نادرة المثال. وأدى إنشاء هذه السقاية إلى ازدياد العمران في منطقتها[٤]. وقد استغرقت هذه الأعمال البنائية مدة طويلة وأموالًا كثيرة، ولذا نرى ابن طولون لا يستطيع إرسال الأموال السنوية إلى الخلافة العباسية كالمعتاد.

وفاة ابن طولون [٥] وتقييمه:

توفي ابن طولون سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م قبل أن يبلغ الخمسين من عمره بعد أن حكم مصر ستة عشر عامًا، ومن خلال سيرته يتبين لنا وجود تناقض في شخصيته، الأمر

---

(١) المقريزي: السابق والصفحة نفسها.

(٢) البلوي: السابق ١٨٠.

(٣)راجع المقريزي: الخطط ١/١٥٤-١٥٨.

(٤) راجع د/مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية ١٦٩-١٧٠، ود/سيدة كاشف: أحمد بن ص٢٥٥، ود/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٦٠، وذكر بناء ابن طولون لقلعة بيافا غدت بها المدينة صعبة المنال على المهاجمين.

(٥) ترجم المقريزي: (المقفى ٢/٥٠) لكاتب نصراني زمن الطولونيين، وللماذرائي (٦/٢٣٤-٢٤٧) (و٣/٤٦٦) ومن خلال الترجمتين الأخيرتين يمكن معرفة خراج مصر في زمنهم.

الذي جعل الآراء تختلف فيه بين مادح وقادح، فالبعض لا يرى فيه إلّا الصفات المحمودة، والبعض الآخر لا يرى فيه إلا الصفات المذمومة، لكنه –على أية حال– نجح فيما أراده وسعى إليه، واستخدم في ذلك وسائل مشروعة وأخرى غير مشروعة، فضلًا عن شدته وقسوته أحيانًا، وهذه الصفات يحتاج إليها أحيانًا أصحاب الهمم العالية في بعض الظروف والأحوال والمناسبات.

وقد وصف النويري[١] أحمد بن طولون بقوله: «وأما سيرته، فإنه، رحمه الله، كان عادلًا شجاعًا، كريمًا متواضعًا، حسن السيرة، يباشر الأمور بنفسه ويتفقد رعاياه ويحب أهل العلم، ويُدني مجالسهم. وكان كثير الصدقات. وهو الذي بنى قلعة يافا، وكانت المدينة بغير قلعة». وذكر بعد ذلك أولاده من البنين والبنات الذين بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين، كما ذكر ما تركه من أموال وعبيد، وأنهى حديثه عن ابن طولون بصدقاته التي بلغت ألف دينار شهريًّا، سوى ما كان يقدمه من خبز ولحم وطعام وكساء وختم ذلك بقوله: «فكانت سيرته –رحمه الله– أجمل سيرة، وفراسته أعظم فراسة، بحيث إنه كان ينظر إلى الرجل فيدرك بفراسته غرضه»[٢].

وواضح من الوصف السابق تركيز المؤرخ النويري على حسنات ابن طولون، أنا تغري بردي فذكر شخصية ابن طولون من جميع جوانبها فقال: «وكان جميع خصال ابن طولون محمودة، إلا أنه كان حاد الخُلُق والمِزاج، فإنه لما ولي مصر والشام ظلم كثيرًا، وعسف وسفك كثيرًا من الدماء. يقال أنه مات في حبسه ثمانية عشر ألفًا»[٣].

أما ابن إياس فيقول: «وكان نافذ الكلمة، وافر الحرمة، استقل في أيامه بملك مصر، ولم يدخل تحت طاعة خلفاء بغداد، وكان حكمه من بلاد الغرب إلى الفرات، وفتح في أيامه مدينة أنطاكية وغيرها من البلاد، وكان الناس يخيرونه على خلفاء بغداد في عدله بين الرعية. غير أنه كان شديد الغضب سيء الخلق، سفاكًا للدماء، إذا قدر لم يعف حتى قيل مات في حبسه ثمانية عشر ألف إنسان»[٤].

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٢١/٢٨ وراجع حتى ٢٢.
(٢) النويري: السابق ٢٢/٢٨، وراجع البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٣٤٠–٣٦٤.
(٣) تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣/٣.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ١٦٨ وراجع حتى ١٦٩.

ومما سبق يتبين لنا أن ابن طولون أنعش أحوال مصر الاقتصادية في عصره، وجعلها بلدًا قوية، وأنشأ بها العديد من المنشآت المختلفة، وكان لا يستطيع التحكم على أعصابه إذا غضب، كما كان شديد البطش بأعدائه ومخالفيه.

وأخيرًا أنقل ما جاء في «سير أعلام النبلاء» للمحدث المؤرخ الذهبي الذي ترجم لأحمد بن طولون، وتناول نشأته ودخوله مصر وما أنشاه بها من منشآت، وخراج مصر في أيامه «بلغ ارتفاع خراج مصر في أيامه أزيد من أربعة آلاف ألف دينار» ووصفه بقوله: «وكان بطلًا شجاعًا، مقدامًا مهيبًا، سائسًا، جوادًا، مُمدحًا من دهاة الملوك». قيل: كانت مؤنته في اليوم ألف دينار، وكان يرجع إلى عدل وبذل، لكنه كان جبارًا، سفاكًا للدماء. قال القضاعي: «أحصي من قتله صبرًا، أو مات في سِجنه فبلغوا ثمانية عشر ألفًا»[١].

خلفاء ابن طولون ونهاية الدولة:

خلف ابن طولون ابنه أبو الجيش خُمارويه (٢٧٠-٢٨٢هـ)[٢] فابنه جيش بن أبي الجيش خُمارويه (٢٨٢-٢٨٣هـ)[٣] فأخوه هارون ابن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٨٣-٢٩٢هـ)[٤] وانقرضت الدولة الطولونية في صفر سنة اثنين وتسعين ومائتين في عهد شيبان بن أحمد حيث ندب الخليفة المكتفي بالله العباسي (٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠١-٩٠٧م) محمد بن سليمان كاتب الجيش وأمره بالمسير إلى الشام ومصر لانتزاعها من الطولونيين، وبالفعل دخل المهاجمون القطائع دون أن يدفعهم عنها أحد، وعادت مصر بذلك إلى حكم العباسيين بعد سقوط آل طولون[٥].

وأهم أحداث هذه الفترة التي كانت اثنين وعشرين سنة تقوية علاقة خمارويه بن أحمد بن طولون بالخلافة العباسية بعد وفتة الموفق طلحة سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م ووفاة الخليفة العباسي المعتمد بعده. فتولى الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م)

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/٩٤-٩٥ وراجع حتى ٩٦، وراجع العبر ٢/٤٩-٥٠.

(٢) عنه راجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/٢٢-٣١، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٩-٨٧.

(٣) عنه راجع النويري: السابق ٣١-٣٣، وتغري بردي: السابق ٨٨-٩٨.

(٤) عنه راجع النويري: السابق ٣٣، وتغري بردي: السابق ٩٨-١٣٤.

(٥) راجع النويري: السابق ٣٤-٣٦، وراجع تغري بردي: السابق ١٣٤-١٤٣، وراجع ابن إياس: بدائع الزهور ١٦٩-١٧٥. وراجع الكندي: ولاة مصر ٢٥٨-٢٧٨، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٣٤-١٤٦، والمقريزي: الخطط ١/٣١٥-٣٢٦.

وعقد هذا الخليفة على ابنة خمارويه المشهورة باسم قطر الندى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وأصدقها ألف ألف درهم، ويقال: إن المعتضد أراد بزواجها أن يُفقر أباها خمارويه في جهازها، وهو ما حدث، فإنه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، ولم يسمع بمثله «حتى قيل إنه دخل معها في جملة جهازها ألف هاون -لسحق العطور من عود وطيب- من ذهب»[١]. ومن جملة جهازها دكة للجلوس عليها مكونة من أربع قطع من ذهب مُشبك، معلق بها حبات من الجوهر الثمين[٢]. ولكي نتصور مقدار ما أنفق على إعداد ذلك الجهاز ننقل ما ذكره المقريزي من أن خمارويه سأل ابن الجصاص عما بقي لديه من المال بعد إعداد الجهاز، فأجاب ابن الجصاص بأنه بقي معه كسر مقداره أربعمائة ألف دينار فوهبها له خمارويه[٣]. ومن هذا الجهاز ألف تِكة من أثمان عشرة دنانير. ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته قطر الندى[٤] بنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصر فيما بين مصر وبغداد، وهو مفروش وفيه جميع ما تحتاج إليه «وقد علقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها، وكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد على بُعد الشقة كأنها في قصر أبيها، حتى قدمت بغداد في أول المحرم سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وهي سنة قُتل فيها خمارويه»[٥].

ولا شك في أن الإسراف في إعداد جهاز قطر الندى يدل على ثراء مصر في تلك الفترة، وما كانت تحتويها خزائنها من أموال، وهو ما ظهر واضحًا في أعمال أخرى لخمارويه، تناولتها المصادر بالذكر، وتدل على الترف الشديد الذي عاش فيه خمارويه[٦].

ثانيًا: الإخشيديون (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م):

تمهيد:

عادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية بعد سقوط آل طولون في سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م على يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب، ولما كانت الدولة

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب ٣٠/٢٨، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٣/٣.

(٢) المقريزي: الخطط ٣١٨/١، وتغري بردي: السابق ٦١/٣-٦٣.

(٣) المقريزي: السابق والصفحة نفسه، وتغري بردي: السابق والصفحات نفسها.

(٤) اسم قطر الندى: أسماء وقد توفيت سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ودفنت ببغداد.

(٥) تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦٣/٣، وراجع المقريزي: الخطط ٣١٨/١.

(٦) راجع تغري بردي: السابق ٥٣-٦٠، وابن إياس: بدائع الزهور ١٦٩-١٧٣ وذكر أن جهاز قطر الندى نقل إلى بغداد في ستة أشهر، وفصل الحديث عن جهازها وعن محبة المعتضد لها.

العباسية في تلك الفترة لا حول لها ولا قوة، لضعف الخلفاء العباسيين أمام الجند الترك وقوادهم، وكان الأمر والنهي بيد هؤلاء الأتراك، الذين أملوا إرادتهم على الولاة، وتقرب هؤلاء الولاة إلى الترك بالمال كلما وجدوا إلى ذلك سبيلًا. ولم يكن هناك من الموظفين في مصر في تلك الفترة ممن يستحقون الذكر إلا موظفي الخراج الذين يشرفون على موارد الدولة المالية، وأبرز من تولى هذا المنصب المهم في تلك الفترة الأسرة الماذرائية[١] وكانت قوتها تعود إلى أن مال مصر في يدها بحكم عملها والإشراف على موارد مصر المالية وجهات الصرف فيها، وبخاصة رواتب الجنود. فحظيت هذه الأسرة في تلك الآونة بنفوذ كبير تضاءل إلى جانبه نفوذ باقي موظفي الولاية. ومما يدل على ضعف السلطة الحاكمة في مصر وقتئذ وولاتها بمصر أيضًا، ورغبة المصريين في التخلص منهم والعودة إلى حكم الطولونيين أن أحد قواد الطولونيين ويدعى محمد بن علي الخلنجي قبض عليه العباسيون ضمن عدد كبير من أنصار الطولونيين بعد زوال دولتهم، وتمكن من الإفلات من حراسه وهو في الطريق إلى حاضرة العباسيين بغداد، وجمع عددًا من أنصار الطولونيين من المصريين في فلسطين، وأعاد الخطبة للطولونيين فيها، ثم سار إلى مصر، بعد خروج محمد بن سليمان منها بمدة يسيرة سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م، وأحسن المصريون استقباله والترحيب به، وساعدوه عل التغلب على الوالي العباسي عيسى النوشري، وحكم الخلنجي[٢] مصر ثمانية أشهر باسم الطولونيين، يدعوا خلالها للخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩-٢٩٥/٩٠١-٩٠٧م) ومن بعده لإبراهيم بن خمارويه أحد الطولونيين المحبوسين، ومن بعدهما لنفسه باعتباره نائبًا عن إبراهيم بن خمارويه. وتمكن جيش للعباسيين من القضاء على حركة الخلنجي والقبض عليه، وإعادة مصر ثانية إلى العباسيين، وإلى الفوضى والاضطراب.

وزاد من الوضع السيئ بمصر في تلك الفترة تعرض مصر أخطار الغزو الخارجي المتمثل في العبيديين (الفاطميين) الذين استطاعوا في عهد عبيد الله المهدي (٢٩٦-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٤م) الوصول إلى الإسكندرية سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م دون أن تلقى

(١) نسبة إلى موضع يسمى مَاذَرَايا، القريب من واسط بالعراق. ياقوت: معجم البلدان ٥/٣٤.
(٢) يذكر هنا أن الخلنجي قلد وزارته أحد النصارى. تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/١٤٩.

جيوشهم مقاومة تذكر، وتكررت محاولات العبيديين بعد ذلك سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م واستولوا من جديد على الإسكندرية، وخربوها، وزحفوا جنوبًا حتى بلغوا الأشمونيين(١)، فارتاع المصريين، وبعد عدة وقائع عديدة جلا الجيش العبيدي عن مصر التي تأثرت بهذا الهجوم تأثرًا كبيرًا، وأصابها ضرر بالغ وعنت كبير من جراء تلك المعارك. وظل النفوذ العباسي غير مستقر بمصر حتى تطلع أحد قادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر محمد بن الأخشيد إلى الإنفراد بالسلطة بها دون باقي القادة المتنازعين والولاة العباسيين الضعاف، وساعده على ذلك دوره في الدفاع عن مصر ضد الخطر العبيدي، فتولى مصر هو وأسرته لمدة خمسة وثلاثين عامًا، عادت فيها الحياة إلى طبيعتها من حيث الاستقرار والهدوء والازدهار(٢).

محمد بن طغج الأخشيد مؤسس الدولة الأخشيدية (٣):

تنتسب الدولة الأخشيدية إلى محمد بن طُغج بن حاقان الفراغاني التركي (٣٢٣-٣٣٤هـ)، والأخشيد بالتركي ملك الملوك. ولي مصر في أول مرة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة للهجرة لمدة اثنين وثلاثين يومًا، ولم يدخل مصر فيها، ثم ولي مصر ودمشق والحرمين والجزيرة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة، من قبل الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٣-٩٤٠م). وأصله من أولاد ملوك فرغانة ببلاد ما وراء

---

(١) الأشمونيين من المدن المصرية القديمة وقد دثرت، ومكانها لا يزال ظاهرًا في التل الواقع بجوار سكن بلد الأشمونيين الحالية إحدى قرى مركز ملوي. وكانت عاصمة إقليم الأشمونيين المسمى باسمها والذي كان يشمل البلاد الواقعة من سمالوط إلى ديروط. راجع الأستاذ محمد رمزي: القاموس الجغرافي قسم ٢ جـ٤ ص٥٩-٦٠.

(٢) راجع فيما مضى الكندي: ولاة مصر ٢٧٨-٢٩٩ ووردت إشارة عنده (ص٢٩٠) إلى مكاتبة القبط للفاطميين بأخبار مصر. وراجع المقريزي: الخطط ٣٢٦/١-٣٣٢، والمقفى ٧٤٦/٥، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٤/٣-٢٥١.

(٣) راجع عن ترجمته الصفدي: الوافي ١٧١/٣-١٧٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٦٥/١٥-٣٦٦، والمقريزي: المقفى ٧٤٥/٥-٧٥٢، والكندي: ولاة مصر ٢٩٩ و٣٠٤-٣١٠، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٣٥/٣-٢٣٧ و ٢٥١-٢٥٦، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٤٨-١٩٧، وراجع النويري: نهاية الأرب ٤٤/٢٨ وهي ترجمات مفصلة مسهبة وافية عن الإخشيد محمد بن طغج.

النهر، وحُمل جده ضمن من حملوا إلى المعتصم، فبالغ في إكرامه، وتوفي جده سنة سبع وأربعين ومائتين، واتصل ابن طغج بابن طولون وصار من أكبر القواد، ولما قُتل خمارويه صار طغج إلى الخليفة المكتفي (٢٨٩-٢٩٥هـ) فأكرم مورده، ثم بدا منه تكبر على الوزير، فحبس هو وابنه محمد، فمات طغج في الحبس وأخرج ابنه بعد مدة من الحبس. وعنه يذكر الصفدي أنه كان ملكًا مطاعًا شجاعًا، حسن التدبير، مكرمًا للجند «وكان جيشه قد احتوى أربعمائة ألف رجل، وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسونه بالنوبة كل يوم ألف»[١]. وهو أستاذ كافور .

ويذكر المقريزي أن ملوك فرغانة ببلاد ما وراء النهر كانوا يلقبون بلقب «الإخشيد» «وهذا اللقب وضع لكل من ملك تلك الجهة، كما قيل لملك الترك «خاقان» وملك الفرس «كسرى» وملك الروم «قيصر» وملك الشام «هرقل» وملك القبط «فرعون» وملك اليمن «تبع» وملك الحبشة «نجاشي» ونحو ذلك»[٢]. ووصفه المقريزي كذلك بالحزم والتيقظ في حروبه، وبالتدبير وإكرام الجند، وحسن السيرة في الرعية، وأورد ما ساقه الصفدي قبله من أن جنده كان أربعمائة ألف، وحرسه ثمانية آلاف مملوك، يحرسه في كل ليلة منهم ألف مملوك «ويوكل بجانب خيمته الخدام إذا سافر، ثم لا يثق حتى يمضي إلى خيمة الفراشين، فينام فيها»[٣].

وللمقريزي أيضًا ترجمة وافية لجد الإخشيد محمد بن طغج ضمنها كتابه «المقفى»[٤].

ولاية الإخشيد على مصر (٣٢٣-٣٣٤هـ):

يشبه قيام الدولة الإخشيدية من وجوه كثيرة قيام الدولة الطولونية السابقة عليها، منها: انتساب مؤسس كل من الدولتين إلى العنصر التركي، والعمل بالجندية،

---

(١) الصفدي: السابق ١٧٢. ويذكر الذهبي: السابق ٣٦٦ أن يكون جيشه قد بلغ ٤٠٠ ألف جندي.

(٢) المقريزي: المقفى ٧٤٧/٥. ويقال: إنّ الخليفة الراضي هو الذي منح هذا اللقب لمحمد بن طغج بسؤال منه في ذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة للهجرة. النويري: نهاية الأرب ٤٦/٢٨، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٧٣.

(٣) المقريزي: السابق ٧٥٢ وهذا النص ورد أيضًا عند (الوافي) للصفدي ويثبت خشية الإخشيد على نفسه من الاغتيال.

(٤) راجع المقريزي: المقفى ١٧/٤-٢١.

وصادفت كلًا من المؤسسين للدولتين ظروف مماثلة بمصر كان من الواجب تجاوزها كشرط من شروط النجاح في حكم مصر، كما كان من اللازم على مؤسسي الدولتين كسب رضا الخليفة العباسي والعناصر التركية.

وكما لقي ابن طولون عند قدومه مصر مشكلة في الإدارة المالية التي كانت تحت سيطرة ابن المدبر، فإن محمد بن طغج لقي المشكلة نفسها عند وصوله إلى مصر، فقد كان عمال الخراج في مصر وقت مجيء الإخشيد قد تورثوا هذا المنصب لمدة خمسين سنة لم ينتقل عن بيتهم، وتبع ذلك بطبيعة الحال سيطرة هذه الأسرة الماذرائية على إدارة البلاد والنفوذ بها، حتى بدت وكأنها دولة داخل دولة. ولم يجد محمد بن طغج بدًا من الصدام مع الماذرائيين الرافضين بظهور أية قوة في مصر من شأنها أن تهدد مكتسباتهم التي حصلوا عليها بعد خمسين سنة. ولذلك فإن الإخشيد دخل مصر بعد قتال الماذرائي ونصيره ابن النوشري الوالي الأسبق على مصر. وقد استعد الإخشيد لهذه المواجهة وهو بالشام بعدما رفض محمد بن علي الماذرائي دخوله مصر صلحًا، فجمع الإخشيد جنده وضم من انضوى إليه من أنحاء الشام والعراق، واقتحم مصر برًا وبحرًا، فدخل هو برًا، بينما أرسل فريقًا من جنده في أسطول تقدم من الشام واستولى على دمياط وتنيس ثم سارت مراكبه في النيل حتى الفسطاط، وبذلك تمكن محمد بن طغج من مصر بالقوة المسلحة. واستعان محمد بن طغج بالوزير العباسي الفضل بن جعفر في تصفية الوجود الماذرائي بمصر لما بين أسرة الوزير وأسرة الماذرائيين من عداء مستحكم، وبالفعل حضر الفضل بن جعفر بن الفرات إلى مصر واهتدى إلى مكان اختفاء محمد بن علي الماذرائي فقبض عليه وصادر معظم ضياعه في مصر والشام، واستولى على أموال أولاده وحاشيته ثم خرج إلى الشام ومعه الماذرائي مقبوضًا عليه [١]. ولا شك في أن الإخشيد قد استفاد من أموال الماذرائي[٢] في تثبيت سلطانه بمصر، والإسهام في إقامة منشآته وأعماله الحضارية بها.

---

(١) راجع فيما مر الكندي: ولاة مصر ٣٠٥-٣٠٦، وابن سعيد: المُغرب في حلى المغرب ١٤٩-١٦٦، والنويري: نهاية الأرب ٢٨/٤٤-٤٧، وتغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٢٥١-٢٥٦، وابن إياس: بدائع الزهور ١٧٦.

(٢) يذكر هنا أن الإخشيد أطلق سراح محمد بن علي الماذرائي سنة ٣٢٨هـ واستوزره بمصر. ابن سعيد: السابق ١٧٥.

وبذلك أصبح الإخشيد مطلق التصرف في جميع شئون مصر، مضافًا إليها ما كان تحت يده من بلاد الشام، وكان في استطاعته أن يعلن استقلاله التام عن الخلافة العباسية، لكنه رأى أن من مصلحته الاكتفاء بالاستقلال الفعلي في إطار التبعية للعباسيين، كسبًا لرضاء عامة الناس الذين كانوا ما يزالون يعتقدون في نفوذ الخلافة المعنوي.

وتعلق د/سيدة كاشف على خروج الماذرائي وابن الفرات من مصر بقولها: «ويعتبر خروجه إيذانًا ببدء عهد جديد في حكم الإخشيد، فقد كانت ولاية مصر على قسمين: والي الحرب والصلاة وآخر للخراج وتدبير الأموال، ولما كان الفضل بن جعفر في مصر كان تدبير الأموال والخراج له، وتدبير الحرب والرجال للإخشيد، ثم غادر الفضل مصر، فجمع الإخشيد الولايتين كما عمل أحمد بن طولون»(١).

وواجه الإخشيد مشكلات أخرى خارجية بعد تخطيه لمشاكله الداخلية، ومن أهم هذه المشكلات والأخطار:

١- خطر ابن رائق ٢- خطر الفاطميين ٣- خطر الحمدانيين.

١- الإخشيد وابن رائق (٢):

قام الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٣-٩٤٠م) سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م باستحداث منصب أمير الأمراء ببغداد، بغرض إصلاح أمور الخلافة العباسية، وأول من تولى هذا المنصب هو محمد بن رائق الذي كان واليًا على واسط والبصرة، فأسند الراضي إليه مقاليد الأمور بمقتضى واجبات هذا المنصب الجديد، فأصبح ابن رائق الحاكم الفعلي في الدولة العباسية، ولم يبق للراضي معه حل ولا ربط، خطب له على المنابر في أنحاء العالم الإسلامي، وطمع ابن رائق في بلاد الشام ومصر، واستطاع الاستيلاء على حمص ودمشق دونما أية مقاومة، وانتزع الرملة بفلسطين من رجال الإخشيد، وعندما شكا الإخشيد ابن رائق إلى الخليفة العباسي الراضي لم يجد صدى لشكواه،

---

(١) د/سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٨٦، وراجع د/محمد رفعت: تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية ١٠٢.

(٢) راجع عن هذه العلاقة الكندي: ولاة مصر ٣٠٦-٣١٠، والمقريزي: المقفى ٥/٧٤٨-٧٥٠، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٧٤-٣٥٣.

فكان عليه منازلة ابن رائق بنفسه، وعلى مقربة من العريش وقعت معركة حامية الوطيس سنة ٣٢٨هـ/..... م بين الإخشيد وابن رائق، انهزم فيها ابن رائق وفر على أقبح صورة إلى دمشق وأرسل الإخشيد أخاه الحسين بن طُغج في أثره، ووقع مصاب بينهما بالقرب من طبرية قتل فيه الحسين بن طغج، ورأى ابن رائق تحسين علاقته بالإخشيد، فحفظ جثة الحسين، وأرسلها إلى الإخشيد بمصر مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق معتذرًا عن قتل القائد، عارضًا أن يفديه بابنه مزاحم، مقسمًا على أنه لم يرد قتله. وقابل الإخشيد هذه المروءة والشهامة بمثلها وأكرم مزاحمًا وأثمر هذا الموقف عن صلح، نص على أن تكون مصر حتى الرملة للإخشيد، وباقي الشام –شمالي الرملة– لابن رائق، وعلى تبادل الأسرى بين الطرفين، وعلى أن يقدم الإخشيد إلى بغداد مائة وأربعين ألف دينار كل سنة. وتصاهر الفريقان، فزوج الإخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق. ولما توفي الراضي سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م أقر الخليفة العباسي الجديد المتقي (٣٢٩–٣٣٣هـ/٩٤٠–٩٤٤هـ) ما تم الاتفاق عليه بين الإخشيد وابن رائق إلا أن الأخير قتل سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م في قتال كان بينه وبين الحمدانيين بالموصل، فزحف الإخشيد إلى بلاد الشام مسرعًا ليستردها، ودخل دمشق بلا قتال وأصلح أمورها، ولم يعد إلى مصر إلّا بعد أن ثبت سلطانه في بلاد الشام [١].

وعقيب عودته إلى مصر «أخذ البيعة على المصريين لابنه أبي القاسم أنُوجُور وعلى القواد والجند وذلك في أواخر ذي القعدة»[٢].

وفي سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م التقى الخليفة المتقي لله وقال له: «قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة، فاستخلف لك أونوجور»[٣].

وبذلك أعطي الإخشيد موافقة بولاية مصر وحق توريثها لأبنائه من بعده، وهذا التقليد تأكيد لما قام به الإخشيد من أخذ بيعة المصريين لابنه أونوجور ومن سائر القادة والجند.

---

(١) عن أسباب رضى الإخشيد وقبوله للصلح مع ابن رائق في البداية راجع د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٨٣.

(٢) تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٢٥٤.

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٩٢، وراجع من ص١٩١.

٢- الإخشيد والعبيديون (الفاطميون):

كانت الدولة العبيدية التي قامت بالمغرب ٢٩٦هـ/٩٠٩م على يقين بأن بلاد المغرب لا تصلح لتكوين دولة كبرى تدين بالمذهب الإسماعيلي، وتستطيع من خلالها نشر مذهبها الشيعي، فسعت إلى تحقيق هذا الهدف من خلال الاستيلاء على مصر، وبدئ في غزو مصر منذ سنة ٣٠١هـ/٩١٣م في أيام عبيد الله المهدي (٢٩٦-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٤م) الذي أرسل ابنه وولي عهده القائم العبيدي على رأس حملة وصلت برقة وملكها، وسار إلى الإسكندرية، فاستولى عليها وعلى الفيوم «وصار في يده أكثر البلاد وضيق على أهلها. فسير المقتدر بالله أبو الفضل (الخليفة العباسي) لقتاله الخادم نحرير في جيش، فرجع أبو القاسم -القائم- إلى إفريقية»[١]. وتكررت هذه المحاولة مرة أخرى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م بقيادة القائم أيضًا [٢]. وأرسل عبيد الله المهدي حملة ثالثة سنة ٣٢١هـ/٩٢٣م وواجهها المصريون في الجيزة وبلبيس وغيرها. وفي ولاية الإخشيد قام القائم العبيدي بعد توليه للحكم (٣٢٢-٣٣٤هـ) بإرسال جيش سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م وصل إلى الإسكندرية سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م، فأنفذ إليه الإخشيد قوة كبيرة، هزمت الجيش العبيدي، وأجبرته على العودة إلى إفريقية[٣].

وانفرد ابن زولاق في كتابه «العيون الدعج في حلى دولة بني طغج» الذي ضمنه ابن سعيد الأندلسي كتابه «المغرب في حلى المغرب» بتفكير الإخشيد في الخروج على الخلافة العباسية والدعوة للعبيديين، وذكر أيضًا أن الإخشيد عرض ابنته للزواج من المنصور بن القائم العبيدي، الذي كان يظن أن الإخشيد دخل في طاعته، ومن ثم عليه إرسال مبلغ مالي دليل هذه التبعية، ويفهم ذلك من رد القائم على دعوة المصاهرة: «وصل كتابك، وقد قبلنا ما بذلت، وهي وديعة لنا عندك»[٤]. وكان الإخشيد يظن -

---

(١) المقريزي: المقفى ١٧٠/٦. وذكر المحقق أن المصادر ذكرت مقاومة مؤنس الخادم للقائم وليس نحرير الخادم.

(٢) راجع المقريزي: السابق ١٧٢-١٧٤.

(٣) راجع ابن سعيد: المُغرب في حلى المغرب ١٥٣ و١٦١ و١٧٥ و١٧٦ و١٧٧ و١٩٢، وراجع الكندي: ولاة مصر ٢٨٦-٢٨٧ و٢٨٨-٢٩١.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص١٧٧، والمقريزي: المقفى ٧٥١/٥.

كما ذكر ابن زولاق– أن القاسم سيرسل إليه من الهدايا والأموال ما يفخر به، فلما وقف على خطابه أوقف مشروع المصاهرة.

وعلى أية حال فإن الإخشيد ظل على ولائه للخلافة العباسية التي كانت تسمح له بأن ينعم بقسط وافر من الاستقلال في ظلها.

٣– الإخشيد والحمدانيون [١]:

أسس حمدان بن حمدون دولة بني حمدان في شمال العراق، وجعل عاصمتها الموصل (٣١٧–٣٥٨هـ/٩٢٩–٩٩١م) مستغلًا ضعف الخلافة العباسية، ومدت هذه الدولة ونفوذها إلى القسم الشمالي من بلاد الشام والثغور الشامية، وقد أغار الحمدانيون في عهد سيف الدولة على حلب سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م وهي تتبع الإخشيد ومن ممتلكات مصر آنذاك، وتمكن سيف الدولة من الاستيلاء على حلب[٢] وإنزال الهزيمة بقوات الإخشيد بقيادة كافور التي تقهقرت نحو الرملة ومنها إلى مصر. بينما سار سيف الدولة في أثر الجند المصري يريد دمشق، واستولى سيف الدولة عليها بالفعل، لكن الإخشيد خرج للقاء سيف الدولة، وتمكنت جيوشه من طرد سيف الدولة من دمشق، والتقت جيوش الإخشيد بجيوش سيف الدولة عند قنسرين، وهُزم عندها الحمدانيون واستلبت منهم حلب، غير أن صلحًا تم بين الجانبين نص على تعهد الإخشيد بإخلاء حلب وشمالي الشام للحمدانيين، وأن يحمل إليهم مالًا سنويًا عن دمشق[٣].

وعلل بعض الباحثين[٤] هذا الصلح الغريب الذي رضي به الإخشيد بأنه وجد أن حراسة شمالي الشام وصد غارات الروم[٥] عنها يكلفه عناء وشقة، فأراد بصلحه مع الحمدانيين الإبقاء عليهم حتى يكونوا حصنًا منيعًا بين أملاكه وأملاك بيزنطة في

---

(١) عن هذه الدولة التي حكمت الموصل وحلب وديار بكر والثغور، وتنتمي إلى حمدان بن حمدون التغلبي، وهي دولة شيعية. راجع الأزدي: أخبار الدولة الحمدانية ١١–٦٠، ولها دور إيجابي في التصدي للبيزنطيين المغيرين على ثغور الشام وشمالي العراق.

(٢) ظلت حلب عاصمة الدولة الحمدانية حتى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م. راجع الأزدي أخبار الدولة الحمدانية ٥٧–٥٨ وقضى عليها الفاطميون نهائيًا.

(٣) راجع ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٩٣–١٩٦.

(٤) د/أحمد مجاهد صبحي: مصر في ظلال الخلفاء ٢٨٦ وراجع من ص٢٨٥، وراجع د/سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٣٧٠ وراجع ٣٦٧–٣٧١.

(٥) يُذكر هنا أن فداءًا تم بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣٣٥هـ وقد شرع فيه الإخشيد قبل وفاته وأشار ابن سعيد إلى هذا الفداء وأورد رسالة رومانس إمبراطور بيزنطة إلى الإخشيد ورد الإخشيد عليها، وإتمام هذا الفداء على يد كافور. ابن سعيد: السابق ١٦٧–١٧٣.

الوقت الذي كانت فيه حدود مصر الغربية مهددة بإغارات الفاطميين عليها، وهو قد وصل إلى الرابعة والستين من عمره، ولم يعش الإخشيد بعد هذا أكثر من عام واحد، توفي بعده في دمشق سنة ٣٣٤هـ ودفن ببيت المقدس، بعد أن أعاد إلى مصر ممتلكاتها، ورد الطمأنينة إليها.

أعمال ومنشآت الإخشيد:

اشتهر الإخشيد بحبه للعمارة، ومن بين منشآته قصر جميل عرف بالمختار، شيد في جزيرة الروضة سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م، ومنها البستان الذي أنشأه أيضًا بالروضة [١]. ومن شدة عناية الإخشيد بتجميل حاضرة ولايته بمصر، فقد أنشأ بستانًا آخر شمالي الفسطاط عُرف فيما بعد باسم «البستان الكافوري» وكان مطلًا على خليج أمير المؤمنين «وجعل له أبوابًا من حديد، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام، واهتم بشأنه من بعد الإخشيد ابناه: الأمير أبو القاسم أونوجور ابن الإخشيد، والأمير أبو الحسن علي ابن الإخشيد في أيام إمارتهما بعد أبيهما. فلما استبد من بعدهما الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي بإمارة مصر، كان كثيرًا ما يتنزه به، ويواصل الركوب إلى الميدان الذي كان فيه، وكانت خيوله بهذا الميدان»[٢].

وكان الإخشيد قد نقل الصناعة (صناعة الأسطول) من موضع البستان المعروف بالمختار في الجزيرة، وجعلها في الساحل، وذلك قبل إنشاء قصره المختار بالروضة[٣].

وحظي عصر الإخشيد بزيارة المسعودي المؤرخ الكبير لمصر في أثناء ولايته، كما ارتحل ابن حوقل[٤] إلى حوقل والشام بعد سقوط الدولة الإخشيدية بتسع سنوات، ويمكن تلمس بعض أحوال مصر والشام وصورتهما زمن حكم الإخشيديين من خلال وصف ابن حوقل لهما.

---

(١) راجع ابن سعيد: المُغرب في حلى المغرب ١٦٠-١٦٠ وورد (ص١٦١) أنه كان يفاخر أهل العراق بهذا المتنزه. وكان القصر فيما بين جامع الشكراني والسكة الحديد قرب شارع الموسكي إلى حي النحاسين.

(٢) المقريزي: الخطط ٤٥٦/١.

(٣) ابن سعيد: السابق ١٦٦، وراجع عن صناعة السفن زمن الإخشيد ص١٦٠ و١٦٦، والمقريزي: الخطط ١٩٦/٢.

(٤) عن مصر في رحلة ابن حوقل راجع: صورة الأرض ١٢٦-١٥٢، وراجع أيضًا صورة الشام ١٥٣-١٧٣. وعما تركه الإخشيد من أموال راجع النويري: نهاية الأرب ٤٩/٢٨.

ولدا الإخشيد في ظلال كافور، وانفراده بالحكم وسقوط دولة الإخشيديين[١]:

ترجم الذهبي لكافور، أنه الأستاذ الخادم أبو المسك كافور الإخشيدي، تقدم عند مولاه الإخشيد، وساد لرأيه وحزمه وشجاعته، فصيره من كبار قواده، ثم حارب سيف الدولة (الحمداني) ثم صار أتابك أنُوجُور[٢] ابن أستاذه، وتمكن. فبعد موت الإخشيد تولى ابنه أبو القاسم أنُوجُور الذي ولي عهد وكان في الرابعة عشرة من عمره. فأصبح كافور صاحب السلطان المطلق، وليس لأنوجور إلا الاسم [٣]. ومات أنوجور شابًا سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م «ولم يقتل أحد، ولا عاقب أحدًا، ولا صادر. وكان كالمغلوب مع كافور. ويحكى عنه شجاعة وسماحة وعفو كثير»[٤]. ولما مات أنوجور أقام كافور أخاه عليًّا في السلطة «فبقي ست سنين، وأزمَّة الأمور إلى كافور، وبعده تسلطن وركب الأسود بالخِلعة السوداء الخليفتية، فأشار عليه الكبار بنصب ابن لعلي صورةً في اسم الملك، فاعتل بصغره، وما التفت على أحد، وأظهر أن التقليد والأهبة جاءته من المطيع وذلك في صفر سنة خمس وخمسين (وثلاثمائة)، ولم ينتطح فيها عنزان»[٥].

ووصف كافور بالحلم والهيبة والجود والوقار «لا يشبه عقله عقول الخدام». ودعى على منابر الشام ومصر والحرمين الشريفين والثغور. وكان ملازمًا لمصالح الرعية، وكان يتعبد ويتهجد ويمرغ وجهه ويقول: «اللهم لا تسلط عليّ مخلوقًا» وكان يقرا عنده السير والدول.

وكان في كافور حلم زائد، وكف عن الدماء، وجودة تدبير. وكان فطنًا، يقظًا، ذكيًّا، يُهادي المعز (العبيدي) إلى الغرب، ويُداري ويخضع للمطيع (العباسي) ويخدع هؤلاء وهؤلاء. وله نظر في الفقه والنحو.

---

(١) راجع عن ذلك الكندي: ولاة مصر ٣١١-٣١٥، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٩٩-٢٠١، والنويري: نهاية الأرب ٢٨/٤٩-٦٢، وابن إياس: بدائع الزهور ١٧٦-١٨٦، وراجع تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٢٩١-٣٤٣ و٤/٣-٣٠ طبعة دار الكتب العلمية. وراجع المقريزي: المقفى ٢/٣١٣-٣١٩.

(٢) معنى أَنُوجُور محمود أو محمود مقامه. ابن تغرى بردى: السابق ص٣.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/١٩٠-١٩٣.

(٤) المقريزي: السابق ٢/٣١٧ وذكر ص٣١٨ أنه كان لأنوجور كاتب نصراني، وأنه في أيامه نزلت الروم على البرلس سنة ٣٣٥هـ، والفرما أيضًا سنة ٣٤٩هـ فقاومهم المسلمون.

(٥) الذهبي: السابق ١٩١.

اتصل به المتنبي الشاعر الشهير، وأقام عنده أربع سنين وأشاد به في قصائده المشهورة، ونال منه مالًا جزيلًا «ثم هجاه لآمةً وكُفرا لنعمته، وهرب على البرّية»[١].

فأبو المسك كافور بدأ حياته عبدًا حبشيًّا، سيق إلى مصر صغيرًا، ومر على السوق بمصر ومعه أسود آخر فقال ذلك الأسود: كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أكون عمري شبعان من المطابخ. فقال كافور: وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة «فقضى الله تعالى أن بلغ كل أحد منهما غرضه، ومر كافور على السوق وذلك العبد الذي تمنى أن يبتاعه طباخ في ثياب المطابخ وهو يحرك القدر، فضحك، وقال: أدرك كل واحد ما أمله وأخبر بالحكاية من يختصه لمثل ذلك»[٢].

وكان مولاه محمد الإخشيد يعرف فيه النجابة، ويتفرس فيه الهمة العلية، ويقول: «والله لا ورث دولة ابن طغج إلا هذا العبد»[٣].

وبعد وفاة الإخشيد تولى أبو المسك كافور الوصاية على ولديه الصغيرين: أنُوجور وعلي، وأثبت هذا الوصي مقدرة وهمة عالية في إدارة شئون البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار المتمثلة في الحمدانيين أصحاب حلب، والعبيديين أصحاب المغرب والقرامطة بالبحرين والشام والإحساء، وبعد وفاة أبي الحسن علي بن الإخشيد سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م انفرد كافور بالحكم واستبد بالأمر واستصدر من الخليفة العباسي المطيع (٣٣٤-٣٦٣هـ) مرسومًا بتولية كافور على مصر وما كان يتبعها من الأعمال، ووردت رسل المطيع وخِلَعه وهداياه، واستقل بحكم مصر وبلاد الحجاز حتى وفاته ٣٥٧هـ/٩٦٧م[٤].

وعليه فإن كافور الإخشيدي الأستاذ [٥] دبر مملكة مصر إحدى وعشرين سنة وشهرين وعشرين يومًا وصيًّا على ابني الإخشيد، وحكم هو سنتين وأربعة أشهر وسبعة أيام ملكًا مستقلًا بنفسه [٦].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩١ و١٩٢ وراجع ١٩٠-١٩٣.
(٢) ابن سعيد: المُغرب في حُلى المغرب ١٩٩.
(٣) ابن سعيد: السابق ١٩٩.
(٤) راجع الكندي: ولاة مصر ٣١١-٣١٤، والمقريزي: المقفى ٢/٣١٣-٣١٩.
(٥) الأستاذ كان لقب الوزراء في بعض الأحيان.
(٦) راجع تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/١٠ وراجع ٣-٢٧.

وعُد ذلك «من أعاجب الدنيا، وسيرته من أغرب السير»[١] ويكفي أن نعرف أن الدولة العبيدية لم تستطيع الاستيلاء على مصر إلّا بعد وفاة كافور بسنة واحدة، كان فيها أحمد بن علي بن الإخشيد حاكمًا على مصر وسنه إحدى عشرة سنة، ولم يستطع أن يحول بين العبيدين ومصر، فوقعت مصر في قبضة العبيديين سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وانتقلوا إليها بعد أن حكموا المغرب ستًا وستين سنة، بدءًا من سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م حتى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م وفيها انتقل المعز إلى مصر التي كان قائده جوهر الصقلي قد نجح في الاستيلاء عليها قبل ذلك بأربع سنوات.

أعمال كافور ومنشآته:

ذكر المقريزي أن كافور الإخشيدي بنى بيمارستانًا عرف باسمه (مارستان كافور) وهو قائم بتدبير دولة أبي القاسم أنوجور بن محمد الإخشيدي بالفسطاط سنة ست وأربعين وثلاثمائة للهجرة[٢]. وأنشأ كافور في سفح جبل المقطم مسجد هو «مسجد الفقاعي»، قيل أنه ضم أول محراب أقيم بمصر[٣]. وأقام كافور قصرًا كبيرًا بالقرب من جامع ابن طولون أطلق عليه اسم «دار الفيل» تكلف بناؤه مائة ألف دينار كما ذكر المقريزي في خططه، ويقال أنه سمي بهذا الاسم لأنه كان يضم عددًا من الفيلة. وقد سكن كافور هذا القصر سنة ٣٤٦هـ إلى وفاته ٣٥٧هـ. وهو يدل على ما وصلت إليه مصر من ازدهار وتقدم زمن الإخشيديين[٤].

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٩٩ وراجع حتى ٢٠١.

(٢) المقريزي: الخطط ٤٠٥/٢.

(٣) المقريزي: السابق ٤٥٥/٢.

(٤) عن باقي عمائر الإخشيديين راجع د/سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٢٩٩-٣١٣، وراجع د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٢٩٧-٢٩٩.

الفصل الثالث
(مصر في ظلال الإسلام
زمن الفاطميين والأيوبيين)

أولًا: مصر في زمن الفاطميين:

تمهيد:

وقد خلاف بين المؤرخين حول نسبة [١] إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها وإلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فالبعض يؤيد هذه النسبة ومنهم ابن الأثير [٢] وابن خلدون [٣] والمقريزي [٤] وغيرهم [٥]. والبعض الآخر ينفي هذه النسبة تمامًا وينسب هذه الأسرة وتلك الدولة إلى اليهود، ويذكرون أن ملكهم الأول عبيد الله المهدي كان ابن حداد اليهودي تزوجت أرملته الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوي المجوسي، وتبنى هذا الرجل ولدها ويدعى سعيد، وعلمه أسرار المذهب الإسماعيلي. وذهب البعض إلى أن الفاطميين من ولد ديصان الثنوي الذي ينسب إليه الثنوية وهو مذهب يعتقد أصحابه أن للعالم أصلين: هما النور والظلام، مخلوقين لإلهين، أحدهما خلق النور والآخر خلق الظلام. ولديصان الثنوي هذا ابن يقال له ميمون القداح، ينتسب هؤلاء الفاطميين إليه، وكان مجوسيًّا من الأهواز، وتظاهر بالإسلام والتشيع والدعوة لآل البيت، فقبض عليه وأودع في سجن الكوفة أواخر خلافة المنصور العباسي، وبعد خروجه من السجن ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق، إلى أن نجحت دعوته في عهد أولاده من الخلفاء الفاطميين. ومن أولاد ميمون القداح: عبد الله وكان أخبث من أبيه وأعلم بالحيل والخديعة والمكر على بطلان الإسلام، وكان عارفًا بالمذاهب، وكان يتستر بالتشيع والعلم، والدعوة لمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنجب عبد الله بن ميمون

---

(١) حول نسب الفاطميين راجع كتاب المؤلفك المغرب والأندلس في التاريخ الإسلامي ١٧٤-١٩٣.
(٢) ابن الأثير : الكامل ٢٦/٨ وراجع ٢٤-٥٣.
(٣) ابن خلدون: العبر ٣١/٤.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٥/١-٥٤.
(٥) مثل ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيدتهم ٣٥.

القداح غلامًا أسماه أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وولد له ولدان: الحسين ومحمد، قاما بالدعوة لآل البيت، وكان للحسين ابن اسمه سعيد هو عبيد الله المهدي الذي أرسل داعيين إلى المغرب هما: أبو عبد الله وأخوه أبو العباس. ولما قامت الدعوة الفاطمية بالمغرب تسمى سعيد هذا بعبيد الله المهدي.

وممن نفى هذه النسبة من المؤرخين: النويري[١] وابن أيبك[٢] وابن واصل[٣] وأبو شامة[٤] والذهبي[٥] وابن كثير[٦] وابن تغري بردي[٧] والسيوطي[٨] وغيرهم[٩]. وقد عدّ الذهبي[١٠] مثبتي النسب الفاطمي للعبيديين من جهلة الناس، في حين أنّ السيوطي الذي سمى دولتهم «الدولة الخبيثة العبيدية» يقول: «فكانوا –حكامهم بالمغرب ومصر– أربعة عشر متخلفًا لا مستخلفًا»[١١].

وتحت عنوان: «ذكر أخبار الدولة العبيدية التي انتسب ملوكها إلى الشرف وألحقوا نسبهم بالحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما» يقول المقريزي: «أول من ملك منهم عبيد الله المنعوت بالمهدي، ونسب نفسه أنه: عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون ذلك وينفونه عن الشرف ويقولون: اسم عبيد الله: سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله القداح بن أبي شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان، صاحب كتاب «الميدان في نصر الزندقة» وهو من أصل

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/٦٣–٧٦و١٠٠ وسمى دولتهم: الدولة العبيدية.
(٢) ابن أيبك: كنز الدرر ٦/٥–٢١.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ١/٢٠٤–٢١٨.
(٤) أبو شامة: الروضتين ١/٢٠٢–٢٠٣.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٤١–١٥١.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ٦/١٤٩و٤٤١–٤٤٢.
(٧) ابن تغري بردي: النجوم ٤/٧٩–٨٢، طبعة بيروت.
(٨) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٥٢٤و٥٢٥.
(٩) مثل ابن خلكان وابن الجوزي وابن قاضي شهبة. راجع الذهبي: السابق ١٦٨–١٦٩.
(١٠) معظم حكام هذه الدولة مترجم لهم في (سير أعلام النبلاء) في جـ٥.
(١١) السيوطي: السابق ٥٢٤و٥٢٥.

رَامَهُرمُر كورة من كور الأهواز، وكان من خرمية المجوس (مذهب يتحلل من القيم ويعتقد بتناسخ الأرواح) ومن المؤرخين من زعم أن الحسين بن أحمد زوج أم سعيد وأبا سعيد يهودي»[١].

والحقيقة –وبغض النظر عن إجرام هذه الدولة العبيدية في حق أهل السنة بالمغرب ومصر، وبغض النظر عن أفكارهم وإجرامهم في حق الصحابة وغير ذلك– فإنه لا يمكن القبول بصحة نسبهم، لأن المصادر الشيعية الإسماعيلية نفسها فشلت في نسج نسب علوي محبوك لعبيد الله المهدي أول حكامهم بالمغرب، حيث تخبطت هذه المصادر واختلفت أقوالها وتباينت رواياتها حول هذا النسب، مع أن عبيد الله المهدي هو أول الأئمة الفاطميين –من نظرهم– ظهورًا، مع هذا لم يتفقوا علة نسب واحد له، في حين أنها –المصادر الإسماعيلية الشيعية– تخبطت أيما تخبط في نسبة الأئمة الفاطميين في فترة السنر، فاضطرب الحديث عن نسب الفاطميين اختلافًا كبيرًا، لا يمكن معه استخراج الحقيقة حول نسب كل إمام منهم [٢]. هذا بالإضافة إلى أن الطعن في نسب الفاطميين ظهر من خلال المصادر الإسماعيلية نفسها، حيث وردت إشارات تشير إلى أن القائم (الخليفة الفاطمي الثاني بالمغرب) لم يكن من ولد المهدي حقيقة، وأن المعز لا يستبعد خروج الإمامة من أيدي أصحابها إلى جماعة آخرين لمدة معلومة عند الضرورة، ثم تعود إلى أصحابها الحقيقيين، فلا يستبعد أن الإمامة انتقلت من بعض الأئمة إلى ميمون القداح المجوسي وإلى غيره، ثم عادت مرة أخرى إلى الفاطميين، وآمن بعض الشيعة الإسماعيلية بهذا الرأي فعلًا. وتدل الخلافات التي نشبت بين أولاد المهدي وأولاد القائم من ناحية وبين المنصور (الخليفة الفاطمي الثالث بالمغرب) من ناحية أخرى تسهم في إلقاء الريبة والشك في نسب الفاطميين، فلقد كان المنصور يبغضهم ويطلب بغضهم، ولو كان المهدي هو صاحب الأمر ونص على القائم من بعده ما وقع الخلاف بين أبنائه على هذا النحو.

كما أن ظروف القبض على عبيد الله المهدي وسجنه في سجن أمير سجلماسة اليسع بد مدرار سنة ٢٩٦هـ والزعم بخروجه وعدم معرفة داعيه الشيعي أبي عبد الله له

---

(١) النويري: السابق ٦٤ وراجع حتى ٧٦.

(٢) راجع كتاب المؤلف: المغرب والأندلس في التاريخ الإسلامي ١٧٦–١٨١.

يشكك في أنه فاطمي وصاحب الدعوة لإنشاء خلافة شيعية، وقيل إن عبيد الله المهدي قتل في سجنه، وكان معه يهودي زعم أبو عبد الله الشيعي أنه عبيد الله المهدي بعد أن فوجئ بقتله[١]. كل هذا –وغيره– يلقي بظلال كثيفة من الشك، وغيوم كثيرة من الريبة على صحة النسب الفاطمي للبيت العلوي.

استيلاء العبيديين على مصر:

نجحت محاولة العبيديين للاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م في عهد المعز لدين الله الفاطمي، بعد عدة محاولات سابقة فاشلة. ويبدو أن الإعداد لهذه المحاولة الأخيرة كان صحيحًا محكمًا، فلقد أمر المعز بحفر الآبار في طريق مصر، وإقامة المنازل على رأس كل مرحلة من مراحل تلك الطرق، ولما وصلته الأخبار بوفاة كافور قبل أخذ مصر بسنة كاملة، أخذ في إعداد المال اللازم لتجهيز حملة الاستيلاء على مصر، أعز أماني العبيديين، وأنفق المعز على العساكر التي سيرها إلى مصر كما يذكر المقريزي: أربعة وعشرين ألف ألف دينار، وجعل المعز على رأس جيشه القائد جوهر الصقلي، فسار بهذا الجيش حتى وصل برقة فدخلها بلا مقاومة ثم مضى في سيره قاصدًا الإسكندرية، فاستولى عليها من غير حرب وأمن أهلها، وسار إلى الفسطاط، فاستولى عليها بعد مقاومة يسيرة، أعقبتها مفاوضة أدت إلى تسليم الفسطاط مقابل الأمان لأهلها[٢]. وبذلك بدأ حكم العبيديين لمصر.

وقد ترجم المقريزي في «المقفى»[٣] لجوهر الرومي المُعزي الصقلي الأمير الكبير، وذكر استيلاءه على إقليم مصر وأكثر الشام، ووصفه بعلو الهمة ونفاذ الكلمة، وقيامه بمكاتبة أمراء مصر قبل التوجه إليها، وأنه قاد كتائب العبيديين للاستيلاء على مصر وكانوا نحو من مائة ألف «وكان جوهر هذا حسن السيرة في الرعايا، عاقلًا أديبًا، شجاعًا، مهيبًا، لكنه على نحلة بني عُبيد التي ظاهرها الرفض، وباطنها الانحلال،

---

(١) راجع الكتاب السابق للمؤلف ١٨٢–١٨٦ والمصادر هناك.

(٢) راجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٩٦/١–٩٧، وراجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥٩/١٥–١٦٠، والنويري: نهاية الأرب ١٢١/٢٨–١٣٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦–٤٦٨، وراجع ١٥٩/١٥–١٦٢.

وعموم جيوشهم بربر وأهل زعارة وشر، لاسيما من تزندق منهم، فكانوا في معنى الكفرة، فيا ما ذاق المسلمون منهم من القتل والنهب وسبي الحريم ولاسيما في أوائل دولتهم، حتى إن أهل صور قاموا عليهم وقتلوا فيهم، فهربوا، حتى إن أهل صور استنجدوا بنصارى الروم فجاؤوا في المراكب، وكان أهل صور قد لحقهم من المغاربة من الظلم والجور وأخذ الحريم من الحمامات والطرق أمر كبير»[١].

وساق الصفدي[٢] فر ترجمة لجوهر الصقلي[٣] أمثلة توضح مكانة جوهر الصقلي لدى المعز، كما أنه أكد على مكاتبة تمت بين جماعة من أمراء مصر والمعز، تدعوه إلى إرسال العسكر حتى يسلموا له مصر، وذلك لقلة الأموال بها وقتئذ.

الخلفاء العبيديون بمصر:

حكمت مصر في أثناء تبعيتها لخلفاء بني عبيد بأحد عشر خليفة، هم:

المعز (٣٦٢-٣٦٥هـ/٩٧٢-٩٧٥م).

والعزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م).

والحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦/١٠٢٠م).

والظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م).

والمستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م).

والمستعلي (٤٨٧-٤٩٥هـ/١٠٩٤-١١٠١م).

والآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٢٩م).

والحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٢٩-١١٤٩م).

والظافر (٥٤٤-٥٤٩هـ/١١٤٩-١١٥٤م).

والفائز (٥٤٩-٥٥٥هـ/١١٥٤-١١٦٠م).

والعاضد (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م).

---

(١) الذهبي: السابق ٤٦٨. وذكر أن المعز في زمانه كان أعظم بكثير من خلفاء العباسيين من حيث المال والثراء. وذكر وفاة جوهر سنة ٣٨١هـ. وراجع ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٣٨-٤٥

(٢) الصفدي: الوافي ١١/٢٢٤-٢٢٦ وراجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/٢٢٩-٢٣٣.

(٣) ذكر النويري: نهاية الأرب ٢٨/١٤٤ أن المعز عزل جوهر من جميع ما كان إليه من النظر في الدواوين وجباية الأموال وتدبير الأمور، وغير ذلك بعد قدوم المعز مصر بأيام.

ويمكن التعرف على هؤلاء وأبرز الأحداث السياسية في أثناء حكمهم من خلال ترجمة الذهبي لهؤلاء. فالمعز لدين الله [١] الذي بنيت له القاهرة المعزية وصل إلى الإسكندرية سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م ثم سار حتى خيمّ بالجيزة، فأخذ عسكره في التعدية إلى الفسطاط ثم دخل القاهرة، وقد بنى له بها قصر الإمارة وزينت مصر «وكان عاقلًا لبيبًا حازمًا ذا أدب وعلم ومعرفة وجلالة وكرم. يرجع في الجملة إلى عدل وإنصاف، ولولا بدعته ورفضه لكان من خيار الملوك». وقد ظهر الرفض في عصره، وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والمغرب بالدولة العبيدية. وبالعراق والجزيرة وفارس ببني بُويه. وأعلن في عهده الأذان بمصر والشام بحي على خير العمل[٢]. وضربت السكة في أيامه بمصر على الدينار: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عليّ خير الوصيين، وبالوجه الآخر اسم المعز والتاريخ. ونودي بمصر من مات عن بنت وأخ أو أخت «فالمال كله للبنت. فهذا رأي هؤلاء». ولما استولى العبيديون على الشام سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م [٣] بجيش أرسله جوهر [٤] بقيادة جعفر بن فلاح، فإن هذا الجيش العبيدي ارتكب جرائم وحشية بدمشق خاصة «وقد جرى على دمشق وغيرها من عساكر المغاربة (العبيديين) كل قبيح من القتل والنهب. وفعلوا ما لم يفعله الفرنج....»[٥].

---

(١) راجع عنه الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٥٩-١٧٦، وراجع ابن إياس: بدائع الزهور ١٨٧-١٩٢.

(٢) يذكر النويري: نهاية الأرب ٢٨/١٣٣ أن الأذان بحي على خير العمل، شعار الشيعة في الأذان أذن به عند صلاة جوهر الصقلي بجامع ابن طولون سنة ٣٥٩هـ وهو أول ما أذن به في مصر، ثم أذن بذلك بجامع عمرو بن العاص في الجمعة الثانية.

(٣) راجع عن ذلك النويري: السابق ١٣٥. وابن سعيد: النجوم الزاهرة ٣٨-٤٥.

(٤) تجب الإشارة هنا إلى أن جوهر الصقلي لما دخل مصر جعل في كل الدواوين بمصر مغربيا (بربريا) إلى جانب المصري «فجعل في كل مكان مصريا ومغربيا». النويري: السابق ١٣٣.

(٥) الذهبي: السابق ١٦٧.

أما العزيز بالله بن المعز[١] الذي كانت دولته (أعظم بكثير من دولة أمير المؤمنين الطائع بن المطيع العباسي)، فإنه كان كريمًا شجاعًا صفوحًا، قريبًا من الرعية، لا يؤثر سفك الدماء، تهيأ سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م لغزو الروم، فأحرقت مراكبه[٢]، فغضب، وقتل مائتي نفس اتهمهم. ثم وصلت رسل طاغية الروم بهدية تطلب الهدنة «فأجب بشرط أن لا يبقى في مملكتهم أسير، وبأن يخطبوا للعزيز بقسطنطينية في جامعها، وعقدت سبعة أعوام»[٣].

وعُرفت الوزارة في دولة العبيديين مع الوزير يعقوب بن كلس في عهد العزيز، وهذا الوزير يهودي من أهل بغداد، هاجر منها إلى الشام، ونزل الرملة، فجلس بها وكيلًا للتجار، فاجتمع عنده مال كثير استولى عليه، وسافر به إلى مصر، واتصل بخدمة كافور، فقال: «لو كان هذا مسلمًا لصلح أن يكون وزيرًا، فبلغه ذلك، فأسلم على يد كافور سنة خمسين وثلاثمائة. ثم تعلقت به مطالبات مالية ديوانية في الدولة الإخشيدية، فهرب بسببها من مصر، ثم عاد إليها بعد استيلاء العبيديين عليها، وتولى في أيام المعز بعض الدواوين، وفي أيام العزيز اختص به وتمكن منه، فاستوزره سنة ٣٥٨هن وأقطعه بمصر والشام في كل سنة ثمانية ألاف دينار. وبسط يده في الأموال «وكتب اسمه على الطُرز، وابتدأ بنفسه في المكاتبات والعُنوانات: من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين»[٤]. وكان ابن كلس قد تمكن من دولة العزيز حتى أسقط المغاربة واستخدم المشارقة سنة ٣٧٠هـ من الترك والإخشيدية، وأذل جوهرًا الرومي

---

(١) راجع عنه الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦٧/١٥-١٧٣ وراجع النويري: نهاية الأرب ١٦٣/٢٨-١٦٤، وراجع من ص ١٥٣، وابن إياس : بدائع الزهور ١٩٢-١٩٧ وراجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٩٦/١-٢٩٩، وراجع من ص ٢٣٦. وراجع ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٤٦-٤٨.

(٢) عن حادثة حرق السفن راجع بالتفصيل المقريزي: السابق ٢٩٠/١ والخطط ١٩٤/٢-١٩٦ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٥/٤ وذكر حرق عيسى بن نسطورس وبانس الصقلبي للأسطول، وكان يانس متولي الشرطة.

(٣) الذهبي: السابق ١٧٢ وراجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٥٩/١و٢٧٨و٢٩٠.

(٤) النويري: السابق ١٦٥ وراجع حتى ص ١٦٦ وتوفي يعقوب سنة ٣٨٠هـ وصلى عليه العزيز وأمر بدفنه في داره في قبة بناها لنفسه. وشكك البعض في إسلام يعقوب بن كلس، وقيل أيضا إن إعلان إسلامه كان في سنة ٣٥٦هـ.

غلام المعز. وكان جوهر يقول: «قبح الله طول هذا العمر الذي أحوج لمثل هذا»[١]. وكان العزيز يستشير ابن كلس في الباطن[٢].

ويقول المقريزي[٣] مبيننًا مكانة ابن كلس منذ المعز: «قلد المعز -سنة ٣٦٣هـ- الخراج، ووجوه الأموال جميعها، والحسبة، والسواحل، والجوالي (الجزية) والأحباس -الأوقاف- والمواريث، والشرطتين -السفلى والعليا بمصر- وجميع ما ينضاف إلى ذلك، وما يطوى في مصر وسائر الأعمال أبا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير، وعسلوج بن الحسن، وكتب لهما بذلك سجلًا، قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون».

وبعد وفاة يعقوب بن كلس سنة ٣٧٠هـ اعتمد العزيز على مجموعة من المستخدمين جعل على رأسهم عيسى بن نسطورس النصراني «فمال إلى النصارى وقلدهم الأعمال»[٤]. واستناب العزيز اليهودي مُنشّا بن إبراهيم بالشام «فقدّم اليهود ومال إليهم»[٥].

ولما كان العزيز قد ولى أمر مصر -كما يذهب الذهبي- لعيسى بن نسطورس النصراني، وأمر الشام لمُنشّا اليهودي، وقدما النصارى واليهود «فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة وجعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس، فيها: بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك، إلّا كشفت ظلامتي». وجعلوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها، فلما رآها أمر بأخذها، فإذا الصورة من قراطيس، فعلم ما أريد بذلك «فقبض عليهما، وأخذ من عيسى بن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليهودي شيئًا كثيرًا»[٦].

---

(١) النويري: السابق ١٦٦.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٦١/١ وراجع ١٦٢.

(٣) المقريزي: السابق ١٤٤-١٤٥.

(٤) النويري: نهاية الأرب ١٦٦/٢٨-١٦٧. ويذكر هنا أن يعقوب استمر في أعماله أكثر من اثنتي عشرة سنة.

(٥) النويري: السابق ١٦٧، وراجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٥٦/١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦١/٤.

(٦) المقريزي: السابق ٢٩٧، وابن الجوزي: المنتظم ٣٨٦/١٤، والنويري: السابق ١٦٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦٨/١٥، وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٣٣، وابن إياس: بدائع الزهور ١٩٦.

فعيسى بن نسطورس النصراني تولى كل الدواوين، ونظر فيها جميعها «وأمر ونهى وخاطب سائر الكُتاب عن العزيز، وخاطبه سائر الأولياء، وكافة الناس في مهماتهم وتوقيعاتهم»[١]، ومُنشّا بن إبراهيم اليهودي[٢] سلك مسلكه، وقلد الأعمال لليهود، كما قلد النصراني القبطي[٣] عيسى بن نسطورس النصارى الأعمال المختلفة، وأبعدا المسلمين بنص كلام ابن القلانسي الذي ذكر أيضًا استيلاء أهل الملتين على الدولة، وقد أقر العزيز بخطئه «كنا على غلط فيه وغفلة»[٤] وتقدم في الحال بالقبض على عيسى بن نسطورس «وسائر الكتاب النصارى، وإنشاء الكتب إلى الشام بالقبض على مُنشّا بن الفرار والمتصرفين من اليهود، وأن ترد الأعمال في الدواوين إلى الكتاب المسلمين، ويُعول في الإشراف عليهم على القضاة في البلاد. ثم إن عيسى طرح نفسه على ست الملك بنت العزيز، وكان يحبها حبًا شديدًا ولا يرد لها قولًا، ولا يرد لها قولًا، واستشفع بها في الصفح عنه، وتجديد الاصطناع له، وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار، وكتب إلى العزيز رقعة يذكر فيها بخدمته وحرمته، ورضي عنه وأعاده إلى ما كان عليه، وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعماله»[٥].

بل إن الأمر وصل بالعزيز إلى أن يولي نصرانيًّا الحسبة[٦]، مما يبين مكانة النصارى في أيامه. وعلى العكس من ذلك تمامًا كان الموقف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم «وفي أيامه –العزيز– أظهر سب الصحابة جهارًا»[٧].

---

(١) المقريزي: السابق ٢٨٣/١، وراجع ٢٩٣.

(٢) راجع عنه ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٥ و٢٦ و٢٨ و٣٣ و٤٠.

(٣) ابن القلانسي: السابق ٣٣.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٣٣.

(٥) ابن القلانسي: السابق ٣٣، والنويري: نهاية الأرب ١٦٧/٢٨.

(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٧٧/١.

(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧٠/١٥. ويذكر ابن الجوزي أنه في سنة ٣٦٦هـ خطب للعبيديين في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. المنتظم ٢٤٨/١٤. ويذكر الأستاذ محمد عنان: (الحاكم بأمر الله) ص٣٩ أنه في عهد العزيز اتسع نطاق الدولة الفاطمية ودعي للخليفة الفاطمي في الموصل واليمن.

أما الحاكم بالله ابن العزيز[١]، فيصفه الذهبي[٢] بالزنديق مدعي الربوبية تولى الملك بعد أبيه، وله إحدى عشرة سنة، وكان مدبر دولته بَرْجَوان الصقلبي[٣] خادمه وكبير خزائنه، والحسن بن عمار الكتامي زعيم كتامة، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة العبيدية منذ نشأتها، ووقع صراع بين برجوان والحسن بن عمار الكتامي، انتهى لصالح الأول الذي استأثر بالدولة في عهد الحاكم، واختار لمعاونته كاتبًا نصرانيًّا يدعى فهد بن إبراهيم ولقبه بالرئيس، وفوض إليه النظر والتوقيع والمراجعة، ولزم برجوان الحاكم يقيم معه في القصر، ويسهر على توجيهه، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ، واستبد بكل أمر في الدولة، واستمر برجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف[٤]. وفي سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م شعر الحاكم بهوانه على برجوان، ففطن إلى أن برجوان لم يبق له غير الاسم، وحرضه خادم يدعى ريدان الصقلبي على استعادة سلطانه المسلوب، فطلب الحاكم من الحسين بن جوهر قائد القواد بقتل برجوان، إلّا أن ريدان الصقلبي هو الذي فتك ببرجوان، واعترف الحاكم بتخطيطه لقتل برجوان وموافقته على ذلك، واستدعى الحسين بن جوهر الصقلبي وجعل له أمر تدبير الدولة. ويذكر النويري[٥] أن أول أعمال الحاكم بعد أن استقل بالأمره بمفرده –وكان في السادسة عشرة من عمره– أمره أن لا يخاطب الناس بعضهم بعضًا بسيدنا أو مولانا، وأن لا يخاطب بذلك غيره. وأضاف المقريزي: ولا يخاطب فهد بن إبراهيم النصراني إلا بالرئيس فقط[٦].

---

(١) خصص كاتب شيعي كتابًا عن العزيز والكاتب هو د/عارف تامر: الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله. راجع ٥–١٤٢.

(٢) الذهبي: السابق ١٧٣–١٨٤، وراجع النويري: نهاية الأرب ١٦٧/٢٨–٢٠٢، وابن الجوزي: السابق ١٣٩–١٤٣، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ١١٥/٢–١٢٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة طبعة بيروت ١٧٧/٤–٢٤٦.

(٣) الصقالبة جنس كان يجلب من وسط أوربا كأرقاء ويعملون خدمًا في القصور الإسلامية؟ د/ماجد: الحاكم بأمر الله ٣٠.

(٤) الأستاذ محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله ٤٧.

(٥) النويري: نهاية الأرب ١٧٦/٢٨، وراجع من ص١٧٤، وراجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٦/٢–٢٧ و٢٩ و٣٠.

(٦) المقريزي: السابق ٢٩.

وقد صورت المصادر الإسلامية السنية الحاكم بأمر الله بالاضطراب في التصرفات والأعمال، والتناقض في الأفعال والأحوال، وورد لدى ابن تغري بردي[١]: «وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء. كان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط. وأقام يلبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وأقام سنين يجلس في الشمع ليلًا ونهارًا، ثم عَنّ له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة، وقتل من العلماء والكتاب والأماثل ما لا يُحصى، وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. ثم محاه في سنة سبع وتسعين، وأمر بقتل الكلاب وحرم بيع الفُقّاع –شراب من الشعير مسكر– وعمله ثم نهى عنه، ورفع المكوس عن البلاد وعما يُباع فيها، ونهى عن النجوم، وكان ينظر فيها، ونفى المنجمين وكان يرصدها....».

ويدل على هذه الصورة المتناقضة قتله لمن قربهم ومكن لهم من الوزراء والكتاب وغيرهم، مما جعل الإمام الذهبي يقول عنه: «وقلت: وكان شيطانًا جبارًا عنيدًا، كثير التلون، سفاكًا للدماء، خبيث النِّحْلة، عظيم المكر، جوادًا ممدوحًا، له شأن عجيب، ونبأ غريب، كان فرعون زمانه، يخترع كل وقت أحكامًا يلزم الرعية بها....»[٢].

وأبرز من قتلهم الحاكم بأمر الله: الحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م[٣] ويفسر الأستاذ عنان هذه الجريمة على أساس أن الحاكم كانت لديه رغبة في سحق الزعماء ذوي البأس والعصبية، وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة، ولكن الحاكم استمر في الإسراف في القتل «فيقتل وزراءه وغلمانه تباعًا، دون حكمة ظاهرة إلا ما كان من نزعه مؤقته أو سخط فجائي»[٤]. وفي سنة ٣٩٣هـ قتل الحاكم وزيره النصراني فهد بن إبراهيم الملقب

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٧٧/٤–١٧٨، وراجع حتى ١٨٤.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧٤/١٥.
(٣) راجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣٦/٢.
(٤) الأستاذ عنان: الحاكم بأمر الله ٥٤.

بالريس، بعد أن أمضى في منصبه زهاء ست سنوات، منها ثلاث في خدمة برجوان، ولما حمل أخوه أبو غالب إلى القصر من مال أخيه فهد جرايات فيها خمسمائة ألف دينار، أعرض عنها الحاكم، وبقيت هناك مدة ثم أمر بها فردت إلى أولاد فهد، وقال: إنّا لم نقتله على مال، فحملت إليهم «ثم رفع أصحاب الأخبار عن أبي غالب كلمة تلكم بها، فقتل وأحرق بالنار»(١). وقبل مقتل هذا الوزير كان الحاكم قد قتل مؤديه أبا القاسم سعيد بن سعيد الفارقي سنة ٣٩٠هـ وهو يسايره، بأن أشار إلى الأتراك بعينه بعد أن بيّت معهم قتله، فأخذته السيوف «وكان قد داخل الحاكم في أمور الدولة، وقرأ عليه الرقاع، واستأذنه في الأمور كهيئة الوزراء»(٢). وكان قد قتل أيضًا سنة ٣٩١هـ ابن أبي نجدة وكان بقالًا، تغيرت أحواله حتى تولي الحسبة «ودخل فيما لا يليق به، وأساء معاملة الناس، فاعتقل، ثم قطعت يده ولسانه وشُهّر على جمل وضربت عنقه»(٣).

وإن للحاكم تبريره في قتل مؤدبه أبي القاسم سعيد، وقتل محتسبه ابن أبي نجدة، فما تبريره لقتل وزيره فهد بن إبراهيم؟؟. يذكر بعض الباحثين الكبار(٤) أن من بين أسباب قتل الوزير النصراني: مناصرته النصارى، وإسناد مناصب الدولة إليهم، حتى عُد آفة على المسلمين وعدة للنصارى، كما قد يكون قتله بسبب سعاية بعض الكتاب الذين كانوا يريدون أن يحلوا محله. إلّا أن الحاكم أكرم أولاد فهد بن إبراهيم وسمح لهم بالركوب والسروج المُحلاة، وكتب لهم سجلًا بمنع الأذى عنهم، بعد أن رد إليهم أموال أبيهم (٥).

وقد أقام الحاكم مكان النصراني فهد بن إبراهيم: علي بن عمر العداس وخلع عليه وعلى ابنه محمد سنة ٣٩٣هـ نفسها، وبعد أشهر قليلة أمر بقتله(٦). ولابن القلانسي

---

(١) المقريزي: السابق ٤٤/٢.

(٢) المقريزي: السابق ٤٢/٢.

(٣) المقريزي: السابق ٤٣/٢. ويذكر هنا قتل برجوان سنة ٣٩٠هـ وقد مر الحديث عن ذلك. وراجع تفسير هذا القتل لدى د/عارف تامر الشيعي: الحاكم بأمر الله ٣٦-٤٣ و ٤٩.

(٤) د حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ١٦٥ ود ماجد: الحاكم بأمر الله ٥٣.

(٥) راجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٤٥/٢ وراجع ٤٤ وراجع عن فهد: المقريزي: السابق ١٨و٢٩ وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٥٠و٥٤و٥٦و٥٩و٦٠ وذكر هناك أن فهد بن إبراهيم قبطي من ريف مصر، كما ذكر قوة علاقة الحاكم بفهد بن إبراهيم، وكذلك الاهتمام بأولاد فهد بعد مقتله.

(٦) المقريزي: السابق ٤٤/٢و٤٦.

تفصيلات مهمة تتصل بقتل الوزير علي بن عمر العداس، ذكر فيها أن رجلًا نصرانيًّا كان متعلقًا بخدمة ست الملك أخت الحاكم وله منها رعاية مؤكدة، فكتب إليها عما نزل به ويغيره من الناس في الشام من ابن العداس وابن النحوي عامله بالشام، فكتبت ست الملك إلى أخيها الحاكم «وكان يشاورها في الأمور، ويعمل برأيها، ولا يخالف مشورة لها، فعرضت عليه ما تضمنه الكتاب من الشكوى» وكان الحاكم «يكتم السر شديدًا» فعزم على قتل ابن العداس، ونفذ ما انتواه بالفعل، فضربت عنقه بحضرته [١].

ولم يقف الأمر بالحاكم عند هذا الحد، وإنما قام الحاكم بقتل صاحب المظلمة أبو الفضل زيدان الصقلبي في السنة السابقة نفسها [٢]. وقتل في السنة التالية (٣٩٤هـ) قاضي القضاة الحسين بن نعمان بعد عزله عن القضاء، وضربه في الجامع «فكانت مدة نظره في القضاء خمس سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا. ومولده لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين (وثلاثمائة) وهو أول قاض أحرق بعد قتله»[٣].

وقُتل جماعة كثيرة أخرى من الأعيان وموظفي الدولة [٤]. ومن أهم حوادث القتل زمن الحاكم، ما حدث سنة ٣٩٨هـ وفيها «أمر الحاكم بقتل أصحاب الأخبار – الجواسيس والعيون– حيثما وجدوا، وذلك أن كان قد قتل خلقًا كثير لسعايتهم، ثم اطلع على خيانتهم، وأنهم صيروا ذلك معيشة فقتلهم عن آخرهم»[٥]. ومما يبين غرابة تصرفات الحاكم بأمر الله، وتهوره، ورغبته في إزهاق الأرواح، وحزنه على عدم تمكنه من قتل البعض، ما ورد من عنايته بزرعة بن عيسى بن نَسْطُورس الكاتب النصراني

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٦٠–٦١.

(٢) المقريزي: السابق ٤٧/٢.

(٣) المقريزي: السابق ٥٠ وراجع من ص ٤٩.

(٤) راجع ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٦١–٦٢ وذكر مقتل عدد من موظفي النصارى، منهم منصور بن عبدون (وكان رجلا نصرانيًّا خبيثا جدًّا) وذكر تقليد موظف نصراني يُدعى زرعة بن نسطورس في الوزارة ولقبه بالشافي وذلك سنة ٣٩٧هـ. وراجع ٦٦و٧٠و٧٩ وراجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٥١/٢ و٥٧ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٧٩ و٨٠ و٨٣ و٨٤–٨٥و١٠٦–١٠٧و١٠٩، وراجع عقوبات أخرى شديدة ١٠١و١٠٢.، وراجع النويري: نهاية الأرب ١٧٧/٢٨و١٨٠و١٨٣و١٨٤و١٨٥.

(٥) النويري: السابق ١٨٤.

«وأُمر أن يُوقع عن الحاكم في أوامره»[١] وذلك سنة ٤٠١هـ، وخُلع عليه، وقرئ له سجل في القصر الفاطمي لُقب فيه بالشافي [٢]. ومات زرعة بن عيسى بن نَسْطُورس سنة ٤٠٣هـ من علة أصيب بها «فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهرًا، فتأسف الحاكم على فقده من غير قتل، وقال: ما أسفت على شيء قط أسفي على خلاص ابن نسطورس من سيفي، وكنت أود ضرب عنقه، لأنه أفسد دولتي، وخانني ونافق عليّ....»[٣]. لكن الحاكم خلع على إخوة عيسى بن نسطورس الخِلع «وخُلع على إخوته الثلاثة وأُقروا على ما بأيديهم من الدواوين»[٤].

ومع كل ما سبق فإن أحد الباحثين الشيعة يعد الحاكم مصلحًا، وأنه ارتقى ذروة الفضائل، وغاية الشرف الكامل، وظهرت مثاليته في سيرته[٥]. ويذهب آخر[٦] إلى أن الحاكم كان صارمًا مع موظفي دولته، وكان شديدًا في محاربة الفساد، والدليل الأرقام الخيالية لثروة كبار رجال الدولة في زمنه، وهي لا ريب سلبت من عرق الشعب المكافح.

فمعظم من قتلهم الحاكم لم يكونوا من ضعفاء الناس، وإنما من أكابر رجال الدولة، مما يبين أن القتل عنده –في نظره– كان وسيلة من وسائل الحكم، وهذه الوسيلة موجودة عند كثير من الحكام[٧]. وما أنزله من عقوبات بأهل الذمة بسبب سوء تصرف هؤلاء القبط خاصة مع المسلمين، وتحكمهم في الدواوين، واستبدادهم بالأمر، ومع ذلك أبقى القبط يعملون في الدواوين وفي قصره طوال عهده، يمنحهم الألقاب مثل غيرهم[٨].

ويذكر الأستاذ عنان[٩] أن المذابح المتوالية للحاكم كانت عنوان نزعة خطيرة إلى البطش والفتك واحتقار الحياة البشرية، وكان أشد الناس تعرضًا لهذه النزعات الخطيرة

---

(١) المقريزي: السابق ٨٥.
(٢) المقريزي: السابق ٨٦.
(٣) المقريزي: السابق ٩٣.
(٤) المقريزي: السابق ٩٣.
(٥) د عارف تامر: الحاكم بأمر الله: خليفة وإمام ومصلح ٢١ وراجع ٧–١٦٦ وراجع ٩–١٨٠.
(٦) د/ ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ٥١.
(٧) د/ ماجد: السابق ٤٧–٤٨ مع تصريف يسير.
(٨) د /ماجد: السابق ١٠١.
(٩) الأستاذ محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله ٥٤–٥٥ وراجع ٥١–٦١.

أقرب الناس إلى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة، ولم الكافة أيضًا بمنجاة منها، فكثيرًا ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة التي توالى صدورها في تلك الفترة. وكانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر، وشغف واضح بالسفك واحتقار بيِّنٍ للحياة البشرية، ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط، ولم تكن بالأخص دون غاية. كان الإرهاب في نظر الحاكم وسيلة للحكم، وكان القتل المنظم دعامة هذا الإرهاب الشامل، فإذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ، فإن القتل أنجح وسيلة لسحقه وسحق نفوذه، وإذا بدرت من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين، فإن إزهاق عددًا منهم يكفل عودتهم إلى السكينة والخشوع. وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة، وتخمد الأطماع المتوثبة في مهدها، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الحاكم والفتى[١] الجريء. ولقد كان القتل دائمًا وسيلة الطغاة إلى تأييد سلطانهم، وكان الحاكم طاغية قوي النفس والشكيمة.

وقد أضافت الروايات التاريخية في وصف حوادث القتل –كما تقدم– وفي الحكم على الحاكم «كان غليظ الطبع، قاسي القلب، سفاكًا للدماء، قبيح السيرة، مذموم السياسة، شديد التعجرف والإقدام على القتل غير محافظ على حرمة خادم ناصح ولا صاحب مناصح»[٢].

الاضطراب بين مراسيم الحاكم:

سبق الحديث عن اضطراب في علاقة الحاكم برجال دولته خاصة [٣]، الذين وقعوا بين ود الحاكم وعدوانه، وبين تقريبهم والانتقام منهم، وبين تكريمهم وتقتيلهم.

وبدئت مراسيم الحاكم سنة ٣٩٠هـ وفيها أمر الناس بتعليق القناديل على سائر الحوانيت وأبواب الدور كلها، وفي جميع المحال والسكك الشارعة وغير الشارعة،

---

(١) اختفى الحاكم عن الحياة وعمره سبع وثلاثون سنة، بعد حكم دام خمسًا وعشرين سنة.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٨٠.

(٣) ذكر النويري: نهاية الأرب ١٧٦/٢٨ أنه في سنة ٣٩٣هـ حصل للحاكم مرض المانخوليا، فأخذ في قتل أرباب الدولة وذوي المناصب وغيرهم، وصدر عنه من الأفعال الأخرى ما صدر. ويعني مراسيمه وأمره التي يعرض لها الآن بالمتن.

ففعلوا[١]. وأمر الناس في السنة التالية بإضاءة الأنوار وهو ما عرف بالوقيد، وكان الحاكم قد ركب في هذه السنة (٣٩١هـ) في الليل، في كل ليلة، وكان يركب إلى موضع موضع وإلى شارع شارع وإلى زقاق زقاق، وأمر الناس بالوقيد، فتزايدوا بالشوارع والأزقة ليلًا، وزينت الأسواق والقياسر (بمعنى السوق) بأنواع الزينة، وباعوا واشتروا وأوقدوا الشموع الكبيرة طوال الليل، وأنفقوا الأموال الكثيرة في المآكل والمشارب والغناء واللهو. وزينت الصناعة (مكان صناعة السفن)[٢] وخرج سائر الناس بالليل للتفرج، وغلب النساء الرجال في الليل، وتزايد الزحام في الشوارع والطرقات وتجاهروا بكثير من المسكرات وأفرط الأمر من ليلة التاسع عشر إلى ليلة الرابع والعشرين من المحرم سنة ٣٩١هـ «فلما خرج الناس عن الحد أمر الحاكم ألا تخرج امرأة من العشار، فإن ظهرت نكّل بها، ومنع الناس من الجلوس في الحوانيت»[٣].

وفي سنة ٣٩٢هـ قرئ سجل بدفع المنكرات وإبطالها، وبمنع ذلك، فَخُتم على عدة مواضع فيها المسكرات لتراق.[٤] وبعث الحاكم القلزمي الشاعر (ت٣٩٩هـ) إلى سائر أعمال مصر لكسر أوعية المنكر وإحراق الخمر وكسر الملاهي[٥].

وبالرغم من أن النصارى[٦] قد تبوأوا مكانة سامقة منذ عصر العزيز، وعلى يدي الحاكم أيضًا إلّا أن الحاكم قام سنة ٣٩٤هـ بهدم كنيستين بجانب جامع راشدة [٧].وفي السنة السابقة نفسها أصدر الحاكم مرسومًا[٨] ينكر فيه على من يخاطبه في المكاتبة

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣٧/٢ و٣٨، وراجع ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١١٩-١٣٧.
(٢) عن الجيش الفاطمي راجع أستاذي أ.د/عبد الله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية ١٤٣-٢٨٧.
(٣) المقريزي: السابق ٣٨/٢، وراجع ٤٨.
(٤) المقريزي: السابق ٤٤.
(٥) المقريزي: المقفى ٢١٠/٥، وراجع مسئولًا آخر استعمله الحاكم لإزالة المنكرات ٤٣٣/٥.
(٦) للوقوف على أهل الذمة في العصر الفاطمي راجع د/عبد المنعم سلطان: المجتمع المصر في العصر الفاطمي، دراسة تاريخية وثائقية ٩٥-١٠٩، وراجع عن المجتمع المصري ٢٧-٢٨٤ وذكر (ص١٠١) قيام النصارى ببعض أعمال التخريب في محلات المسلمين زمن الحاكم سنة ٤٠٥هـ، وعن النصارى في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي بمصر راجع د/سلام شافعي: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ٢٢-٣٢١.
(٧) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٤٨/٢.
(٨) للوقوف على نظم الفاطميين ورسومهم بمصر: راجع د/عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر جـ١ ص٥١-٢٩٩ وجـ٢ ص٩-١٤١، وراجع حورية سلام: الحضارة الإسلامية في مصر زمن الفاطميين ٩-١٠٣.

بمولى الخلق أجمعين[١]. وأمر بهدم جامع عمرو بن العاص بالإسكندرية[٢]، وصلى الحاكم بالناس في رمضان صلاة الجمعة مرتين وخطب[٣]. وألزم الحاكم اليهود والنصارى سنة ٣٩٥هـ بشد الزُنار حول أوساطهم وحمل الصلبان أو القرامي الخشبية في أعناقهم[٤].

وقرئ سنة ٣٩٥هـ سجل من الحاكم بالمنع من أكل الملوخية المحببة كانت لمعاوية ابن أبي سفيان، والبقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى عائشة، والمتوكلية المنسوبة إلى المتوكل، والمنع من خبز الخبز بالرجل، والمنع من أكل الترمس المعفن والدلنيس (نوع من السمك الصغير لا قشر له)، والمنع من عمل الفقاع (شراب كالرمان يصنع من الشعير)، والمنع من ذبح البقر التي لا عاقبة لها إلا في أيام الأضاحي، وما سواها من الأيام لا يذبح منها إلا ما يصلح للحرث. ونودي ألا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، وألا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج، ولا يباع من السمك ما ليس له قشر، ولا يصطاده أحد من الصيادين. ونودئ بالنكير على النخاسين والتشديد عليهم في المنع من بيع العبيد والإماء لأهل الذمة. ومنع من بيع الفُقَّاع وعمله ألبتة لما يؤثر عن عليّ رضي الله عنه من كراهة شرب الفقاع . وتتبعت الحمامات وقبض على جماعة وجدوا بغير مئزر. فضربوا وشهروا[٥].

وذكر ابن إياس[٦] أنه أفرد لليهود حارة زويلة وأسكنهم بها، وأمرهم ألا يخالطوا المسلمين في حاراتهم، وفي وقت أمرهم كلهم أن يدخلوا قاطبة في الإسلام، فخافوا منه وأسلموا كلهم، ثم أذن لهم بالعودة إلى دينهم، فارتد منهم في يوم واحد نحو من سبعة

---

(١) المقريزي: السابق ٤٨.

(٢) المقريزي: السابق ٤٩.

(٣) المقريزي: السابق ٤٩ ويذكر المحقق أستاذي د/محمد حلمي أن رسوم الفاطميين تقضي بأن يصلي الخليفة الجمعة ثلاث مرات، ويستريح الجمعة الرابعة.

(٤) المقريزي: السابق ٥٣.

(٥) راجع النويري: نهاية الأرب ١٧٨/٢٨، والمقريزي: السابق ٥٣-٥٤، وابن سعيد: النجوم الزاهرة ص٤٩-٧٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٧٨/٤ و ١٧٩-١٨٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧٤/١٥-١٧٥، وابن إياس: بدائع الزهور ١٩٨-٢٠٤ وراجع ١٩٧-٢١١.

(٦) ابن إياس: السابق ١٩٨.

آلاف يهودي ثم أمر بهدم كنائسهم ثم أمر بإعادتها إلى ما كانت عليه أولًا. وأضاف أنه عندما منع سائر النساء من الدخول إلى الحمامات، مر يوم بحمام الذهب فسمع فيه ضجيج نساء، فأمر بأن يسد عليهم باب الحمام، فسدوه عليهن من الوقت والساعة، وهو واقف عليه، فأقمن داخل الحمام حتى متن به. ثم إنه منع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم، وقطع منها نحو مائة ألف كرمة، ثم إنه منع الناس من بيع العسل الأسود، ثم منع الناس من زرع الملوخية والقرع وكتب على الفلاحين قسائم أن لا يزرعوا شيئًا منها، وعلل بتحريم القرع أن الصديق رضي الله عنه كان يميل إليه، وعلل تحريم الملوخية لكون عائشة رضي الله عنها كانت تميل إليها، ثم إنه لما طلع يومًا على جماعة يأكلون الملوخية ضربهم بالسياط وطاف بهم في القاهرة، ثم ضرب أعناقهم عند باب زويلة. وصار يفعل أشياء «لا تقع إلا من المجانين، الذين في عقلهم خلل، فمن ذلك منع النساء من الخروج إلى الطرقات، ومن التطلع إلى الطاقات، والطلوع إلى الأسطحة، ومنع الخفافين من عمل الأخفاف لهن»[١]. ومن أعماله الغريبة: بناء عدة مدارس، وجعل العلماء بها، ثم قتلهم[٢] وهدم تلك المدارس التي بناها. ثم إنه كان يعاقب جماعة من خواصة بسلب الألقاب، فإذا غضب على أحد سلب لقبه مدة طويلة، لا يدعوه بذلك اللقب، فيصير ذلك الرجل في حزن وبكاء، حتى يرد إليه لقبه، فيكون عنده ذلك اليوم عيدًا. ومن عجائب عمله أيضًا: إعادته اليهود والنصارى إلى ماكانوا عليه قبل إلزامهم بوضع الصلبان في أعناق النصارى وأمرهم بارتداء ملابس عسلية اللون[٣].

وفي سنة ٣٩٥هـ نفسها كُتب في شهر صفر منها على سائر المساجد، وعلى الجامع العتيق (مسجد عمرو) من ظاهره وباطنه في جميع جوانبه، وعلى أبواب

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ١٩٩. ويذكر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧٥/١٥ أن الحاكم منع النساء من الخروج من البيوت وأبطل عمل الخفاف لهن جملة ومازلن ممنوعات من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر إلى خلافة الظاهر. وراجع ابن سعيد: النجوم الزاهرة ص٥٣.

(٢) من هؤلاء العلماء الذين قتلهم: جبارة اللغوي، قيل عنه: كان يعرف للكلب في اللغة ثلاثمائة اسم، ومنهم: أبو أسامة وغير ذلك من العلماء ابن إياس: السابق ٢٠١.

(٣) راجع ابن إياس: السابق ٢٠٠.

الحوانيت، والحُجَر والمقابر والصحراء بسب السلف ولعنهم، ونقش ذلك ولُون بالأصباغ والذهب، وعمل كذلك على أبواب القياسر وأبواب الدور، وأكره على عمل ذلك «وأقبل الناس من النواحي والضياع فدخلوا في الدعوة –الإسماعيلية– وجعل لهم يوم وللنساء يوم، فكثر الازدحام، ومات في الزحمة عدة»[١].

وفي هذه السنة (٣٩٥هـ) لما دخل الحاج مصر من بلاد الحجاز نالهم من العامة سب وبطش «فإنهم طلبوا منهم سب السلف ولعنهم، فامتنعوا»[٢]. ونودي في القاهرة: لا يخرج أحد بعد المغرب غلى الطريق، ولا يظهر بها لبيع ولا شراء، فامتثل الناس لذلك، وتتبعت الدور ومن يُعرف بعمل المسكرات، وكُسر من أوعيتها شيء كثير[٣]. وأمر بقتل الكلاب، فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالأزقة والشوارع شيء وطرحت بالصحراء وبشاطئ النيل «وأمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور في كل مكان، ففعل ذلك»[٤].

أما في سنة ٣٩٦هـ فقد قبض في يوم عاشور على المنشدين والناحة من الشيعة، لتظاهرهم بسب السلف «فقبض على رجل ونودي عليه: هذا جزاء من سب عائشة وزجها، وضربت عنقه. وتقدم الأمر إلى أصحاب الشرطة ألا يتعرض أحد لسب السلف، ومن فعل ذلك قُبض عليه، فانكف الرعاع عن السب والتعرض للحاج»[٥]. وأمر الحاكم سنة ٣٩٧هـ بمحو ما هو مكتوب على المساجد والأبواب وغيرها من سب السلفن فمُحي بأسره، وطاف متولي الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه[٦]. ومنع في سنة ٣٩٨هـ النصارى من تزيين كنائسهم على عادتهم في أعيادهم، وقبض على جماعة منهم، وأمر بإحضار ما هو مُعلق على الكنائس وإثباته في دواوين السلطان، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك، وأحرق صلبان كثيرة على باب الجامع وفي الشرطة[٧].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٥٤/٢، وراجع النويري: نهاية الأرب ١٧٩/٢٨.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٥٤/٢.
(٣) المقريزي: السابق ٥٤ و٥٧، وراجع النويري: نهاية الأرب ١٧٩/٢٨ و ١٨٠.
(٤) المقريزي: السابق ٥٦.
(٥) المقريزي: السابق ٦٧/٢، وراجع ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٥١.
(٦) المقريزي: السابق ٦٩/٢.
(٧) المقريزي: السابق ٧١.

وفي الوقت الذي ضيق فيه على النصارى احتفى بطبيبه اليهودي[١] صقر اليهودي احتفاءً عظيمًا سنة ٣٩٨هـ، وأعطي دارًا فرشت له وزينت وعلق على أبوابها وحجرها الستور، وأُعطي فيها جميع ما يحتاج إليه «وقيل له: هذه دارك، فحصل له في ساعة واحدة ما قيمته عشرة آلاف دينار، واستقر طبيب الحاكم عوضًا عن ابن نسطاس»[٢]. وكان طبيبه النصراني يعقوب بن نَسْطَاس قد توفي سنة ٣٩٧هـ وأقيمت له جنازة حافلة حضرها كبار الدول «وانفرد بخدمة الحاكم في الطب فأثري، وترك زيادة على عشرين ألف دينار عينًا سوى الثياب وغيرها»[٣].

وأقدم الحاكم سنة ٣٩٨هـ على عمل أثار ضجة في العالم المسيحي، وهو أمره بهدم كنيسة قمامة[٤] (القيامة) بالبيت المقدس التي يحج إليها النصارى ويخرجون إليها «بتجمل عظيم كما يخرج المسلمون إلى الحج». ولما عزم على هدمها بادر أقباط مصر إلى بطرك البيعة وأعلموه الحال وأنذروه وحذروه، فاستظهر بإخراج ما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب، ووصل أصحاب الحاكم فأحاطوا بها، وهدموا أبنيتها، وقلعت حجرًا حجرًا، وكتب بذلك المحضر، وكتبت بذلك الكتب وأنفذت إلى الحاكم، وشاع هذا الخبر بمصر، فسر المسلمون به ودعوا للحاكم دعاءًا كبيرًا على ما فعله، وتقدم الحاكم بهدم ما يكون في البلاد من البيع والكنائس، وخوف أن تهدم النصارى ما في بلادها من مساجد المسلمين، فأمسك عن ذلك [٥]. ويبدوا أن هدمها كان بسبب أن ملك الروم هدم جامع القسطنطينية، وهو الذي أعيد بناؤه في عهد

---

(١) يذكر هنا أن المعز اتخذ أطباء يهودًا أيضًا منهم إسحاق بن العازر. راجع عنه المقفى ٥٧/٢.

(٢) المقريزي: السابق ٧٣.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٧٠/٢.

(٤) قمامة: أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس، يعتقد النصارى دفن في مكانها ثم قامت قيامته فيها. واسمها قمامة لأنها كانت مزبلة أهل البلد، وكان في ظاهر المدينة يقطع بها أيدي المفسدين ويصلب بها اللصوص، فلما صلب المسيح –بزعمهم– في هذا المكان عظموه. ياقوت: معجم البلدان ٣٩٦/٤.

(٥) راجع ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٦٧–٦٨، والنويري: نهاية الأرب ١٨٤/٢٨ و ١٩١–١٩٢، والمقريزي: السابق ٧٥، والذهبي سير أعلام النبلاء ١٧٤/١٥.

الظاهر، ولأن حروبًا كانت بين الروم والعبيديين، ولأن طائفة الملكانية (الكاثوليك) كانت مستبدة في مصر، متمكنة بها، لزواج العزيز والد الحاكم بنصرانية ملكانية هي أم ست الملك، فالحاكم اشتد على الملكانيين، عقيدة الرومان[١]. وقد عقد الإمبراطور رومانس الثالث معاهدة مع الظاهر بن الحاكم، من نصوصها السماح بإعادة كنيسة القيامة، وصدق على المعاهدة قسطنطين التاسع الذي تولى عمارة الكنيسة[٢].

ووالى الحاكم سنة ٣٩٩هـ التضييق على اليهود والنصارى في الزي، مع تولية كاتب نصراني في السنة نفسها يدعى أبو نصر بن عبدون في ديوان الخراج «بانفراده من غير شريك» وكسبت الحمامات وأخذ منها جماعة وشُهروا من أجل أنهم وجدوا بغير مئزر[٣]. ومنع الناس من الخروج من منازلهم قبل صلاة الصبح، وبعد صلاة العشاء، ومنع حمل النبيذ والموز وغيرها من الفقاع والدلنيس والسمك الذي لا قشر له والترمس المعفن[٤].

وصدر قرار سنة ٣٩٩هـ «بألا يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره وأسرار الملك»[٥].

واشتد الحاكم على المسلمين السُنة، ففضلًا عن عدم الاعتماد على رؤية الهلال عند بداية كل شهر عربي، وتحكيم الحساب وحده، فإن الأوامر صدرت بقتل من يصلون صلاة التراويح في رمضان، ومن بين من قُتل سنة ٣٩٩هـ: رجاء بن أبي الحسن، وكان قد سمح للسنة بأداء صلاة الضحى والتراويح في السنة نفسها[٦]. وبدئ في هذه السنة أيضًا بضرب من وجد عنده فقاع وملوخية وترمس ودلينس، والسماح بأداء صلاة الضحى وترك الأذان بحي على خير العمل، وزيادة: الصلاة خير من

---

(١) د/عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله ١٠٠، وراجع ٩٦ و٨٥-١٢٦.

(٢) د/الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ٩٤، والأستاذ عنان: الحاكم بأمر الله ص٧٠.

(٣) المقريزي: السابق ٧٦، وراجع ٧٩ و٨١.

(٤) المقريزي: السابق ٧٧.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٧٧/٢ و٨٢، وراجع ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١١٩-١٣٧.

(٦) المقريزي: السابق ٨٠ وراجع ٧٨.

النوم في الفجر، وصدر قراران متناقضان: أولهما: التنديد بشرب النبيذ وجميع أنواع المسكر. وثانيهما: الترخص فيما كان يشدد فيه من أمر النبيذ [١].

وفي سنة ٤٠١هـ ضرب جماعة وشهروا لبيعهم الملوخية والسمك الذي لا قشر له، وقبض على جماعة بسبب بيع النبيذ واعتقلوا وكبت مواضع ذلك، ومنع النصارى من الغطاس فلم يتظاهروا على شاطئ البحر بما جرت عادتهم به، واشتد الأمر في منع المسكرات وتتبع مواضعها، ومُنع الغناء واللهو، وأُمر ألا تباع مغنية، وألا يجتمع الناس في الصحراء، ومنع النساء من الحمام «وأن يكون الخروج للحج في سابع شوال»[٢].

وتكررت هذه الأوامر وتتبع المخالفين لها سنة ٤٠٢هـ[٣] وسنة ٤٠٣هـ[٤] وفيها ضرب من سب الصحابة، وقرئ سجل بالقصر بالترحم على السلف من الصحابة[٥]. واستمر التضييق على الناس سنة ٤٠٤هـ [٦] وما بعدها حتى نهاية عهد الحاكم بأمر الله[٧]. ولما كان وقف عمرو بن العاص قد اعتدي عليه فإن الحاكم رد سنة ٤٠٥هـ حبس عمرو بن العاص على ذريته، ومبلغه في الشهر نحو مائتي دينار[٨].

ولما بلغ الحاكم أن المغاربة تلعنه، قرب الفقهاء المالكية، وأمرهم بتدريس مذهب مالك بن أنس في الجامع [٩].

ويرى الأستاذ عنان أن الحاكم كان شغوفًا بالليل وعقد المجالس فيه، والركوب فيه للتجوال في الشوارع والأزقة، ولذلك صدرت الأوامر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة في جميع طرقات القاهرة والفسطاط، فكانت

---

(١) المقريزي: السابق ٨١ و٨٢ و٨٣.
(٢) المقريزي: السابق ٨٦ و ٨٧.
(٣) راجع المقريزي: السابق ٨٩ و٩٠ و٩١.
(٤) راجع المقريزي: السابق ٩٣ و٩٤ و٩٥ و٩٦.
(٥) المقريزي: السابق ٩٨.
(٦) راجع المقريزي: السابق ١٠٠ و١٠٢ و١٠٣.
(٧) راجع المقريزي: السابق ١٠٥ و١١٠ و١٢٠.
(٨) المقريزي: السابق ١٠٧.
(٩) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١١٩/٢.

المدينة تبدوا في هذه الفترة من الليل، وكأنها شعلة مضيئة، وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات يجري بالليل، واختلطت حياة الجد بحياة اللهو، وغصت الحياة بصنوف اللهو والمرح، وظهر تيار المجون والغواية. ولما خرج الناس في ذلك عن الحد، وبالغوا في اللهو والإسراف والزينة والمجونن منع الحاكم النساء من الخروج ليلًا منذ العشاء لكي تخف عوامل الفتنة والغواية، وعوقب المخالفات بشدة، ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلًا، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل(١).

أما المراسيم الاجتماعية التي صدرت بداية من سنة ٣٩٥هـ، من منع أكل الملوخية والترمس والجرجير والدلينس وتحريم ذبح الأبقار السليمة غلا في عيد الأضحى، وتحريم صيد السمك الذي لا قشر له وكذلك بيعه، وتحريم دخول الحمام من غير مئزر، والتشدد مع النساء بحيث لا يغادرن دورهن ليلًا ونهارًا، باستثناء النساء المتظلمات للشرع والخارجات إلى الحج، أو المسافرت لظروف قاهرة، والقابلات، والأرامل اللائي يبعن الغزل، واشترط عليهن الحصول على تصاريح يشرف على تنفيذها مدير الشرطة(٢)، فإن هناك من الباحثين من دافع عنها وعن كل المراسم الحاكمية، ومنهم د/عارف تامر(٣) الذي يذكر أن الحاكم كان مصطلحًا كبيرًا وكان طبيبًا وعالمًا بعلم النبات، وأدرك أن كل ما منع أكله مفيد للإنسان، فإن الإكثار من أكل ما منعه يؤدي إلى زيادة الدم في جسم الإنسان، ويقوي الغريزة الجنسية، ويغير الواقع النفسي، ويضفي قابلية النزوع نحو الشر، وكان الشعب المصري يفضل هذه النباتات والأكلات على كل غذاء خاصة عندما يتناول النباتات وهي خضراء، وأيد الأطباء العالميون –عنده– رأي الحاكم. ومنع الحاكم من أكل الدلينس وهو نوع من الصدف الصغير الموجود بكثرة على شواطئ الأنهار، وكان المصريون يأكلون ما بداخله نيئًا ومملحًا وقد ثبت أنه يورث الدودة الوحيدة في الأمعاء، وهذا مرض شاع وكثر في الديار المصرية بذلك العصر، فالحاكم إذن لم يكن مجنونًا أو جاهلًا عندما

(١) راجع الأستاذ عنان: الحاكم بأمر الله ٦٢–٦٤.
(٢) الأستاذ عنان: السابق ٦٤–٦٨، وراجع حتى ٧٩.
(٣) د/عارف تامر: الحاكم بأمر الله ٨٢–٨٨.

حرم أكله والاتجار فيه. ومنع الحاكم ذبح الأبقار السليمة إلا في عيد الأضحى، ليؤدي هذا الحيوان خدماته للمزارعين في حرث الأرض، وإمداد الأهلين بالحليب والسمن، والحاكم حرم شرب الخمر والاتجار به، ومنع الفقار وهو المسكر في ذلك العهد، وحرم صيد السمك الذي لا قشر له وكذلك بيعه، لأن هذا النوع كان في طريقه إلى الانقراض في ذلك العصر. أما القوانين الإصلاحية الأخرى التي أصدرها الحاكم بشأن النساء واستئصال البغاء وإشاعة الآداب العامة، فهي من مهامه كحاكم مسلم، ولذلك حرم دخول الحمامات العامة لأي إنسان بلا مئزر، وحرم على النساء[١] كشف الوجه ف الطرقات وغير ذلك، فهي –عنده– قوانين صدرت عن رجل مصطلح وليس مجنونًا. وأعماله كلها –عنده– هدفها إصلاح المجتمع.

ولا يمكن بطبيعة الحال قبول هذا الدفاع المتكلف المصطنع من باحث متعصب، ويمكن فقط الموافقة على ما ينسجم من هذه الأوامر ويتوافق مع الإسلام. هذا ولم يبرر هذا الباحث أعمالًا أخرى للحاكم ومنها على سبيل المثال الأمر بعدم الخوض في أحوال الحاكم وأوامره وأسرار الملك.

وعد باحث آخر هذا الحاكم خليفة مثاليًّا[٢] فيقول: «كانت له أهداف في أن يكون الخليفة المثالي في الخلق والحكم. ويردد الشيعة في كتبهم إشارات إلهية ترمز إلى التبشير به، ليحكم الناس حكمًا مثاليًّا. ولا يدهشنا أن نرى في سيرته تشابهًا مع سيرة العمرين، مع أن المجتمع الإسلامي كان قد بعد جدًا عن معيشته الساذجة الأولى، وأصبح في أوج حضارته المادية المترفة؛ مما جعل سيرته فريدة في زمنها. ولعل مثالية الحاكم أتت من شبابه البريء، وتنشئته الدينية المبطرقن فارتقى ذروة الفضائل وغاية الشرف الكامل وهو صبي. وتظهر مثاليته فيما أخذ به نفسه من تقشف وتزهد....»[٣]. ويرى د/ماجد [٤] أن الحاكم كان يقوم بالحسبة [٥] بنفسه، ويؤدي واجباتها بنفسه، وكان يتشدد في توقيع عقوبات

---

(١) عن المرأة زمن الفاطميين راجع د/نريمان عبد الكريم: المرأة في العصر الفاطمي ٣٣–٢٣٣.

(٢) د/ماجد: الحاكم بأمر الله ٤٠ و٤٦.

(٣) د/ماجد: السابق ٣٨، وراجع حتى ٧٠.

(٤) راجع د/ماجد: السابق ٩٠–١٢٦.

(٥) عن الحسبة في مصر منذ الفتح وحتى نهاية الأيوبيين راجع د/سهام مصطفى أو زيد: الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي.

الحسبة على المخالفين، وهو ما عرف بالتعزير وهي الردع بحذف الشيء المخالف والجلد بالسوط أو بالدرة، والتشهير بالطواف في المدينة، ولذلك راقب الحاكم مراقبة دقيقة التجار وأصحاب الحرف والصناعات لمنع الغش، وعاقب المخالف عقابًا صارمًا؛ رعاية للصالح العام، ومن ثم ومن هذا المنطق والمنطلق كان يصدر عدة أوامر –من وقت لآخر– على حسب الأحوال بمنع أكل وبيع بعض المأكولات التي ربما ترتبت عليها مضار صحية وأمراض في عصره، فمنع الناس من أكل وبيع الملوخية والجرجير والقرع والمتوكلية وهي نبات للحساء والترمس العفن، ولا يوجد في هذه الأوامر مطعن، ذلك أنها تخص مأكولات قد يترتب عليها مضار حتى في وقتنا. وكذلك كانت الأوامر الأخلاقية صونًا للآداب. وقد ضرب الحاكم بيد من حديد على العناصر الفاسدة في مملكته ووضع حد للهو، ولأول مرة في التاريخ نسمع عن إصدار أوامر ترمي إلى وضع حد لسفور النساء منعًا للفتنة؛ مما يدل على حمية نادرة. ولأن أهل الذمة اشتد بأسهم بين المسلمين منذ أن تمكنوا في الدولة الفاطمية أيام العزيز كان من اللازم مراقبة مسالكهم، ومع ذلك فمن الملاحظ أن الحاكم كا أشد وطاة على القبط الملكانية دون باقي أهل الذمة، لزيادة نفوذهم بسبب زواج العزيز من نصرانية ملكانية، أنجبت له ست الملك أخت الحاكم بحيث إن العزيز عين أخويها في أعلى مناصب الكنيسة، ومنذ ذلك الوقت استبدت طائفة الملكانية في البلاد، وكان عدد كبير منها في الجيش والشرطو ووظائف الدولة العليا.

وما من شك في أن دفاع المتشيع [١] د/ماجد أو الشيعي د/عارف تامر محل نظر، فلا أظن أن المأكولات التي نهى عنها الحاكم بأمر الله مضرة فعلًا للإنسان، ولا أظن أنه فطن لندرة بعض أنواع السمك فأراد استبقاءه، وغير ذلك من أوامره ونواهيه ومراسيمه المختلفة التي يخالف بعضها تعاليم الإسلام.

ويرى الأستاذ عنان [٢] أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة، وكان لغزًا عسير الفهم، لقد كان الحاكم طاغية، ولكن مصلحًا على طريقته، وكان يرمي بما يصدر من

---

(١) للوقوف على هذا راجع أيضًا د/ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ٤٧–٥٠٠، وقد عد دولتهم دولة صالحة تختلف عن طريقة حكم ولاة الخلافة العباسية قبلهم. (راجع ٢٩٥–٢٩٦). وعن أهل الذمة زمن العبيديين راجع المرجع السابق ٣٥٤–٣٦٤. وراجع آراءه عن صلاح الدين في كتابه «الناصر صلاح الدين».

(٢) الأستاذ عنان: الحاكم بأمر الله ٩٠–٩٦، وراجع د/حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ١٦٦.

القوانين والأحكام إلى تحقيق غايات معينة، دينية وسياسية واجتماعية، ربما خفيت على الكافة، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا. ولأن الحاكم كان على رأس خلافة مذهبية يقوم سلطانها السياسي على صفة الإمامة الدينية، وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها في مصر بسياج قوي من الخلال القوية التي أحاطت ملكها في المغرب، ولكنها ألفت في مصر مجتمعًا متحضرًا يميل إلى الترف والحياة الناعمة، ولم ترد أن تضييق على هذا المجتمع بادى ذي بدء، وكانت الرذائل الاجتماعية على أشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله، وظهر ذلك الانحلال الجتمعاي في أشد مظاهره حيثما نظمت حياة الليل، وشهد الحاكم في مواكبه الليلية مظاهر هذا الفساد الشامل، عندئذ عمد الحاكم إلى وضع الخطة التي يمكن بأنها برنامج للإصلاح الاجتماعي، ولجأ إلى تلك القوانين والإجراءات الصارمة لمكافحة هذا الفساد الاجتماعي الشامل. أما تحريم بعض أنواع الأطعمة والبقول فيرجع إلى أسباب مذهبية أو صحية لها قيمتها في ذلك العصر. وفي جميع الأحوال لم تكن هذه القوانين والإجراءات نزعات منضطرب الذهن، أو مجنون.

قضية ألوهية الحاكم:

ذكرت مصادرنا التاريخية أنه في سنة ٤٠٨هـ قدم مصر داع عجمي اسمه محمد بن إسماعيل الدرزي، واتصل بالحاكم، فأنعم عليه، ودعا الناس إلى القول بإلهية الحاكم، فأنكر الناس عليه ذلك، ووثب به أحد الأتراك ومحمد الدرزي في موكب الحاكم فقتله، وثارت الفتنة، فنهبت داره، وغلقت أبواب القاهرة، واستمرت الفتنة ثلاثة أيام قتل فيها جماعة من الدرزية، وقبض على التركي قاتل الدرزي وقتل. ثم ظهر داع آخر اسمه حمزة بن أحمد، وتلقب بالهادي، وأقام بمسجد تبر[١] خارج القاهرة ودعا إلى ما قاله الدرزي بتأليه الحاكم، وبث دعائه في مصر والشام، وترخص في أعمال الشريعة، وأباح الأمهات والبنات ونحوهن، وأسقط جميع التكاليف في الصلاة والصوم وغيرهما. «فاستجاب له خلق كثير، فظهر من حينئذ مذهب الدرزية ببلاد صيدا وبيروت وساحل الشام»[٢].

---

(١) مسجد تبر خارج القاهرة قريب من المطرية، وبني في أيام الإخشيديين. راجع المقريزي: الخطط ٤١٢/٢.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١١٣/٢. ولا يزال الدروز موجودين بلبنان وسوريا وفلسطين المحتلة (إسرائيل) بعقائدهم الفاسدة، وأفكارهم المنكورة. وراجع ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٨٦/٤ طبعة بيروت.

وفي سنة ٤٠٩هـ ظهر رجل اسمه حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم رأى حلول الإله في الحاكم، ودعا إلى ذلكن وتكلم في إبطال النبوة، وتأول جميع ما ورد في الشريعة، فاستدعاه الحاكم بعد أن كثر أتباع ابن حيدرة، وخلع عليه خلعًا سنية، وحمله على فرس وركبه في موكبه وذلك في الثاني من رمضان من السنة الماضية فتقدم إليه رجل من الكرخ فقتله في الموكب، فأمسك الكرخي وأمر الحاكم بقتله، ونهب الناس دار ابن حيدرة، فقتل الحاكم سبعين رجلًا[١]. وأمر الحاكم بحمل ابن حيدرة وتكفينه ودفنه، بينما كفن العامة الكرخي ودفنوه، وبنوا على قبره ولزموه ليلًا ونهارًا يتبركون بزيارته، فلما كان بعد أربع عشرة ليلة وُجد قبره منبوشًا، وقد أخذت جثته، فلم يوقف لها على خبر بعد ذلك[٢].

وقد فصل ابن ظافر والنويري[٣] والمقريزي[٤] في «المقفى» الحديث عن الداعية إلى تأليه الحاكم: حمزة بن أحمد اللباد الملقب بهادي المستجبين (ت٤١٠هـ) فذكروا جلوسه خارج المساجد داعيًا إلى عبادة الحاكم ومصرحًا بحلول الإله سبحانه فيه، فاجتمع إليه جماعة من غلاة الإسماعيلية الشيعة، وكان الحاكم إذا مر عليه انفرد به وحادثه، وتمادى اللباد على ذلك وارتفع شأنه واتخذ لنفسه خواصًا لقبهم بألقاب، منهم رجل لقبه بسفير القدرة وجعله رسولًا له، يرسله لأخذ البيعة على الرؤساء في اعتقاده بتأليه الحاكم، وبث اللباد دعاة بأرض مصر والشام ودعا إلى الرخصة والإباحة، وأحل نكاح المحارم وأسقط التكاليف الشرعية، فاستجاب لدعائه خلق كثير. وعُني الحاكم

---

(١) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٢٦-١٣٠، والنويري: نهاية الأرب ١٩٧/٢٨، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ١١٨.

(٢) المقريزي: المقفى ٣٦٢/٣، وراجع من ٣٦١.

(٣) النويري: السابق ١٩٧-٢٠١ وذكر هناك خبرًا عن تظاهر النصارى واليهود بالإسلام بسبب التضييق عليهم، ثم أذن لهم بالرجوع إلى دينهم فارتدوا. (ص٢٠٠).

(٤) المقريزي: المقفى ٦٥٩/٣-٦٦٢. وذكر ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص١٢٨ قيام هؤلاء الملاحدة من أتباع حمزة بالدخول إلى جامع عمرو بن العاص ركبانًا وهم معلنون مذهبهم وجاءوا إلى الموضع الذي يجلس فيه قاضي القضاة وتكلموا بكلام سمعه الناس، فأنكروا عليه وضجوا بالتكبير والتهليل والثناء على الله عز وجل ووثب السنة على هؤلاء الملاحدة وقتلوا بعضهم.

بحمزة اللباد، فخاف حمزة على نفسه وطلب من الحاكم سلاحًا كثيرًا، فارتفع قدره. وذكر أن حمزة سب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبصق على المصحف، ولما سئل عن ذلك، أقر وقال: تبت، وسار حمزة داعيًا إلى فكره الضال بالبلاد، حتى نزل مكة سنة ٤١٠هـ، فعرفه المجاورون وحرضوا أميرها على قتله، فقتله بعد تلكأ، ثم لم يزل المجاورون يرجمونه وغلامه بالحجارة حتى سقط على الأرض، فجمعوا لهما الحطب والعظام وأحرقوهما.

وورد أن الحاكم ادعى الألوهية وصرح بالحلول والتناسخ، وحمل الناس على ذلك، وألزم الناس بالسجود له مدة إذا ذُكِر، فلم يُذكر اسمه في محفل أو غيره، إلّا سجد من سمع بذكره، وقبل الأرض إجلالًا، ثم لم يرضه ذلك(١).

وينقل ابن إياس عن شيخ الإسلام الذهبي أنه في سنة ٤٠٠هـ تزايد طغيان الحاكم بأمر الله، حتى إنه ادعى الربوبية من دون الله كما فعل فرعون، فكان يحسن لجماعة من عوام مصر الجهلة إذا مر في الطرقات أن يسجدوا له ويقولوا: «يا محيي، يا مميت» ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه، وادعى الحاكم علم الغيب(٢).

ويذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أنه أراد ادعاء الألوهية وشرع في ذلك، فكلمه الكبراء وخوفوه من وثوب الناس، فتوقف(٣).

أما ابن خلدون فإنه حكم على الحاكم بالاضطراب في الجور والعدل، والإخافة والأمن، والنسك والبدعة، وذكر تعرض جماعة من الروافض لأهل السنة في التراويح بالرجم في عصره، وكذلك في الجنائز، ثم قال: «أما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته، وأما مذهبه في الرافضة فمعروف، ولقد كان مضطربًا فيه»(٤).

فابن خلدون يستبعد أن يدعي الحاكم الألوهية، وإذا فعل هذا لقتل، وأقول: إن الحاكم قتل فعلًا في ظروف غامضة سنة ٤١١هـ في أعقاب الدعوة إلى تأليهه.

---

(١) النويري: نهاية الأرب ١٩٧/٢٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٢٠٧-٢٠٨ نقلًا عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧٦/١٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٨٧/٤ طبعة بيروت.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦٠/٤، وراجع عن العبيديين بمصر ص٤٧-٨٢.

ويرى د/أحمد مجاهد مصباح أنه لا يستبعد على رجل متطرف التفكير مثل الحاكم أن يدعي الألوهية، وإنما يستبعد أن يجهر بهذا الادعاء الخطير الذي لن يقابله الشعب بالرضا والتسليم(١).

أما الأستاذ عنان(٢) فيذهب إلى أن الحاكم كان مؤيدًا وراعيًّا للحركة الإلحادية التي دعا إليها الدرزي وحمزة وغيرهما. وكان الحاكم من وراء الدعاة يشد أزرهم ويمدهم بالمال والنصح، ويسهر على حمايتهم من الكافة، وربما كان يشرف على توجيه الدعوة يشترك في تنظيمها وتغذيتها بطريقة فعلية، وهذا ما يذكره حمزة في بعض رسائله، ولذلك ثارت نفس الحاكم غضبًا على الجند والكافة لأنهم اجترأوا على مطاردة الدعاة دون اكتراث لما أولاهم من رعاية ظاهرة، ولذلك عزم على إحراق مصر، وأحرقت بالفعل الفسطاط (٣). وقد دافع الترك والمغاربة عن أهل مصر من العبيد الذين أمرهم الحاكم بالتعدي على أهالي الفسطاط خاصة لمقاومتهم الانحرافات الفكرية التي رعاها الحاكم وأيدها، وربما تبناها أيضًا (٤). وقد قص ابن إياس واقعة حرق الحاكم للفسطاط والتي وردت في مصادرنا ومنها «أخبار الدول المنقطعة» و«نهاية الأرب» وغيرها، وأضاف ابن إياس أن العبيد نهبوا بيوت الناس وأخذوا أموالهم، وسبوا النساء، واستمر هذا الوضع الشنيع بالفسطاط والقاهرة ثلاثة أيام متوالية، فضج الناس إلى الحاكم واستغاثوا به وصعد إليه العلماء والصالحون للشفاعة في الناس فعفى عنهم بعدما احترق من المدينة نحو ثلثها، ونهبت أموال الناس، وسبيت النساء «وقتل مالا يحصى، وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب بمصر»(٥). وقد اشترك العبيد والروم والمغاربة

---

(١) د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٣٣٥، وراجع من ص٣٣٤.

(٢) الأستاذ عنان: الحاكم بأمر الله ١١٨-١٢١، وراجع من ص١١٣.

(٣) راجع عن هذا الحريق وعن مقاومة السنة للفكر الداعي إلى تأليه الحاكم بالتفصيل الشديد عند ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٢٦-١٣٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/١٨٠-١٨٥.

(٤) راجع في ذلك النويري: نهاية الأرب ٢٨/١٩٣ و١٩٨-٢٠٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٨٠-١٨٤.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ٢٠٩. وذكر الأستاذ عنان في المرجع السابق ص١٢٠ أن الترك والمغاربة هزموا العبيد ونكلوا بهم ثم هددوا الحاكم باقتحام القاهرة وحرقها إذا لم يوضع حد لتلك الجرائم، فخشي الحاكم العاقبة، وأمر العبيد بالتفرق ولزوم السكينة، واعتذر لأشراف مصر وزعماء الترك والمغاربة عما وقع وتنصل من كل تبعة فيه. ونقل هذا عن ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ملخصًا. وراجعه عند تغري بردي: النجوم الزاهرة طبعة بيروت ٤/١٨٠-١٨٥.

وجميع العساكر في بداية الأمر في حرق الفسطاط والاعتداء على السنة، كما يذكر ابن تغري بردي، ثم انفرد العبيد بالقتال، وقاتلهم الترك والمغاربة بعد رفضهم التمادي في الجريمة أثر مخاطبة الشيوخ لهم بالرحمة.

وهكذا انهارت الحركة الإلحادية بسبب مقاومة السنة بمصر لها، وقتل معظم قادتها(١).

وقد ناقش د/ماجد قضية تأليه الحاكم وروى ما جاء من روايات متصلة بهذا التأليه، وذكر موافقة الأستاذ عنان على هذا التأليه، وكذلك المستشرق «Desacy» و«Betty» وأنه في رأيهم قد استمدها من عقائد الإسماعيلية، وحتى د/كامل حسين الذي حقق رسالة تنفي دعوى ألوهية الحاكم بعنوان «الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله» يميل هو الآخر إلى القول بأن الحاكم مال إلى تأليه نفسه غرورًا وكبرًا، ولكن دون أن يستمد عقيدة التأليه من عقائد الإسماعيلية التي هي براء من ذلكن ويذهب د/ماجد إلى نفي تأليه الحاكم (٢). وبالمثل ذهب الشيعي د/عارف تامر إلى أن فئة المؤلهين للحاكم فئة من الغرباء الشعوبيين الذين وفدوا إلى مصر من بلاد بعيدة حاملين معاول الهدم والتخريب وتشويه سمعة الأئمة الفاطميين ودعوتهم وعقيدتهم، وادعى د/عارف أن فرقة الغلاة التألهيين التي ظهرت أيام الحاكم ونادت بألوهيته لم تعش طويلًا، ثم اضمحلت، بل وربما تكون قد أبيدت في عصر الحاكم وولده الظاهر. أما الدروز –عنده– فهي فرقة موحدة انشقت عن الإسماعيلية الأم وتوقفت عن الركب الأمامي عند الإمام الحاكم بأمر الله، وقالت بعودته، ولا يرى د/عارف أي مأخذ يؤخذ على هذه الفرقة في اجتهاداتها، وزعم أن الدروز يتبعون التعاليم الفاطمية الصحيحة ويتبعون الإسلام والقرآن ولكن عن طريق العلم والعقل والمنطق، وزعم أن حمزة من دعاة هؤلاء الموحدين الدروز (٣). وكل هذا خارج عن الحق والصحة، والإسلام، فأفكار ومعتقدات الدروز (٤) معروفة مقررة وهي بعيدة كل البعد عن الإسلام، فهم خارجون عن الإسلام بالكلية في العقيدة والشريعة العبادات،

---

(١) راجع الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي ٣٣٤–٣٥٢، وراجع عن الحاكم وأعماله ٢٣٧–٣٦٣.

(٢) راجع هذه القضية عند د/ماجد: الحاكم بأمر الله ١٠٦–١٢٦.

(٣) راجع د/عارف تامر: الحاكم بأمر الله ٩٢–١٠٥.

(٤) أقر المؤرخ الأنطاكي النصراني بما ذكرته المصادر الإسلامية من الفكر المنحرف للدرزي وغيره من مؤلهي الحاكم. راجع تاريخ الأنطاكي ٣٣٤–٣٤٥.

ويكفي هنا أن جعل هذا الشيعي د/عارف الداعية حمزة بن أحمد اللبادي أحد دعاة التوحيد الدرزي، وهو الذي نسب إليه سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصق على المصحف، وأحل نكاح المحارم، وأسقط التكاليف الشرعية –المسقطة الآن عند الدروز– ودعا إلى تأليه الحاكم، المؤله فعلًا عند الدروز الآن. ولكن الشيعة الإسماعيلية وغيرهم يستخدمون مبدأ التقية، ويتحايلون ويراوغون كباقي الكفرة؛ لئلا يوصفوا بالخروج الكلي عن الإسلام، ويوصموا بالكفر.

وأراني مع الذهبي في رأيه الذي تدعمه الروايات، وتؤكده الأخبار، وتشهد عليه القرائن والأحوال، وهو الرأي القائل بإدعاء الحاكم للألوهية، ولعل اختفاء الحاكم الغامض، وسر نهايته العجيبة بسبب هذا الادعاء الكاذب، والدعوى المزيفة، ووجود الدروز بأفكارهم ومعتقداتهم المنكورة حتى يومنا هذان وتأليههم للحاكم أثر من آثار ادعائه للألوهية، ووجود النصيرية (العلويين) بسوريا الآن الذين يؤلهون حاكمهم، بعد انتقال روح الإله إلى علي بن أبي طالب ثم إلى ذريته فحكامهم، يشهد بالفكرة المشابهة التي جعلت بعض غلاة طوائف الشيعة ومنهم النصيرية والدروز يؤلهون بعض البشر والحكام.

اختفاء الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ:

كان الحاكم بأمر الله قبل اختفائه قد حبب إليه العُزلة والذهد، فكان يركب وحده في الأسواق على حمار، ويقيم الحسبة بنفسه، وبين يديه عبد ضخم، فمن وجب عليه تأديب، أمر العبد أن يؤدبه. وكان آخر العهد به أنه خرج من قصره فطاف ليلته ثم أصبح فتوجه إلى شرقي حلوان معه ركابيان، رد أحدهما مع تسعة من العرب، ثم أمر الآخر بالانصراف فزعم أنه فارقه عند المقصبة (أرض كثيرة القصب) فكان آخر العهد به، وخرج الناس يلتمسون رجوعه، معهم الجنائب، وفعلوا ذلك جمعة، ثم خرج صاحب المظلة وغيره، فبلغوا دير القُصير (قرب حلوان) وأمعنوا في الدخول في الجبل الذي على رأسه الدير، المشرف على النيل، فرأوا حماره الأشهب المسمى بقمر، وقد ضربت يداه، فأثر فيهما الضرب وعليه سَرْجه ولجامه، فتتبعوا أثر الحمار، فإذا أثر راجل خلفه وراجل قُدامه، فقصوا الأثر إلى بركة بشرقي حلوان، فنزل رجل إليها فوجد ثيابه وهي سبع جباب مزررة، فيها آثار السكاكين «فما شكوا في قتله»[1].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٨٢–١٨٣، وراجع ص١٧٦، وراجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/١٩٤–١٩٥، وابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٣٤–١٣٥، وابن سعيد: النجوم الزاهرة ص٥٠.

ويذكر المقريزي أنه في السنة التي قتل فيها الحاكم أشاع أنه يريد أن ينزل في أول رمضان –وكان اختفاءه في شوال– إلى الجامع ومعه الطعام، فمن أبى الأكل قتله. وكان دعاته إذا ركب يقولون: السلام عليك يا واحد يا أحد، ويَغْلُون في الغلو المفرط[١]. وقبض في المحرم سنة ٤١٥هـ على رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلى، فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد، وأظهر قطعة من جلدة رأسه، وقطعة من الفوطة التي كانت عليه، فقيل له: لم قتلته؟ قال: غيرة لله وللإسلام[٢].

وقيل إن ست الملك أخت الحاكم أنكرت عليه تصرفاته وأفعاله فتنكر لها وهم بقتلها، وتكرر تهديده لها بقتلها، فأعملت الحيلة في إعدامه، وطلبت من رئيس كتامة الأمير سبف الدين حسين دوّاس إعمال الحيلة لقتل أخيها، فأحضر دوّاس عشرة من العبيد، أعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار وعرفهم كيفية قتله، فسبقوه إلى جبل المقطم[٣] قبل وصوله إليه ولما وجدوه قد انفرد على عادته عند وصوله إلى المقطم، خرجوا عليه وقتلوه [٤].

ويذهب أحد الباحثين [٥] إلى أن بعض المصادر التاريخية أكدت قيام ست الملك بالتدبير لمؤامرة اغتيال الحاكم، وأجلست مكانه ابنه الظاهر، وأدارت شئون الدولة بنفسها وقتلت «جميع من اطلع على سرها»، وسبب ذلم معاملته العنيفة لأهل الذمة الذين كانوا موضع حب وتقدير ست الملك، والدليل على ذلك أنها ما كادت تتخلص من الحاكم حتى ألغت جميع قراراته ضد النصارى وأعادت إليهم نفوذهم بشهادة المؤرخ المسيحي الأنطاكي نفسه[٦].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١١٨/٢.

(٢) المقريزي: الخطط ٢٨٨/٢. وذكر أن أحسن ما قيل في الحاكم: أفعاله لا تعلل، وأحلام وساوسه لا تأول.

(٣) ذكر المقريزي في: الخطط ٢٨٨/٢ أن الحاكم كان ينظر في النجوم، وعمل مرصدًا واتخذ بيتًا في المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك.

(٤) النويري: السابق ١٩٥–١٩٦، وابن ظافر: السابق ١٣٣–١٣٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٨٧/٤–١٩٤، وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٧٩–٨٠.

(٥) د/عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري في العصر الفاطمي ١٠٣–١٠٤.

(٦) راجع تاريخ الأنطاكي ٣٧٤–٣٧٥.

وهناك رواية أخرى في اختفاء الحاكم ومقتله لمؤرخ مسيحي زعم أن الحاكم كان يميل للأنبا صلمون منذ أول مشاهدته له، وتقدم إليه الحاكم بطلب كل ما يريده النصارى، فشنع على الحاكم بسبب هذه العلاقة بعض المسلمين، لما عرفوه من ميل الحاكم للأنبا، ومشاركة الحاكم رهبان النصارى في لباس الصوف، وأنه تتلمذ للأنبا صلمون، وكان الحاكم يمضي وحده، وفي بعض الأيام كان معه صبي اصطنعه، يعرف بالقرافي (حارسه الخاص) وأبعدا معًا في جبل المقطم، فلقيه سبع نفر من البادية التمسوا منه صلة بجفاء في القول وغلظ في اللفظ وشتيمة، فامتنع الحاكم لانعدام المال معه، وأرشدهم إلى متولي بيت المال ليدفع لهم خمسة آلاف درهم، وأرسل معهم القرافي، فسار أربعة منهم معه وبقي ثلاثة مع الحاكم، وقبض الأربعة المال، وعاد القرافي يلتمس الحاكم فلم يجده، فتقدمت ست الملك بالركوب إلى الصحراء واستكشاف الخبر، فوجدوا ثيابه التي كان يلبسها في ناحية الجبل وهي متهرئة ممزقة من ضربات السكاكين، فاستدل على أن أولئك الثلاثة البوادي قد قتلوه[١].

ولا شك في أن الحاكم قد صنع عداوات عديدة، مع طوائف مختلفة من أفراد وجماعات وفرق المجتمع المصري، وهؤلاء جميعًا كانت بينهم وبينه مشاحنات وخصومات، ودماء أيضًا، ومصلحتهم العليا وهدفهم الأسمى التخلص من الحاكم، لكن بعض المؤرخين كالمسبحي –وعنه نقل المقريزي– يرون أن أخته ست الملك بريئة من دم أخيها الحاكم بأمر الله[٢]. ويذكر الذهبي أن طائفة من الشيعة ترى أن الحاكم لم يقتل، وإنما ذهب في غيبة أبدية وسيعود آخر الزمان[٣]، تشبهًا بإمام الشيعة الإمامية (الاثنا عشرية) محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى بسرداب في سامراء، فرارًا من العباسيين، وسيعود بعد اختفائه لأنه باقٍ، ليملأ الأرض عدلًا.

ويرى د/ماجد بعد عرض كل روايات اختفاء الحاكم ومقتله أن الرواية الصحيحة هي التي ذكرت مقتله على يد رجل من بني حسين بالصعيد الأعلى[٤]. أما الأستاذ عنان، فإنه يذكر أنه توجد أربع روايات معاصرة:

---

(١) الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي ٣٥٩-٣٦٣، وراجع ٣٧٣، وراجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ١١٥/٢-١١٦، وابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٣٤-١٣٥.

(٢) راجع المقريزي: الخطط ٢٨٨/٢.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨٣/١٥، وابن إياس: بدائع الزهور ٢١٠-٢١١.

(٤) د/ماجد: الحاكم بأمر الله ١٧٢، وراجع من ص١٦٩-١٨٠.

أبو هلال الصابي والقضاعي الذي كتب روايته بعد الحادثة بنحو ثلاثين سنة فقط، وهذان المؤرخان يتفقان في اتهام ست الملك وكونها دبرت المؤامرة وقامت على تنفيذ الجريمة. وهناك روايتان أخريان للمسبحب الشيعي مؤرخ الدولة الفاطمية ووزير الحاكم وصديقه، وللمؤرخ المسبحي الأنطاكي وهما يتفقان غي تبرئة ست الملك من بتعة هذه الجريمة. وإن كان الأنطاكي قد أغفل الإشارة إلى ست الملك، واتهم ابن دوّاس، وهذه قرينة غير مباشرة على اتهام ست الملك باعتبارها أقوى شخصية في القصر يومئذ. ولأن المسبحي شيعي يدين بمذهب الدولة الفاطمية، فإن هذا الانتماء المذهبي يسبغ بعض الريب على روايته، واتباع المقريزي لهذه الرواية للمسبحي لأنه ينتمي إلى الفاطميين. أما القضاعي فقد كتب بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا، وفي عصر تضاءل فيه الحرص على الذكرى، وهو سني وفقيه شافعي وبذا فهو أبعد عن التأثر بنفوذ القصر الفاطمي. وعلى ذلك فإن الأستاذ عنان أخذ بروايته وهي أن الأميرة ست الملك كانت روح المؤامرة والرأس المدبر للجريمة [١].

ويرى الشيعي د/عارف تامر أن ابن دواس هو من قتل الحاكم بدون علمٍ من الأميرة ست الملك، وإنما قتله لأسباب شخصية وثأرية [٢].

الخلفاء العبيديون بعد الحاكم:

تولى الظاهر [٣] بن الحاكم أمور الدولة العبيدية وله ست عشرة سنة، وكانت عمته ست الملك هي القائمة بأمور دولته، والأمير سيف الدين بن دواس. وماتت ست الملك

---

(١) الأستاذ عنان: الحاكم بأمر الله ١٣٢-١٣٤، وراجع ١٢٢-١٣٦، وراجع د/أحمد مجاهد مصباح الذي أخذ برأي الأستاذ عنان، مصر في ظلال الخلفاء ٣٣٦-٣٣٧.

(٢) د/عارف تامر: الحاكم بأمر الله ١٠٩-١١١، وراجع ١٠٥-١١٢.

(٣)عنه راجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٨٤-١٨٦ وقال: «ولا أستحل أن أقول العلوي الفاطمي لما وقر في نفسي من أنه دعي»، وراجع ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٧٦، وابن القلانسي:ذيل تاريخ دمشق ٨٠-٨٣، وابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٣٨-١٤٠، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/١٢٤-١٨٣. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/٢٤٧-١٨٦ طبعة بيروت، والأنطاكي: تاريخ الأنطاكي ٣٦٥-٤٤٠، والمسبحي: أخبار مصر في سنتين ٢١-٢٥٣، وابن إياس: بدائع الزهور ٢١١-٢١٤ وللوقوف على الهدنة بين الظاهر وإمبراطور الروم رومانوس المتضمنة لعمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس راجع الأنطاكي: السابق ٤٣٦-٤٣٧، وعن علاقة العبيديين بالروم راجع ١٣٥-١٣٦ و١٣٦-١٤٢ و١٦٦-١٧٩ و١٩٣-١٩٥ و٢٤٣-٢٤٦ و٢٤٨ و٤١٢-٤٢٠. وراجع المقريزي: السابق ١٨٢.

بعد أربع سنوات من خلافته، وكانت قد دبرت أمور الدولة بعد فقد أخيها الحاكم بأمر الله «أعادت فيها للملك غضارته، واستردت بهجته، وملات الخزائن بأصناف الأموال، وقلدت الأكفاء جلائل الأعمال، واصطنعت الرجال»[١]. ولما انفرد الظاهر بالحكم تراجع تراجعًا قويًّا عن كل ما أصدره والده الحاكم من مراسيم، دليل ذلك السماح لمن أسلم من النصارى بالارتداد عن الإسلام [٢]، والإفراط في بناء الكنائس وعمارتها [٣] وهو سمة حكم الظاهر بدليل قول الأنطاكي المسبحي «وأنفذت له -لبطرك الإسكندرية- السيدة أخت الحاكم -ست الملك- ثيابًا ومصاحف وكمثليا فضة (آلات فضية) كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك القديس، وشدت مع النصارى وقوت همتهم وجدوا في عمارة كنائسهم»[٤]. وعاد الناس إلى التظاهر بشرب النبيذ، واللهو والخلاعة، ففي سنة ٤١٥هـ كان فِصح النصارى (عيد القيامة)، فاجتمع بقنطرة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير «طول نهارهم في لهو وتهتك قبيح، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر، حتى حملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر، فكان المنكر شديد في هذا اليوم»[٥]. هذا في الوقت الذي نفي فيه فقهاء المالكية وغيرهم وفرض على أهل السنة وغيرهم حفظ كتاب «دعائم الإسلام» للمؤرخ الفقيه ابن حيون [٦].

وأسرف الظاهر في القتل كوالده الحاكم، ففي سنة ٤٢٣هـ أمر بقتل دعاته، فاضطربت الرعية، وكثير من الجند لذلك، وأخذ الدعاة في إفساد أمره والتحدث بخلعه، فأنفق أموالًا جمة حتى استقر أمره [٧]. ويذكر ابن إياس أنه في السنة السابقة نادى في القاهرة باجتماع كل الجواري بالفسطاط بقصد الظاهر وهن في أحسن ملابسهن، فصار

---

(١) المقريزي: السابق ١٧٤.
(٢) راجع المقريزي: السابق ١٣٦ و١٧٦، والأنطاكي: تاريخ الأنطاكي ٣٧٥ و٣٧٦.
(٣) راجع الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي ٣٧٠-٣٧٢.
(٤) الأنطاكي: السابق ٣٧٢ و٣٧٤-٣٧٥.
(٥) المقريزي: السابق ١٣٧، والأنطاكي: السابق ٣٧٤-٣٧٥، وراجع ابن إياس: بدائع الزهور ٢١٢-٢١٣.
(٦) المقريزي: السابق ١٧٥.
(٧) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/١٨٠.

كل من عنده جارية يلبسها أحسن الثياب الفاخرة ويحضرها إلى قصر الخليفة، فلما تكامل جمعهن أمر بسد عليهن باب المجلس، وتركهن ستة أشهر «ثم بعد ذلك أضرم عليهن النار حتى أحرقهن عن آخرهن، وكان عدتهن ألفين وستمائة وستين جارية، ولم يقع لأبيه الحاكم مثل هذه الواقعة مع وجود ظلمه وجوره في الناس»(١).

وفي أيامه ظهرت طائفة النصيرية سنة ٤١٤هـ وهي طائفة مالت إلى الغلو في عليّ بن أبي طالب، وادعت ما ادعت النصارى في المسيح «ونجمت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل»(٢).

وبعد خمس عشرة سنة وتسعة أشهر، ولم يستمتع بالخلافة طويلًا فقد أدركته منيته وهو في الثانية والثلاثين من عمره.

وتولى المستنصر (٣) بن الظاهر الحكم وهو في السابعة من عمره، ليبتدأ في النصف الثاني من حكمه ما يعرف بالعصر الفاطمي الثاني (٤٦٧-٥٦٧هـ) وهو عصر يختلف عما سبقه من حكم العبيديين في عصرهم الأول، حيث كان العصر العبيدي الثاني عصر نفوذ الوزراء، والتنافس على السلطة، والفتن بين جنود مصر من الأتراك والسودان وغيرهم، وهو عصر ضعف للحكم العبيدي بمصر.

وأهم ما حدث في فترة حكم المستنصر والتي استمرت ستين سنة، الشدة العظمى والمجاعات (٤) التي حدثت بمصر. يذكر المقريزي أنه وقع في أيام المستنصر الغلاء الذي فحش أمرهن وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين، وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن، وانخفاض مياه النيل،

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٢١٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٤٩/٤ طبعة بيروت.

(٣) عنه راجع المقريزي: السابق ١٨٤-٣٣٤، وابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٤١-١٥١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨٦/١٥-١٩٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١/٥-١٤١ طبعة وزارة الثقافة وسأعتمد عليها من الآن، وابن سعيد: النجوم الزاهرة ص٧٧-٨١، والنويري: نهاية الأرب ٢٠٩/٢٨-٢٤٣.

(٤) عن المجاعات التي حدثت بمصر راجع المقريزي: إغاثة الأمة ١٠-٨٧ن وعن مجاعة سنة ٥٩٧هـ وأكل لحوم البشر بمشاهدة الرحالة عبد اللطيف البغدادي راجع الإفادة والاعتبار ٨٥-١٠٦، وأكد ساويرس على أكل لحوم الصبية في هذه المجاعة: تاريخ البطاركة ٣١١/٧-٣١٢.

وعدم من يزرع ما شمله الري، وكان ابتداء ذلك سنة ٤٥٧هـ، فعم القحط وارتفعت الأسعار، وأعقبه الوباء، حتى تعطلت الأراضي من الزراعية وأكلت الكلاب والقطط من الجوع، حتى قلت الكلاب، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير «وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا. وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه، ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه....»[١]. واستمرت هذه الشدة المستنصرية سبع سنوات متتالية، حتى إن الواحد كان يموت في البيت فيموت في بقية اليوم أو الليلة كل ما بقي فيه، وخرج من القاهرة والفسطاط جماعة كثيرة إلى الشام والعراق، وأكل بعض الناس بعضًا[٢]، وهلك من الخلق مالا يحصيهم إلا خالقهم [٣]، ومات أكثر أهل مصر[٤]، وأكلت الدواب بأسرها، فلم يبق للمستنصر سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة[٥]. وكان بالفسطاط حارة تسمى حارة الطبق، كان فيها نحو عشرين دارًا، كل دار تساوي في الثمن ألف دينار، فأبيعت هذه الحارة كلها بطبق خبز، طل دار برغيف، فسميت من يومئذ حارة الطبق[٦]. ويذكر ابن إياس أن الغلاء والوباء أدى إلى فناء ثلث سكان مصر، حتى قيل: غن الرجل كان يمشي من جامع ابن طولون إلى بابي زويلة فلا يرى في وجهه إنسانًا يمشي في الطرقات «حتى قيل فني من الناس نحو النصف»[٧]. ثم بعد ذلك تراجع الأمر قليلًا، قليلًا، وانصلحت الأحوال ووقع الرخاء وانحط سعر القمح ووردت الأموال من البلاد، ورجع الماء إلى مجاريه [٨].

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة ٢٤، وراجع ٢٣-٢٦، وراجع حتى ٨٧، وراجع النويري: نهاية الأرب ٢٣٣/٢٨ وورد قوله: «وأكل بعض الناس بعضًا».

(٢) راجع النويري: السابق ٢٣٣-٢٣٤، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٧٩/٢-٢٨٠، وابن إياس: بدائع الزهور ٢١٦-٢١٧.

(٣) المقريزي: السابق.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٥/٥-٢٠.

(٥) ابن تغري بردي: السابق ١٦.

(٦) ابن إياس: السابق ٢١٧، وراجع حتى ٢١٩.

(٧) ابن إياس: السابق ٢١٨.

(٨) ابن إياس: السابق ٢١٩.

وفي سنة ٤٦٢هـ قطعت من مكة الدعوة المستنصرية الشيعية، وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) وترك الأذان «بحي على خير العمل» «وذلك لذلة المصريين بالقحط الأكبر وفنائهم وأكل بعضهم بعضًا، وتمزقوا في البلاد بسبب الجوع، وتمحقت خزائن المستنصر، وافتقر، وتعثر»[١]. ثم أعيدت الدعوة للعبيديين بمكة سنة ٤٦٧ بعد أن خطب فيها للقائم بأمر الله العباسي أربع سنين[٢]. وبطبيعة الحال فإن لقوة وثراء أي خلافة، وما ترسله إلى بلاد الحجاز من مؤن وغلال وأموال أثرًا في تبعية بلاد الحجاز لهذه الدولة أو الخلافة. وفي أيام المستنصر وفي سنة ٤٧٩هـ قدم الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الباطنية الحشيشية الإسماعيلية إلى مصر في ذي تاجر، واتصل بالمستنصر واختص به، والتزم أن يقيم له الدعوة في بلاد خراسان وغيرها من بلاد المشرق[٣]. وخرجت صقلية عن التبعية للعبيديين سنة ٤٨٤هـ حيث تمكن روجر الأول من الاستيلاء عليها، فكان ذلك بداية لسيطرة النورمان عليها[٤].

ومات المستنصر في ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ وقد قارب السبعين «وكان سب الصحابة فاشيًا في أيامه، والسنة غريبة مكتومة، حتى إنهم منعوا الحافظ أبا إسحاق الحبال من رواية الحديث، وهددوه، فامتنع»[٥].

وتولى المستعلي[٦] بالله بن المستنصر سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وله إحدى وعشرون سنة، وفي أيامه وهت الدولة العبيدية، واختلت قواعدها، وانقطعت الدعوة لها من أكثر مدن الشام، واستولى الصليبيون عليها، بالإضافة إلى السلاجقة الغز، وما كان للمستعلي رأي مع ابن أمير الجيوش أحمد بن بدر الجمالي، الذي كان أبوه بدر

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٩٠ و١٩١-١٩٢ و١٩٥.
(٢) الذهبي: السابق ١٩٣، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/٣١٤.
(٣) المقريزي: السابق ٣٢٣، وابن سعيد: النجوم الزاهرة ٨٠-٨١.
(٤) المقريزي: السابق ٣٢٥.
(٥) الذهبي: السابق ١٩٦.
(٦) راجع ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٥٢-١٥٦، والذهبي: السابق ١٩٦-١٩٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٤٢-١٧٠، وابن سعيد: السابق ٨٢، وراجع المقريزي: المقفى ١/٦٦٥-٦٦٧، والمقريزي: السابق ٣/١١-٣٦، والنويري: نهاية الأرب ٢٨/٢٤٣-٢٧٣.

الجمالي (ت٤٨٧هـ) متوليًّا لمصر في أيام المستنصر ووزيرًا عظيمًا وبلغ مرتبة كبيرة[١] وهو من الأرمن، فصار معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن. فكما كان المستنصر مسلوب الإرادة والسلطة مع الوزير أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، كان المستعلي أيضًا مسلوب الكلمة والسلطان مع الأفضل أحمد بن بدر الجمالي، حيث قبض الاثنان على الحكم الفعلي إبان ظهورهما زمن المستنصر ثم المستعلي. وللنويري عنوان بـ «نهاية الأرب»: «ذكر قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي إلى مصر -من عكا- واستيلائه على الدولة»[٢]. وعن فترة حكم المستعلي يقول النويري: «ولم تكن له سيرة تذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، ولم يكن للمستعلي معه من الأمر إلا اسم، والرسم للأفضل»[٣].

وبوفاة المستعلي سنة ٤٩٥هـ أجلس الأفضل أمير الجيوش ولده أبا علي الآمر بأحكام الله على سرير الخلافة وبايع له الناس وله من العمر خمس سنين وشهر واحد، ودبر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام المستعلي[٤].

ويقول المقريزي: «وكانت وزارة الأفضل بن أمير الجيوش وكان حاجز عليه - علي الآمر - ليس له معه أمر ولا نهي، ولا تعود له كلمة، إلى أن قتل -سنة ٥١٥هـ- ثم ووزر له المأمون محمد بن فاتك البطائحي، فصار له في وزارته أمر ونهي، وعادت الأسمطة على ما كانت عليه قديمًا، وكان الأفضل قد نقلها، فصارت تعمل أيام الأعياد والمواسم في دار الملك بمصر حيث كان يسكن. فلما قتل المأمون -قبض عليه سنة ٥١٩هـ- استبد ولم يستوزر أحدًا، ودامت له الدنيا»[٥].

---

(١) تولى الوزارة من سنة ٤٥٠-٤٥٩هـ زمن المستنصر أربعون وزيرًا، حتى قد بدر الجمالي والي عكا إلى المستنصر سنة ٤٦٦هـ بعد استدعائه ليعيد النظام بمصر ويحسن أمورها.

(٢) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/٢٣٤-٢٣٦.

(٣) النويري: السابق ٢٧٣.

(٤) النويري: السابق ٢٧٤، وراجع حتى ٢٩٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٩٧-١٩٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٧٠-٢٣٦، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/٣٧-١٣٣، وابن إياس: بدائع الزهور ٢٢١-٢٢٤.

(٥) المقريزي: السابق ٣/١٣٢، وراجع الذهبي: السابق ١٩٨. وللوقوف على الوزارة في العصر الفاطمي راجع د/جمال الدين الشيال: «دراسات في التاريخ الإسلامي» ٤٨-٥٦.

ومن الأخبار المهمة زمن الآمر اتصال راهب نصراني يدعى أبو نجاح بن قنا به سنة ٥٢٠هـ وكتب إلى الآمر رقعة في الكتاب النصارى الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها، وضمن أنه يحقق معهم، ويسترد ما أخذوه، فمكنه الآمر من الدواوين، وأمر بمساعدته، ولقب بالأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية وسيد البطريركية، ثالث عشر الحورايين، وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده، فكثرت مصادرة الراهب للكتاب والعمال والتجار وأرباب الأموال، وجميع رؤساء الديار المصرية وقضائها وكتابها وغيرهم، ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضرب والنهب وأخذ الأموال، وارتفع شأنه عند الآمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتنيس من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فكان يلبسها ويلبس من فوقها الغفافير الديباج، وكان يتطيب في كل يوم بعدة مثاقيل من المسك، ويركب الحمير بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بجامع عمرو بن العاص ويستدعي الناس للمصادرة، واستدعى في بعض الأيام رجلًا يعرف بابن القرس، وكان من أكابر العدول ذوي الديانة والهيئات، والناس يعظمونه ويبجلونه، فأوقع به الراهب الإهانة، فخرج من عنده ووقف في الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين. وقد كثرت المصادرات في سنة ٥٢١هـ فتمكن الناس من الراهب، وخرج كثير منهم إلى الآفاق، وأخذ الراهب يحسن للآمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم أي من مخزن مال الأيتام. ولما طال ظلمه وعمت مظالمه، ارتج الناس وأعلنوا سخطهم، فقتله الآمر سنة ٥٢٣هـ[١]. ولم تمض فترة طويلة على قتله، فلحقه الآمر مقتولًا سنة ٥٢٤هـ على أيدي جماعة من النزارية [٢].

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٩٢/٢٨-٢٩٤، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ج ١١٧/٣و١١٩و١٢٣و١٢٥-١٢٧. ويذكر هنا أن نصرانيًّا آخر كان في ديوان التحقيق، ويدعى أبو البركات يوحنا النصراني، قتل هو الآخر سنة ٥١٨هـ. راجع النويري: السابق ٢٧٥.

(٢) نسبة إلى نزار بن المستنصر الذي كان الابن الأكبر، وتحاشاه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وتركه وأخوه عبد الله وإسماعيل إلى الأخ الأصغر أحمد ولقبه بالمستعلي، وقد انقسمت الإسماعيلية فرقتين: نزارية تعتقد إمامة نزار وتطعن في إمامة المستعلي. والفرقة المستعلوية وترى صحة إمامة المستعلي. راجع المقريزي: السابق ٢٧/٣.

وتولى بعد الآمر ابن عمه الحافظ، وهو عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، وبويع الحافظ [١]، وغلب على أمور الحافظ أمير الجيوش أحمد أبو علي بن الفضل بن بدر الجمالي، وأمر ونهى، وقام بالأمر والملك أتم قيام، وعدل في الرعية، ورد أموالًا كثيرة إلى المصادرين، وسار سيرة حسنة إلى أيام الآمر، وأظهر مذهب الإمامية الاثنى عشرية، وترك مذهب الإسماعيلية، وكتب اسمه على السكة، وأمر بالدعاء له على المنابر بدعاء اخترعه يعلي من شخصه، واستمر على ذلك حتى قتل سنة ٥٢٦هـ بتدبير من الحافظ. واستوزر الحافظ سنة ٥٢٩هـ بهرام الأرمني النصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج الملوك، وسأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك، فأحضرهم من تل باشر، ووصل عددهم إلى ثلاثين ألفًا من الأرمن «فاستطالوا على المسلمين، وبنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة، حتى إن كل رئيس من أهله بني له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية. وكثرت الشكايات فيه، وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تنسب المنية التي بالقرب من إطفيح، وقد ولي الأعمال القوصية فجار فيها جورًا عظيمًا، واستباح الأموال، فعظم ذلك على الناس»[٢]. ولما ثقلت وطأة بهرام على الناس اجتمع الأمراء وكاتبوا رضوان بن الولخشي سنة ٥٣١هـ وكان يتولى يومئذ الغربية، فنهض في طلب الوزارة، وحرض الناس على الجهاد، وقدم إلى القاهرة، فالتحق الجند جميعًا بجيشه، وبقي بهرام في الأرمن خاصه، فأمره الحافظ بالتوجه إلى قوص والإقامة عند أخيه الباساك، ودخل رضوان دار الوزارة، وخلع عليه الحافظ غير أن الحافظ أحضر بهرام الأرمني من الصعيد وأسكنه في القصور وأكرمه فعظم ذلك على رضوان، وشغب الجند على الحافظ، وجرت حروب في القاهرة، وأمر الحافظ مقدمي السودان بقتل رضوان، فقتلوه،

---

(١) عنه راجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/١٩٩-٢٠٢، والنويري: نهاية الأرب ٢٨/٢٩٦-٣١٠، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/١٣٧-١٩٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٣٧-٢٧٨، وابن سعيد: النجوم الزاهرة ٨٦-٨٨، وابن إياس: بدائع الزهور ٢٢٤-٢٢٦، وراجع ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٦٣-١٧٠.

(٢) النويري: السابق ٣٠١-٣٠٢، والمقريزي: السابق ١٥٥-١٥٦ و١٥٨ و١٥٩ و١٦١ و١٦٥ و١٧٥.

وتوفي بهرام الأرمني سنة ٥٣٥هـ بالقصور «وكان الحافظ قد أسكنه بدار منها، ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير الدولة والأمور ويصدر عن رأيه، فلما هلك حزن عليه حزنًا شديدًا، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام»(١).

وبوفاة الحافظ سنة ٥٤٤هـ تولى ابنه إسماعيل الملقب بالظافر بالله (٢) الحكم، وانقطعت دعوته من سائر بلاد الشام والمغرب والحرمين، وبقي للعبيديين مصر فقط. وقد أقام ووزيره العادل بن السلار المدرسة العادلية سنة ٥٤٤هـ للحافظ السلفي شيخ المحدثين في عصره (٣) بالإسكندرية. وفي سنة ٥٤٨هـ قتل العادل بن السلار وزير الحافظ بتدبير من ربيبه عباس بن أبي الفتوح الصنهاجي، واستولى عباس على الوزارة، وفي السنة التالية قتل الوزير عباس الخليفة العبيدي الظافر بالله، وقتل أخوين للظافر، وأجلس الفائز بن الظافر على سرير الملك، وله من العمر خمس سنين، ولم يتم الأمر لعباس، بل اختلفت الكلمة عليه، واستنصر نساء القصر بالملك الصالح طلائع بن رزيك الأرمني ووجهوا له شعورهن طي الكتب، وكان واليًّا على مُنية ابن الخصيب (المنيا الآن) فسار إلى القاهرة، وفر أمامه عباس بالذخائر التي لا تحصى إلى الشام، فأخذه الصليبيون في الطريق واستولوا على ما معه وقتلوه، ودخل طلائع بن رزيك القاهرة وأصبح وزيرًا للفائز بن الظافر (٤).

والخليفة العبيدي الفائز (٥) تولى الحكم وهو في الخامسة من عمره فكان تدبير الأمور لوزيره عباس، ولمخ يبق للفائز على يديه شيء. وبقي الفائز في الحكم لمدة

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٣٠٦/٢٨، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ١٦٨/٣-١٧٥.

(٢) النويري: السابق ٣١٠-٣١٧، والمقريزي: السابق ١٩٣-٢١٠ والمقفى ١٢١/٢-١٢٢، وابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٧١-١٧٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠٢/١٥-٢٠٤، وابن سعيد: النجوم الزاهرة ٨٩-٩١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٨٨/٥-٣٠٥.

(٣) راجع الذهبي: السابق ١٠/٢١، وراجع من ٥-٣٩. ويذكر هنا أيضًا أن الوزير رضوان بن ولخشي وزير الحافظ انشأ سنة ٥٣٢هـ مدرسة بالإسكندرية أيضًا لتدريس المذهب السني وحبل في تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف. الذهبي: السابق ١٢.

(٤) ابن سعيد: السابق ٩٠-٩١، وراجع المصادر السابقة والصفحات نفسها.

(٥) عنه المقريزي: السابق ٢١٣-٢٣٩، وابن ظافر: السابق ١٧٧-١٧٩، والنويري: السابق ٣١٨-٣٢١، والمقريزي: المقفى ٢٠٥/١٥-٢٠٧.

ست سنين وخمسة أشهر، وتوفي وله من العمر إحدى عشرة سنة ونصف؛ مما يدلل على حال الدولة العبيدية في عصره، ويشير إلى هوان الخلافة العبيدية.

سقوط الدولة العبيدية ٥٦٧هـ:

كان العاضد [١] حفيد الحافظ آخر حكام بني عبيد بمصر قد أقامه طلائع بن رزيك بعد وفاة الفائز، فكان لا حل لديه ولا ربط. وكان العاضد سبابًا خبيثًا، إذا رأى سنيًّا استحل دمه، وسار وزيره الملك الصالح طلائع سيرة مذمومة، واحتكر الغلات، وقتل عدة أمراء، وأضعف أحوال الدولة بقتل ذوي الرأي والبأس، وصادر وعسف، وتزوج العاضِد ببنت طلائع، وأخذ طلائع في قطع أخبار العسكر والأمراء عن العاضد، فاتفقوا بموافقة العاضد لهم على قتله سنة ٥٥٦هـ، فكَمَن له عدة في القصر فجرحوه، فدخل مماليكه فقتلوا أولئك، وحملوه، لكنه مات متأثرًا بجراحاته. وتولى مكانه ولده العادل رُزِّيك، وكان مثل أبيه شديد التشيع متغاليًا في مذهب الإمامة وكان يكره أهل السنة، وقام العادل رزيك سنة ٥٥٧هـ بعزل شاوَر عن ولاية الصعيد، مع أن أباه قد أوصاه قبل موته بألا يعزل شاور من عمله، وحذره من ذلك، فلما خالف العادل وصية أبيه، أظهر شاور العصيان على الدولة وانضم إليه جماعة من العربان من بني شيبان وسار بهؤلاء نحو القاهرة، ودخلها من غير ممانعة، ثم فتك برزيك وتمكن، وخلع العاضد على شاوَر سنة ٥٥٨هـ خِلَع الوزارة وسلطنه ولقبه بأمير الجيوش، وبسط شاور العدل أيامًا ثم شرع في ظلم الناس وبسط يده ويد أولاده في الدولة، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم وبالعاضد، وعتا لولده الكامل وتجبر وبذخ في الأموال، وساءت سيرته في الأمراء، فخرج عليه أمين الباب وأمير البرقية (فرقة من الجند العربان من برقة) الضرعام بن سوار، فخرج شاور من القاهرة ولحقه الضرعام عند باب النصر وقاتله، فهزم شاور ومضى إلى بلاد الشام، وعاد الضرعام إلى القصر وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، فولاه العاضد العبيدي الوزارة واستخلف له الأمراء، ولقبه بالملك المنصور. بينما استطاع شاور أن يتصل بنور الدين صاحب

---

(١) راجع عنه الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠٧/١٥-٢١٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٣٤/٥-٣٨٩، والنويري: نهاية الأرب ٣٢٢/٢٨-٣٥٠، وراجع ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١٨٠-١٨٦. وابن سعيد: النجوم الزاهرة ٩٣-٩٨ و١٣٨-١٤١، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ٢٤٣/٣-٣٣١، والسيوطي: حسن المحاضرة ٣/٢-٢٢.

حلب ودمشق وغيرهما من بلاد الشام، وعرض عليه قضيته وطلب منه المساعدة في استرداد مكانته ومنصبه، والتزم بحمل ثلث خراجها ليستعين به على قتال الصليبيين. ولما كان نور الدين يعلم أهمية مصر في الصراع ضد الصليبيين، ويدرك أهمية توحيد مصر والشام للقضاء على الكيان الصليبي المحتل للقدس وأنطاكية وطرابلس وغيرهما، فإنه استجاب لهذه الدعوة وجهز معه أسد الدين شريكوه عم صلاح الدين الأيوبي بعساكر، ومما أوجب على نور الدين إرسال جنده لمصر أيضًا، فضلًا عن ضمها لأملاكه بالشام والاستفادة منها في مواجهة الصليبيين، وأيضًا القضاء على الدولة العبيدية الشيعية، أن عموري ملك بيت المقدس قد طمع في مصر سنة ٥٥٩هـ بعد رفض الضرغام الوزير الفاطمي تقديم الجزية له، فهاجم عموري ملك مملكة بيت المقدس الصليبية مصر، ووصل إلى بلبيس، ففتح ضرغام سدود النيل، فاضطر عموري إلى العودة إلى القدس الصليبية آنذاك. ومعنى هذا أن صلاح الدين بإرسال جنده إلى مصر فإنما يحفظها من الصليبيين أيضًا. ولما وصل شيركوه قائد الجيش – الذي كان فيه صلاح الدين– إلى بلبيس وجد الجيش المصري مستعدًا لملاقاته تحت رئاسة أخوين للضرغام الوزير الفاطمي، ونجح جيش شيركوه في هزيمة الجيش المصري عند بلبيس، وتقدم صوب الفسطاط بينما كان الضرغام في القاهرة، ولما علم الضرغام أنه لا قبل له بما دهمه ركب إلى القصر ونادى على العاضد الذي طلب إليه أن ينجو بنفسه، فخرج من القاهرة، ودخل شيركوه وشاور القاهرة، وندب جماعة في إثر الضرغام، فأدركوه عند مشهد السيدة نفيسة فقتلوه هناك، فكانت مدة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وأعاد العاضد شاور إلى الوزارة ثانية، فغدر بشيركوه، ورفض أن يقيم شيركوه في مصر نائبًا عن نور الدين محمود، ورفض إرسال ثلث خراج مصر لنور الدين، واستدعى شاور الصليبيين لمساعدته ضد شيركوه ووعدهم بالمال، فأمر نور الدين محمود شيركوه بالخروج من مصر، فأبى ذلك وتوجه إلى بلبيس ليستجمع قواه، وكان هذا التقهقر نزولًا على رغبة ابن أخيه صلاح الدين. واحتمى جيش نور الدين بلبيس ووضع يده على إقليم الشرقية، وراح يغير على القاهرة من آن لآخر، واجتمعت العساكر المصرية ومن أتاهم من الصليبيين وحاصروا أسد الدين شيركوه بلبيس ثلاثة أشهر، وفي تلك الأثناء حاصر نور الدين حصن حارم تجاه أنطاكية وأسر صاحب

أنطاكية وطرابلس وغيرهم من قادة الصليبيين، واستولى نور الدين على أعلام الصليبيين وأرسلها إلى شيركوه ببلبيس، فنشرها شيركوه أمام أنظار الصليبيين فعرفوا ما حل ببلادهم، وأخذ عموري يفكر في العودة إلى ملكه بالشام فراسل شيركوه في الصلحن فأجابهم إلى ذلك، وخرج الفريقان من مصر، التي صفت لشاور سنة ٥٦٢هـ، وفيها استنجد العاضد بنور الدين على شاور الذي غلب على الخليفة العاضد وظلم وسفك الدماء، فأرسل نور الدين شيركوه على رأس الجيش النوري للمرة الثانية، وفي الجيش صلاح الدين الأيوبي، وسلك هذا الجيش طريقًا موازيًا للطريق الساحلي المؤدي إلى مصر؛ خوفًا من الصليبيين، ووصل إلى أطفيح وعبر النيل إلى الجيزة وعسكر هناك، في حين استدعى شاور الملك الصليبي عموري من جديد، فأسرع لغزو مصر، ووصلت جيوش الصليبيين عبر غزة والعريش وبلبيس إلى الجيزة وعسكرت على الضفة الشرقية للنيل، في حين أن القوات النورية بقيادة شيركوه كانت على الضفة الغربية للنيل، أي عسكرت قوات شيركوه مكان الجيزة الحالي، في حين كانت قوات شاور والصليبيين قبالته على الضفة الشرقية في الفسطاط، وظل الجيشان يواجه أحدهما الآخر عدة أشهر، ثم عبر الجيش الصليبي النيل إلى الضفة الغربية، في حين اتجه شيركوه نحو الجنوب حتى وصل إلى ملوي بالمنيا، فلحق به شاور وعموري، وعند الأشمونيين بالمنيا دارت معركة البابين جنوبي المنيا التي انهزم فيها الصليبيون هزيمة نكراء، ونجا عموري من القتل بأعجوبة، وعاد بعد الهزيمة إلى الفسطاط يعسكر على الضفة الشرقية للنيل، أما شيركوه فإنه اتجه صوب الفيوم ومنها إلى مديرية البحيرة فالإسكندرية التي كان يغلب عليها الطابع السني، وكان واليها يوم ذاك نجم الدين بن مصال، فدخل شيركوه البلد بلا مقاومة، وأقام بها أيام قلائل، واستناب بها صلاح الدين يوسف بن أخيه نجم الدين أيوب، ومعه ألف فارس، وتوجه هو إلى الصعيد، فاستولى عليه وجبى أمواله وصام رمضان بمدينة قوص، ولما تكامل ما يحتاج إليه عموري الملك الصليبي لحصار الإسكندرية، قصدها، وحاصرها برًّا، بينما كان الأسطول الصليبي يحاصرها بحرًا، ووقف أهلها إلى جانب صلاح الدين، ورفضوا إغراءات شاور لتسليمه، وبلغ ذلك شيركوه فسار إلى الصعيد ومعه طائفة كبيرة من العربان منهم الأشراف الجعفريون والطليحيون وغيرهم، وبلغ شاور قرب شيركوه فراسله في الصلح،

وقدم له خمسين ألف دينار ليخرج من مصر، فوافق شيركوه على أن يخرج الصليبيون من مصر، ففتحت الإسكندرية عند ذلك بعد حصار دام خمسة وسبعين يومًا، استفاد الشاب صلاح الدين من هذا الحصار دروسًا في فن القتال والإدارة. وارتحل شيركوه والصليبيون من مصر للمرة الثانية. واتفق الصليبيون مع شاور على أن تكون لهم حامية بالقاهرة ويكون لهم في كل سنة مائة ألف دينار.

ولما كان الصليبيون قد وقفوا على ضعف مصر وسهولة الاستيلاء عليها، فإنهم عادوا إليها سنة ٥٦٤هـ وملكوا بلبيس عنوة وسبوا وقتلوا خلقًا كثيرًا، ثم ساروا إلى القاهرة، وفي أذهان أهلها تلك الجرائم والفظائع التي ارتكبها الصليبيون في بلبيس، فاستمات أهالي القاهرة في الدفاع عنها لئلا يحيق بهم ما حاف بأهل بلبيس، ولما علم العاضد عجز أهالي القاهرة عن مقاومة الصليبيين أرسل إلى نور الدين يستغيث به، وسير إليه شعور نسائه في طيّ الكتب. وقيل: إن شاور أرسل إلى نور الدين أيضًا. وتتابعت الرسل إلى نور الدين تستغيث به وتعرض له ثلث مصر، فأرسل نور الدين في الحال قوة من ألفين اختارهم منن حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه، ومعه عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه وكذا صلاح الدين ووصل شيركوه إلى القاهرة التي كان عموري الصليبي لا يزال أمام أسوارها فباغته شيركوه وانضم إلى المصريين متجنبًا جيش الصليبيين، فرأى عموري ضرورة العودة إلى ممتلكاته بالشام بعد أن رأى ألا قبل له بجيش شيركوه، ومساندة المصريين له، ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر، ورأى الناس فيه بطلًا منقذًا لهم، فقابلوه بالترحاب وارتحل الصليبيون ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس. وتلقى العاضد أسد الدين شيركوه وأجلسه إلى جانبه وخلع عليه، وأظهر له ودًّا كثيرًا، وصار يتردد إليه في كل يوم، وطلب شيركوه من شاور مالًا لينفقه على عسكره فمطله، فأعلم شيركوه، فاستقر رأي فريق من الجيش النوري –على رأسهم صلاح الدين– القضاء على شاور، وأعلموا شيركوه بذلك، فنهاهم عنه. وفي يوم خرج شاور لزيارة شيركوه عند الإمام الشافعي، فلقيه صلاح الدين وبعض الأمراء وساروا معه قليلًا ثم غافلوه وأنزلوه عن فرسه وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة، وتواترت رسل العاضد تأمر بقتله، فقتل. وبعد مقتل شاور قلد العاضد شيركوه الوزارة ولقبه الملك أمير الجيوش، فلم تطل مدته في الوزارة حتى توفي بعد خمسة

وستين يومًا، وقام بالأمر بعده صلاح الدين، حيث اختاره العاضد للوزارة ولقبه بالملك الناصر، وكان يظن فيه الضعف لصغر سنه، ولهدوئه ورغبته في العزلة والابتعاد عن الناس. ولما تمكن صلاح الدين من مصر استمال الناس بالأموال، وخفف عنهم الأعباء المالية، وألغى بعض المظالم والمكوس، وأرضى الطبقات الفقيرة من المصريين، وقضى على مؤامرات مؤتمن الخلافة المسئول عن القصر الفاطمي، وكبير الخصيان السود والذي تضاءل نفوذه، ونقصت موارد المالية، فبعث إلى الصليبيين سنة ٥٦٤هـ يستنجد بهم على صلاح الدين وجنده، وحثهم على قصد مصر، ليخرج إليهم صلاح الدين بعساكره، فيثور عند ذلك بصعيد مصر وطوائف العسكر، ويصير صلاح الدين بين الطرفين، ووافقه على ذلك جماعة من المنتفعين، وبعث مؤتمن الخلافة بالكتاب والدعوى بالفعل إلى الصليبيين، فقبض على رسوله قريبًا من بلبيس، وظل صلاح الدين لا يلتفت إلى مؤتمن الخلافة (نجاح) فاغتر بإعراضه عنه، فلما خرج إلى منظرة له على النيل بالقرب من قليوب أرسل صلاح الدين جماعة من أصحابه قتلوه[1]. وأثار قتله حنق جند العاضد وكان أكثرهم من السودانيين، فغضبوا وثاروا صبيحة قتل مؤتمن الخلافة، وكانوا في خمسين ألفًا مطالبين بالثأر لمؤتمن الخلافة، واشتبكوا مع صلاح الدين في معركة عنيفة في المكان المعروف ببين القصرين، وانهزم السودانيون وفروا إلى الجيزة ومنها إلى الصعيد، وظلوا شوكة في حلق الأيوبيين حتى قضي عليهم نهائيًا سنة ٥٧٢هـ.

وفي سنة ٥٦٥هـ تحرك الصليبيون والبيزنطيون لغزو مصر بعدما تمكن منها صلاح الدين وأصبحت في قبضة سيده نور الدين محمود وتحت رأيه، وهاجم الصليبيون بجيوش جرارة دمياط، برًّا وبحرًا، فبعث صلاح الدين بابن أخيه الأمير تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في عساكر إلى دمياط لملاقاة الصليبيين، وألح هؤلاء الصليبيون والبيزنطيون على دمياط «والناس فيها صابرون في محاربتهم» وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين يستنجده، فأرسل إليه نور الدين الجند من الشام يتلو

(١) نصب صلاح الدين مكانه قراقوش الأسدي. النويري: نهاية الأرب ٣٤٤/٢٨، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ٣١٢/٣.

بعضه بعضًا، وأغار نور الدين على ممتلكات الصليبيين في فلسطين ليخفف الحصار عن دمياط، واستمر الفرنج على دمياط واحد وخمسين يومًا، ثم رحلوا إلى الشام خوفًا على ممتلكاتهم به من نور الدين محمود.

وبذلك يكون صلاح الدين قد نجح نجاحًا مذهلًا في بداية حياته السياسية في مصر، فقضى على الثوار المتآمرين عليه، وصد هجمات الصليبيين والبيزنطيين عن مصر، وبدأ بعد ذلك في العودة بمصر إلى المذهب السني، فأسقط من الأذان قول «حي على خير العمل» وأبطل مجلس الدعوة، ولما ضعف أمر العاضد معه، كتب إليه نور الدين يأمره بالخطبة للخليفة العباسي المستضيء بنور الله (٥٦٦-٥٧٥هـ) فاستجاب صلاح الدين وأمر الخطباء بالخطبة والدعاء للخليفة العباسي في أول جمعة من المحرم، فلم ينكر أحد على خطيب مسجد عمرو بن العاص الفقيه اليسع بن يحيى بن اليسع، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء جميعًا بمصر والقاهرة بالخطبة للمستضيء بن المستنجد، ففعلوا «ولم ينتطح فيها عنزان». وتوفي العاضد في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ بعد قطع الخطبة له بثلاثة أيام، وكان مريضًا فقال صلاح الدين: «لا تعلموه فإن عوفي أعلمناه، وإن توفي فلا نفجعه بهذه الحادثة»[١].

وهكذا أعاد صلاح الدين -رحمه الله- مصر إلى عقيدتها الصحيحة، عقيدة أهل السنة، ومحق دولة الرفض، واستأصل شأفة دولة الرفض «وكانوا أربعة عشر متخلفًا لا خليفة، والعاضد في اللغة أيضًا القاطع، فكان هذا عاضدًا لدولة أهل بيته»[٢].

مواقف للعبيديين من أهل السنة بمصر:

مرت بعض المواقف التي ظهر فيها التعصب البغيض للعبيديين والكره الشديد لأهل السنة بمصر، حيث منعوهم من صلاة التراويح والضحى، واضطروهم ونكلوا بهم، على العكس تمامًا من معاملة هؤلاء العبيديين لأهل الذمة من اليهود والنصارى. ويحتاج هذا الأمر إلى مزيد من التوضيح والبيان من خلال المصادر التاريخية

---

(١) للوقوف على ما سبق راجع كتاب المؤلف «الإسلام في مواجهة الصليبية في مصر والشام» ٢٤٩-٢٦٠، وراجع ابن العديم: زبدة الحلب ٣١٦/٢-٣١٩ و٣١٨ و٣١٩ و٣٢٤ و٣٢٦ و٣٣٣ن وابن واصل: مفرج الكروب ١٣٧/١-٢٢٠. وساويرس: تاريخ البطاركة ٥٢/٧-٥٨.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١٢/١٥، وراجع ٢٧٨/٢١-٢٩٠.

الإسلامية؛ ليتبين لنا حجم المأساة التي كان يحياها السنة تحت الحكم العبيدي. يذكر المقريزي أن محمد بن أحمد بن سهل الرملي المعروف بالنابلسي (ت٣٦٣هـ) كان بمصر أيام كافور الإخشيدي، فلما قدم جوهر الصقلي خرج منها إلى الرملة خوفًا على نفسه؛ لما كان منه في حق الشيعة من الإنكار لمذهبهم. وكان الفقيه المحدث الرملي يرى قتال العبيديين واجبًا على المسلمين، ولما خرج من مصر إلى الرملة، انتقل منها إلى دمشق، فقبض عليه الوالي أبو محمد الكتامي وحبسه في شهر رمضان ثم جعله في قفص خشبي وحمله إلى مصر، فلما وصلها مقبوضًا عليه، أمر المعز لدين الله «بسلخه، فسُلخ وحشي تبنًا وصلب». وكان الدراقطني يذكره ويبكي [١] وذكر ابن الجوزي [٢] أن المعز كلمه عندما حمل المحدث الرملي إلى مصر، فرد عليه: إنكم غيرتم الملة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الألهية، فأمر المعز حينئذ أن يشهر، فشهر في اليوم الأول، وضرب بالسياط في اليوم الثاني «وأخرج في اليوم الثالث فسلخ، سلخه رجل يهودي، وكان يقرأ القرآن ولا يتأوه، قال اليهودي: أيداخلني له رحمة، فطعنت بالسكين في فؤاده حتى مات عاجلًا».

وقد اضطر بعض الفقهاء إلى الأخذ بحسن التصرف والتخلص من بعض المواقف؛ تفاديًا للتنكيل والقتل. ومن هؤلاء القاضي الذهلي (٣٦٧هـ) الذي ولي قضاء بغداد وواسط ودمشق ومصر، ودخل مصر سنة ٣٤٠هـ، وكان أبوه على قضاء البصرة وواسط، وكان دخول القاضي الذهلي مصر في هذه المرة للحج، ثم عاد إليها وولي القضاء بها سنة ٣٤٨هـ، ومما استحسن من القاضي الذهلي أنه لما تلقى المعز لدين الله بالإسكندرية وجلس عنده، سأله المعز عن أشياء، منها أنه قال: يا قاضي كم رأيت خليفة؟ فقال: واحدًا. فقال له: من هو؟ قال: أنت، والباقون ملوك. فأعجب المعز بذلك، مع علم المعز أن أبا طاهر قد رأى من بني العباس ثمانية: المعتضد، والمكتفي، والقاهر، والراضي، والمتقي، والمستكفي، والمطيع. ولما سأله المعز: حججت يا قاضي؟ قال: نعم. فقال له: زرت؟ قال: نعم. قال: سلمت على الشيخين؟ قال: شغلني

---

(١) المقريزي: المقفى ١٧٦/٥، وراجع ١٧٥–١٧٨، وراجع ١٢٨/٦، للوقوف على فقيه آخر كان يحذر من العبيديين بجامع عمرو بن العاص قبل دخول المعز مصر وتوفي الفقيه سنة ٣٥٣هـ.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٢٤٥/١٤، وراجع ٢٤٦.

عنهما النبي صلى الله عليه وسلم، كما شغلني أمير المؤمنين عن ولي عهده. فازداد به إعجابًا، فأرضى المعز وتخلص من ولي العهد إذ لم يسلم عليه بحضرة المعز، وأجازه المعز يومئذ بعشرة آلاف درهم(١).

ومن بين من ناله مكروه العبيديين: ابن الوشاء الفقيه المالكي المصري (ت٣٩٧هـ) الذي قبض عليه سنة ٣٧١هـ، وحملت كتبه إلى قصر العزيز العبيدي وقبض عليه وبقي معتقلًا بالقصر نحو الشهر، ويئس منه ثم أطلق. وعنه ذكر المسبحي: أنه كان حسن التدين متمسكًا بمذهبه، مظاهرًا به غير مراعٍ لأحد، وسعي به إلى الحاكم فاعتقله بالقصر مدة، وكان الشيعة من سعوا به في زمان الحاكم حتى حمل إليه، وكان سفاكًا للدماء، فأطلقه دون أن يمسه بسوء(٢). هذا بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه كثيرًا عن الفتك بأهل السنة وعلمائهم.

منشآت العبيديين:

تأسيس القاهرة:

رأى جوهر الصقلي بعد أن استولى على مصر ضرورة إنشاء مدينة جديدة تكون مقرًا للعبيديين، ومركزًا لنشر دعوتهم الدينية، ومأوى لجندهم وأنصارهم ودواوينهم، وعدل جوهر على اتخاذ كل من الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص، والعسكر التي أسسها العباسيون شمالها، والقطائع التي شيدها أحمد بن طولون إلى الشمال الشرقي من العسكر، فكانت القاهرة رابع موضع انتقل إليه مركز الحكم في أرض مصر الإسلامية (٣). أي رابع عاصمة من عواصم مصر الإسلامية.

وكان جوهر قد نزل مع جنده في الموضع الواقع شمال شرقي العسكر على بعد نحو كيلو مترين من الفسطاط،ن وأخذ في وضع أساس المدينة التي عزم إنشاءها في نفس الليلة التي دخل فيها الفسطاط، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة

---

(١) راجع المقريزي: المقفى ١٨٩/٥-١٩٩، وراجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠٤/١٦-٢١٠.

(٢) المقريزي: السابق ٢١٢-٢١٤.

(٣) راجع المقريزي: الخطط ٣٤٧/١-٣٩٦ وما بعدها للوقوف على القاهرة الفاطمية، واتعاظ الحنفا ١٠٢/١-١١٦، وابن إياس: بدائع الزهور ١٨٨-١٩٠.

٣٥٨هـ (١٧يوليو ٩٦٩م). وكانت هذه البقعة –أيضًا– رملية تقع بجوار الخليج الذي كان معروفًا عند الفتح الإسلامي بخليج «أمير المؤمنين» وعلى الطريق الذي يمر به المسافرون من «الفسطاط» إلى الشام –من عسكر وتجار وغيرهم– عبر «منية الأصبغ» –وهي القرية التي عرفت حديثًا بقرية «الدمرداش» ثم صارت حيًا من أحياء القاهرة الحديثة– وبلبيس وسيناء.

وتم التخطيط لتأسيس مدينة القاهرة على غرار مقار الخلفاء في إفريقية، أي باعتبارها مدينة خاصة بالحكم ومركزًا للسلطة السياسية، ومقرًا، حيث يستطيع الفاطميون بذل جهودهم للمذهب الإسماعيلي، ولم يكن مقدرًا لها بأن تصبح مدينة حقيقية، لقد كانت مجاورة للفسطاط حيث يقيم الرعايا، وحيث تزدهر الأنشطة الاقتصادية، وتحولت القاهرة إلى مدينة قبل نهاية دولة العبيديين. يقول المقريزي[١]: «فسكن الأمراء بالعسكر إلى أن قدم القائد جوهر الصقلي بعساكر مولاه الإمام المعز لدين معد، فبنى القاهرة حصنًا ومعقلًا بين يدي المدينة، وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية [٢]، فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وابنه الملك العزيز عثمان، وابنه الملك المنصور محمد، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وابنه الملك الكامل محمد، وانتقل من القاهرة إلى قلعة الجبل، فسكنها بحرمه وخواصه وسكنها الملوك من بعده إلى يومنا هذا فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصنًا يعتقل به ودار خلافة يلتجأ إليها». ووضع جوهر في اليوم التالي أساس القصر الفاطمي الكبير الذي عرف بالقصر الشرقي الكبير، وبدئ في بنيانه في رمضان من العام نفسه لمولاه المعز. ثم أقام جوهر حول تلك المدينة وقصر المعز سورًا كبيرًا من اللبن، قدر حجم اللبنة منه

(١) المقريزي: الخطط ٣٤٧/١.

(٢) يذكر المقريزي: الخطط ٣٦٣/١ أن القاهرة وضعت لسكن الخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل يتحصن بها، ومابرحت هكذا حتى كانت السنة العظمى في زمن المستنصر، ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي وسكن القاهرة، وأباح للناس من العسكرية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من الفسطاط ومات أهله، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل في القاهرة وسكنوها. وباستيلاء صلاح الدين على مصر ٥٦٧هـ جعلها لسكن العامة والجمهور (بنص كلام المقريزي).

بذراع في ثلثي ذراع [١]. وهذا السور بني ثلاث مرات [٢]، الأولى من بناء جوهر، والثانية في أيام المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) فقد هدم وزيره بدر الجمالي السور الذي بناه جوهر من اللبن، وأعاد بناءه من الحجر المنحوت المصقول ٤٨٠هـ وأقام الأبواب من حجارة في أمكنة قريبة من مواضعها الأولى، وزاد فيه الزيادات التي فيما بين بابي زويلة وباب زويلة الكبير، وفيما بين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح، أي نقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي يوجد به الآن، وبنى باب الفتوح حيث يبدأ من شارع المعز لدين الفاطمي بجوار جامع الحاكم، ونقل باب زويلة إلى حيث يوجد الآن. والثالثة في أيام العاضد ووزارة صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ حيث ابتدئ في عمارة السور بإشراف بهاء الدين قراقوش الأسدي، فبناه بالحجارة، وقصد أن يجعل على القلعة والفسطاط والقاهرة سورًا واحدًا، فزاد في سور القاهرة، وبنى قلعة المقس، وهي برج كبير وجعله على النيل (عند مسجد الفتح الآن). ولم تتجاوز مساحة مدينة المدينة -حينذاك- الكيلو متر المربع [٣]، وهو ما كانت عليه بغداد عند إنشائها أيام المنصور العباسي.

وأطلق جوهر على مدينته الجديدة اسم المنصورية، تقربًا إلى المعز بإحياء وتخليد ذكرى والده المنصور، وظلت تلك التسمية حتى قدم المعز إلى مصر بعد أربع سنوات فسماها القاهرة [٤]؛ تفاؤلًا بأنها ستقهر العباسيين، أو لأنها ستقهر من حاول الخروج على أميرها، أو نسبة إلى «النجم القاهر» الذي بزغ في سمائها عند وضع حجر

---

(١) ذكر المقريزي: الخطط ٣٧٦/١ أنه أدرك من هذا السور اللبن قطعًا، وآخر ما رآه منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية -نسبة إلى برقة- عند الدراسة الآن ودرب بطوط، هدمها شخص من الناس سنة ٨٠٣هـ من فشاهد المقريزي من كبر لبنها ما يتعجب منه في زمانه حتى إن اللبنة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع.

(٢) راجع المقريزي: الخطط ٣٧٦/١-٣٧٩.

(٣) حوالي ٣٤٠ فدانًا وزاد السور الذي بناه أمير الجيوش في مساحة القاهرة ستين فدانًا وشغل القصر الفاطمي ٧٠ فدانًا.

(٤) ذكر المقريزي: الخطط ٣٧٧/١، واتعاظ الحنفا ١١٢/١-١١٣ أن المعز لما رأى القاهرة لم يعجبه مكانها وقال لجوهر: لم فاتك عمارة القاهرة بالساحل، كان ينبغي عمارتها بهذا الجبل، يعني سطح الجرف الذي يعرف بالرصد المشرف على جامع راشدة. نسبة إلى قبيلة راشدة من لخم، ويريد المعز بالساحل: النيل، والمنطقة التي كان يريدها هي المقس المعروفة أيضًا بأم دنين، وهي منطقة الأزبكية ومسجد الفتح وشارع عماد الدين وميدان محطة مصر وما بعده إلى الشمال بشارع رمسيس الآن. فإن فات جوهر بناء القاهرة في هذا المكان، فكان عليه بناؤها في جبل الرصد جنوبي الفسطاط. وهو جبل اصطبل عنتر الآن ليكون قلعة مصر.

أساسها. أو من قول المعز لجوهر وهو يودعه للاستيلاء على مصر أمام جمع من مشايخ كتامة الذين وجههم معه: «والله لو خرج هذا وحده لفتح مصر وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خربات ابن طولون، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»[١]. وأنشأ جوهر عدة أبواب[٢] للقاهرة: بابين متلاصقان في جهتها القبلية هما بابا زويلة، نسبة إلى إحدى قبائل المغرب التي وفدت إلى مصر –ولأن المحتسب كان يجلس على مقربة من باب زويلة زمن العثمانيين، فقد عرف هذا الباب بباب المتولي، نسبة إلى المتولي الحسبة. وبابان في الشمال متباعدان: أحدهما باب الفتوح والآخر باب النصر، وفي جهتها الشرقية ثلاثة أبواب: أحدهما يعرف بباب البرقية (نسبة إلى برقة) –الدراسة الآن–والآخر بالباب الجديد، والآخر بالباب المحروق. ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب: باب القنطرة، وباب الفرج، وباب سعادة وباب آخر يعرف بباب الخوخة، ولم يتجاوز حد المدينة الغربي الخليج الذي كانت يبعد عن سورها بنحو ثلاثين مترًا.

وكانت القاهرة وقت إنشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر، ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه، وتحد شرقًا بباب البرقية وباب المحروق المشرفين على المقطم، وتعرف هذه المنطقة في أيامنا بالدراسة، وتحد غربًا بباب سعادة وما يليه حتى شاطئ النيل. أي إن القاهرة شملت المساحة المحصورة بين هذه الأسوار، وتشمل أحياء: الجامع الأزهر، والجمالية والحسينية، وباب الشعرية، والموسكي، والغورية، والغورية، وباب الخلق. على حين كان يعرف الجزء الواقع خارج الأسوار «بظاهر القاهرة» وهو عبارة عن خطط وأحياء تمتد إلى مسجد أحمد بن طولون، وقلعة الجبل، وجبل المقطم، والجهة المقابلة له من شاطئ النيل، وهي المعروفة الآن بأحياء شبرا وبولاق وباب اللوق. وحدود القاهرة الشرقية هي حدودها الحالية [٣].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/١١٤، وراجع ١٠٢–١١٩.

(٢) راجعها عند المقريزي: الخطط ١/٣٧٩–٣٨٣. ويذكر أنه كان يحيط بسور القاهرة خندق شرع في حفره من باب الفتوح إلى المقس سنة ٥٨٨هـ، وكان أيضًا من الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده. وشاهد آثار الخندق باقية ومن ورائه سور بأبراج مبني بالحجارة. ويذكر أنه لم يبق من أسوار القاهرة إلا باب النصر والفتوح شمالًا وباب زويلة جنوبًا.

(٣) د/أحمد مجاهد مصباح: مصر في ظلال الخلفاء ٣١٨، وراجع ٣١٧–٣٢١، ود/محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية ٦٥–٦٦، ود/حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ٥٢٩، وعن القاهرة بالتفصيل راجع أندريه ريمون: القاهرة ٣٣–٢٥٠، وراجع من ص١١، وشحاته عيسى: القاهرة ١٥–٢٥٩، ود/حسن الباشا وآخرين: القاهرة ٩–٦١٥، ود/كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر ٤١–٧٧، ونللي حنا: قصة القاهرة ١٩، ود/سيد كريم: القاهرة ١١، وعلي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ٣١–٦٨.

وأقدم أحياء القاهرة تقع في الجنوب وأحدثها في الشمال، لأن القاهرة تنمو بصفة خاصة نحو الشمال. ويمكن تعليل هذا الامتداد الشمالي: فمدينة القاهرة منذ البداية، أي منذ تأسيس الفسطاط كانت محدودة من جهة الشرق بتلال المقطم، ومن جهة الغرب بنهر النيل، كما أنه لم يكن في جنوبها غير شريط ضيق من الأرض ينحصر بين التلال ومجرى النيل، حيث دير الطين (منطقة دار السلام الحالية)، ومن هنا فالامتداد نحو الشرق كان متعذرًا بسبب تلال المقطم، كما أنه لم يكن من الممكن الامتداد نحو الغرب إلا بمقدار ما كان يتركه مجرى النيل من أرض نتيجة انحرافه نحو الغرب، ولقد انحرف فعلًا نهر النيل نحو الغرب منذ عهد عمرو بن العاص حتى الآن بمقدار المسافة بين جامع عمرو الذي كان عند إنشائه على شاطئ النيل وبين مجراه الحالي أي حوالي خمسمائة متر، ولذا كان من الطبيعي أن تمتد القاهرة نحو الشمال حيث كانت الظروف الطبيعية ملائمة، فالأرض رملية منبسطة تسمح بامتداد على اتساع؛ ولذلك ليس من قبيل الصدف أن تكون أقدم أحياء القاهرة في جنوبها، وأحدثها في الشمال، ويتمثل قدمها في أسمائها، ففي حين نجد في جنوب القاهرة حي مصر القديمة، نجد في شمالها مصر الجديدة [١].

بناء الأزهر [٢] (٣٥٩-٣٦١هـ) ولا دور له حتى ٦٦٥هـ:

شرع جوهر الصقلي في تأسيس الجامع الأزهر في يوم السبت بست بقين من جمادي الأولى سنة ٣٥٩هـ، وتم بناؤه في سنتين، وأقيمت فيه الصلاة في ٩ رمضان سنة ٣٦١هـ. وكان الغرض من إنشاء الأزهر أن يكون رمزًا لسيادة الدعوة الشيعية الإسماعيلية في مصر، ومقرًا لهذه الدعوة ولتدريسها ولتعليمها. وسمي الجامع في بادئ الأمر بجامع القاهرة، نسبة إلى عاصمة العبيديين: القاهرة، وفي عهد العزيز العبيدي

---

(١) د/حسن الباشا: القاهرة ٤١-٤٢، والأستاذ عنان: مصر الإسلامية ١٩-٢٠، وراجع شحاته إبراهيم: القاهرة ١٥-٢٨، وراجع حتى ٧٠، وراجع علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ٦٦/١-٦٧ وذكر أن القاهرة التي أسسها جوهر ٣٤٠ فدانًا، حيث إن طول كل جانب من جوانب المدينة بلغ ألفي ومائتي متر. أما الأستاذ عنان، فإنه ذكر أن موقع الفسطاط القديمة كان يشغل مسطحًا طوله نحو خمسة آلاف متر، وعرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر

(٢) راجع المقريزي: الخطط ٢٧٢/٢-٢٧٦.

أطلق عليه الجامع الأزهر نسبة إلى لقب السيدة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، أو نسبة إلى القصور الزاهرة التي بنيت بكثرة في عهد العزيز، أو سمي بالأزهر تفاؤلًا بما سيكون عليه من الشأن والمكانة في ازدهار العلوم فيه. وقد أشار المقريزي [١] إلى تجديده في عهد العزيز والحاكم والمستنصر والآمر بأحكام الله، وأضيفت إليه مساحات في العصور الإسلامية المختلفة، زادت منه بمقدار ضعف مساحته التي كان عليها عند إنشائه، وأشار المقريزي إلى الأوقاف المرصودة على هذا الجامع، وإلى تحوله إلى جامعة لتدريس العلوم الشيعية الإسماعيلية في عهد العزيز الذي بنى مساكن سنة ٣٧٨هـ لجماعة من الفقهاء، عدتهم خمسة وثلاثون فقيهًا، وأجرى عليهم الأرزاق، وكانوا في كل جمعة يجتمعون فيه بعد الصلاة وحتى العصر للتدريس وقراءة القرآن.

ولا يزال الجامع الأزهر [٢] يحتفظ بأجزاء مهمة من عناصره المعمارية الأصلية بالرغم من أعمال التجديد والإضافة التي أجريت به من خلال العصور التاريخية.

ولم يقم الجامع الأزهر بأي دور في خدمة الإسلام والمسلمين قبل سنة ٦٦٥هـ، ولم يكن هناك أزهر وقت انتشار الإسلام واللغة العربية بمصر، وعندما أنشئ خدم المذهب الشيعي فقط، ولم يخدم الإسلام، في حين أن مسجد عمرو بن العاص [٣] وأحمد بن طولون وغيرهما كان لهم الفضل العظيم في تعليم الإسلام والثقافة الإسلامية، قبل إنشاء الأزهر، الذي أدى دورًا سلبيًّا برعاية المذهب الشيعي الإسماعيلي، ولما سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ أغلق بأمر صلاح الدين لمدة قرن من الزمان «فلم يزل الجامع الأزهر معطلًا من إقامة الجامع فيه مائة عام، من حين استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام

---

(١) المقريزي: الخطط ٢/٢٧٢-٢٧٥.

(٢) راجع د/سعاد ماهر: مساجد مصر ١/١٦٥-٢٢٦، ود/عبد الرحمن فهمي: الجامع الأزهر ٤٥٣-٤٦١ مقال بكتاب القاهرة، وراجع د/حسين مؤنس: المساجد ٢٠٤-٢١٠، وراجع علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ١/٣٨ و٤٧-٤٨.

(٣) راجع المقريزي: المقفى ٤/٤٦ و٤٧ و٤٨ و١١٤ و٥/٢٣٥-٢٣٨ و٢٥٣ و٢٨٥ و٥٤١ و٦٧٤ و٦٧٨ و٦٩٨ و٧١٠ و٦/٧٠ و٩٦-٩٧ و١٠٣-١٠٤ و١٠٥ و١٢٠ و٢١٣-٢١٤ و٧/٤٢٧.

الملك الظاهر بيبرس»[١]. هذا بالإضافة إلى دور المدارس الإسلامية التي أقيمت بمصر لتدريس المذهب السني، ومنها مدرستان أقيمتا بالإسكندرية زمن العبيديين – وسبقت الإشارة إليها– فضلًا عن دور الصحابة والتابعين والفقهاء في نشر الإسلام وتعليمه، وبيان ما لحق بالرسالتين الكبيرتين اللتين بعث بهما موسى وعيسى من تحريف وزيادة ونقص، جعلتهما أبعد ما يكون عن السماء. ولم يكن للأزهر أي دور – كذلك– في التصدي للصليبيين المغيرين على مصر أو التتار الذين هزمهم المماليك سنة ٦٥٨هـ على أبوابها، حيث كان الأزهر غير مبني أيام الإغارات الصليبية على مصر، ومغلقًا لا تأثير له، ولا مهام له ولا دور له في أثناء هجوم التتار على مصر.

إنشاء مساجد أخرى:

أقام الفاطميون بمصر عدة مساجد أخرى، من بينها مسجد الحاكم [٢]، الذي أسسه العزيز بالله سنة ٣٧٩هـ خارج باب الفتوح، وصلى بالناس الجمعة، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله، فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالي القاهرة، صار جامع الحاكم داخل القاهرة، وكان يعرف أولًا بجامع الخطبة، لإقامة خطبة الجمعة فيه، وانتقالها إليه من الأزهر، وزاد في هذا الجامع الظاهر بن الحاكم. وكان قد حبس فيه الفرنج، فعملوا فيها كنائس، هدمها صلاح الدين الأيوبي. وبعد زوال الحكم الفاطمي لمصر درس فيه الفقه على المذاهب الأربعة، وعُلم فيه الحديث النبوي، وجعل لكل درس مدرس وعدة كثيرة من الطلبة، كما درست فيه القراءات السبع، وعمل في الجامع خزانة كتب جليلة. ويعرف هذا الجامع أيضًا، بالجامع الأنور.

وهذا المسجد مظهر من مظاهر الحضارة المغربية التي جلبها الفاطميون إلى مصر، لأن مساجد المغرب الأولى أقرب إلى الحصون، ومآذنها أبراج، ومسجد الحاكم نموذج لذلك، وجدرانه شبيه بأسوار بلد، وكذلك المئذنة [٣].

---

(١) المقريزي: الخطط ٢/٢٧٤-٢٧٥.

(٢) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/١٧٧، والمقريزي: الخطط ٢/٢٧٦-٢٧٧، وراجع حتى ٢٨١.

(٣) د/حسين مؤنس: المساجد ٢٥٥-٢٥٦، وراجع سعاد ماهر: مساجد مصر ١/٢٨٨-٢٣٩، وشحاته إبراهيم: القاهرة ٨١-٨٤، ود/كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر ٥٠-٥٧.

كما بنى الحاكم أيضًا سنة ٣٩٣هـ جامع راشدة [١]، وأقيمت فيه الجمعة، ونسب إلى راشدة من لخم، وعرف هذا الجامع بجامع راشدة؛ لأنه في خطة راشدة. وقد صلى الحاكم الجمعة بهذا المسجد سنة ٣٩٥هـ بعد فرشه وتعليق قناديله وما يحتاج إليه. وأقيم هذا المسجد كما ورد عند ابن إياس تحت الرصد، والرصد مكان رصد الكواكب والنجوم على المرتفع المطل على بركة الحبش الذي أمر بتشييده الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي. وحرص الحاكم على الصلاة في هذا الجامع في جمع رمضان، وكان الناس يمشون بركابه من غير أن يمنع أحد منه. وكان يأخذ قصصهم «ويقف وقوفًا طويلًا لكل منهم»[٢]. وقد أدرك المقريزي جامع راشدة عامرًا تقام فيه الجمعة، ويمتلئ بالناس لكثرة من حوله من السكان، وتعطل من إقامة الجمعة بعد حوادث سنة ٨٠٦هـ. وأنشأ الحاكم أيضًا جامع المقس [٣] على شاطئ النيل، وأوقف عليه، وكان لهذا الجامع نخل كثير موقوف عليه، ويركب الحاكم الفاطمي إلى منظرة كانت بجانبه عند عرض الأسطول، فيجلس بها لمشاهدة ذلك. وقد عُمر هذا المسجد زمن الأيوبيين، في عهد صلاح الدين، بعد زيادة ماء النيل، والخوف من سقوطه، وأنشئت قلعة عُرفت بقلعة المقس في مكان المنظرة التي كانت للخلفاء العبيديين، وأنشأها بهاء الدين قراقوش عند إقامة السور الذي ضم الفسطاط والقاهرة.

ومن بين الجوامع التي بنيت على عهد الفاطميين بمصر جامع الفيلة [٤] المطل على بركة الحبش المعروف بالرصد، وبناه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش سنة ٤٧٨هـ، وبلغت النفقة عليه ستة آلاف دينار. وسمي بهذا الاسم، لأن في قبلته تسع قباب في أعلاه ذات قناطر، إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة، كالتي كانت تعمل في المواكب أيام الأعياد، وعليه السرير، وفوقها المدرعون، أيام

---

(١) راجع النويري: السابق ٢٨/١٧٧، والمقريزي: السابق ٢/٢٨١-٢٨٢، وابن إياس: بدائع الزهور ١٩٧.

(٢) المقريزي: السابق ٢/٢٨١.

(٣) المقريزي: السابق ٢/٢٨٢-٢٨٣، وابن إياس: السابق ١٩٧-١٩٨. وسبق ذكر أن المقس أو قرية أم دنين هي الآن الأزبكية وما حولها من جامع الفتح برمسيس والفجالة، وكانت هذه المنطقة على النيل. وراجع المقريزي: الخطط ٢/٤٥١.

(٤) المقريزي: الخطط ٢/٢٨٨-٢٨٩.

الخلفاء. وعلق المقريزي على حال هذا الجامع بقوله: «وهذا الجامع لا تقام فيه الجمعة ولا جماعة لخراب ما حوله من القرافة وراشدة، وينزل فيه أحيانًا طائفة من العرب بإبلهم، يقال لهم المسلمية. وعما قليل يدثر كما دثر غيره»[١].

وقد بنى الآمر سنة ٥١٩هـ المسجد الأقمر [٢] أمام قصره، وبني تحت هذا الجامع في أيامه دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح لا من جهة القصر.

ويُعد هذا المسجد من أجمل مساجد العصر الفاطمي، وأكملها من الناحية الفنية، وهو كذلك ينطق بطابعه الفاطمي، وخاصة إذا قارنا بوائكه ببوائك صحن الجامع الأزهر. وهو بشارع أمير الجيوش قرب باب الفتوح في حي الجمالية بالقاهرة [٣].

ومن مساجد الفاطميين أيضًا جامع الظافر [٤] أو جامع الفاكهيين بالغورية ويعرف بالأفخر أيضًا، وعمره الظافر بن الحافظ سنة ٥٤٣هـ. وقد أعيد بناء هذا المسجد أكثر من مرة [٥].

ومن هذه المساجد أيضًا مسجد الصالح طلائع [٦] المنسوب إلى طلائع بن رزيك وزير الفائز الفاطمي في مواجهة باب زويلة (المتولي حاليًا)، وهذا الوزير أرمني الأصل وشيد مسجده سنة ٥٥٥هـ ليدفن فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنه لما خيف عليها من هجمة الصليبيين، حيث كانت مدفونة هناك، ولما فرغ الصالح من بنائه لم يمكنه الفائز من ذلك وقال: «لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة. وبنى المشهد الموجود الآن ودفن فيه»[٧]. ورغم أن المسجد فرغ من بنائه في سنة ٥٥٥هـ إلّا أنه لم

---

(١) المقريزي: السابق ٢٨٩.

(٢) المقريزي: السابق ٢٨٩-٢٩٢.

(٣) د/حسين مؤنس: المساجد ٢٥٧، وراجع سعاد ماهر: مساجد القاهرة ٣١٤/١-٣٢٥.

(٤) المقريزي: السابق ٢٩٢.

(٥) راجع د/سعاد ماهر: السابق ٣٤١/١-٣٤٧.

(٦) المقريزي: السابق ٢٩٢/٢-٢٩٣.

(٧) المقريزي: السابق ٢٩٢/٢. وهناك كلام كثير حول حقيقة دفن رأس الحسين رضي الله عنه في المشهد الحسيني الآن. وراجع عن المشهد الحسيني وما قيل عن نقل رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة سنة ٥٤٨هـ، د/سعاد ماهر: مساجد مصر ٣٤٨/١-٣٩٠، ويذكر د/حسين مؤنس: المساجد ص٢٥٦ أن الفاطميين نقلوا رأس الحسين من دمشق إلى عسقلان، ثم نقله الجمالي إلى القاهرة.

يصبح مسجدًا جامعًا إلا بعد ذلك بقرن من الزمان، فإقامة أول صلاة للجمعة فيه في أوائل الدولة المملوكية، في عهد أيبك التركماني.

ويعد مسجد الصالح طلائع من المساجد المعلقة بالقاهرة، إذ يرتفع مستوى هذا الجامع عن أرض الشارع بما يقرب من أربعة أمتار، فوق مجموعة من الدكاكين(١).

هذا بالإضافة إلى مساجد أخرى بالقاهرة أقيمت في عصر الفاطميين(٢)، وأخرى أقيمت على أيديهم وفي عهدهم في باقي مصر (٣). ومن أبرز مساجدهم بالقاهرة جامع الجيوشي على حافة جبل المقطم في مواجهة قلعة صلاح الدين، وفوق جامع أخيه يوسف مباشرة، ويشرف هذا الجامع الصغير على منطقة القرافة الصغرى بالإمام الشافعي والجزء المطل على النيل من مصر القديمة والمراعي الخضراء بمنطقة البساتين. وهو من إنشاء بدر الجمالي أمير الجيوش سنة ٤٧٨هـ.

ويذكر د/حسين مؤنس (٤) –رحمه الله– أن جامع الجيوشي يقوم وحيدًا مزيدًا في طرف من أعلى جبل المقطم المطل على القاهرة، ومنشئ هذا المسجد هو أمير الجيوش بدر الجمالي، منشئ بوابات القاهرة ومنقذ الدولة الفاطمية. وفي العامية المصرية ينطق هذا اللقب (أمير الجيوش): مرجوش، وفي حيّ الجمالية شارع يسمى مرجوش، وتوجد أسرة تحمل لقب المرجوش في مصر.

إقامة دار العلم (دار الحكمة):

أقيمت دار العلم (دار الحكمة) سنة ٣٩٥هـ بأمر من الحاكم الذي رغب في إقامة مجمع علمي يضم الفقهاء والأطباء والمنجمين والنحاة، وغيرهم، ويؤدي دورًا في التعليم والتثقيف، وألحق به مكتبة حوت كثيرًا من نفائس الكتب. وعرف هذا المشروع العلمي

---

(١) راجع عنه بالتفصيل د/سعاد ماهر: السابق ٣٩٨–٤٠٧، ود/عبد الرحمن فهمي: مسجد الصالح طلائع ٤٦٢–٤٦٥ ضمن كتاب القاهرة. وشحاته إبراهيم: القاهرة ٨٧–٨٨، ود/كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر ٦٤–٦٩.

(٢) راجع المقريزي: السابق ٢/٤٤٤–٤٥١، وراجع حتى ٤٦٠، وراجع السيوطي: حسن المحاضرة ٢/٢٣٧–٢٥٤، وراجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/١٩١.

(٣) راجع د/سعاد ماهر: السابق ٢٤٠–٢٨٤.

(٤) د/حسن مؤنس: المساجد ٢٥٦–٢٥٧، وراجع د/سعاد ماهر: السابق ٢٧٧–٢٨٤، وشحاته إبراهيم: السابق ٨٤–٨٦، ود/كمال الدين سامح: السابق ٥٨.

للحاكم باسم دار العلم أو دار الحكمة. يقول المقريزي في أحداث سنة ٣٩٥هـ: «فتحت دار الحكمة بالقاهرة، وجلس الفقهاء فيها، وحملت الكتب إليها، ودخل الناس للنسخ من كتبها وللقراءة. وانتصب فيها الفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من أرباب العلوم، وفُرشت، وأقيم فيها خدام لخدمتها، وأجريت الأرزاق على من بها من فقيه أو غيرهن وجعل فيها ما يُحتاج إليه من الحبر والأوراق والأقلام»[١]. وأضاف في «الخطط» جلوس الأطباء فيها، وتعليق الستائر على جميع الأبواب والممرات. وأمد الحاكم هذه المكتبة بكتب من خزائنه الخاصة في سائر العلوم والآداب «ما لم ير مثله مجتمعًا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها. فكان ذلك من المحاسن المأسورة أيضًا التي لم يسمح بمثلها، من إجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها، من فقيه وغيره»[٢].

وكانت دار الحكمة مفتوحة للناس، منهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وفيها ما يلزمهم من أوراق وأقلام وأحبار ومحابر. وشهدت هذه الدار العديد من المناظرات العلمية بين العلماء، والعديد من دروس العلم في كافة العلوم، وأوقف عليها الحاكم عدة أماكن في الفسطاط. وشهدت هذه الدار محاولات من بعض الناس لإفساد عقول بعض المترددين عليها بالخروج عن عقيدة الإسلام وإتباع بعض مدعي الألوهية، ومحاولات أخرى من المدرسين أنفسهم بنشر أفكار فلسفية تتنافى مع عقيدة الإسلام، مما استدعى إغلاقها أحيانًا، ثم فتحها بعد ذلك، وأيضًا قتل مدعي الألوهية وأتباعهم[٣]، لكن دار الحكمة أو دار العلم استمرت تؤدي دورها في خدمة المذهب الشيعي الإسماعيلي إلى نهاية عهد العبيديين.

وبعد فما أكثر منشآت الفاطميين بمصر[٤]! وما أكثر أعمالهم الحضارية[٥] التي أشار هذا الكتاب إلى جانب منها فقط.

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٥٦/٢.

(٢) المقريزي: الخطط ٤٥٧/١-٤٥٨، وراجع النويري: نهاية الأرب ١٧٩/٢٨، والأنطاكي: تاريخ الأنطاكي ٢٥٨.

(٣) راجع الأنطاكي: السابق ٢٥٨، والمقريزي: السابق ٤٥٧-٤٦٠.

(٤) راجع على سبيل المثال اتعاظ الحنفا ٩٢/٣-٩٦، وراجع الخطط الذي ضم مادة هائلة عن حضارة الفاطميين وراجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧٠/١٥.

(٥) للوقوف على الصناعة في مصر الإسلامية منذ الفتح وحتى نهاية عهد الأيوبيين راجع د/عاصم رزق: مراكز الصناعة في مصر الإسلامية ١٣-١١٦ و١٢٣-٢٨٢، ود/السيد أبو سديره: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية ١٧-٤٤١.

ثانيًا: الأيوبيون:

تمهيد:

تنتسب الدولة الأيوبية إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب التركيتي المولد، وأصل بني أيوب من الأكراد [١]، انتقل والده نجم الدين أيوب وعنه أسد الدين شيركوه من مدينة دَوِين بآذربيجان إلى العراق، وخدما شِحنة بغداد في خلافة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ)، وكان المسئول عن شِحنة بغداد، أي رئيس شرطتها: مجاهد الدين بهروز، فرأى من نجم الدين (والد صلاح الدين) عقلًا ورأيًا وحسن سيرة، وكان أسن من أخيه أسد الدين، فجعله مجاهد متوليًا على قلعة تكريت، وكانت إقطاعه، فسار إليها نجم الدين ومعه أسد الدين أخوه. ولما حدث خلاف بين عماد الدين زنكي والمسترشد العباسي وانهزم زنكي إلى تكريت، أحسن نجم الدين أيوب وأخوه شيركوه وفادته وإكرامه، فادخرها زنكي، فلما اضطرا إلى مغادرة تكريت بعد أن قتل شيركوه نصرانيًّا خطأ واتهم به ظلمًا، خرجا إلى عماد الدين زنكي بالموصل، فأحسن إليهما، وأقطعهما الإقطاعات الجليلة وشاركاه في جهاد الصليبيين. ولما ملك زنكي قلعة بعلبك من الصليبيين سنة ٥٣٣هـ جعل نجم الدين مسؤولًا عنها، فأقام بها إلى أن قتل زنكي سنة ٥٤١هـ. ولما حاصر معين الدين أُنر أتابك صاحب دمشق مجير الدين أبَق حفيد طغتكين قلعة بعلبك حتى ضاق الأمر على نجم الدين، اضطر إلى تسليمها إليه، وعوضه إقطاعًا جليلًا بدمشق فنزل نجم الدين أيوب بدمشق وتسلم الإقطاع، بينما كان شيركوه قد اتصل بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وصار من أخص أصحابه، ومقدمًا على سائر أمرائه، لما اشتهر به من شهامة وشجاعة وإقدام في الحرب، فأقطعه مدينتي حمص والرحبة ولما أخذ نور الدين محمود دمشق وبذل نجم الدين جهده في تسليم دمشق لنور الدين سنة ٥٤٩هـ، صارت منزلة نجم الدين وشيركوه عند نور الدين عالية، وصار شيركوه مقدم جيوشه وعساكره، ثم قصد شيركوه ومعه صلاح الدين مصر -كما سبق- بسبب الصراع بين شاور والضرغام والاستعانة بالصليبيين، وانتهى الأمر بوزارة صلاح الدين بمصر وسقوط الدولة الفاطمية [٢].

---

(١) راجع عن نسب بني أيوب: ابن واصل: مفرج الكروب ١/٣-٦، وأبي شامة: الروضتين ١/٢١٠-٢١١.

(٢) راجع ابن واصل: السابق ٧-١٠، والنويري: نهاية الأرب ٢٨/٣١٥-٣٥٦.

وكان نجم الدين أيوب قد أرسله نور الدين محمود إلى صلاح الدين يطلب إليه قطع الخطبة للعبيديين، وإقامة الدعوة للعباسيين في أول سنة ٥٦٧هـ[١].

وكان مولد صلاح الدين سنة ٥٣٢هـ إذ أبوه نجم الدين يتولى تكريت. ولم يكن صلاح الدين في بداية أمره مستقيمًا، إلا أنه تاب عن كل معصية، فأحبه نور الدين وجعله في جيشه تحت إمرة أسد الدين شيركوه[٢]. ولما انتهى الأمر بمصر بعد فتحها على يد شيركوه فتحًا نهائيًّا سنة ٥٦٤هـ، وأصبح صلاح الدين وزيرًا للعاضد، وقضى على الدولة الفاطمية، انفرد صلاح الدين بمصر، وسك نقودًا باسمه على أحد وجهيها واسم السلطان نور الدين محمود على الوجه الآخر، وبذلك تحولت مصر رسميًّا إلى المذهب السني نهائيًّا، وأضحى صلاح الدين يحكمها باسم نور الدين، الذي توفي سنة ٥٦٩هـ، ومن ثم استقل صلاح الدين بحكم مصر بعيدًا عن التبعية لابن نور الدين الصغير الملك الصالح الذي كان في الحادية عشرة من عمره، وتلاعب به وزراؤه.

مصر في ظلال صلاح الدين وبنيه، والمنشآت فيها:

حكم صلاح الدين مصر منفردا من سنة ٥٦٩هـ حتى وفاته سنة ٥٨٩هـ، وفي هذه الفترة نعمت مصر بالأمن والاستقرار والهدوء في ظل حكم حريص على التمسك بالإسلام، وتلقي علومه ومعارفه، وحريص على تطبيقه في شتى مناحي الحياة، وقد سمع صلاح الدين –رحمه الله– الحديث الشريف من شيخ المحدثين في عصره الحافظ السلفي، وتلقى الفقه على: الفقيه عليّ ابن بنت أبي سعد، والفقيه أبي الطاهر بن عوف، والقطب النيسابوري «وحدث»[٣]. وعنه يقول ابن إياس: «وكان له اشتغال بالعلم والحديث، وهو أول من اتخذ قيام المؤذنين في أواخر الليل، وطلوعهم إلى المآذن للتسبيح حتى يطلع الفجر، واستمر ذلك إلى الآن»[٤]. وكان لا يلبس إلّا الثياب القطن،

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٢١١/١، وراجع من ص٢٠٩ للوقوف على صفات نجم الدين الطيبة الذي توفي سنة ٥٦٨هـ وصلاح الدين غائب عن مصر مواظب على مهاجمة الكرك والشوبك، ودفن نجم الدين إلى جانب قبر أخيه شيركوه في بيت بالدار السلطانية ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة المنورة. وراجع ابن واصل: مفرج الكروب ٢٣٠/١–٢٣١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥٩٠/٢٠.

(٢) راجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٧٩/٢١ و٢٨٢، وراجع ٢٨٧–٢٩٠.

(٣) الذهبي: السابق ٢٧٩. وراجع ابن واصل: السابق ٥٥/٢–٥٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ٢٤٨.

والجبب الصوف، وقد عده اليافعي في كتاب «روضة الرياحين» من جملة الأولياء الثلاثمائة [١]. ونسب إليه إبطال المكوس بمصر عن التجار المترددين إليها، وتخفيف الخراج عن مستحقيه [٢]. وقد أقر أرنولد [٣] بهذه الحقيقة فذكر أن صلاح الدين اشتهر بالتسامح وتخفيف الضرائب.

وقد نشر صلاح الدين العدل بمصر [٤]، وأسهم إسهامًا قويًّا في المحافظة على المذهب السني بمصر بإنشاءاته للمدارس، وبتقويته للفقهاء وحثهم على تعليم الناس، وتقريبهم منه، وقد وصف في مجلسه بأنه يملأ العيون روعة، و القلوب محبة، سهلًا، قريبًا، محببًا، يتشبه به أصحابه، ويتسابقون معه إلى المعروف، ومجلسه حافل بأهل العلم يتذاكرون، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار، وحفر الخنادق، ويأتي بكل معنى بديع، وكان يحفظ «الحماسة» ويظن أن كل فقيه يحفظها، ولم يكن القاضي الفاضل يحفظها، فحفظها [٥].

واشتهر الملك الناصر صلاح الدين بالكرم والجود وحسن الأخلاق «ومضت أكثر أيامه في الجهاد في سبيل الله»[٦] فلم يحج، ولم تجب في ماله الزكاة، ولما مات «لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، ودينارًا واحدًا ذهبيًّا صوريًّا، ولم يخلف ملكًا لا دارًا ولا عقارًا، ولا بستانًا ولا مزرعة»[٧]. وخلف سبعة عشر ولدًا ذكرًا وابنة صغيرة. وقد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وجمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري ما يحتاج إليه من

---

(١) ابن إياس: السابق ٢٤٨.

(٢) راجع النويري: نهاية الأرب ٣٦٤/٢٨ و٣٥٦.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ١٢٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ٥٦/٢.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٨٢/٢١.

(٦) النويري: نهاية الأرب ٤٣٨/٢٨، وعن جهاده راجع ٣٧١-٤٣٧، وراجع ابن واصل: مفرج الكروب ١٧/٢-٤٢٠، وراجع أبو شامة: الروضتين ٢٣١/١-٢٧٩ و٢/٢-٢١٧. والعماد الأصفهاني: الفتح القسي ٥٨-٦٢٦.

(٧) أبو شامة: السابق ٢١٧/٢، والنويري: السابق ٤٣٨، وابن واصل: السابق ٤٢٦، والعماد الأصفهاني: السابق ٦٢٩.

العقيدة الإسلامية الصحيحة في كتاب، كان من شدة حرص صلاح الدين عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، وشوهد وهو يأخذها عليهم وهو يقرؤونها من حفظهم عليه. وكان شديد المواظبة على الصلاة في جماعة، حتى إنه ذُكر أن له سنين ما صلى إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة، وكان يواظب على السنن الرواتب، وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت من الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، واستنفذت صدقة النفل جميع ما ملكه من الأموال، وكان يحب سماع القرآن، يستقرئ من يحضره في الليل وهو يسمع، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقربه، وجعل له حظًا من خاص طعامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءًا من مزرعة. وكان شديد الرغبة في سماع الحديث النبوي، وكان يأمر بالجلوس عند سماع الحديث إجلالًا له، وإن عرف شيخًا يتحاشى السلاطين ويبتعد عن الجلوس في مجالسهم، سعى إليه وسمع عليه، وقد تردد إلى الحافظ السلفي بالإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، فيستحضر الفقيه ابن شداد في خلوته، ويقرأ عليه، فإذا مر بحديث فيه عبرة، رق قلبه، ودمعت عينه. كان عادلًا رؤوفًا رحيمًا ناصرًا للضعيف على القوي، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويأخذ كل أحد حقه من كبير أو صغير أو عجوز هرمة، أو شيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا، وفي كل أوقاته كان قابلًا لما يعرض عليه من القصص، كاشفًا لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع كل القصص في كل يوم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو النهار، ويوقع على كل ظلامة بما يمحقها ويعيد الحق فيها إلى أهله [١].

وحرصًا من صلاح الدين على المحافظة على سنية مصر، وإزالة كل مظهر من مظاهر التشيع فيها، فإنه أقام العديد من المدارس بها، منها: المدرسة الناصرية وهي أول مدرسة في مصر، وعرفت بابن زين التجار، نسبة إلى هذا الفقيه الشافعي الذي

(١) أبو شامة: الروضتين ٢١٩/٢، وراجع ٢١٢-٢٢٤، وراجع النويري: نهاية الأرب ٤٣٩/٢٨.

درس بها مدة طويلة حتى وفاته سنة ٥٩٠هـ. وكان صلاح الدين قد هدم حبس المعونة[١] وهو المكان الذي يعتقل فيه الناس، سنة ٥٦٦هـ وأمر ببنائها مدرسة للفقهاء الشافعية. وكان هذا المكان بجوار الجامع العتيق، جامع عمرو بن العاص، ولما اكتمل بناؤها وقف عليها الصاغة وكانت بجوارها [٢]. وفي سنة ٥٦٦هـ نفسها أنشأ صلاح الدين المدرسة القمحية بجوار الجامع العتيق، في موضع عرف بدار الغزل، لوجود قيسارية يباع فيها الغزل، فهدمها صلاح الدين، وأنشأ مكانها هذه المدرسة للفقهاء المالكية، ووقف عليها قيسارية الوراقين وضيعة بالفيوم، ورتب فيها أربعة من المدرسين، عند كل مدرس عدة من الطلبة، وهذه المدرسة من أجل مدارس المالكية، ويتحصل لهم من أوقافها بالفيوم قمح يفرق فيهم، ولذلك عُرفت بالمدرسة القمحية[٣]. وبنى مدرسة عند تربة الإمام الشافعي درس فيها الفقيه نجم الدين الخبوشاني[٤].

ومن أعمال صلاح الدين بمصر أيضًا عمارة خانقاه سعيد العداء[٥] المعروفة أيضًا بالخانكاه الصلاحية، وجعلها صلاح الدين للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم سنة ٥٦٩هـ، وولى عليهم شيخًا، ووقف عليه بستانًا بجوار بركة الفيل خارج القاهرة، وقيسارية بها، وكانت هذه الدار مسكنًا للوزراء زمن العبيديين، ومنهم العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، وشاور وابنه الكامل. وهي أول خانقاه عملت بمصر، ورتب للصوفية فيها في كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا، وبنى صلاح الدين لهم حمامًا بجوارها. وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح، وولى مشيختها الأكابر والأعوان كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه، مع ما كان لهم من الوزارة والإمامة وتدبير الدولة، وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر.

ولم يكن إنشاء المدارس عند صلاح الدين فقط، وإنما كان الفكر من إنشائها واضحًا لدى جميع الأيوبيين وأنصارهم، ومن ثم فإن غير حكام مصر من الأيوبيين سارعوا إلى إنشاء العديد من المدارس، ومنهم: ابن أخي صلاح الدين وهو تقي الدين عمر بن شاهنشاه

---

(١) عن سجون مصر راجع المقريزي: الخطط ١٨٦/٢-١٨٨.
(٢) راجع النويري: نهاية الأرب ٣٦٣/٢٨، والمقريزي: السابق ٣٦٢/٢-٣٦٣.
(٣) النويري: السابق ٣٦٣، والمقريزي: السابق ٣٦٣.
(٤) النويري: السابق ٣٦٦، وابن واصل: مفرج الكروب ٥٤/٢-٥٥ وبنيت هذه المدرسة سنة ٥٦٩هـ وعرفت بالصلاحية وعنها راجع السيوطي: حسن المحاضرة ٢٥٧/٢٥-٢٥٩.
(٥) عنها راجع المقريزي: السابق ٤١٤/٢-٤١٥، والسيوطي: حسن المحاضرة ٢٦٠/٢-٢٦١.

الذي أنزله صلاح الدين في دار من دور الخلفاء الفاطميين تقع على النيل وتعرف بمنازل العز، صارت في أواخر الفاطميين معدة لنزهة الخلفاء العبيديين، فلما نزلها تقي الدين عمر أقام بها مدة، ثم اشتراها والحمام والاصطبل المجاور لها من بيت مال المسلمين سنة ٥٦٦هـ، فلما استتابه صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧١هـ جعل تقي الدين عمر منازل العز مدرسة عرفت بهذا الاسم وأوقفها على الشافعية، وأوقف عليها الحمام وما حولها، وعمّر الاصطبل فندقًا، عرف بفندق النخلة ووقفه على المدرسة، ووقف عليها الروضة [١]. كما أنشأ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني سنة ٥٨٠هـ مدرسة [٢] بجوار داره بدرب ملوخيا[٣] بالقاهرة، ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعدة للإقراء، أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبي ناظم الشاطبية، ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي، ثم الشيخ علي بن موسى الدهان وغيرهم. ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن سلامة الإسكندراني. ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، قيل: إنها كانت مائة ألف مجلد «وذهبت كلها. وكان أصل ذهابها أن الطلبة التي كانت بها لما وقع الغلاء بمصر في سنة ٦٩٤هـ، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصوري، مسهم الضر، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت»[٤].

وقد أنشأ الأمير قطب الدين خسرو الهدباني أحد أمراء صلاح الدين المدرسة القطبية[٥] داخل درب الحريري سنة ٥٧٠هـ وجعلها وقفًا على الفقهاء الشافعية.

وبنى أحد التجار ويدعى ابن الأرسوفي مدرسة عرفت باسمه كانت بالبزازين التي تجاور خط النخالين بمصر، وكان هذا التاجر العسقلاني قد بناها سنة ٥٧٠هـ [٦].

ومع أن صلاح الدين والأيوبيين كانوا شافعية [٧]، وكانت مدارسهم في معظمها بتدريس المذهب الشافعي، إلّا أن السلطان صلاح الدين جعل دار الوزير المأمون

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب ٣٦٣/٢٨-٣٦٤، والمقريزي: الخطط ٣٦٣/٢-٣٦٤.

(٢) النويري: السابق ٣٧٠، والمقريزي: السابق ٣٦٥/٢-٣٦٦.

(٣) عن الدروب والأزقة بالقاهرة راجع المقريزي: السابق ٣٦/٢-٤٤، وعن درب ملوخيا راجع ٣٧/٢ وهذا الدرب نسبة إلى ملوخيا صاحب ركاب الحاكم بأمر الله، وقد قتله الحاكم شر قتلة، وعن الحمامات راجع ٧٨/٢-٨٥.

(٤) المقريزي: السابق ٣٦٥/٢.

(٥) عنها راجع المقريزي: السابق ٣٦٤/٢.

(٦) المقريزي: الخطط ٣٦٣/٢.

(٧) كل ملوك بني أيوب شافعية باستثناء الملك المعظم عيسى بن العادل (ت٦٢٤هـ) الذي كان على مذهب أبي حنيفة. ابن واصل: مفرج الكروب ٢١١/٤، وراجع ٢٠٨-٢٢٤.

البطائحي الوزير الفاطمي مدرسة سنة ٥٧٢هـ عرفت بالمدرسة السيوفية، وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد الجبتي، ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارًا، وأوقف أوقافًا على الطلبة الحنفية، وعرفت هذه المدرسة بالمدرسة السيوفية لأن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها، وهذه المدرسة هي أول مدرسة وقفت على الحنفية بمصر، وجعل صلاح الدين اثنين وثلاثين حانوتًا وقفًا على مصالحها [١].

ومن أعمال صلاح الدين المدنية المهمة بمصر أمره باتخاذ وفتح بيمارستان بالقصر الفاطمي للمرضى والضعفاء، واختير مكانه بالقصر بعناية شديدة، واستخدم له أطباء وجراحين، وعمالًا وخدامًا، وعرف هذا المارستان «بالمارستان العتيق»[٢] وأوقف صلاح الدين على هذا البيمارستان الأوقاف الكثيرة «ووجد الناس به رفقًا، وإليه مستروحًا، وبه نفعًا»[٣].

أما عن أعماله الحربية المدنية معًا، فهو بناء قلعة الجبل [٤]، وبناء سور القاهرة – الذي سبق الحديث عنه– سنة ٥٧٢هـ بإشراف الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين لما أزال الدولة الفاطمية من مصر، واستبد بالأمر، لم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر، فاختار مكان القلعة بعد اختياره بتعليق لحم فيه تغير بعد يومين وليلتين، مقارنة بتغيره بعد يوم وليلة بمكان القاهرة، فأمر حينئذ بإنشاء القلعة في هذا المكان، وبنى من حجارة الأهرام الصغار التي كانت بالجيزة: السور والقلعة وقناطر الجيزة، وأراد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة والفسطاط والقلعة، فمات قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة، فتم ذلك في أيام نيابة الكامل الأيوبي عن أبيه العادل بمصر، فأتم بناء القلعة، وأنشأ لها الأدر السلطانية وذلك سنة٦٠٤هـ، وما برح يسكنها حتى مات، فاستمرت من بعده دار مملكة مصر. وكان قراقوش يستعمل في بناء القلعة والسور خمسين ألف أسير صليبي.

---

(١) المقريزي: السابق ٣٦٤.

(٢) راجع عن البيمارستان ابن واصل: السابق ٥٥/٢، والنويري: نهاية الأرب ٣٦٤/٢٨ و٣٦٦، والمقريزي: السابق ٤٠٦/١.

(٣) المقريزي: السابق ٤٠٦.

(٤) راجع ابن واصل: السابق ٥٢/٢–٥٤، والنويري: السابق ٣٦٥، والمقريزي: السابق ٣٠٢/٢–٢٠٣، وراجع حتى ٢٠٦.

ويذكر الباحثون المحدثون[١] أن القلعة كانت فكرة مبتكرة، ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على إقامتها بغضه الشديد للفاطميين الشيعة ولقصورهم التي سكنوها، وعلى الرغم من قصر مدة إقامته في القاهرة إلا أنه رغب في أن يجعل القلعة مقرًا لسكناه، وكان ببنائه القلعة كان مسترشدًا بما شهد منذ حداثته في الشام من قلاع، حيث لا تخلو مدينة من مدنه وقتئذ من قلعة، فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها، واختار مكانها بدقة، ولأغراض إستراتيجية لا يتوفر وجودها في مكان آخر، إذ إن جبل المقطم يأخذ في الارتفاع فجأة عند مكان القلعة، كما تبرز فيه أكبر الكتل الصخرية المنفردة والتي تشرف من هناك على الوادي كله: مصره وقاهرته، وقد أشار المقريزي نفسه إلى ذلك «هذه القلعة على قطعة من الجبل، وهي تتصل بجبل المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة». ولا شك أن صلاح الدين وفق تمامًا في اختيار مكان القلعة، إذ إنها بوضعها الحالي المرتفع حققت الإشراف على القاهرة ومصر إشرافًا تامًا بحيث كانت حاميتها تستطيع أن تقوم بعمليتين حربيتين في وقت واحد: هما إحكام الجبهة الداخلية وقطع دابر من يخرج منها على طاعة السلطان، ومقاومة ما عساه يقع من محاولات خارجية من الصليبيين للاستيلاء على القاهرة، ولذا لا يمكن الاعتراض على صلاح الدين بأنه ساء اختيار مكان القلعة لتسلط جبل المقطم عليها، إذ في الواقع لم تكن هناك أسلحة[٢] معروفة وقتذاك قادرة على قذف شحناتها من قمة المقطم إلى الأهداف داخل القلعة، كما أن المهاجمين على القاهرة لا يستطيعون صعود جبل المقطم في قيظ الحر وصعوبة توفر الماء في هذا المكان، وإذا افترضنا نجاح المهاجمين في الاقتراب من أسوار القلعة، فإن الخندق

---

(١) د/عبد الرحمن زكي: بناة القاهرة ١٩-٣٠، والجيش المصري في العصر الإسلامي ١/٩٨-١١٣، ود/عبد الرحمن فهمي: قلعة الجبل ٤٧٩-٤٨٨ مقال بكتاب القاهرة، وراجع شحاته إبراهيم: القاهرة ١٢١-١٢٦، وراجع علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ١/٦٩-٧٢، وكريزويل: وصف قلعة الجبل ٥-١٠٢.

(٢) عن الجيش الأيوبي وأسلحته راجع د/عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي ١/٨١-٩٧، وراجع د/محسن حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ٥١-٤٩٤.

حولها يمنع من اقتحامها، هذا بالإضافة إلى أن المسافة بين القلعة وقمم المقطم لا تيسر للمهاجمين أن يقوموا بحركات تكتيكية بشيء من الحرية. وقد أحاط صلاح الدين قلعة القاهرة بخندق عظيم عميق يفصل به القلعة عن جبل المقطم، وقد شاهد ابن جبير هذا الخندق سنة ٥٧٩هـ أثناء حفر الأسرى الصليبيين له في الصخر بالمعاول وعدّه من العجائب.

ومن المعالم المعمارية التي ترجع إلى عصر صلاح الدين في قلعة القاهرة «بئر يوسف» التي تقع في الساحة الجنوبية من القلعة، وهي محفورة في الصخر على عمق ٩٠مترًا تقريبًا من مستوى أرض القلعة، وتعرف هذه البئر أيضًا بالحلزون، وقد أشرف على حفرها في الصخر بهاء الدين قراقوش لتكون مصدرًا للماء في القلعة وقت الحصار، ولا يخفى ما تطلبه هذا العمل من جهد كبير. وتتركب هذه البئر من طابقين: عمق الأول نحو خمسين مترًا، والآخر نحو أربعين مترًا، ولكل طابق منها ساقية ترفع الماء منها بواسطة الدواب. ويقال: إن هذه البئر كانت متصلة بالنيل بواسطة سرداب تنفذ منه مياه النيل إلى القلعة. ولا تزال السواقي بمعداتها أسفل البئر حتى الآن. أما القلعة نفسها فقد طرأت عليها تغييرات وإضافات متعددة [١]، ويوجد من أعمال صلاح الدين حاليًا بعض أجزاء السور والأبواب.

وذُكر عن بئر يوسف الحلزوني أن البقر كان يدور من أعلاها، وينقل الماء من وسطها، وتدور أبقار أخرى في وسطها، فتنقل الماء من أسفلها، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء، وخصص للأبقار منحدر لتسهيل النزول والصعود، وقد فتحت بجانبه فتحات لإيصال النور إلى هذه الممر.

وقد أقام صلاح الدين قلعة أخرى في قلب سيناء سنة ٥٧٨هـ، وانتهى منه سنة ٥٨٣هـ لحماية مصر من خطر الصليبيين من تلك الجهة، ولما مات صلاح الدين وتولى أخوه العادل الأمر اهتم بالحدود الشرقية لمصر وزار سيناء سنة ٥٩٩هـ وأمر ببناء مسجد وصهريج، واحتفظ بحامية تحمي البلاد. وأمدت هذه القلعة بالماء عن

---

(١) عن العمائر التي زخرت بها القلعة زمن الأيوبيين وبعدهم راجع د/عبد الرحمن فهمي: قلعة الجبل ص٤٨٥-٤٨٨ مقال بكتاب القاهرة.

طريق عين صدر التي كانت على بعد خمسة كيلومترات من قلعة صلاح الدين، بالإضافة إلى الانتفاع بمياه السيل المنهمرة بغزارة في أثناء الشتاء في وديان تلك الجهة، واختاروا واديًا عميقًا قريبًا من القلعة من ناحيتها الشمالية وشيدوا سدًا فيه يحجز مياه السيل. وكانت مياه عين صدر ومياه السد تحمل على ظهر الجمال أو الخيول إلى القلعة [١].

وتوجد أعمال أخرى عديدة لصلاح الدين في مصر، منها: السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجيزة، وبناء مثل هذا السد كان لسبب عسكري مهم فكر فيه صلاح الدين، لمنع المغيرين من التقدم إلى شاطئ النيل، فكان من الضروري إقامة هذا السد العظيم. كما بنى صلاح الدين قبة الإمام الشافعي سنة ٥٧٢هـ، وبنى بجوارها المدرسة الإصلاحية [٢].

وبوفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ تولى ابنه العزيز عثمان مصر، وكان لا بأس بسيرته، وبلغ من كرمه أنه لم يبق له خزانة ولا خاص ولا فرس، وبيوت أمرائه تفيض بالخيرات. وكانت الرعية يحبونه محبة شديدة، وكانت الآمال متعلقة بأن يسد مسد أبيه [٣]. وكان الأفضل أخو العزيز ابن صلاح الدين قد ملك دمشق بعد وفاة صلاح الدين، بينما ملك الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين حلب، وآل حكم الكرك والشَّوْبَك والبلاد الشرقية للعادل سيف الدين أخي صلاح الدين، وتوزعت باقي مملكة صلاح الدين على الأيوبيين[٤].

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد صلاح الدين، والمعهود إليه بالسلطنة، وعنده بدمشق جماعة كثيرة من أمراء الدولة، وعند الملك العزيز بمصر جمهور العساكر من الصلاحية والأسدية والأكراد، وهو أمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مَغَلاتها. وحدث أن أبعد الأفضل أكابر أمراء أبيه وأصحابه، ففارقوه وصاروا إلى أخيه

---

(١) د/عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي ١/١٠٨-١١٣.

(٢) د/عبد الرحمن زكي: بناة القاهرة ١٨-١٩ و٢٣، وراجع علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية جـ١/٧١-٧٢، وشحاته إبراهيم: القاهرة ١٢٧-١٢٨.

(٣) راجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/٢٩١-٢٩٤، والنويري: نهاية الأرب ٢٨/٤٤٢.

(٤) راجع ابن واصل: مفرج الكروب ٣/٣-٥، وراجع ٢/٤٢٠-٤٢٦.

الملك العزيز، وحسنوا له الاستبداد بالسلطنة والقيام بالملك مقام أبيه، ووقع خلاف بين العزيز صاحب مصر وأخيه الأفضل صاحب دمشق بسبب القدس حيث كان مضافًا إلى بلاد الأفضل، ووعد أخاه العزيز بضمه إلى ملكه، ثم رجع في وعده، فسار العزيز سنة ٥٩٠هـ إلى الشام بعساكر الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم، ووصل إلى حدود دمشق، فاستنجد الأفضل بعمه العادل، فحضر إلى دمشق، وحضر الظاهر من حلب، والمنصور والمظفر تقي الدين من حماة، وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه من حمص، وغيرهم. فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أن لا قدرة له بهذا الجمع، واجتمع العادل بالعزيز الذي أبلغه أن الصليبيين استولوا على جبيل وأرادوا استنفاذها منهم وتأديب الأفضل الذي حالف الصليبيين عليه، وقام العادل بالصلح بين الأخوين [١].

وتقرر أن يكون للعزيز البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين، وأن تكون دمشق وطبرية وأعمال الغور للملك الأفضل، وأن يُعطي الأفضل لأخيه الملك الظاهر جبلة واللاذقية، وأن يكون للعادل بالديار المصرية إقطاعه الأول، وأن يُخطب للعزيز ببلاده وتنقش السكة باسمه، وأن يمده العزيز بألف فارس.

وفي سنة ٥٩١هـ عزم العزيز على الخروج إلى الشام بعساكره، للمرة الثانية وأشار العقلاء من الناس على الأفضل بمكاتبة أخيه العزيز وملاطفته واسترضائه، فإن العزيز كان يقنعه أن يقيم الأفضل الخطبة والسكة بدمشق له، إذ هو صاحب مصر، وعنده معظم العساكر الصلاحية، ولو فعل ذلك الأفضل وانقاد إلى أخيه لما عارضه العزيز في دمشق ولأبقاها عليه، ولم يتمكن العادل من الاستيلاء على ممالك صلاح الدين. ولكن الأفضل ترك رأي العقلاء، واستنجد بعمه العادل، فوصل العادل إلى دمشق وتحالف مع الأفضل على قصد العزيز وانتزاع مصر منه، على أن يكون ثلث الديار المصرية للعادل إقطاعًا، والثلثان للأفضل، وساروا في طلب العزيز، فعاد إلى مصر، ووصل العادل والأفضل إلى بلبيس ونازلاها، فبذلت الرعية بمصر أموالها للعزيز، فرفض وحاصر العادل والأفضل بلبيس ومن انضم إليهما من الأسدية والأكراد،

---

(١) راجع ابن واصل: السابق ٣/٥-٣٦، وراجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/٤٤٢-٤٤٥، وراجع المقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ص١١٤-١٤٠.

فتصدى الصلاحية لهم، وكان الوقت وقت زيادة النيل، واحتمت البلاد بما غمرها من الماء، وغلا السعر، وتعذرت الأقوات والميرة على العسكر الشامي، فندموا على وصولهم إلى مصر، وعرف العادل أن المصلحة في الصلح، وأسفر هذا الصلح على وجوب عفو العزيز عن الأمراء الأسدية والكردية ليعودوا إلى خدمته ويرد إليهم إقطاعاتهم، وأن يحلف كل من الأخوين لصاحبه. ورجع الأفضل إلى دمشق فدخلها في المحرم سنة ٥٩٢هـ، ولم تطل مدته فيها، إذ اتفق الملك العادل المقيم بمصر مع صاحبها العزيز على قصد الشام، وأن يكون العزيز بدمشق والعادل ينوب عنه بالديار المصرية، وبالفعل نازل العادل والعزيز دمشق حتى ملكاها، وخرج الأفضل إلى قلعة صرخد من أعمال دمشق، ودخل العزيز دمشق وأسقط المكوس عن أهلها، ثم لاطف العزيز عمه وحماه العادل وسأله أن يقيم بدمشق نائبًا عنه.(١)

وفي سنة ٥٩٥هـ توفي العزيز بالقاهرة تاركًا أحد عشر ولدًا، كلهم كانوا صغارًا، حيث توفي في السابعة والعشرين من عمره، ولم يخلف في خزائنه ذهبًا ولا دراهم إلا بعض قماش ليس بالطائل. ووصل الأفضل أخو العزيز القاهرة ليدبر أمر مصر تحت ملك المنصور بن العزيز سنة ٥٩٥هـ، وكتب الأفضل إلى عمه العادل بالانقياد إلى أمره. ولما استقر الأفضل في تدبير أحوال مصر، ولم يبق للمنصور معه إلا الشركة في الخطبة، شجعه أصحابه على قصد دمشق وحصرها، وبالفعل أحكم الحصار عليها وقطع عنها الأنهار، فاشتد الأمر على أهل دمشق، وتجرأت الرعية على العادل، وطلبوا إليه أن يسلم دمشق للأفضل، فكتب العادل إلى الظاهر يستميله ويمنيه بتسليم دمشق إليه، ووصل الخبر إلى الأفضل فانزعج، ووقع انقسام بين جند الأفضل، وبينما الحال على ذلك قدم الكامل بن العادل من الشرق سنة ٥٩٦هـ بالعساكر والتركمان، فاشتد به عضد أبيه، وتأخر الأفضل بمن معه إلى سفح جبل العقبة ثم انتقل إلى مرج الصفر، واشتد البرد على العسكر المصري، فعاد الأفضل إلى الديار المصرية، وساق العادل بعساكره في أثره، وهزمه عند حدود مصر. وكان العادل وهو محصور بدمشق

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٤٤٥/٢٨-٤٥٥، وابن واصل: مفرج الكروب ٣٦/٣-٧١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٩٣/٢١.

يهيئ القِرب والبقسماط وكل ما يحتاج إليه لدخول الرمل، فعلم الناس من ذلك أنه كان مباطنًا لبعض العسكر المصري، وتحققوا أنه يملك مصر، وبالفعل دخل العادل مصر، وعوض الأفضل عنها بسميساط وميّافارقين وغيرهما. وتسلم العادل مصر بلا قتال، واستقل بالسلطة بمصر، وأزال أمر المنصور بن الملك العزيز. وبذلك آلت مصر إلى حكم العادل أخي صلاح الدين، وزال عنها حكم أولاد صلاح الدين [١].

وقد ذكر الذهبي أن الأفضل قنع بسميساط، وأن عنده تشيع بلا رفض، وقد توفي الأفضل بن صلاح الدين سنة ٦٢٢هـ فتملك بعد أخوه موسى، ولقب بلقبه، وسميساط قلعة على الفرات [٢].

مصر في ظلال العادل وأولاده ومنشآتهم فيها:

السلطان الكبير الملك العادل سيف الدين، كان أصغر من أخيه صلاح الدين بعامين، ونشأ في خدمة نور الدين محمود، وشهد المغازي مع صلاح الدين. وكان ذا عقل ودهاء وشجاعة وتؤدة وخبرة بالأمور، وكان أخوه يعتمد عليه. وبعد وفاة أخيه لم يزل يراوغ حتى استولى على الملك من أولاد أخيه، وقسم الممالك بين أولاده، وكان يصيف بالشام غالبًا ويشتي بمصر. وخطب له بديار مصر والشام وحران والرها وميافارقين، وضربت السكة باسمه. واستدعى العادل ابنه الكامل، فحضر إلى القاهرة، وجعله نائبًا عنه بمصر، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه، كما كانت إقطاعًا للعادل في أيام صلاح الدين، وجعله ولي عهده، وذلك سنة ٥٩٦هـ [٣].

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٨/٤٥٥-٤٦٢، وابن واصل: مفرج الكروب ٣/٨٢-١٥٣ وقد أخرج العادل الملك المنصور بن العزيز من مصر لخوفه من الصلاحية وممن يميل إلى العزيز سنة ٥٩٩هـ وأخرج العادل مع المنصور والدته وإخوته ومن يختص به وسيرهم إلى الرهاثم ثم انتقلوا منها إلى حلب وأقاموا عند الظاهر بن صلاح الدين صاحبها. ابن واصل: السابق ١٤٠-١٤١. وقد انتزع العادل من الأفضل كل البلاد التي حكمها إلا سميساط فقط. ابن واصل: السابق ١٥٠.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/٢٩٤-٢٩٦. وراجع ٢٩٦-٢٩٨ للوقوف على آخر أولاد صلاح الدين: الظاهر سلطان حلب. وراجع المقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ص١٤٧-١٥٢.

(٣) عن حكام الأيوبيين في هذه الفترة راجع النويري: نهاية الأرب ٢٩/٢٦-٢٧.

وفي أيام العادل ونيابة ابنه الكامل حدثت مجاعة سنة ٥٩٦هـ بمصر بسبب نقص ماء النيل، واشتد الغلاء، وامتد البلاء، وعَدِم الناس القوت، وأكل بعض المجرمين الناس، بعد أكل الميتة[١]. وحدث زلزال بمصر والشام، هلك بسببها ألف ألف إنسان ومائة ألف سنة ٥٩٧هـ [٢]. وفي سنة ٦٠٤هـ انتقلت السلطة إلى قلعة الجبل التي بدئ في عمارتها زمن الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكان الكامل أول من سكنها، ونقل أولاد العاضد من القصر إلى قلعة الجبل، وبنى لهم بها مكانًا اعتقلوا فيه [٣]. وحدث في سنة ٦١٠هـ أن شغب العوام بمصر على الكامل ورجموه، بسبب معارضة طبيبه النصراني أبي شاكر –الذي كان يميل إليه– في عمارة مسجد قديم، بجانب الكنيسة المعلقة بالفسطاط فامتنع الكامل عن إعادة بناء المسجد الذي كان قد دثر، فثار العوام ورموه بالحجارة، فهرب منهم إلى القلعة [٤].

ولأن الصليبيين لم ينسوا هزائمهم أمام صلاح الدين، ولم يتخلوا عن مشروعهم الصليبي الاستعماري للشرق الإسلامي، فإنه في سنة ٦١٤هـ تتابعت أعدادهم الغفيرة الخارجة من روما وغيرها بحرًا إلى عكا –التي استعادها الصليبيون في الحملة الصليبية الثالثة في زمن صلاح الدين–ومعهم جماعة من الأمراء الصليبيين الكبار، عازمين على استرداد القدس الشريف، وكل ما أخذ من بلاد كانوا قد احتلوها من قبل بالشام، وأصبح الصليبيون بعكا «في جمع عظيم، لم يجتمع لهم بعكا بعد موت السلطان الملك الناصر صلاح الدين مثله»[٥].

ولما بلغ العادل اجتماع الصليبيين بعكا، خرج من مصر بالعساكر المصرية، ووصل إلى مرج الصفر بدمشق؛ منتظرًا تجمع العساكر الإسلامية لملاقاة الصليبيين، في حين قام الصليبيين بالإغارة على بانياس وبيسان وغيرهما ونهب القرى، وقتل أهلها

---

(١) راجع المقريزي: نهاية الأرب ٢٩-١٢-١٣، وراجع المقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ص١٥٦-١٥٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/١٧٣-١٧٤.

(٢) راجع النويري: السابق ٢٨-٣٠.

(٣) النويري: السابق ٤١، وراجع المقريزي: السابق ١٦٩.

(٤) النويري: السابق ٦٣. ويذكر هنا أنه كان للعادل كاتب نصراني. النويري: السابق ٥٥.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ٣/٢٥٤، والمقريزي: السابق ١٨٦.

وإحراق مساكنهم، وأسر من لم يقتل من المسلمين، وعادوا بذلك إلى مرج عكا. وفي سنة ٦١٥هـ رأى الصليبيون أن المصلحة في الاستيلاء على مصر، فإذا ما استولوا عليها لا يبقى لهم مانع في أخذ القدس وغيره من بلاد الشام، فاستقلوا سفنهم، واتجهوا صوب مصر، ووصلوا إلى الجهة الغربية من دمياط. بينهم وبين ثغر دمياط النيل، وحال دون دخول مركبهم إلى دمياط وجود سلسلة ممتدة من برد السلسلة المنيع إلى دمياط «وكان إذ ذاك على النيل برج منيع في غاية القوة والامتناع، فيه سلاسل من حديد، عظام القدر والغلظ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح – المتوسط– من عبور أرض مصر. وتمتد هذه السلاسل في برج آخر يقابله، وكانا مشحونين بالمقاتلة، ويعرف اليوم مكانهما في دمياط ببين البرجين»[١]. ولما صار الصليبيون غربي النيل، أحاطوا على معسكرهم خندقًا، وبنوا عليهم سورًا وهذه عادتهم أبدًا إذا نزلوا محاربين في أي مكان، وأخذوا في قتال أهل دمياط، وصنعوا آلات وسفنًا زحفوا بها إلى برج السلسلة ليملكوه، وليتمكنوا باستيلائهم عليه من دخول النيل، وتملك دمياط، ولما بلغ العادل قصد الصليبيين مصر، أمر عسكره بالتوجه إليها، حتى لم يبقى عنده من العسكر إلا القليل، فاجتمعت العساكر عند الكامل الذي نزل في بر دمياط شرقي النيل، وألح الصليبيون في مقاتلة أهل البرج، فلم يظفروا بشيء، وكسرت آلاتهم وسفنهم، واستمر الأمر على ذلك أربعة أشهر. ولجأ الصليبيون إلى عمل برج من خشب على بطسة (سفينة) كبيرة، وأسندوه إلى البرج، وحصل قتال بينهم وبين المسلمين المقيمين فيه، انتهى بتملك الصليبيين للبرج، وقطع السلاسل المتصلة به، ولما ورد الخبر للعادل بأخذ الصليبيين برج السلسلة بدمياط، تأوه تأوهًا شديدًا، ودق بيده على صدره أسفًا وحزنًا ومات من ساعته [٢].

وقام الملك الكامل المستقل بمملكة مصر بعد موت أبيه بتغريق عدة مراكب في النيل لمنع الصليبيين من عبوره إلى دمياط، فعدل الصليبيون إلى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجري فيه قديمًا، فحفروه حفرًا عميقًا وأجروا فيه الماء إلى البحر

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ص١٨٨.

(٢) راجع ابن واصل: مفرج الكروب ٣/٢٥٥–٢٧٦ و٤/١٥–٣٣، والمقريزي: السلوك جـ١، قسم١، ص١٨٦–١٩٤، والنويري: نهاية الأرب ٢٩/٨٢–٨٩، وابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة ٦/٢٠٥ و٢٢٢ و٢٣٠–٢٣٢ ويبدوا أن هدف الحملة الصليبية الخامسة هو مصر، وما سبق غزوها من معارك ببلاد الشام كان تمويهًا وخداعًا وليس أكثر .

المتوسط فجرت سفنهم إلى ناحية بورة (منها السمك البوري) تجاه المنزلة التي فيها الكامل، فحاربوه وقاتلوه في الماء، وزحفوا إليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل، هذا والعربان تتخطف الفرنج في كل ليلة، بحيث منعهم ذلك من الرقاد، خوفًا من غاراتهم، والعواد الفقهاء ينضمون إلى جيش الكامل [١]، وملوك المسلمين يمضون إلى دمياط لاستنقاذها من الصليبيين. ولما علم العسكر بموت السلطان العادل بالشام اتفقوا مع عماد الدين بن المشقلوب –الذي كان معظمًا في الأكراد والجند– على خلع الكامل وتولية أخيه الفائز على مصر، ليصير لهم الحكم عليه وعلة البلاد، فأحس الكامل بذلك ففارق منزلته المعروفة بالعادلية عند دمياط ليلًا، وتوجه إلى أشمون طناح (من قرى دكرنس)، فنظر العسكر ولم يجدوا حاكمهم، فتركوا أثقالهم وأموالهم وأسلحتهم إلا ما خف حمله، ولحقوا بالسلطان الكامل، ولما لم ير الصليبيون أحدًا من المسلمين على شاطئ النيل، عبروا إلى بر دمياط وهم آمنون من غير منازع ولا مدافع، واستولوا على ما تركه المسلمون من معدات، ونهبوا بر دمياط، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقًا، وبنوا عليه سورًا على عادتهم، ومنع الأقوات عن أهالي دمياط بالكلية، وأهل دمياط يقاتلون أشد قتال ويمانعونهم «وصبروا صبرًا لم ير مثله» حتى هلكوا من الجوع، ومات أكثرهم، فلما اشتد بهم ذلك استجابوا سنة ٦١٦هـ في شعبان منها للصليبيين بتسليم دمياط في مقابل الأمان، وكان مدة الحصار على دمياط ستة عشر شهرًا واثنين وعشرين يومًا. وكان الكامل إذا أراد أن يرسل إليه شيئًا، أرسل العوامين الذين يحملون الكتب ويغطون في الماء، ويخرجون من تحت سور دمياط. وباستيلاء الصليبيين على دمياط حولوا جامعها أبي المعاطي إلى كنيسة سموها كنيسة القديسة مريم، وظنوا أنهم يملكون القدس وسائر مصر والشام [٢].

---

(١) للوقوف على دور الفقهاء والعامة في جهاد الصليبيين راجع رسالة الدكتوراه للمؤلف «الفقهاء والعامة في مصر والشام في القرنين السادس والسابع الهجريين –عصر الحروب الصليبية–».

(٢) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٩/٨٨–٩٥ و١٠١ و١١٤–١١٨، وابن واصل: مفرج الكروب جـ٤/١٥–١٧ و١٨–٢٠ و٣٢–٣٣، والمقريزي: السلوك جـ١، قسم١، ١٩٤–١٩٥ و١٩٦–٢٠٠ و٢٠١–٢٠٤ و٢٠٥–٢١٢. وراجع أبو شامة: الذيل على الروضتين ١٠٨–١٠٩ وسمى برج السلسلة: «قفل الديار المصرية» ورآه أبو شامة بنفسه سنة ٦٢٨هـ وتبين له صحة هذا الاسم ووصفه وصفًا دقيقًا. وراجع ١١٥–١١٦ و١١٧ وذكر بكاء الكامل والمعظم بكاء شديدًا بعد سقوط دمياط في أيدي الصليبيين. وراجع ١٢٨–١٣٠. هذا وفي حين ذكر النويري تسليم أهالي دمياط صلحًا للصليبيين، ذكر ابن واصل والمقريزي وأبو شامة استماتة أهالي دمياط في الدفاع عنها إلى أن اقتحمها الصليبيون عنوة بعد أن نال التعب والمعاناة منهم، وذكروا استباحة الصليبيين لدمياط.

وبعد سقوط دمياط في أيدي الصليبيين سنة ٦١٦هـ ووضعهم السيف في أهلها «فلم يعرف عدد من قتل لكثرتهم» رحل السلطان الكامل بعد يومين، ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشمون (البحر الصغير الآن) ورأس بحر دمياط، وخيم بالمنزلة التي عرفت بالمنصورة تيمنًا بانتصاره على الصليبيين. وبحر أشمون يحول بينه وبين الصليبيين، وندب السلطان الكامل الناس وفرقهم في الأرض، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس لاستنقاذ مصر من أيدي الصليبيين، وشرع الكامل في بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق بمنزلة المنصورة [١]، في حين حصن الصليبيون دمياط وأخذوا يستعدون للزحف نحو القاهرة، فنازلوا الكامل عند المنصورة، وصاروا بينهم وبين العسكر بحر أشمون وبحر دمياط، وكان الصليبيون في مائتي ألف رجل وعشرة آلاف فارس. وفي سنة ٦١٨هـ تكامل وصول الصليبيين من بلاد الشام إلى دمياط، آملين في تملك مصر، فقدم منهم إلى دمياط «أمم لا تحصى»، واشتد القتال بين الفريقين برًّا وبحرًا، الصليبيون قبالة المسلمين في طرف جزيرة دمياط، وبينهم وبين المسلمين بحر أشمون، والمسلمون بمنزلة المنصورة وهي على النيل عند ملتقى البحرين اللذين أحدهما يذهب إلى أشمون والآخر إلى دمياط، وكانت وقت القتال وقت قوة وزيادة في ماء النيل، والصليبيون لا معرفة لهم بحال أرض مصر، ولا بأمر النيل، فقام جماعة من العسكر إلى خليج من النيل في البر الغربي يعرف ببحر المحلة[٢]، في الأرض التي عليها الصليبيون من بر دمياط وفتحوا مكانًا عظيمًا في النيل، فلم يشعر الصليبيون إلا والماء قد أغرق أكثر الأرض التي هم عليها، وصارت حائلًا بينهم وبين دمياط، فأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها غير جهة واحدة ضيقة، وهو الموقف الذي أراده الكامل للجيش الصليبي، فأمر بنصب الجسور عند بحر أشمون طناح، وعبرت القوات الإسلامية عليها إلى دمياط، فانحصر الصليبيين من سائر الجهات، وقدر الله أن ظفر

---

(١) كانت الرسل تتردد في هذه الفترة بين الكامل والصليبيين في الصلح لئلا يأخذوا مصر، مقابل إعطائهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه صلاح الدين ٢٠٦-٢١١ فرفض الصليبيون وأرادوا إلى جانب ذلك الكرك والشوبك وخمسمائة ألف دينار لتعمير أسوار القدس التي هدمها المسلمون.

(٢) بحر المحلة يتفرع عن بحر بليج الذي يخرج من فرع دمياط.

المسلمون بسفينة كبيرة للصليبيين في البحر المتوسط كانت تحمل السلاح والمؤن إليهم، ففت ذلك في عضدهم [١]. وألقى الرعب في قلوبهم، وعلموا قرب هزيمتهم ونهايتهم على أيدي المسلمين، فطلبوا الصلح على أن يخرجوا من دمياط بأمان ويسلمونها للمسلمين. ورأى الكامل إجابتهم إلى الصلح؛ لئلا يمتنع من بقي منهم بدمياط عن تسليمها إلا بعد وقت طويل، بسبب مناعتها بأسوارها القوية، وتحصيناتها العظيمة، ولا يؤمن في طول محاصرتها أن يفد ملوك الصليبيين لنجدة من فيها طلبًا للثأر ممن قتل من أكابرهم، هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين وملت من طول الحرب التي استمرت ثلاث سنين وأشهرًا، في حين أن إخوة الملك الكامل كانوا يرون ضرورة اجتثاث الصليبيين الذين وقعوا في قبضتهم، ووقع الصلح وفشلت الحملة الصليبية الخامسة على مصر، التي قادها الفرنسي جان دي برين ملك عكا، ونائب البابا، واشترك فيها حوالي عشرين ملكًا من ملوكهم، وتركوا دمياط للمسلمين وعادوا يخفى حنين إلى أوربا أو ممتلكاتهم الصليبية بالشام.

وهناك عدة أسباب لفشل هذه الحملة الصليبية على مصر [٢]، منها أخطار رجال الدين النصراني وغرورهم وعلى رأسهم مندوب البابا بلا جيوش الذي تدخل في اتخاذ القرارات العسكرية ورفض بشدة عرض الكامل على الصليبيين الجلاء عن دمياط نظير استعادة جميع الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك، بعد مؤامرة ابن المشقلوب وعبور القوات الصليبية إلى الضفة الشرقية للنيل، ومنها: جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية وطبوغرافية الطريق الذي اختاروه للزحف صوب القاهرة، وهو الطريق المحاذي لفرع النيل الشرقي (فرع دمياط) مارًا بفارسكور وشار مساح والمنصورة، رغم علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياه النيل، وكان يعترض هذا الطريق العديد من الترع والقنوات التي تتفرع من النيل، وهي أشبه بشبكة الصائد، كما أن الصليبيون أخطأوا في تأخير الزحف إلى القاهرة، فكان بعد حوالي ثلاث سنوات منن

---

(١) راجع المقريزي: السلوك جأ١، قسم١، ص٢٠١-٢٠٣ و٢٠٥ و٢٠٦-٢١١، وابن واصل: مفرج الكروب ٣٣/٤ و٧٠ و٩٢-١٠٦، والنويري: نهاية الأرب ١٠١/٢٩ و١١٣-١١٨. ويذكر هنا أنه في أثناء معارك الصليبيين بدمياط خرج التتار على المسلمين سنة ٦١٦هـ.

(٢) راجعها عند د/محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة ٣٤٦-٣٥٨، وراجع من ص٢٣.

قدومهم إلى الشواطئ المصرية، مما أعطى القيادة الإسلامية الفرصة الكاملة لتنظيم صفوفها مرة أخرى، ولوصول الملوك الأيوبيين لدعم الجبهة المصرية، إلى غير ذلك من أسباب أسهمت في إفشال الحملة الصليبية الخامسة على مصر.

وقد حكم الملك الكامل [١] مصر حتى وفاته في سنة ٦٣٥هـ، وبذلك يكون قد تملك مصر أربعين سنة، شطرها في أيام والده، وكان مهيبًا، حريصًا على حفظ الحديث النبوي، وعلى العلم الذي ازدهرت سوقه في مصر في عهده، وكان يجلس في مجلس خاص في كل ليلة جمعة، يجتمع فيه الفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم، للمناقشة وتبادل الآراء العلمية، وقد عمّر قاعة بقلعة الجبل، لهذا الغرض، وكان يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين في رمضان، وسماها «قاعة رمضان». وبلغ من هيبته أن الرمل الذي بين العريش وديار مصر كان يمر به الإنسان وحده، ومعه الذهب الكثير، أو الجماعة اليسيرة ومعهم الأحمال من القماش فلا يخافون سارقًا، ولا قاطع طريق. وكان في أول زيادة النيل يخرج بنفسه وينظر في الجسور وإصلاحها ويرتب على كل جسر من الأمراء من يتولاه، ويجمع الرجال لإصلاحه وعمله، ثم يشرف على الجسور بنفسه، فأي جسر منها اضطرب بتفريط من يتولاه عاقب المتولي له أشد عقوبة، فعمرت في أيامه ديار مصر عمارة كثيرة.

ويؤخذ عليه أنه لما وقع الخلاف بينه وبين أخيه المعظم صاحب دمشق والأشرف صاحب خلاط وحران والرها سنة ٦٢٣هـ، وتأكدت الوحشة بين الكامل وأخويه في السنة التالية، وكتب فيها إلى الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة يعرض عليه إعطائه القدس وجميع فتوحات صلاح الدين بالساحل، في مقابل مناصرته ضد أخويه، وبالفعل وصل الإمبراطور فريدريك الثاني سنة ٦٢٥هـ بعد وفاة المعظم عيسى بسنة واحدة، وسلمت القدس وما جاورها للملك فردريك الثاني سنة ٦٢٦هـ، بسبب التزام الكامل بوعده، وعملت الأعزية في جميع بلاد الإسلام، بسبب تسليم القدس في هذه الحملة الصليبية السادسة للصليبيين على طبق

---

(١) راجع ترجمته لدى الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢٧/٢٢-١٣١، وراجع النويري: نهاية الأرب ٢٢٧/٢٩-٢٢٨، والمقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ص٢٥٨-٢٦٠، وابن واصل: مفرج الكروب ١٥٦/٥-١٧١.

من ذهب بلا قتال، أو عراك، واستمر القدس في أيدي الصليبيين حتى سنة ٦٣٧هـ عندما فتحه الناصر داود بن المعظم، وأخرج منه الصليبيين(١).

وقد آل حكم مصر بعد وفاة الكامل سنة ٦٣٥هـ إلى ابنه العادل الصغير، وسبب تسلطنه وتقدمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيوب أنه لما مات الكامل بقلعة دمشق، كان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبًا عن أبيه الكامل على الشرق وإقليم ديار بكر، بينما كان العادل وهو الأصغر نائبًا عن أبيع بمصر، واتفق الأمراء على تولية العادل في مصر والشام، وتم ذلك، وكان مولد العادل هذا بالمنصورة، ووالده الكامل على قتال الصليبيين بدمياط في ذي الحجة سنة ٦١٧هـ. ولما كان العادل الصغير قد شره في اللعب واشتغل باللهو، ولم يحسن القيام بأمور المملكة، ووثق بكرمه وبذله للأموال، وظن أن ذلك يغنيه عن الخروج عليه، ودليل ذلك أنه فرق في مدة سنتين وثلاثة أشهر هي فترة سلطنته ستة آلاف ألف دينار، وعشرين ألف ألف درهم من الأموال التي خلفها والده الكامل، ولذلك فإن كبار الأمراء اتفقوا سنة ٦٣٧هـ على خلعه، واستدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، فخلعوه، وقبضوا عليه، وراسلوا الصالح أيوب الذي وصل مصر، وتسلم أخاه العادل، وفرح الناس بقدومه لنجابته وشهامته واستحقاقه الملك (٢).

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٩/١٣٩-١٤٠ و١٤٥ و١٤٦ و١٤٩-١٥٣، وابن واصل: السابق ٤/٢٠٦ و٢٣٣-٢٣٥ و٢٤١-٢٤٩، والمقريزي: السابق ٢٢١-٢٢٣ و٢٣٠-٢٣٢ والإمبراطور فردريك الثاني كان محبًا للحكمة والمنطق والطب، مائلًا إلى المسلمين بسبب إقامته طويلًا في صقلية، وهو أبوه وجده كانوا ملوكها، وأهل تلك المدينة أغلبهم النورمان بزعامة روجر الثاني جد فردريك الثاني. ابن واصل: السابق ٢٣٤ وص٢٤٨-٢٥١، حيث توجه ابن واصل إلى صقلية سفيرًا من بيبرس.

(٢) راجع النويري: نهاية الأرب ٢٩/٢٣٢-٢٣٥ و٢٥٦-٢٦٧، وابن واصل: مفرج الكروب ٥/١٧٤-١٧٥ و٢٦٢-٢٧٠، والمقريزي: السلوك جأ١، قسم ١، ص٢٦٧-٢٧٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣٠٣-٣١٣.

والملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل[١] هو آخر سلاطين الأيوبيين بمصر، وحكمها تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يومًا، وتوفي وهو في الرابعة والأربعين من عمره، وكان ملكًا مهيبًا، عزيز النفس، لا يرى الهزل، شديد الوقار، كثير الصمت، اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره غيره من الملوك ولا أحد من أهل بيته، حتى صاروا معظم جنده ومنهم: سيف الدين قلاوون الألفي، وركن الدين بيبرس، وعز الدين التركماني، وغيرهم، واعتمد على هؤلاء المماليك، تاركًا الأكراد، وكان حسن العقيدة، جميل الطوية، يحب أهل الفضل والدين ويجري عليهم النفقات، ويحسن إليهم ويكرمهم، ولكنه لم يكن له مشاركة في العلم بخلاف أبيه،ن وكان مائلًا إلى العمارة واتخاذ الأبنية العظيمة ويباشرها بنفسه، وعمل له من ذلك ما لم يعمل لأحد من ملوك زمانه. وقد ترك الصالح أيوب لابنه توران شاه وصية مهمة، وردت في كتاب النويري: نهاية الأرب [٢].

وأهم الأحداث في عصره قصد الصليبيين مصر في الحملة الصليبية السابعة[٣] سنة ٦٤٧هـ بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، التي توفي الصالح أيوب في أثنائها، بالمنصورة في النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ، فكتم أمر وفاته، ودفن بالمنصورة، ثم نقل سنة ٦٤٨هـ إلى تربته التي بنيت بعد وفاته بجوار مدرسته بالقاهرة، ببين القصرين. وكان سريته شجر الدر والدة خليل في صحبته بالمنصورة، قد شاركت مع الأمراء الكبار في إخفاء وفاته، وإدارة الأمور كما كانت، ومن ذلك إقامة السماط –المائدة السلطانية– على العادة، ومن جرت عادته بحضوره، دخل وأكل وانصرف، وهو يظن

---

(١) عنه راجع ابن واصل: السابق ٦/٨٠–٩١، وراجع المقريزي: السابق ٢٩٦–٣٥١، وابن تغري بردي: السابق ٦/٣١٩–٣٦٣، وراجع النويري: السابق ٢٩/٢٦٧–٣٣٧.

(٢) في جزء ٢٩/٣٤٠–٣٥٢ وفيها: تحذير واضح من الاعتماد على النصارى في الأعمال المختلفة «فهم الذين أفسدوا البلاد وأخربوها، اضعفوا العساكر، وكان البلاد ملكهم يبيعونها بيع .....» ٣٤٨–٣٤٩. وفيها أمر بالعناية بالأسطول، ونهي شديد عن صناعة الخمور، وغير ذلك. وهذه الوصية مهمة جدًا صادرة من ملك من ملوك الأيوبيين.

(٣) عن أحداثها راجع النويري: السابق ٣٣٤–٣٣٥ و٣٣٨ و٣٥٥–٣٥٩، وابن واصل: مفرج الكروب ٦/٧٢–٨٠ و١٠٧–١٣٦، والمقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ١٣٣–٣٥١

أن السلطان إنما احتجب بسبب مرضه، وكانت الأوامر تصدر بخط شبيه بخط الصالح، قيل هو من خط شجر الدر، وقيل من خط خادم يسمى سُهيل، لا يشك من رأى الخط أنه خط السلطان.

وكانت الحملة الصليبية السابعة رد فعل من الصليبيين بسبب استرداد جند الصالح أيوب الخوارزمية للقدس سنة ٦٤٢هـ بعد أن سلمها الصالح إسماعيل صاحب دمشق وعم الصالح أيوب صاحب مصر، للصليبيين سنة ٦٤١هـ، ليعاونوه ضد الصالح أيوب، وسبق إعطائهم حصونًا منيعة سنة ٦٣٨هـ ومنها: قلعة صفد وبلادها والشقيق وبلادها، وغير ذلك من قلاع حصينة ومدن ساحلية [١]، ونتج عن الفتح المبين للقدس سنة ٦٤٢هـ استنفار البابا إنوسنت الرابع الغربي الأوربي، لشن حملة على مصر، استجاب لهذه الدعوة لويس التاسع ملك فرنسا، وقام نجم الدين أيوب بتحصين دمياط تحصينًا شديدًا، وعسكر عند أشمون طناح شرقي فرع دمياط بالقرب من (دكرنس) الحالية، وبالفعل وصل لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ إلى دمياط ونزل على الشاطئ الغربي للنيل في جهة نزول الحملة الصليبية الخامسة، وبدأت مناوشات بين الصليبيين والمسلمين، وانسحب الجند المسلم من البر الغربي إلى البر الشرقي الذي فيه مدينة دمياط المحصنة، إلا أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ترك دمياط بكل سذاجة إلى أشمون طناح حيث يعسكر السلطان الصالح أيوب، وخرج الجند خلف ابن شيخ الشيوخ، فدخل الصليبيون دمياط وغنموا ما فيها من سلاح كثير، ومؤن عديدة، ومكثوا فيها خمسة أشهر، قاموا خلالها بتوزيع الغنائم الباردة، وتحويل جامعها الكبير – كالعادة– إلى كنيسة، وفي تلك الآونة كان السلطان الصلح أيوب المريض يقوي تحصينات المنصورة، إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧هـ، وخرج الصليبيون من دمياط نحو القاهرة، فتصدى لهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فاستشهد، واندفعت القوات الصليبية نحو المنصورة، فقابلهم الجيش الأيوبي وفي مقدمته المماليك الذين كونهم الصالح أيوب، وهزموهم هزيمة منكرة، ففر من بقي حيًّا منهم إلى دمياط، وتتبعهم المماليك، فهزموهم هزيمة أخرى عند فارسكور، ووقع الجيش الصليبي بأكمله

---

(١) راجع هذا بالتفصيل في كتاب المؤلف: «الإسلام في مواجهة الصليبية في مصر والشام» ٣٠٤-٣٠٩.

-تقريبًا- بين قتيل وأسير ومنهم ملك فرنسا لويس التاسع الذي سيق مكبلًا بأغلاله إلى المنصورة ليحسبن في دار القاضي ابن لقمان. وجرت مفاوضات بين الصليبيين والمسلمين، أثمرت عن إطلاق أسرى المسلمين، وتقديم لويس التاسع لفدية قدرها ثمانمائة ألف دينار، تعويضًا عما ارتكبه في حق دمياط، وفي مقابل أسرى الصليبيين، عاد لويس التاسع إلى فرنسا عن طريق ميناء عكا، كاسف البال، يجر أذيال فشله الذريع وهزيمته المنكورة.

وقال الصاحب جمال الدين بن مطروح قصيدة كتبها إلى لويس هي [١]:

قل للفرنسيس إذا جئتـه ... مقالَ صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوعَ المسيح
أتيتَ مصر تبتغي مُلْكَها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحَيْنُ إلى أدْهمٍ ... ضاق به عند ناظريْك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بظن الضريح
سبعون ألفًا لا ترى منهم ... إلا قتيلا أو أسيرًا جريح
وفقك اللهُ لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكُمْ بذا راضيا ... قرُب غِش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة ... لأخذنا ثأر أو لعقد صحيح
دارَ ابن لقمانَ على حالها ... والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح[٢]

أما عن أهم أعمال ومنشآت الأيوبيين بمصر منذ حكم العادل الأيوبي، وحتى نهاية حكمهم لمصر سنة ٦٤٨هـ وقيام دولة المماليك البحرية، فمنها: مدرسة العادل التي عمرها الملك العادل بالفسطاط للمالكية، ودرس فيها الفقيه ابن شاش، فعرفت به أيضًا [٣]. والمدرسة القطبية في أول حارة زويلة التي أوصت السيدة الجليلة عصمة

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٦/١٢٥-١٢٦، والمقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ٣٦٣-٣٦٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣٧٠.
(٢) هو الطواشي حمال الدين صبيح الذي كان يحفظ لويس التاسع.
(٣) المقريزي: الخطط ٢/٣٦٤.

الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل ببنائها بعد وفاتها، أي بتحويل بيتها مدرسة، يجعل فيها فقهاء وقراء، وتدرس المذهب الشافعي والحنفي، وأوصت بالوقوف عليها. وكانت هذه السيدة عصمة الدين (ت٦٩٣هـ) قد سمعت الحديث، وخرّج لها الحافظ أبو العباس الظاهري أحاديث ثمانيات حدثت بها، وكانت عاقلة دينية فصيحة. وعرفت مدرستها بالمدرسة القطبية؛ نسبة إلى أخيها الملك الأفضل قطب الدين أحمد بن العادل[١]. والمدرسة الكاملية [٢] بشارع المعز لدين الله بحي الجمالية (بين القصرين سابقًا) وتعرف بدار الحديث الكاملية، وأنشأها الكامل سنة ٦٢٢هـ، وهي أول دار حديث بمصر، وثاني دار حديث في الإسلام، بعد دار الحديث التي أنشأها الملك العادل نورد الدين محمود بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ومن بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذي بجوارها على باب الخرنفش والممتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر، وكان موضعه من جملة القصر الغربي ثم صار موضعًا يسكنه القماحون، ودرس في الكاملية الحافظ عبد العظيم المنذري، وغيره.

ومن بناء الصالح نجم الدين أيوب: المدرسة الصالحية [٣] ببين القصرين (بالنحاسين والصاغة الآن) وكان موضعهما من جملة القصر الكبير الشرقي، فبنى فيه الصالح أيوب مدرستين، وجعل فيها أربعة فقهاء ينتمون إلى المذهب الأربعة، وذلك سنة ٦٤١هـ، وهو أول من عمل بديار مصر دروسًا أربعة للفقه على المذاهب الأربعة في مكان واحد.

---

(١) المقريزي: السابق ٣٦٧/٢.

(٢) عنها راجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢٨/٢٢، والمقريزي: الخطط ٣٧٤/٢-٣٧٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٢٩/٦، وابن إياس ٢٦٤.

(٣) عنها راجع النويري: نهاية الأرب ٢٩-٢٨١، والمقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ص٣٠٨، والخطط ٣٧٣/٢-٣٧٤، وابن إياس: بدائع الزهور: ٢٧٢، وراجع هناك حديث المقريزي عن القبة التي أنشأها الصالح بجانب المدرسة الصالحية، وهي المعروف بقبة الصالح، وبنتها شجر الدر لأجل الص٣الح نجم الدين أيوب.

ومن أعمال الصالح أيوب أيضًا بناء قلعة الروضة [١]، التي عرفت بقلعة المقياس، وبالقلعة الصالحية أيضًا، وبقلعة الجيزة كذلك، والروضة جزيرة بين الفسطاط والجيزة، كان بها دار صناعة السفن الحربية، وبها مقياس النيل، وأنشأ الصالح أيوب قلعته بدءًا من سنة ٦٣٨هـ، وأنفق في عمارتها أموالًا جمة، وبنى فيها الدور والقصور، وعمل لها ستين برجًا، وبنى بها جامعًا، وغرس فيها جميع الأشجار، وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب، وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد والأقوات؛ خشية من محاصرة الصليبيين «فإنهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر». وبالغ الصالح في إتقانها مبالغة عظيمة، حتى قيل: إنه استقام كل حجر فيها بدينار، وكل طوبة بدرهم. وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل، فصارت تدهش من كثرة زخرفتها، وتحير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة، وبديع رخامها. ويقال: إنه قطع من الموضع الذي أنشأ فيه هذه القطعة ألف نخلة مثمرة، كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره،ن وطيب طعمه، وهود ثلاثة وثلاثين مسجدًا، عمرها خلفاء مصر والمصريون. وأنشأ الصالح جسرًا عظيمًا ممتدًا من الفسطاط إلى الروضة. وكان الأمراء إذا ركبوا إلى منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البئر، ويمشون في طول هذا الجسر إلى القلعة، ولا يمكن أحد من العبور عليه راكبًا سوى السلطان فقط. ولما كملت تحول الصالح أيوب بأهله وحرمه واتخذها دار ملك، وأسكن فيها معه مماليكه البحرية.

ومن منشآت الصالح أيوب أيضًا: مدينة الصالحية التي بأول الرمل الذي بين الشام ومصر، وأنشأ بها جامعًا وسوقًا لتكون مركزًا للعساكر بأول الرمل، وسكن الناس هذه المدينة، ورُتب فيها الوالي والقضاة [٢]. وبنى الصالح أيوب أيضًا على النيل من ناحية اللوق قصورًا في غاية الحسن، وجعل على جانبها ميدانًا، يلعب فيه الكرة

---

(١) عنها راجع المقريزي: السلوك جـ١، قسم١، ص٣٠١ و ٣٤١، والخطط ١٨٢/٢-١٨٤، و راجع من ص١٧٧، وراجع ابن واصل: مفرج الكروب: ٨٤/٦، وابن إياس: بدائع الزهور ٢٦٩-٢٧٢.

(٢) راجع ابن واصل: مفرج الكروب ٨٥/٦، والمقريزي: السلوك جـ١، قسم١، ص٣٤٢، وابن إياس: بدائع الزهور ٢٧٥.

(الصوالجة)[١] وكان مغرى بلعبها، وبنى قصرًا عظيمًا بين القاهرة والفسطاط، سماه الكبش على الجبل بجوار جامع ابن طولون، وبنى قصرًا بالقرب من العَلاقِمَة بالشرقية، بالإضافة إلى قصور أخرى حسنة في بستان الخشاب [٢]. وبالجملة «فكانت همته في العمارة وبناء الأدُر والقصور لا يشبهها همة لأحد من الملوك»[٣].

وهناك العديد من المساجد التي أقيمت زمن الأيوبيين بمصر، وغيرها من عمائرهم بأنحائها[٤].

(١) الصوالجة مفردها صَوْلج، لفظ فارسي معرب. وهي لعبة يستخدم فيها عصا معقوفة من ظرفها يضرب بها الفارس الكرة.

(٢) ابن واصل: السابق ٨٥، والمقريزي: السابق ٣٤١-٣٤٢.

(٣) ابن واصل: السابق ٨٥.

(٤) عنها راجع د/سعاد ماهر: مساجد مصر ٢/٩-٢٥٦، وراجع د/كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر ٧٠-٧٧.

القسم الثاني

تـاريخ المَغْرِب والأَنْدَلُس

أ.د. مُحمَّد عَلِي دَبُّـور

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد....

فهذه دراسة موجزة عن تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس، حاولت فيها إبراز جوانب هذا التاريخ بصورة موضوعية، وقد فرض عليَّ الإيجاز التركيز على العناصر الأساسية والمهمة من هذا التاريخ، والتي من شأنها مساعدة القارئ على استيعاب مادته وفهم أحداثه بصورة ميسورة سهلة، بعيدًا عن الإغراق في التفاصيل.

ولتاريخ المغرب والأندلس أهمية كبيرة في دراسة التاريخ الإسلامي العام والخاص، وهذان الإقليمان- على وجه الخصوص- كانا - في أغلب تاريخهما- متصلين ببعضهما اتصالاً وثيقًا على كل المستويات (سياسيًّا وعسكريًّا وإداريًّا)، وهذه العلاقة جعلت هذين الإقليمين يسميان بالعُدْوتين؛ عدوة المغرب وعدوة الأندلس، لذلك فإن دراستهما – أيضًا – ستكون متصلة ووثيقة الصلة؛ لأن ما كان يجري في المغرب له صداه وتأثيره في الأندلس، وما يحدث في الأندلس له رد فعله وتأثيره في المغرب.

وانضمام المغرب والأندلس إلى الدولة الإسلامية الكبرى أعطاها طابعًا مميزًا، وقسَّم الدولة الإسلامية إلى قسمين كبيرين، قسم شرقي له نظمه وحضارته وتقاليده ويسمى: "الشرق الإسلامي"، وقسم غربي له مقوماته وثقافته وطابعه الخاص ويسمى: "الغرب الإسلامي" ويشمل (المغرب والأندلس)، وقد لعب القسم الغربي- موضوع الدراسة- دورًا كبيرًا في تاريخ الإسلام.

ومن ناحية التاريخ العام يتضح لنا أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس، ذلك أن الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في المشرق، انتقلت إلى المغرب والأندلس، وانتشرت العلوم والفنون العربية المتقدمة في الأندلس وصقلية وانتقلت –

بعد ذلك – إلى أوربا، وبذلك لعب المغرب والأندلس دورًا كبيرًا في ازدهار الحضارة الإنسانية.

وقد ارتبط الإقليمان في العصر الإسلامي بصلات تاريخية وحضارية وثيقة بسبب القرب الجغرافي والرحلات المتبادلة بينهما، وكذلك وحدة الدين واللغة، مما أدى إلى حدوث نوع من التمازج الحضاري متعدد الجوانب نتج عنه حضارة إسلامية زاهرة كان لها أثرها الفاعل والمهم في صحوة أوربا ونهضتها.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل....

أ.د. محمد علي دبّور

التمهيد

بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي

أولاً: المدلول التاريخي لبلاد المغرب:

المراد بلفظ المغرب هو كل ما يقابل المشرق من بلاد، أي ما يقع الى غرب عاصمة الدولة العربية الإسلامية، وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلوله، فجعله بعضهم يشمل بلاد الشمال الأفريقي بالإضافة إلى إسبانيا (الأندلس) بعد فتحها، وجميع الممتلكات الإسلامية في الحوض الغربي للبحر الشامي (البحر المتوسط) مثل صقلية وجنوب إيطاليا وجزيرتي سردانيا وكورسيكا والجزائر الشرقية (جزر البليار) وميورقة ومنورقة ويابسة.

واصطلح الكتاب على تسمية المقاطعة التي تلي حدود مصر الغربية حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي حاليًّا) باسم (المغرب العربي)، والتي تشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الحالي وموريتانيا، وقد استندت هذه التسمية إلى حقائق اجتماعية واقتصادية وجغرافية وعوامل تاريخية موغلة في القدم تمخضت عن وحدة الفكر والتراث والهدف والمصير.

هذا وقد عُرفت بلاد المغرب العربي منذ أقدم العصور بأسماء متعددة، إذ أطلق الفينيقيون على السكان الذين سكنوا حول مدنهم اسم (أفري)، وعنهم أخذها اليونان فأطلقوها على جميع سكان المغرب ابتداءً من غرب مصر حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، ومنها اشتق اسم (أفريقية) أي بلاد الأفري، ثم أخذ مدلول هذه اللفظة في الاتساع ليتماشى مع اتساع نفوذ الغزاة الرومان حتى شمل معظم بلاد المغرب.

وعندما انطلقت حروب التحرير العربية الإسلامية ووطئت أقدام المسلمين أراضي المغرب أطلقت لفظة (أفريقية) للدلالة على جميع الأقاليم التي تلي إقليم طرابلس غربًا، وقد كتب والي مصر عمرو بن العاص كتابًا الى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد تحرير مدينة طرابلس يستأذنه فيه بمواصلة الزحف غربًا، وجاء فيه: "إنا قد بلغنا طرابلس وبينهما وبين أفريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل، ثم تحدد مدلولها لتعني الإقليم الذي نشأت فيه– فيما بعد– مدينة القيروان، على الرغم من أن بعض المؤرخين ظل

يخلط بين تسمية أفريقية والمغرب ولا يميز بينهما، وانتهى لفظ المغرب ليشمل عموم أقاليم البلاد وحدودها من غرب مصر حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي).

وقد وضع المؤرخون والجغرافيون مصطلحًا جديدًا لبلاد المغرب؛ حيث تم تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، وجاء هذا التقسيم بحسب قربها أو بعدها عن عاصمة الدولة العربية الإسلامية أي مركز الخلافة في الشرق، والأقسام الثلاثة هي:

١- المغرب الأدنى:

وهو أول أقاليم المغرب العربي وأقربها إلى مركز الخلافة الإسلامية، سواء أكانت العاصمة هي المدينة المنورة أو دمشق أو بغداد، ويمتد هذا الإقليم من مدينة طرابلس حتى مدينة بجاية غربًا، وقاعدة هذا الإقليم مدينة القيروان في عهد تأسيسها وعهد حكم الأغالبة (١٨٤-٢٩٦ هـ/ ٨٠٠-٩٠٨ م)، ثم المهدية أيام حكم العبيديين (الفاطميين) (٢٩٦-٣٦٢ هـ/ ٩٠٨-٩٧٢ م)، ثم مدينة تونس منذ عهد الحفصيين إلى يومنا هذا.

٢- المغرب الأوسط:

وسمي بالأوسط لكونه يتوسط المغربين الأدنى والأقصى، وحدود هذا الإقليم من بجاية حتى وادي ملوية وجبال تازة، وقاعدته مدينة تلمسان، وهو يضم بلاد الجزائر عامة، وكانت عاصمة المغرب الأوسط تباعًا حسب الأسر الحاكمة؛ إذ كانت تاهرت في عهد الدولة الرستمية والتي كانت من الخوارج الإباضية، وفي أيام الدولة الزيرية الصنهاجية التي خلفت العبيديين (الفاطميين) في حكم المغرب صارت العاصمة مدينة أشير، التي تسمى حاليا بنيه (Benia)، ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة تلمسان غربًا أيام دولة بني عبد الواد أو بني زيان في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

٣- المغرب الأقصى:

ويمتد هذا الإقليم من وادي ملوية حتى مدينة أسفي على ساحل بحر الظلمات، وعاصمته تناوبت بين فاس أيام الأدارسة العلويين، والتي أُسِّست بين عامي (١٧٢-١٩٨ هـ/ ٧٨٨-٨١٣ م)، ثم جاء المرابطون فأسسوا مدينة مراكش سنة ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٩ م واتخذوها عاصمة لهم، وتبعهم الموحدون على ذلك.

ويشمل المغرب الأقصى في الوقت الحاضر المملكة المغربية وموريتانيا، ويجب التأكيد على أن هذا التقسيم السالف الذكر لبلاد المغرب العربي ما هو إلا مجرد تقسيم اصطلاحي افتراضي أوجبته الضرورة السياسية أو الإدارية، والمغرب العربي الكبير وحدة متماسكة تجلت مظاهرها في شتى النواحي الجغرافية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية.

ثانيًا: جغرافية بلاد المغرب:

يؤلف المغرب العربي بأقاليمه الثلاث، ابتداء من خليج سرت حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، وحدة جغرافية وبشرية مستقلة عن غيرها، فقد كانت ولا تزال ترتبط بروابط طبيعية وسياسية وثيقة، سكنها منذ أقدم العصور التاريخية عنصر واحد من السكان، ذكر ابن خلدون أن "المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار"، ولذلك كان له طابعه الخاص به، وكانت حضارته حضارة منعزلة منطوية على نفسها، ونلاحظ أن هذه العزلة التي فرضتها طبيعة البلاد أثرت تأثيرا عميقًا في اللغة والدين، فللمغرب لغته الخاصة بجانب اللغة العربية، وله مذهبه المالكي الذي حافظ عليه على مر السنين.

وتنقسم طبيعة البلاد الجغرافية إلى ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول: الإقليم الساحلي:

ويمتد هذا الإقليم على طول شواطئ البحر الشامي (المتوسط)، حتى مدينة طنجة، ثم يستمر محاذيًا لبحر الظلمات (المحيط الأطلسي) حتى مدينة نول في بلاد السوس، وأغلب هذه المناطق مناطق سهلية صالحة للزراعة.

القسم الثاني: الاقليم الجبلي:

تخترق البلاد المغربية سلسلة جبال، وهي جبال ضيقة وعرة الدروب والمسالك، وتنقسم هذه السلسلة إلى ثلاثة أقسام:

الأطلس الساحلي: ويمتد غربًا من جبال أنجيزه على ساحل بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ويشمل جبال غماره وجبال الريف وجبال بسني يزناتن ترارة وبدوغ وغيرها، وهي جبال متوسطة الارتفاع، وأكثرها ارتفاعًا جبل بني حسن الذي يبلغ ارتفاعه ما يقارب ألفي متر، وتتخذ هذه الجبال شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي، وأهمها:

١. **أطلس التل:** وهي سلسلة جبلية تمتد من المغرب الأقصى وتنتهي في تونس بجبال الخمير، وتشمل جبال كندافة وكلاوة والمدحوس وبادر وتلمسان وونشريس والجرجرة، وتمتاز هذه الجبال بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية، ونحو الأحواض الجنوبية المنعزلة بين أطلس التل وأطلس المتوسط، وعلى الأخص في القسم الغربي من المغرب الأوسط، أما الجزء الشرقي فأقل ارتفاعًا وأكثر تقطعًا.

٢. **الأطلس الصحراوي:** وتبدأ هذه السلسلة من المغرب الأقصى، إذ تحمل اسم جبال أطلس الكبرى، وهي أكثر جبال أطلس ارتفاعًا، ولا توجد بها ممرات يسهل المرور منها، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير في عزلة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب.

وتستمر جبال أطلس الكبرى ممتدة في المغرب الأوسط، وتشمل جبال القصور، وجبال العمور وجبال أولاد نايل، وجبال الزاب، وجبال أوراس، وتنتهي بجبال زغوان في المغرب الأدنى. وأغلب هذه الجبال تكسوها الغابات وتتوجها الثلوج. وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب وسهول مرتفعة يشتغل فيها السكان برعي الماشية، وأغلب هذه الهضاب تقع ما بين جبال أطلس التل وأطلس الصحراوي في المغرب الأوسط.

القسم الثالث: الإقليم الصحراوي:

يمتد هذا الإقليم من واحات برقة، ثم فزان، وزويلة، وأرجلا إلى سجلماسة، إلى وادي درعة، حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) غربًا. وعلى الرغم من الصبغة الصحراوية التي حملها هذا الإقليم إلا أن فيه ينابيع المياه والواحات التي تنتشر في أغلب المواضع، وعبر هذا الإقليم كانت القوافل التجارية تمر قادمة من مصر إلى المغرب الأقصى نظرًا لقصر هذا الطريق عن الطريق الشمالي.

ثالثًا: البيئة الاجتماعية لبلاد المغرب:

سكن بلاد المغرب منذ أقدم العصور أقوام عُرفوا باسم البربر، والتسمية القديمة لسكان المغرب هي (أمازيغ)، وهي كلمة بربرية معناها: الرجل الحر الخشن، أو الكريم النسب، وهو الاسم الذي كان – ولا يزال – قسمٌ من السكان في شمال أفريقية يطلقونه على الواحد منهم. ويُجمع على(أمازيغن). أما كلمة بربر التي

أُطلقت على سكان المغرب فهي تسمية دخيلة أطلقها عليهم مَن غلب عليهم من الأمم كالرومان والإغريق.

وقد سكن بلاد المغرب – قبل الفتح الإسلامي– ثلاثُ طوائف من السكان وهم:

١. السكان الأصليون وهم (الأمازيغ) أو البربر.
٢. الروم وهم البيزنطيون
٣. الأفارقة وهم طارئون على البلاد المغربية

١. البربر:

وهم السكان الأصليون الذين يعمرون بلاد المغرب، وقد تباينت آراء المؤرخين في تفسيرهم لكلمة البربر، فمنهم من يفسرها تفسيرًا لغويًّا، إذ كانت تختلط فيها الأصوات غير المفهومة حتى قيل لهم: ما أكثر بربرتكم!، وقيل: إن لغة البربر يكثر فيها استعمال حرف الباء والراء، فقيل: ما هذه البربرية؟!.

ورغم ذلك فإن فرضيات كثيرة وُضعت بشأن أصول البربر، من بينها: أن الأمازيغ هم السكان الأصليون لشمالي إفريقية ولم يفدوا إلى هذه المنطقة من بلد آخر، ويرى المستشرق كاريت Carette أن الأمازيغ سكان أصليون امتزجوا مع الآسيويين، ولاسيما الفينيقيين.

وقيل أيضًا: إنهم إما شرقيون وإما ايجيون (نسبة إلى بحر ايجة).

أما المؤرخون العرب فيعدونهم شرقيين. أي كنعانيين أو حميريين، وهي فرضية تبناها وعززها بالأدلة المستشرق الألماني هانز هلفرتز Hanz Helfrtiz، في حين انفردت فرضية الأصل الكنعاني بتأييد المؤلفين المحدثين أمثال: أنتيشان Antichan، ودوماس Doumas، وسلوشز Slouchz، ويرى المستشرق كاريت Carette أن الأمازيغ سكان أصليون امتزجوا مع الآسيويين، ولاسيما الفينيقيين.

كذلك فإن مؤرخي العرب والبربر – الذين عنوا بأنساب البربر وأحوالهم– يُرْجِعُون نسبهم إلى أصول عربية جزرية سامية، ويقولون: إنهم من أبناء قيس عيلان.

ويبدو أن فرضية الأصل الكنعاني هي الأقرب إلى الصحة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الامتداد الجغرافي من بلاد الشام حتى ساحل المحيط الأطلسي، الذي يمثل وحدة جغرافية واحدة منذ القدم، وأن انتشار الكنعانيين الذين نزحوا من الجزيرة العربية، واستوطنوا بلاد الشام، التي عرفت مواطنهم بأسمائهم، قد طرأ على

استيطانهم هذا هجرات متتابعة توزعوا من خلالها بين طول ساحل البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي.

وقد كان البربر يتألفون من ثلاثة أقسام رئيسة:

القسم الأول: في شرقي البلاد (طرابلس وبرقة والجريد والأوراس) حيث تقيم قبائل لَوَاتة المتفرعة إلى هَوَّارة وأُوريغة ونَفْزَاوة وأَوْرَبة.

القسم الثاني: في غرب البلاد (المغربين الأوسط والأقصى) حيث تقيم قبائل كُتَامة في منطقة القبائل الصغرى، والزَّوَاوة في منطقة القبائل الكبرى، والزَّنَاتة في الساحل الجزائري بين منطقة القبائل ونهر الشلف، وبنو يَفْرِن في المنطقة الممتدة بين نهر الشلف شرقًا ونهر ملوية غربًا، وغُمارة في الريف المغربي، ومَصْمودة على الساحل الأطلسي، وجَزُولة في جبال الأطلس الكبير، ولَمْطَة في جنوبي المغرب، وصُنْهاجة المعروفة باسم أهل اللثام التي تعيش عيشة البدو الرحل في الصحراء الغربية.

القسم الثالث: في البقاع المحاذية للهضاب العليا، والممتدة من طرابلس إلى جبل عمور، حيث تقيم قبائل زَنَاتة، ومن تلك البقاع تنتشر تدريجيًّا نحو المغربين الأوسط والأقصى.

وتتفرع قبائل المغرب إلى فرعين كبيرين هما:

أ- البُتْر:

وقيل إنهم تسموا بهذا الاسم نسبة إلى مادغيس بن بر بن قيس عيلان الملقب بالأبتر، وقبائلهم كثيرة وتنتشر في مناطق واسعة من بلاد المغرب العربي، ومعظم قبائل البُتْر رحلٌ يغلب عليهم التنقل من مكان لآخر طلبًا للكلأ والماء، ولذلك تنتشر في الأقاليم الممتدة من غَدَامس إلى السُّوس الأقصى. وهي تشكِّل أغلب سكان القرى والمناطق الصحراوية.

وقد امتازت قبائل البُتْر بالروح الحربية العالية؛ إذ يُعَدُّ فرسانُهم من أشجع فرسان قبائل البربر، وكان لهم دورٌ فاعل في نشر الإسلام في المغرب العربي والأندلس.

وينقسم البربر البتر إلى أربع عشائر رئيسة هي: ضَرِّيسة، ونَفُّوسة، وأُدَّاسَة، وبنو لَوَاي أو لَوَاتَة، وتنقسم ضَرِّيسه إلى مِكْنَاسة، وزَنَاتة، ويَعُد ابن خلدون زناتة

فرعًا من البربر قائمًا بذاته، ومن زَنَاتة: جَرَاوة ومِغْرَاوة، وبنو يَفْرِن وبنو زَيَّان وبنو مَرِين.

وكان للزناتيين فن خاص بهم، يقوم على استعمال الدروع الجلدية وركوب الخيول الخفيفة ذات الركاب المرتفع، وكانت طريقتهم في القتال تقوم على خفة الحركة وسرعة الكر والفر.

ب- البَرَانِس:

وهم الفرع الآخر من قبائل البربر، وعُرفت هذه القبائل بالاستقرار والسكن في المدن، وكان معظمهم ينزل في المناطق الساحلية الغربية من البحر والمناطق الجبلية الممتدة عبر المغرب، وقيل هم يتحضرون بالحضارة اللاتينية، ويبدو ذلك التحضر متأثرًا بثقافة سكان البحر المتوسط وحضارته، كالرومان والوندال وغيرهم.

ومن أشهر قبائل البرانس: قبيلة صُنْهاجَة التي تتكون بدورها من مجموعة قبائل امتدت بطونها وفروعها إلى مختلف أنحاء المغرب، وقبائل أَزْدَاجة وأَوْرَبة وأُوريغة وكُتَامة وعَجِيسة، وأضاف النسابون إليهم قبائل لَمْطة وهَسْكُورة وجَزُولة، وقبائل أَوْرَبة ومواطنهم المعروفة في مناطق تلمسان، ثم انتقلت إلى مناطق وليلى بعد اندحار كَسِيلة بن لمزم أمام القائد المسلم زهير بن قيس البلوي سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٨ م كما سنرى بعد ذلك، ومن قبائلهم أيضًا: ديقوسة وزهجولة ولجاية ومزياتة ونفاسة وتيجة.

وقبائل أوريغة أو هوارة وهم بنو أوريغ بن برنس، ويقال إنهم من عرب اليمن، وإنهم أحد بطون قضاعة، وتارة يقال: إنهم من ولد المسور بن الكاسك بن خمير.

وقبائل مصمودة وهم أبناء مصمود بن برنس، ومواطنهم الأصلية في شمال المغرب الأقصى، وتبدأ رقعة انتشارها من حدود بلاد الريف إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) غربًا ثم تمتد إلى الجنوب إلى تامسنة ودُكَّالة حتى جبال الأطلس الكبير والمناطق المعروفة بإقليم السوس، وقد اختصت مصمودة بسكنى جبال المغرب الأقصى، وظلت على حالها حتى دخول القوات الإسلامية بلاد المغرب. وكان من قبائل مصمودة كذلك قبيلة بَرْغُواطة.

وقد اتصف البربر بصفات أعطت للمؤرخين حجة ليثبتوا أنهم من أصول عربية، إذ تتلخص تلك الصفات في:

١. استعمالهم الخيول الأصيلة لاسيما في معاركهم، وبخاصة الخيول الخفيفة ذات الركاب المرتفع.
٢. طريقتهم في القتال تمتاز بخفة الحركة وسرعة الكر والفر، وهي فنون عرف بها العرب.
٣. التكوين القبلي والعشائري للبربر ، إذ يكون متشابهًا للتكوين القبلي في جزيرة العرب وما يحيط بها.
٤. الطبيعة البدوية التي تميز قبائل الصحراء المغربية الكبرى، كاستعمالهم لبيوت الشَّعْر واستعمال الجمال للتنقل.
٥. عزة النفس و(الأنفة) التي يمتلكها العربي ويثور ويغضب لها وترتعد لها فرائصه لاسيما عندما تُمس كرامته.
٦. اعتزازه بشرفه، ويمثل الشرف أعلى مراتب الكرامة والخلق العربي.
٧. الكرم والغيرة التي اتصف بها البربر، وهي صفة ملازمة للعربي أينما رحل أو حط.
٨. اعتزاز البربر بانتسابهم للعرب لا يعادله اعتزاز، وقد استمسك بها كُتابهم وشعراؤهم وافتخروا بها على من عداهم.
٩. قرب حروف اللغة الأمازيغية من حروف اللغة العربية من جهة، واستعمال الحروف العربية بالنطق، إذ ينطق الأمازيغ بالعربية لتشابه الحروف من جهة أخرى.
١٠. أسلوب كتابة الحروف عند الأمازيغ من اليمين الى اليسار، وهذا حال الكتابة بالعربية.

٢. الأقليات:

لقد سكن المغرب العربي من غير قبائله من البربر أقليات غير وطنية، ومن هذه الأقليات:

أ. الروم البيزنطيون: وهم الجاليات الرومانية التي آثرت البقاء في المغرب، وكانوا يتمركزون في بعض إقليم الجريد وقسطيلية، وهؤلاء كانوا يدينون بالنصرانية. وعندما دخل المسلمون المغرب دخل بعضهم الإسلام.

ب. الأفارقة: وهم جاءوا مع الرومان ودخلوا في خدمتهم واختلطوا بهم حتى إنهم تأثروا بهم وبعاداتهم وتقاليدهم، واعتنقوا النصرانية، وكانوا مؤيدين ومناصرين للخارجين على السلطة المركزية في المغرب، وقد أسلم الكثير منهم على يد العرب المسلمين بعد الفتح الإسلامي.

ج. السودان: ويشكلون نسبة قليلة، ويعود وجودهم في المغرب إلى العهد القديم بحكم العلاقة التي كانت تربط المغرب مع الأمم السودانية منذ القِدَم.

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك الأقلية اليهودية التي انتشرت في المغرب، وكانوا يمارسون الأعمال التجارية والصناعية وغيرها.

رابعًا: الحياة الدينية في بلاد المغرب:

لقد تباينت المعتقدات الدينية لسكان المغرب عبر التاريخ، إذ كانت الديانة بحسب طبيعة تبعية البلاد. وكانت من بين تلك الديانات والمعتقدات معتقدات سماوية وأخرى وثنية كالمجوسية وعبادة الأصنام، وقد تبلورت تلك المعتقدات بدءًا من اتخاذهم مظاهر الطبيعة آلهة لهم يُقَدمون لها القرابين ويقدسونها، ثم تطور المعتقد عندهم ووصل إلى تقديس ملوكهم واعتبارهم آلهة، كما عرفوا أيضًا عبادة الأصنام والأوثان، إذ كانت أقوام من جَرَاوة وملكتهم الكاهنة– وموطنهم جبال أوراس– يعبدون صنمًا كبيرًا من الخشب.

زيادة على ذلك، فإن أعمال السحر والشعوذة والتنبؤ كانت سائدة ومنتشرة بين سكان المغرب وكانوا يعتقدون بها، ولذلك كانت عقليتهم سريعة الانقياد للزعماء والقواد الذين يحسنون استغلال هذا الضعف، ولهذا سنرى أن كل الحركات السياسية المشهورة في بلاد المغرب تزعمها أناس باسم الدين واستخدموا السحر والخرافات لجذب الأنصار والأتباع، وخير مثال على ذلك ثورة الكاهنة التي قاومت الفتح الإسلامي كما سيأتي معنا.

ثم تأثر المغرب بالعقيدة المسيحية، إذ بعد انتشارها في الجزيرة وحوض البحر المتوسط انتشرت بين القبائل المغربية التي تستوطن المدن الساحلية التي كانت خاضعة أو مجاورة للسيادة الرومانية البيزنطية، ثم أخذت المسيحية تتغلغل داخل مناطق المغرب لاسيما العمق من المغرب وصولاً إلى الصحراء والساحل الأطلسي.

كما أن الديانة اليهودية كانت قد وجدت لها مكانًا في بلاد المغرب ورغم ذلك فقد كان انتشارها محدودًا، وعندما وطئت النصرانية أرض المغرب وجدت لها مكانًا أوسع من اليهودية.

والحقيقة أن جميع تلك الديانات لم تكن ذات تأثير نفسي عميق وكبير على السكان المغاربة، بل كان تأثيرها سطحيًّا ضعيفًا، ولم يكن لها الغلبة بدليل أن المسلمين لم يجدوا الصعوبة البالغة في كسب ود المغاربة ودخولهم في الإسلام، حتى أصبحوا من أشد الناس دفاعًا عنه.

* * *

الفصل الأول
الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس

أولاً: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:

قبل أن يعلن المسلمون الجهاد في إفريقية جرت على أرض مصر مرحلة مهمة من الإعداد والتجهيز، تم خلالها تحويل مصر عسكريًّا وحضاريًّا لتكون قاعدة لفتح بلاد المغرب، وتمت هذه الخطوة بنجاح منقطع النظير، وأصبحت مصر بلدًا عربيًّا إسلاميًّا؛ إذ عامل الفاتحون أهلها معاملة البلاد المفتوحة صلحًا، وراعوا فيهم وصية الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال: "إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا". قَالَ الزُّهْرِيُّ: "فَالرَّحِمُ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ"(١).

- مراحل الفتح:

بعد تأمين مصر وإقرار الأوضاع فيها وإعدادها الإعداد الكامل لتكون قاعدة عسكرية تنطلق منها حملات الفتح نحو بلاد المغرب، مرت عملية فتح بلاد المغرب بمرحلتين أساسيتين هما:-

- **المرحلة الأولى:** مرحلة الاستكشاف والاستطلاع، وتمتد من (٢٢-٥٠ هـ/ ٦٤٢-٦٧٠ م)
- **المرحلة الثانية:** مرحلة الفتح المنظم، وتمتد من (٥٠-٩٠ هـ/ ٦٧٠-٧٠٩ م)

المرحلة الأولى: المرحلة الاستكشافية الاستطلاعية:

ويمكن أن نسميها مرحلة البعوث والسرايا والحملات الاستطلاعية التي تبدأ بجهود عمرو بن العاص والي مصر على عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣ هـ/ ٦٣٤-٦٤٣ م) حين وجَّه عمرو بن العاص جهوده نحو إقليم برقة لتأمين قاعدة الفسطاط وتأمين الوجود العربي الإسلامي في مصر وإقرار الإسلام بها؛ لأن وجود الروم البيزنطيين في هذا الجزء من أفريقيا كان يهدد الوجود الإسلامي، ويحيي الأمل في نفوسهم لاسترجاع مصر بسيطرتهم على إقليمي برقة وطرابلس.

---

(١) رواه الحاكم في "المستدرك" (٤٠٣٢) عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعًا، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٣٧٤) على شرط الشيخين أيضًا.

ولم يألُ عَمرو جهدًا في تأمين هذه القاعدة من خطر الروم، فنجح في استعادة الإسكندرية التي كانوا قد تمكنوا من نزولها مرة أخرى، وأمر بهدم أسوارها، كما أمن حدودَها الغربية بفتح إقليمي برقة وطرابلس، وتم له ذلك سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٣ م، وأقبلت قبائل لواته على طاعته، بسبب ما عانوه من عسف الروم، وصالحهم على جزية يؤدونها كل سنة، وقال عنهم الواقدي: "كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحِث، وكانوا أخصب قوم، ولم يدخلها فتنة".

وأراد عمرو أن يتقدم إلى إفريقية، فكتب إلى الخليفة يستأذنه بقوله: "إنا قد بلغنا أطرابلس، وبيننا وبين إفريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل". لكن عُمر كان على اتصال بأحداث المغرب، ويعرف أن أهلها يكثرون من الغدر والانتفاض على الروم، يقول البلاذري: "وكان خبرهم قد بلغ عمر"، فكتب إلى واليه: "ما هي بإفريقية، ولكنها مُفَرِّقة غادرة مغدور بها".

وبذلك يكون عمرو بن العاص قد نبَّه قادة الفتح من بعده بمدى أهمية القرب من الساحل، ومبلغ خطورة التوغل في الداخل، والفائدة من وراء كسب ولاء القبائل المغربية أو ضمان حيادها على الأقل لإحكام السيطرة على السواحل.

كما نبَّه إلى أن عملية فتح بلاد المغرب تتطلب إمدادات متواصلة، وجهود كثيفة، وقاعدة أمنية تحمي تلك الإمدادات وتؤمن لها احتياجاتها، وهذا ما لم يتم تأمينه في ذلك الوقت، إذ لم تكن مصر قد استوثقت أمورها بعد، فلم يزل الخطر الروماني البيزنطي قائمًا، حيث لم تزل محاولات البيزنطيين مستمرة لاستعادة نفوذهم وسيطرتهم عليها.

لكل تلك الأسباب عاد عمرو بن العاص إلى الفسطاط؛ ليشرف على تنظيم الإدارة فيها وتحصينها وتثبيت قوة دعائمها مما يجعلها- بعد ذلك - مركزًا مهمًّا لقيادة العمليات العسكرية لإتمام فتح بلاد المغرب.

وكان عمرو بن العاص قد ترك عقبة بن نافع على رأس حامية عسكرية في مدينة برقة، فنجح عقبة في كسب ود كثير من أهالي البلاد من قبائل لَوَاتة ونَفُّوسَة ونَفْزَاوة فدخلوا في الإسلام، وأثبت عقبة كفاءة عالية في إدارة تلك القاعدة وتقديمه الخدمات للحملات الاستطلاعية التي أخذت تتقاطر على شمال إفريقية من مصر بعد استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكانت مصرُ طوال مراحل الفتح تستقبل الجيوش المجاهدة، وتفتح خزائنها وتقدم من ثروتها لتمويلها، وكان واليها- في أغلب الوقت- يشرف على فتوحات المغرب، ويتولى إدارته.

رأت الخلافة- بعد إعداد مصر- أن الوقت أصبح مناسبًا، وأمر الخليفة عثمانُ بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥ هـ/ ٦٤٤-٦٥٦ م) قائده في هذه الجبهة عبدَ الله بن سعد بن أبي سرح أن يتقدم إلى إفريقية غازيًا، فبدأ بغارات محدودة لجس النبض، يصفها البلاذري بقوله: "وبثَّ ابنُ أبي سرح السرايا، ففرَّقها في البلاد، فأصابوا غنائم كثيرة، واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا مطالبين عبد الله أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب ويكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك".

وكان نجاح هذه السرايا مشجعًا للقيادة الإسلامية أن تُقْدم على خُطوة أكبر، فأعدَّ الخليفة جيشًا من عشرة آلاف مجاهد، جهزه بألف بعير يحمل عليها ضعاف المسلمين، وفتح لهم بيوت السلاح، وشارك في هذا الجيش مشاهير رجال العرب وأبناء الصحابة والقبائل المحيطة بالمدينة من الحجاز حتى بلغت الحملة عشرين ألف مقاتل، وعُرفت هذه الحملة باسم: "حملة العبادلة السبعة"(١).

خرج جيش العبادلة السبعة من مصر سنة (٢٧ هـ/ ٦٤٧ م) وعلى قيادته عبد الله بن سعد الذي توغل في الداخل تفاديًا لحصون الروم الساحلية، وكان هدفه مدينة سُبَيْطِلَة التي كان الروم البيزنطيون يتخذونها عاصمة لهم، وعلى رأسهم آنذاك جريجوريوس (جُرْجِير) الذي كان قد خلع طاعة الإمبراطور هرقل واستقل بحكم المغرب.

وفي منطقة قَمُّونيَّة عسكر الجيش الإسلامي، فخرج جريجريوس بطريق الروم للقائه، وجرت مناوشات بين الطرفين سنة (٢٨ هـ/ ٦٤٨ م) في موضع أطلق عليه اسم عقوبة، وانجلت المعركة عن هزيمة الروم ومصرع قائدهم، وفرَّت بقية قواته في اتجاهات مختلفة، وتمكنت قوة من فرسان المسلمين من مطاردة المنهزمين ومنعهم

(١) وهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن أبي بكر، بالإضافة إلى قائدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

من دخول مدينة سُبَيْطِلَة والاعتصام بها، وبذلك جُرِّدت المدينة الحصينة من المدافعين عنها، وسقطت في يد المسلمين، وقد أدَّى سقوطها في يد المسلمين إلى انهيار الحكم البيزنطي في معظم المناطق التي كانت تحت نفوذ جُرْجِير.

وتوقفت الجهود بعد ذلك بسبب انشغال الخلافة بالفتنة، فلما استقر الأمر في يد معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠ هـ/ ٦٦١-٦٨٠ م) أعاد القائد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر، واستمر واليًا عليها حتى وفاته سنة (٤٣ هـ/ ٦٦٣ م)، لكنه لم يسجل أي نشاط خلال ولايته الثانية لمصر، وربما يعود ذلك لكبر سنه وعدم مقدرته على قيادة الحملات والجيوش ومواصلة العمليات العسكرية، وبعد وفاة عمرو بن العاص فُصِلَت إفريقية عن مصر بعد أن كانت ملحقة بها إداريًّا، وأصبحت إفريقية مرتبطة بمركز الخلافة في دمشق مباشرة، إذ تولى أمرها القائد معاوية بن حُدَيْج السكوني.

خرج معاوية بن حُدَيْج سنة (٤٥ هـ/ ٦٦٥ م) على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، إضافة إلى القوة العسكرية التي كانت متمركزة في برقة، فواصل الجهاد، واستمرت حملته سنتين، فتح خلالها بعض المدن الساحلية، مثل: سوسة وبنزرت، ورجع إلى مصر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن معاويةُ بن حُدَيْج كَلَّل جهودَه العسكرية ببعض الخدمات العمرانية التي عزَّزت من استقراره العسكري في بلاد المغرب، إذ عُرف عنه أنه كان أول من اتخذ قاعدة عسكرية ثابتة لقواته في إقليم قَمُّونية الذي أطلق عليه اسم "القيروان"، وحفر بجواره آبارًا يشرب منها الجند، وسُميت آبار حُدَيْج.

وبذلك يكون ابن حُدَيْج أولَ قائد عربي في إفريقية اختار قيروانًا ينزل فيه الجند بأهليهم وذراريهم وأثقالهم، ويضربون فيه خيامهم، ويجتمعون فيه كلما انتهت الحرب لإصلاح شؤونهم واستجماع قواهم وتضميد جراحهم وتجديد أسلحتهم، أو ينزلون فيه ريثما يرجعون إلى الشرق.

ويحق لنا القول بأن استراتيجية ابن حُدَيْج الكندي الجديدة كانت إرهاصًا حقيقيًّا ومُقدمة وإلهامًا لما تم بعد ذلك في ولاية عقبة بن نافع الفهري لبلاد المغرب.

ورغم ذلك فإننا نلحظ أن الغالب على سياسة الفاتحين في هذه المرحلة – برغم ظفرهم وانتصارهم– أنهم كانوا يعودون دون أن يخلفوا وجودًا إسلاميًا، فلم

يتركوا حامية أو يُعَيِّنوا واليًا، وهذا يؤكد أن هدفهم لم يكن يتعدى الاستطلاع والاستكشاف في هذه المرحلة.

المرحلة الثانية: مرحلة الفتح المنظم:

لقد كانت ولاية عقبة بن نافع لإفريقية سنة (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م) حدًّا فاصلاً بين عهدين، الأول بدأ بجهود عمرو بن العاص سنة (٢٢ هـ/ ٦٤٣ م) وانتهى بولاية معاوية بن حُدَيْج الكندي، وهي الفترة التي أطلق عليها مرحلة الاستكشاف والاستطلاع.

والثاني يبدأ بولاية عقبة بن نافع سنة (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م)، ويُعَدُّ عقبة من أكابر التابعين وأفاضلهم، وكان من أعرف الناس بأحوال بلاد المغرب، وبولايته دخلت فتوحات المغرب في طور جديد، وكان قد اكتسب خبرة طويلة بهذا الميدان، ورأى أنَّ استقرار المسلمين في إفريقية يحتاج إلى قاعدة عسكرية حضارية، فشرع في إنشاء القيروان، واختار لها موقعًا داخليًا لتكون بمنأى عن غارات الروم البحرية، وجعلها على أبواب الطريق المؤدية إلى مصر؛ ليسهل اتصالها بها، ودامت حركة البناء فيها ما يقارب خمس سنوات حتى اكتملت عمارتها سنة (٥٥ هـ/ ٦٧٤ م)، ولتأمين الحماية لها – وهو حال المدن العربية الإسلامية– أحيطت بسور محكم مبني من الطين.

لقد كان بناء مدينة القيروان حدثًا مهمًّا في تاريخ إفريقية والمغرب بعامة؛ لأنها صارت ولاية جديدة مستقلة هي ولاية إفريقية وعاصمة المغرب، وقاعدة تنطلق منها الجيوش والحملات العسكرية لنشر الإسلام في الأراضي المغربية عامة، وأصبحت مقرًّا للولاة، ومسكنًا لقبائل العرب والبربر الذين دخلوا الإسلام وحَسُن إسلامهم وتعلموا أصول الشريعة الإسلامية، يقول ابن الأثير: "ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام، فثبت الإسلام فيها".

ورغم ذلك فإنه يؤخذ على عقبة سياسته التي كانت تميل إلى العنف والشدة في معاملة البربر، ولكن ربما كان مبرره في ذلك هو إكثار البربر من الغدر، إذ يقول عنهم ابن الأثير: "وأظهر بعضهم الإسلام، وإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد مَن أسلم".

وقبل أن يجنى عقبة بن ثمرة جهده في بناء القيروان صدر قرار بعزله، وكان وراء هذا القرار والي مصر مَسْلمة بن مخلد، الذي كان يخالفه في الرأي والسياسة، وتولى مكانه أبو المهاجر دينار، فاتبع سياسة مغايرة لما كان عليه عقبة، واتجه إلى إيجاد قاعدة بشرية، بتأليف قلوب البربر، واستمالتهم إلى الإسلام ونجح في اكتساب "أَوْرَبَة" أكبر قبائل البرانس وزعيمهم كُسيلة.

ويعد أبو المهاجر دينار أول من طبق سياسة الاستقرار ببلاد المغرب وإنهاء العمل العسكري، فأقام كامل فصول السنة في إفريقية، ويرى البعض أن هذه السياسة لم تكن بالجديدة، إذ إن بذورها قد بدأت بمعسكر القرن، وطبقت أساسًا في بناء القيروان التي تعد أول قاعدة للاستقرار والحكم، وكانت سرعة عزل عقبة عن ولاية إفريقية قد غطت على سياسته الجديدة، ولم تعط الفرصة لجني ثمارها والاستفادة منها.

وإذا أردنا تقييم جهود أبي المهاجر دينار فلابد من الاعتراف بأهمية دوره في تقدم حركة الفتح ونشر الإسلام بين سكان المجتمع المغربي، لاسيما المغرب الأوسط، حيث يُعَدُّ أولَ قائد مسلم أوغل فيه حتى أصبح سكانه حلفاء يوثق بهم، وقد نجح في تحطيم مقاومة الروم البيزنطيين واقتحام مدينة قرطاجنة، "ولو لم يكن هذا القائد سياسيًّا متسامحًا وذا هدف محدد لما استطاع أن يحصل على هذه النتائج الطيبة الثمار....".

ولكن هذه السياسة الناجحة لم يقَّدر لها أيضًا أن تمضى إلى غايتها فقد تولى يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠-٦٤ هـ/٦٨٠-٦٨٣ م)، واستجاب لمطلب عقبة وأعاده إلى الميدان المغربي مرة أخرى سنة ٦٢ هـ/ ٦٨١ م، وجعله في هذه المرة مستقلاً عن والي مصر.

وأمعن عقبة في مخالفة سياسة سلفه (أبي المهاجر دينار) بدافع العداء الشخصي، فاعتقله وشدَّ وثاقه بالحديد، وأهان حليفه كُسيلة، وأمره أن يعمل مع العبيد في سلخ الغنم، فأوغر صدره، ودفعه إلى التفكير في الغدر والانتقام، وما كان لعقبة أن يفعل ذلك معه ويأخذه بجريرة غيره، لا سيما أن الرجل كان قد أسلم.

وعاد عقبة إلى أسلوبه العسكري، فقام بحملة كبيرة استمرت عامين، اجتاح خلالها المغرب كله سالكًا الطريق الداخلي ليتفادى حاميات الروم، وخرج إليه

"يليان" أمير سبتة، فعرض صداقته، ودله على عورات البربر، فأفاد عقبة من المعلومات التي قدمها له، ووصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي، وقد أخذ الحماس بمشاعره فأوغل بفرسه وسط الماء، ثم لوى عنان فرسه، وقيل: إنه دخل مياه المحيط حتى بلغ الماء بطن فرسه ورفع يده إلى السماء معتذرًا قائلاً: "اللهم اشهد أني قد بلغتُ المجهود، ولولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعْبَد أحدٌ دونك".

وبرغم ما في هذا العمل من بطولة فائقة وما حققه من نجاح سريع فإنه لم يكن مأمون العواقب، فإن عقبة ترك خلفه قلاع الروم، ولم يستوثق من طاعة البربر، ولذلك كان طريق العودة باهظ التكاليف، ولقى انتقاضًا ومقاومة عنيفة، وكان الروم يراقبون تحركاته ويتصلون بكسيلة يغرونه به، وحانت الفرصة عندما وصل إلى موقع "طُبْنة" التي تبعد عن القيروان بنحو ٣٠٠ كم، حيث ترك لجنوده حرية العودة إلى ديارهم بالقيروان، فعاد معظمهم، ولم يبق معه سوى بضع مئات، فخرجت عليهم جموعُ كُسيلة المتحالفة مع الروم، فنالوا جميعًا شرف الشهادة في تهودة– في نواحي نهر الزاب– سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م، وسُميت مقبرتهم باسم: (مقبرة الشهداء)، بل عُرفت المنطقة كلها – فيما بعد – باسم: (سيدي عقبة) بدلاً من "تهودة.

لقد كان لاستشهاد عقبة بن نافع، وأبي المهاجر دينار أثر عميق في نفوس المسلمين، لأنهما أول القادة الذين استشهدوا في بلاد المغرب، وكان لذلك تأثير سلبي على معنويات الجند المرابطين في مدينة القيروان، إذ لم يتمكن زهير بن قيس البلوي من معالجة الأوضاع فيها والصمود في الدفاع عنها، لذلك انسحب إلى مدينة برقة، وكادت هذه الانتكاسة أن تودي بجهود عشرات السنين.

أما كُسيلة فلم يجد صعوبة في دخول مدينة القيروان في المحرم من سنة (٦٤ هـ/ ٦٨٤ م)، فأمَّن مَن بقي فيها من المسلمين، وظل أميرًا عليها وعلى ما يحيط بها مدة تقرب من خمس سنوات؛ إذ كانت أوضاع الخلافة الأموية في دمشق تمر بظروف عصيبة أبعدت الخلفاء عن مشكلات المغرب وهمومه(١).

---

(١) بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م حدث نوع من الاضطراب والفراغ السياسي في منصب الخلافة بسبب تنازل ابنه معاوية عن الخلافة، ثم الصراع الداخلي بين الفرعين السفياني والمرواني من أبناء البيت الأموي، ثم وصول مروان بن الحكم لمنصب الخلافة ووفاته سريعًا سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م، فتطلب الأمر بعض الوقت كي تستقر الأمور نوعًا ما للخليفة الجديد عبد الملك بن مروان (٦٥–٨٦ هـ/ ٦٨٤–٧٠٥ م).

وفي سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٨ م وجَّهت الخلافة الأموية حملة انتقامية بقيادة زهير بن قيس، الذي وقع عليه الاختيار ليكون واليًا على المغرب وقائدًا لجيوش الفتح، فجرت بينه وبين قوات كُسيلة معركة حامية في وادي ممس، انهزمت فيها جيوش كسيلة وتبعتهم جيوش المسلمين حتى نهر ملوية، ثم عاد زهير بجيشه إلى القيروان ليعيد إصلاح ما دمره احتلال كسيلة الأوربي لها، ثم رجع مرة أخرى إلى مصر، ويُرْوَي في سبب رجوعه أنه كان زاهدًا، وخشى أن يُبهره ثراء إفريقية ونعيمها، فقال: "إنما قَدِمْتُ للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك". ولكننا نرى أن هذا التفسير ليس مقنعًا، فقد أمضى زهير قبل ذلك في إفريقية سنوات طويلة مع عقبة، فلماذا لم يفكر حينذاك في العودة؟ وإذا كان يخشى رخاءها، فليست مصرُ أقلَّ منها رخاءً، وإذا كان يريد الجهاد فليس هناك ميدانٌ أخصبَ من المغرب.

أما التفسير المنطقي لسرعة انسحابه من القيروان وعودته إلى المشرق فإنه يتمثل في أحد أمرين: الأول: أن حملته حققت هدفها في الانتقام لمصرع عقبة، حيث يقول ابن خلدون: إن الخليفة ولاه "حرب الجبابرة، والثأر بدم عقبة"، ولم تكن الظروفُ مواتية للاستمرار في الفتح؛ لأن الخلافة لم تكن قد فرغت بعدُ من فتنة عبد الله بن الزبير.

الثاني– وهو الأرجح–: احتمال اطلاعه على ما يدبره الروم في الخفاء ضد منطقة برقة، ذلك التدبير العدواني الذي حال دون تنفيذه وجود زهير على رأس حامية قوية في المنطقة، لكن بابتعاده عن برقة وصلته أخبار هجوم الروم البيزنطيين عليها مما جعله مضطرًا للعودة على عجل لمواجهة القوات الرومية وهي تستعد للإقلاع في البحر وبين أيديهم أعداد من الأسرى المسلمين، ونظرًا لعنصر السرعة والمفاجأة – ورغم عدم التكافؤ بين قوات زهير وقوات الروم – اضطر زهير ومَن معه لخوض المعركة مترجِّلين في لقاء غير متكافئ في منطقة (درنة)، فنال الشهادة هو ومَن معه، وسميت المنطقة التي استشهدوا فيها باسم: "قبور الشهداء". وإذا كان زهير– كما قيل– يخشى نعيم الدنيا، فإن نعيم الآخرة كان في انتظاره، فلقى الشهادة في طريق عودته.

بعد أن فرغت الخلافة من ثورة الزبيريين سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م، بدا منها العزمُ على استرداد مواقعها في المغرب، وتخيرت لذلك بطلاً من قادة الشام هو "حسان

ابن النعمان الغساني"، وهو واحد من مغاوير قادة الشام المشهورين، ومن سلالة الغساسنة، ومن أكثر الرجال قربًا وإخلاصًا لبني أمية حتى كان يعرف عندهم بـ"الشيخ الأمين"، وعنه قال عبد الملك بن مروان: "ما أرى أحدًا كفؤًا لإفريقية كحسَّان بن النعمان"، فسَّيره إلى المغرب سنة (٧٣ هـ/ ٦٩٣ م) في جيش كبير يضم أربعين ألفًا، بالإضافة إلى القوات الموجودة من قبل في برقة وطرابلس، يقول ابن الأثير: "فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله".

وقد اعتمد حسان الغساني في خطته القتالية استراتيجية عسكرية جديدة لمواجهة أعدائه من الروم وحلفائهم، حيث قرر أن يقاتلهم منفردين لا مجتمعين حتى يسهل القضاء عليهم واحدًا بعد الآخر قبل أن يتكتلوا ضده؛ لذا وجَّه ضربته الأولى إلى تجمعات الروم في المناطق الساحلية، وتهاوت أمامه قلاعهم واستولى على مدنهم، مثل: صطفورة وبنزرت، ولم يترك موضعًا من بلادهم- كما تقول المصادر- إلا وطئه.

وكانت ضربته الثانية إلى تجمع البربر البتر في الداخل تحت زعامة ملكتهم المعروفة بالكاهنة، وهي من جراوة، وكانت قد تمكنت من إخضاع قبائل البربر في إفريقية كلها، وتعد معارك حسان الغساني معها من أعظم المعارك التي خاضتها الجيوش الإسلامية في إفريقية، وكان المسلمون يرون أن هزيمتها تفتح لهم الطريق لتحرير المغرب كله، فقد سأل حسان أهل القيروان عمن يكون قد بقي من ملوك إفريقية ممن له قيمة في ميزان الأحداث ليناجزه الحرب أو يسلم، فأشاروا إلى امرأه تقطن جبل أوراس يقال لها الكاهنة، ثم قالوا له: "وجميع مَن بإفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون، فإن قتلتها دان لك المغرب كله، ولم يبق لك مضاد ولا معاند".

ولكن الكاهنة استطاعت أن تكسب الجولة الأولى، وسميت المعركة بوادي العذارى، وتراجع حسانُ بعدها إلى برقة حيث توقف هناك بأمر الخليفة بعد أن كتب إليه حسانُ بنبأ الهزيمة التي لحقت به على يد قوات الكاهنة، وعلى إثر ذلك اتخذ حسان معسكرًا لجنده بالقرب من قصور قديمة أصبحت تسمى فيما بعد بـ"قصور حسان"، إذ مكث هناك خمس سنوات ينظم صفوف جيشه، ويراقب تطور

الأحداث في إفريقية، ويتهيأ للجولة الثانية، وينتظر إذنًا جديدًا من الخليفة عبد الملك بن مروان.

وفي هذه الأثناء أقبلت الرياح بما لا تشتهي الكاهنة، فقد ضاق البربر بسياستها الغاشمة في التخريب والتدمير، مستخدمة سياسة "الأرض المحروقة" – كما يقولون – وكانت تبرر ذلك بقولها: "إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلا أن أخرب إفريقية حتى ييأسوا منها"، حيث كانت تظن أن العرب المسلمين إنما جاءوا إلى بلاد المغرب لسلب خيراتها ونهب ثرواتها.

وكانت قد تبنت أحد العرب وهو "خالد بن يزيد العبسي"، حيث كان قد وقع في أسرها فأعجبتها شجاعته، وآخت بينه وبين ولديها على طريقتهم الخاصة، لكن خالدًا ظل على ولائه لأبناء دينه، وكاتب حسان سرًّا بأخبارها، وأمدت الخلافةُ حسانَ بقوات إضافية، فأقدم على اللقاء الحاسم، وكلله الله بالنصر، وقُتلت الكاهنة، وقيل إنها انتحرت.

ويمكننا أن نقول إن حسان هو الفاتح الحقيقي لإفريقية، فإلى جانب دوره العسكري كان له دور حضاري بارز، وكان من أهم إصلاحاته الحضارية:

١. عمل على اتباع سياسة استندت على استمالة القبائل المغربية، وذلك بتعيينه عمالاً وقادة من تلك القبائل أشعرهم من خلالها بأهميتهم في إدارة الولاية والدولة العربية الإسلامية، مما يؤكد لهم بأن سياسته لا تفرق في ميدان ممارسة المسؤولية بين العرب الفاتحين والقبائل المغربية المحلية، ولذلك أصبحت مهمة نشر الإسلام في المغرب الإسلامي تقع على عاتق المسلمين من العرب والبربر معًا.
٢. عمل على إنشاء قاعدة حربية عربية إسلامية في المغرب لمواجهة الخطر البيزنطي القادم من البحر الشامي (المتوسط)؛ إذ بنى مدينة تونس على أنقاض المدينة القديمة المسماة "ترشيش" شرق قرطاجنة، وخرق البحر إليها ليوصلها به، إذ كانت بعيدة عنه قليلاً، وجعل "رادس" مَرْسى لها، وأنشأ لذلك دارًا لصناعة السفن وبناء الأسطول البحري، كما زودها بالمحارس، فأصبحت إفريقية مركزًا بحريًّا مهمًّا تخرج منه أساطيل المغرب وهي تحمل رايات الإسلام، مثلها في ذلك مثل مصر والشام.

وحسان بن النعمان الغساني يُعد أولَ مَن وضع نواة الأسطول البحري العربي المغربي، وبذلك سحب من الروم ميزة التفوق البحري على المسلمين في المغرب.

٣. قام حسان بأعمال عمرانية؛ إذ عمل على تحسين مدينة القيروان وإعادة تعمير ما خرب منها وتجديد مسجدها الجامع (مسجد سيدي عقبة) وتوفير الوسائل الخدمية التي تبعث الراحة والاستقرار في نفوس أهلها، واستقطاب مزيد من الوافدين عليها.

٤. قام بتوزيع الأراضي التي أُخذت من البيزنطيين على الفلاحين من أهل المغرب، حيث جعل لكل قبيلة قطعة من الأرض تستغلها وتكون مسئولة عن صدقاتها.

٥. قام بتدوين الدواوين وتعريبها، وجعل العربية لغة الإدارة، ونظم شئون الحكومة المختلفة، وعين نواب الأقاليم، وعين على خراج قلعة زغوان رجلاً قبطيًّا يُدعى إبراهيم بن النصراني، وبذلك أصبح تكليف الموالي بالمناصب المهمة في المغرب أمرًا مألوفًا منذ أن وضع أساسه أبو المهاجر دينار .

٦. ومن الناحية المالية فقد نظم الخراج على الأراضي، وأنشأ ديوانًا للخراج عين عليه حنش بن عبد الله الصنعاني الذي أصبح صاحب الخراج في القيروان، وكان قد وضع الجزية على الروم، وعلى النصارى من البربر، وكان غالبيتهم من قبائل البرانس، وأسند مهمة جمع أموال الجزية والخراج من أهل الذمة إلى رجال من أهل طائفتهم كما هو الحال في برقة، إذ كانوا يجمعون الأموال ويدفعونها لمركز الولاية دون أن يدخل أراضيهم جابٍ.

٧. يُعد حسان بن النعمان أول من أعطى المغرب طابعًا عربيًّا إسلاميًّا بعد تحريره من الروم البيزنطيين، وعمق بين سكانه العادات والتقاليد العربية واللهجات العربية.

بعد هذه الإنجازات العظيمة أقام حسان بالقيروان مدة استقدمه بعدها والي مصر عبد العزيز بن مروان تمهيدًا لعزله بعد انتصاراته العسكرية التي ثبتت الوجود العربي الإسلامي في شمال إفريقية أمام أطماع الروم المستعمرين وحلفائهم.

وقد لا نجد سببًا مباشرًا لعزل حسان إلا ظن الوالي عبد العزيز بن مروان أن حسان كان يتحاشاه في الرجوع إليه في شئون إفريقية، وأن اتصاله كان بالخليفة

عبد الملك بن مروان مباشرةً دون وساطة، كما هالته المنزلة التي تبوأها حسان في حملاته العسكرية، علمًا بأن إفريقية كانت ولاية مستقلة تقريبًا، حالها حال مصر، ومن يحكمها كان يسمى بالوالي.

وهكذا أعيد حسان إلى دمشق ومثل بين يدي الخليفة عبد الملك الذي قدَّم له الشكر على إخلاصه، وعزم على رده إلى مكانه واليًا على إفريقية لولا اعتذار حسان عن ذلك؛ لكبر سنه على ما يبدو، مما جعل الخليفة يسند مهمة ولاية إفريقية إلى القائد موسى بن نصير.

وتولى بعده القائد الكبير موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٦ م، وقيل سنة ٨٩ هـ، والراجح هو الرأي الأول، أي سنة ٨٦ هـ بعد عزل حسان بن النعمان الغساني، إذ من غير الممكن ترك المغرب بدون والي مدة طويلة من الزمن خوفًا من الفتن.

بدأ موسى ولايته بخطبة أعلن فيها سياسته التي سيتبعها لفتح بقية أقاليم المغرب، وإذا كان حسان بن النعمان قد نجح في فتح إفريقية والمغرب الأوسط، فإن المغرب الأقصى لم يكن قد خضع للحكم الإسلامي، ومن هنا كان على موسى بن نصير أن يجتهد في فتحه وإخضاعه للمسلمين.

وقد بدأ أعماله الحربية بالقضاء على بقايا جيوب المقاومة في إفريقية، ففتح قلعة "زغوان"، وأرسل أبناءه على رأس مجموعات من الجند لفتح المناطق المحيطة بالقيروان، ونجحوا في ذلك، وكان الهدف من ذلك تأمين الخطوط الخلفية إذا ما خرج موسى للجهاد في المغربين (الأوسط والأقصى)، ولما حقق موسى انتصارات كبيرة في هذا الاتجاه بدأت بقية القبائل تطلب الأمان ويرسلون الرهائن كدليل على الدخول في الطاعة وصدق النوايا، وبذلك تمكن موسى من السيطرة على المغرب الأوسط.

ولم يبق أمامه إلا المغرب الأقصى، فتوجه نحو مدنه الكبرى ونجح في فتحها مثل: سجلماسة، ثم توجه إلى طنجة، وتمكن من السيطرة عليها، وترك بها حامية عسكرية من البربر والعرب، وولى عليهم قائده ومولاه البربري "طارق بن زياد".

وبذلك تم فتح المغرب الأقصى كله عدا إقليم سبتة الذي رضى المسلمون ببقائه في يد "يوليان" (Julian) لصداقته لهم وإفادتهم منه في فتوحاتهم.

الجانب الحضاري للفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

اتخذت الفتوحات الإسلامية في كل ميدان اتجهت إليه طابعًا إنسانيًّا وحضاريًّا واضحًا؛ إذ لم يكن الهدف منها التجبر والاستعلاء ولا نهب الثروات وتسخير الشعوب، ولكنها تجعل من القوة وسيلة لتحقيق أهداف دينية وثقافية تسهم في رقي البشرية والتقدم بالمسيرة الإنسانية.

وفي الميدان المغربي– الذي هو موضوع دراستنا – نلحظ أن الموجات الفاتحة الأولى حملت معها قادة وأجنادًا ذوي عقيدة وفكر ووعي بدورهم الحضاري، وقد سجلت المصادر التاريخية أسماء مَن كان في جيش عبد الله بن سعد وجيش معاوية بن حُديج من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وكان عقبة بن نافع معروفًا بالتقى والورع حتى اشتهر بأنه مستجاب الدعاء، وكان على وعي برسالته الإنسانية، يدل على ذلك أنه قبل خروجه للجهاد دار حول القيروان ودعا ربه قائلاً: "يا رب املأها علمًا وفقهًا، واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزًّا لدينك وذلاً على مَن كفر بك"، وكذا أُثر عن زهير بن قيس الزهد والعزوف عن نعيم الدنيا حتى قيل إنه ترك إفريقية بعد أن رأى رخاءها؛ خوفًا أن يجرفه تيار الدنيا، وقد أسلفنا الحديث عن ذلك.

وأقيمت مراكز وقواعد يرتكز عليها النشاط الحضاري وينطلق منها، ويتمثل ذلك في المدن التي أنشأها المسلمون كالقيروان التي أسسها عقبة بن نافع وزاد في عمارتها حسان بن النعمان، وكان حاضرة المغرب في عصر الولاة.

ويذكر الرواة أن أبا المهاجر دينار بني مدينة جديدة، هي مدينة "تكرور" التي كانت من مدن البربر فاتخذها مستقرًّا له، ومن الطبيعي أنه أضاف إليها لمسات إسلامية كالمسجد ودار الإمارة ومساكن الجند، مما حدا بالمؤرخين أن يعتبروها مدينة جديدة.

وأنشأ حسان بن النعمان مدينة "تونس" سنة ٨٤ هـ/ ٧٠٣ م، وأقام فيها دارًا لصناعة السفن، وأسهمت مصرُ في هذا العمل العظيم؛ إذ أرسل واليها ألف أسرة قبطية ممن لديهم خبرة بهذه الصناعة، ليستوطنوا في المدينة الجديدة، وأنيط بالبربر تزويد هذه الدار بالأخشاب اللازمة من المناطق الجبلية، وبذلك أصبح للمسلمين في المغرب قوة بحرية مرهوبة، ولم تعد أيديهم مغلولة أمام غارات السفن البيزنطية، واستطاعوا أيضًا أن

يمتدوا بفتوحاتهم إلى جزر البحر المتوسط، وبخاصة صقلية وجنوب إيطاليا، وسيرد مزيد من التفصيل في حديثنا عن دولة الأغالبة وجهودهم البحرية.

وزاد موسى بن نصير في عمارة "تونس"، وشق قناة تصلها بميناء "رادس" بلغ طولها اثني عشر ميلاً، مما أتاح للسفن أن تلجأ إلى المدينة في فصل الشتاء لتحتمي من العواصف والأنواء.

وعثر الباحثون في العصر الحديث على آثار مدينة "غساسة" الواقعة قرب "ميلية"، ويؤكدون نسبتها إلى العصر الأموي، وتحدَّث ابن عذاري المراكشي عن مدينة "نكُّور" وذكر أن بانيها هو سعيد بن صالح بن إدريس بن صالح في أواخر القرن الأول الهجري.

ويأتي بعد ذلك دور المساجد التي كانت تتوسط كل مدينة ينشئها المسلمون، مثل المساجد التي أنشأها عقبة بن نافع في القيروان ودرعة ونفيس ومسجدي أغمات وهيلانة بالمغرب الأقصى اللذين ابتناهما موسى بن نصير، وللمساجد دور عظيم في الإسلام، فهي بيوت الله التي أذن أن تُرفع ويُذكَر فيها اسمه، وهي أيضًا منارات العلم ومراكز الإشعاع الحضاري.

وأجناد الحضارة الإسلامية هم الدعاة الذين يكرسون حياتهم في سبيلها ويواكبون الجيوش الفاتحة أو يأتون في أعقابها، وأقدم مَن نعرفه منهم في المغرب داعية يسمى "شاكرًا"، تركه عقبة في وادي "تنسيفت" ليعلم البربر قواعد الإسلام، وعُرف الموضع الذي أقام فيه باسم "رباط شاكر"، وما زال المغاربة يُطلقون عليه حتى اليوم بلهجتهم المحلية "سيدي شيكر".

وكلف حسان بن النعمان ثلاثة عشر داعيًا بتعليم البربر القرآن الكريم والشريعة الغراء، كما ترك موسى بن نصير في "طنجة" سبعة عشر من الدعاة يؤدون نفس الرسالة، ومع انتشار الإسلام وتعلم القرآن تنتشر لغة القرآن وتتخذ اللغة العربية طريقها في البلاد المفتوحة.

وبُذلت جهود كبيرة لتعريب البربر ومزجهم بالفاتحين، وتُعزى الخطوات الأولى في هذا السبيل إلى أبي المهاجر دينار الذي خالط البربر وصادق زعماءهم، ونجح في استمالة قبيلة أوربة وزعيمها "كسيلة بن لمزم" إلى الإسلام، واتسع نطاق هذا الامتزاج في عهد حسان بن النعمان، فقد أشرك البربر في جيشه، وعيَّن على

مقدمته واحدًا من زعمائهم هو "هلال بن ثروان اللواتي" الذي يتضح من اسمه أنه ينتمي إلى قبيلة "لواتة" البربرية.

وعندما أعطى حسان الأمان لولدي الكاهنة جعلهما قائدين على القوات البربرية في جيشه، وولى أكبرهما أميرًا على قومه "جراوة" وجبل أوراس، واشترط في عهده مع البربر أن يكون منهم اثنا عشر ألفًا مجاهدين معه.

وفتح موسى بن نصير الباب على مصراعيه ليتقدم البربر إلى المناصب القيادية، واتخذ أحدهم وهو طار ق بن زياد (وهو بربري على أرجح الروايات) واليًا على طنجة ونائبًا عنه في فتح الأندلس، ويذكر ابن خلدون أن العرب والبربر كانوا معًا تحت قيادة طارق، وأن موسى "أنزل معه في طنجة سبعة وعشرين ألفًا من العرب واثني عشر ألفًا من البربر، وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه"، وكان من ثمار هذا الامتزاج فتح الأندلس ودخولها في حوزة الإسلام.

وقام الفاتحون بوضع التنظيمات المالية والإدارية، يقول ابن خلدون: "إن حسان بن النعمان رجع إلى القيروان (بعد انتصاره على الكاهنة) فدوَّن الدواوين وفرض الخراج على عجم إفريقية ومَن أقاموا معه على النصرانية من البربر والبرانس"، وقد ارتبطت حركة التعريب وتنظيم الإدارة في المغرب بحركة التعريب والتنظيم الرئيسة التي اضطلعت بها الدولة الأموية وساعد على نجاحها تشابه حياة البربر مع حياة العرب، وكان من نتائجها تلاشي العناصر الأجنبية من بقايا اليونان والرومان من البلاد.

ثانيًا: الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس:

- **<u>لمحة جغرافية:</u>**

تُطلق كلمة "الأندلس" على الأجزاء التي سيطر عليها المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية (Península Ibérica) (إسبانيا والبرتغال حاليًّا)، وظلت تُطلق على ما في أيديهم حتى عندما انحصر وجودهم في مدينة "غرناطة" وحدها.

أما عن تطور هذا الاسم، فيرى بعض المؤرخين أن هذه المنطقة كانت تُسمى في القديم "إيبيريا" (Iberia)، نسبة إلى الإيبيريين الذين كانوا من أقدم سكان هذه البلاد، ثم أُطلق عليها بعد ذلك اسم "إسبانيا" (Ispania)، وقد أطلقه عليها الإغريق، وأن الجزء الجنوبي من "إسبانيا" كان يُسمى بتيكا/ باطقة (Bética) في

العهد الروماني، ثم سُمي "واندالوسيا" أو "فنداليسيا" أي بلد الوندال؛ نسبة إلى قبائل الوندال أو الفاندال الذين سكنوها بعد الرومان، وهم مجموعة من القبائل الجرمانية التي غزت "إيبيريا" (Iberia) في القرن الخامس الميلادي، واستقرت في المناطق الجنوبية منها، وأعطت اسمها إلى تلك البقاع قبل أن يطردهم "القوط" منها إلى الشمال الإفريقي، فلما فتح المسلمون– من العرب والبربر – هذه المناطق تحرفت الكلمة على لسانهم إلى "الأندلس" (Al-Andalus)، وأطلقوها على شبه الجزيرة الإيبيرية كلها، بل وعلى ما دان لهم من ولايات في جنوب فرنسا، ومازالت كلمة "أندلوثيا" (Andalucia) مستعملة حتى اليوم في الإسبانية الحديثة، ويُقصد بها الجزء الجنوبي من إسبانيا، والذي يضم الآن ثماني مقاطعات هي: المِرِيَّة (Almería)، وغَرْنَاطة (Granada)، وجَيَّان (Jaén)، وقُرْطُبَة (Córdoba)، ومَالَقَة (Málaga)، وقَادِس (Cádiz)، ووَلْبَة (Huelva)، وإِشْبِيلِيَّة (Sevilla).

وتقع شبه جزيرة إيبيريا في أقصى الجنوب الغربي من القارة الأوربية، وتحيط بها مياه المحيط الأطلسي والبحر المتوسط (بحر الروم) وخليج بسكي من ثلاث جهات، وتبقى الجهة الشمالية الشرقية التي توجد فيها جبال البرانس التي تفصلها عن "غاليا" أو بلاد الغال (فرنسا)، وتتخللها عدة ممرات تسمح بالعبور، وتحقق الاتصال بين البلدين، ويفصلها عن المغرب مضيق محدود الاتساع يصل في بعض مواضعه إلى خمسة عشر كيلو مترًا، كان العرب يُطلقون عليه "بحر الزقاق"، ثم عُرف بعد الفتح الإسلامي باسم "مضيق جبل طارق"؛ نسبةً إلى الفاتح العظيم "طارق بن زياد".

ومناخ الأندلس متنوع، يختلف من منطقة إلى أخرى، فبينما يسود جهاتها الجنوبية مناخ البحر المتوسط المعتدل، يدخل جزؤها الشمالي في نطاق مناخ غربي أوربا البارد، وقد أدى هذا التنوع– بجانب وعورة تضاريسها– إلى صعوبة الاتصال بين مناطقها، وانعزال كل جماعة من سكانها عن غيرهم.

الفتح الإسلامي:

كان حكم الأندلس قبل الفتح الإسلامي في أيدي القوط، وهم بعض قبائل الجرمان الذين غلبوا الإمبراطورية الرومانية على معظم ممتلكاتها في أوائل القرن الخامس الميلادي، وكانوا طوال عهدهم يشكلون طبقة مترفِّعة لا تقبل الامتزاج

بأهل البلاد، وينظرون إلى رعاياهم على أنهم عبيد الأرض، ويثقلون كاهلهم بالضرائب والإتاوات.

وعاشت تحت حكمهم جماعات من اليهود، فلاقوا منهم الاضطهاد والتعصب، وبخاصة بعد فشل محاولتهم في التمرد والاتصال بإخوانهم في بلاد المغرب، وعمل القوط على تصفيتهم بإجبارهم – رجالاً ونساءً – على التزوج من مسيحيات، وأخذ أطفالهم منذ السابعة لتنشئتهم على النصرانية، واعتنقها بعضُهم مداراة وخوفًا، ولذلك كانت مبادرتهم إلى التعاون مع العرب ضد حكامهم لما يعرفونه عنهم من سماحة وعدل.

واهتز عرش القوط بسبب التناحر بينهم على الحكم، فقد اتجه حاكمهم "ويتزا" (Witiza) الذي تذكره المصادر العربية باسم: "غيطشة" إلى تركيز السلطات كلها في يده، وإقصاء الأشراف ورجال الدين، وفشلت مؤامرتهم لعزله، ودفعته إلى البطش بهم والنقمة عليهم.

وتجمَّع المعارضون له تحت قيادة "رودريك" (Rodrigo) أو "لذريق" كما تذكره المصادر العربية، وأصبحت لهم السيطرة على معظم البلاد، وانفسح الطريق أمام "رودريك" بعد وفاة "ويتزا" سنة ٧١٣ م، وانهزم أمامه أبناء الملك السابق، وفروا إلى سبتة لاجئين إلى حليفهم "يليان".

وكان "يوليان/ جوليان" (Julian) حانقًا على "رودريك"، كما تروي المصادر، لسبب آخر شخصي، وهو انتهاكه لشرف ابنته "فلورندا" (Florinda) التي كانت تعيش في بلاط إسبانيا لتتلقى هناك التربية الأرستقراطية على عادة النبلاء في ذلك العصر، وأصبح "يوليان" أمل الثائرين في الانتقام من "رودريك"، وبخاصة أنه يملك مفتاح إسبانيا الجنوبي بسيطرته على مداخل المضيق، ومناعة بلاده وتحصنها بالبحر، وامتلاكه لقوة بحرية لا يستهان بها، إلى جانب صداقته القوية للعرب الفاتحين للمغرب.

ويرى بعض المؤرخين الإسبان أن العرب دخلوا الأندلس لمعاونة أسرة "ويتزا" (غيطشة) والكونت "يوليان" ضد "رودريك"، ولم يكن في نيتهم الفتح والاستقرار، ثم أطمعهم ثراء الأندلس فاستقروا بها، واستأثروا بحكمها، فهم – في رأيهم – جاءوا ممدين، ثم أصبحوا فاتحين.

ولكن خطوات الفتح وما سبقه من إعداد وتمهيد، وما صاحبه من تخطيط دقيق، وحجم الجيوش الفاتحة تؤكد أن العرب دخلوا بنية الفتح والاستقرار، مواصلةً لرسالتهم السامية في نشر الإسلام وتحرير الشعوب، ولم يكن هدفهم مجرد العون والمساعدة، ولم يُعهد في تاريخ المسلمين وما سبق من فتوحات أنهم كانوا مأجورين، أو يعملون لحساب غيرهم.

وكان فتح العرب للأندلس أمرًا طبيعيًّا بعد أن رسخت أقدامهم في المغرب، وكان دور هؤلاء المستنجدين بهم أنهم عجلوا – فقط – بهذه الخطوة، وكان من المتوقع أن يُقدم عليها المسلمون بهم أو بدونهم، فالارتباط الجغرافي وثيق بين المغرب والأندلس، ومضيق جبل طارق لا يفصل بينهما ويباعد بقدر ما يربط بينهما ويقارب، فهو يصل في بعض مواضعه – كما ذكرنا – إلى خمسة عشر كيلو مترًا، ويستطيع الناظر – كما قال موسى بن نصير في رسالته للخليفة – أن يرى شاطئه الآخر.

وكذلك ارتبط الإقليمان سياسيًّا وإداريًّا منذ أقدم العصور، وخضعا لتيارات مشتركة، فحكمهما الرومانُ ثم الوندال، وتوثقت العلاقة بين "يوليان" حاكم سبتة وحكام الأندلس من القوط، ولو صحَّ أن هؤلاء المستنجدين أحسوا بالخديعة من جانب العرب ما قنعوا بما نالوه بعد الفتح من إقطاعات ولبدر منهم تمرد أو ثورة، وهذا لم يحدث، ولم يثبت تاريخيًّا.

وقبل أن يضع موسى بن نصير ثقته في "يوليان" وحلفائه أراد أن يختبر صدق نواياه، فطالبه أن يبدأ بغارة بحرية على شواطئ الأندلس، فبادر إلى إرسال سفينتين لمهاجمة إحدى المدن الإسبانية، فأغارتا عليها ونهبتاها.

عندئذٍ وثق موسى في صدقه، وأرسل إلى الخليفة "الوليد بن عبد الملك" (٨٦–٩٦ هـ/ ٧٠٥–٧١٥ م) يستأذنه في الفتح، فأبدى الخليفة شيئًا من الحذر، وأمره أن يمهد للأمر بحملات عسكرية محدودة قائلاً: "خضها بالسرايا حتى تختبر، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال". فكتب إليه موسى: "إنه ليس ببحر، وإنما هو خليج لا يقف عائقًا دون رؤية ما على الشاطئ الآخر".

ورغم ذلك فقد التزم موسى بتوجيهات الخليفة، فأرسل سرية استطلاعية من أربعمائة راجل ومائة فارس، يقودها "طريف بن مالك" الملقب بأبي زُرْعة، وهو من

البربر، في رمضان سنة ٩١ هـ/ ٧٠٩ م، ويبدو أنه كان مقاتلاً من الطراز الأول، بدليل منحه الثقة في قيادة أول حملة استطلاعية في بلاد إسبانيا، فنزل في جزيرة تُعرف باسم "بالوما" (Palomas) التي نُسبت إليه بعد ذلك فعُرفت باسم "جزيرة طريف" (Tarifa)، فأحرز نجاحًا كبيرًا، وعاد بالغنائم الوفيرة وبالأخبار المشجعة على الاستمرار في الفتح، وما كان الأمر يستدعي كل هذا الحذر وتلك المقدمات لو كان الأمر مجرد عون وإمداد كما يزعم بعضُ المستشرقين.

اطمأن موسى إلى مواتاة الظروف وتهيؤ الأسباب للاستمرار في عملية الفتح، فانتقل من مرحلة الاستطلاع إلى مرحلة الهجوم المكثف، فدفع بقواته الرئيسة، وكانت حوالي اثني عشر ألفًا، أغلبهم من البربر، يتقدمهم القائد "طارق بن زياد"، ولعل في الإشارة إلى أن معظم الجيش كان من البربر ما يُبين لنا سرعة تغلغل الإسلام في قلوب هؤلاء البربر، وأنهم بعد أن كانوا أعداء الحركة الفتح الإسلامي صاروا يمثلون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى في فتح الأندلس عسكريًّا، وربما كان الاعتماد عليهم يعود إلى معرفتهم ببلاد الأندلس أكثر من العرب بحكم المجاورة.

عبر الجيش بحر الزقاق– الذي عُرف فيما بعد باسم "مضيق جبل طارق" (Gibraltar) نسبةً إلى القائد طارق بن زياد– على دفعات، على أربع سفن صغيرة قدَّمها لهم "يوليان"، وذلك في رجب سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م.

ويُروى أن طارقًا أمر بعد عبوره بإحراق السفن التي أقلته هو وقواته حتى ييأسوا من العودة ويستميتوا في القتال، ثم ألقى فيهم خطبته البليغة التي قال فيها: "أيها الناس ..أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم....".

وهذه الرواية وتلك الخطبة لم تشر إليها المصادر الأولى التي تحدثت عن الفتح الإسلامي للأندلس، وإنما تناقلها المؤرخون والأدباء في عصر متأخر عن زمن الفتح، وليس في حرق السفن شيء من الفطنة العسكرية، وإنما هو مغامرة غير محسوبة النتائج، وما أحوج المسلمين إلى مثل هذه السفن في أعمالهم الحربية

المقبلة، بالإضافة إلى أنها – كما تقول الرواية – ليست ملكًا للمسلمين، وكان الأولى بطارق إن أراد التخلص منها أن يأمر بإعادتها إلى "يوليان" أو إلى الشاطئ المغربي، كما أنه ليس في هذا العمل ما يحوِّل الجبان إلى بطل مغوار، بل أولى به أن يبعث على الخوف ويحد من القدرة على الحركة في الميدان.

بالإضافة إلى أن هذه الخطبة الرائعة المملوءة بالسجع وفنون القول لا تصدر إلا عن أديب متمرس بالعربية، لا عن رجل عسكري من البربر حديثي العهد بالعربية والإسلام، ولا نرى إلا أنها من خيال القُصَّاص الذين أرادوا أن يضيفوا إلى رواياتهم شيئًا من المتعة الأدبية، وبخاصة أنها تَنسب إلى طارق أنه قال لجنده: "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عُربانًا"، والمعروف أن جيش طارق كان– كما ذكر ابن الأثير– "أكثرهم البربر والموالي، وأقلهم العرب".

ونزل طارق منطقة الجزيرة الخضراء (Algeciras)، وتجمَّع الجيش الإسلامي عند جبل "كالبي" (Calpe) الذي عُرف فيما بعد باسم "جبل طارق"، وبلغ "رودريك" ذلك، وكان في الشمال الإسباني يواجه بعض الثائرين من البشكنس، فعاد مسرعًا، وتهيأ للقاء، وعمل على إرضاء خصومه من أبناء الملك السابق، واستخدم بعضهم على ميمنته وميسرته، فتخلوا عنه وسط المعركة الفاصلة التي وقعت في كورة شِذُونة (Medina-Sidonia) جنوب غرب إسبانيا بالقرب من نهر بَرْباط ووادي لَكُّه الذي يصب في المحيط عند مدينة قادس (Cádiz) الساحلية، لذا عُرفت المعركة بعدة أسماء، فقالوا: معركة وادي لَكُّه، أو معركة شِذُونة، أو معركة سهل بَرْبَاط، وكانت قد بدأت في ٢٨ من رمضان ٩٢ هـ/ ١٩ من يوليو ٧١١ م، واستمرت ثمانية أيام، مُني فيها "رودريك" بهزيمة نكراء لم يُعْرَف مصيره بعدها.

وكانت معركة فاصلة حاسمة، كسرت شوكة القوط وأوهنت قواهم، كما بعثت الثقة في نفوس المسلمين، وأدركوا أن لديهم من القدرة ما يمكِّنهم من الاستمرار في عمليات فتح إسبانيا، وكانت المعارك التي تلت هذه المعركة بمثابة مناوشات لا ترقى – من وجهة نظر المسلمين– أن يُطلق عليها معركة، يؤكد هذا أن استيلاء المسلمين على إسبانيا لم يستغرق أكثر من ثلاث سنوات بعد هذه المعركة، ويؤكد لنا أيضًا مدى ضعف المقاومة القوطية إلى حدٍّ بعيد.

وبعد هذا الانتصار الكبير والحاسم تقدم طارق في سرعة، مستثمرًا الآثار النفسية لهذا النصر، معاجلاً الإسبان قبل أن يُفيقوا ويجمعوا شملهم، وتساقطت في يده مدنهم واحدة تلو الأخرى حتى دخل عاصمتهم "طُلَيْطِلة" (Toledo) دون مقاومة تُذْكَر.

وفي رمضان سنة ٩٣ هـ/ ٧١١ م عبر موسى بن نصير إلى الأندلس، وأظهر غضبته على طارق وأمره بالتوقف ريثما يلحق به، وتعلل بعض المصادر ذلك بغيرة موسى وحسده لنجاح طارق وما أحرزه من غنائم وافرة، وأنه طلب من الأدلاء أن يرشدوه إلى طريق خير من التي سلكها طارق وأوفر مغنمًا، ويقال إنه عندما التقى بطارق عاقبه ووبَّخه.

والحقيقة أن هذه رواية غير مقبولة على الإطلاق؛ وكل ما يُرْوَى عن عوامل الحسد والغيرة والإهانة التي وجهها موسى لطارق، وأنه ضربه بالسياط فمغالى فيه، وليس له واقع تاريخي، ولا تسمح بقبوله مجريات الأحداث، ولا يمكن أن يحدث هذا من تابعي جليل في مكانة موسى بن نُصير؛ إذ كيف يحسد طارقًا وهو مولاه وصنيعته ويعمل بتوجيهه وأمره، وما يحققه من نصر يُنْسَب إليه أيضًا.

يُضاف إلى ذلك أن موسى لم يكن خامل الذكر، عاريًا من المجد حتى يداخله الحسد، وله رصيد كبير من الانتصارات في المغرب يكفيه ويرضيه، ولكن البلاذري يضع أيدينا على التعليل المقبول لغضب موسى على قائده طارق، فيقول: "إن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابًا غليظًا؛ لتغريره بالمسلمين وافتئاته عليه بالرأي في غزوه"، ومعنى هذا أن طارقًا خالف أوامر قائده بألا يتعدى "قرطبة"، وتوغل بسرعة غير متوقعة داخل البلاد دون نظر إلى العواقب، ومن ثم أحس موسى بالخطر وتخوَّف على جيش المسلمين بعد تقدم طارق السريع دون احتراز، مُخَلِّفًا وراءه كثيرًا من جيوب الإسبان وحصونهم، وطالت خطوط إمداده، وأصبح مهددًا بقطع طريق الرجعة عليه، ولذا أمره موسى بالتوقف، وعبر موسى إلى الأندلس ليصفي هذه الجيوب ويفتح المدائن التي تركها طارق خلفه.

ولا يعدو الأمر في النهاية ما تذكره بعض الروايات المعتدلة في هذا الشأن من أن موسى عَتب على قائده سرعة التوغل في هذه المجاهل، فاعتذر طارق إليه بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة، فقبل موسى عذره، وواصلا الفتح معًا

متجهَيْن نحو الشمال حتى اجتازا جبال البرانس (Pirineos)، وهي الحدّ الطبيعي بين إسبانيا وفرنسا، وسقطت شبه الجزيرة الإيبيرية في أيدي المسلمين سوى بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية، أما الأطراف الشرقية فقد فُتحت على يد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير – كما سيأتي معنا. وأما الجزء الشمالي الغربي، فهو الإقليم المسمى "أشتوريس" (Asturias) في منطقة "جليقية" (Galicia)، فقد حاصره المسلمون بعض الوقت، ثم انصرفوا عنه لوعورة مسالكه وبرودة مناخه وظروفه القاسية، فكان هذا الجزء– فيما بعد– القشة التي قصمت ظهر البعير، حيث ظهرت منه أول نواة لمملكة نصرانية في شمال إسبانيا تبنت حركة المقاومة الإسبانية التي أخذت تنمو وتتسع شيئًا فشيئًا حتى نجحت في إخراج المسلمين من الأندلس نهائيًّا.

بعد هذا النجاح الكبير كافأ الفاتحون حلفاءهم، فبقيت "سبتة" في يد "يوليان" وأُقطع ما حولها، وقيل إنه قُتل في إحدى المعارك بالأندلس، وأُقطع ابنا "ويتزا" ما كان لأبيهما من ضياع، وعُيِّن عمُهما واليًا أو أُسْقفًا على "طليطلة"، كما أحسن الفاتحون معاملة اليهود الذين تعاونوا معهم وأسكنوهم "طليطلة"، وأما البربر فقد أُسْكِنوا في الولايات الشمالية الباردة الأقل ثراءً مثل: جِلِّيقِيَّة ولُيون، وهي ثغور متاخمة للعدو ويقع على عاتق أهلها النصيب الأوفى من أعباء الجهاد، مما أثار حفيظتهم على البربر، ودفعهم إلى التمرد والثورة.

قضية عزل موسى بن نصير:

اتجه موسى بن نصير– بعد النجاح الكبير الذي أحرزه في المغرب والأندلس– عائدًا إلى المشرق؛ ليقدم تقريرًا بأعماله، ويضع ثمار انتصاراته بين يدي الخلافة، حاملاً لها غنائم الفتح الطائلة، فإذا به يتلقى هناك قرارًا بعزله هو ومولاه طارق، وتضيف بعض المصادر أنه تعرض للتعذيب وفرضت عليه غرامة مالية كبيرة، وامتد القرار إلى أولاده وأنصاره والموالين له في المغرب والأندلس.

فهل لقى موسى جزاء سِنِمَّار..؟

وما هي الأسباب الكامنة وراء هذا القرار..؟

إن المصادر التي تعرضت لهذه القضية تروي سبب العزل فتقول: إنه بينما كان موسى في طريقه إلى دمشق، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦–٩٦

هـ/٧٠٥-٧١٥ م) يحتضر على فراش الموت، فكاتب ولىُّ العهد سليمانُ بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ/ ٧١٥-٧١٧ م) موسى طالبًا إليه أن يتأخر في الطريق حتى يموت الخليفة المحتضر، فتؤول هذه الغنائم إليه، ولكن موسى أبى ذلك، فلما صار الأمر إلى سليمان أمر بعزله وعقابه.

ولكن هذا التفسير ليس مبررًا كافيًا ليلحق العقاب بكل من يتصل بموسى وبخاصة أن سليمان مشهود له بالعدل، والحرص على مصلحة البلاد، ويذكر له التاريخ أنه قام بأكبر محاولة لفتح القسطنطينية، ولم يجعل ولاية العهد لأحد من ولدَيْه، بل اختار لها الأصلح وهو عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ/ ٧١٧-٧٢٠ م) الذي يفخر به تاريخ الإسلام، وسجَّل الطبري شهادة المعاصرين في سليمان، فقال: "إن الناس كانوا يقولون عن سليمان أنه مفتاح الخير، أطلق الأسارى، وعفا عن المسجونين، وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز"، ولا نظن أن حاكمًا بهذه الصفات يكون حريصًا على الغنائم هذا الحرص الذي يدفعه إلى الانتقام والتخلص من الكفاءات العظيمة، وبخاصة أن سليمان لم يكتف بعزل قادة المغرب، بل عزل أيضًا قادة المشرق، مثل: قتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم.

ونرى أن قرارات العزل هذه لها أبعاد أخرى ترتبط بأمن البلاد ومصلحتها العليا، وبدخول المغرب في مرحلة جديدة تحتاج إلى قيادة تتناسب معها.

فبالنسبة لموسى بن نصير نجد أنه قد وصل إلى درجة من القسوة حتى أصبح مصدر قلق للخلافة، وجعل من أبناء أسرته وأتباعه ما يشبه دولة صغيرة داخل الدولة، فعيَّن أولاده الثلاثة عبد العزيز وعبد الملك وعبدالله نوابًا عنه في الأندلس وطنجة والمغرب على الترتيب، وكان يتصرف في غنائم الفتح وكأنه حاكم مستقل، فوزع جزءًا كبيرًا منها على أنصاره، وعلى مستقبليه ومهنئيه طوال الطريق من المغرب إلى دمشق، وكأنما وقر في نفسه أنه أحق الناس بهذه البلاد المفتوحة، لأنه صاحب الفضل في ضمها للدولة.

وتتضح لنا خطورة الموقف من كلام موسى نفسه بعد عزله، فقد سُئل: لماذا لم يمكث في مستقر عزه وجاهه بعيدًا عن منال الخلافة، فقال: "والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي شيئًا، ولكن آثرت الله عز وجل ورسوله، ولم أخرج عن

الطاعة"... لم يخرج عن الطاعة، نعم، وهذا شيء يحمد له، ولكن كان في مقدوره أن يخرج وأصبح لديه من الوسائل والأسباب ما يمكنه من ذلك، وهو في قطر بعيد، وهذا وحده تهديد كاف للسلطة المركزية، فقامت بعزله كإجراء وقائي، ولم تكتف بذلك بل قامت بتصفية مركز القوة الذي ارتبط به وأصدرت أوامرها للولاة التالين بتتبع أسرته وأنصاره.

يضاف إلى ذلك أن بلاد المغرب كانت مقبلة على مرحلة جديدة من الاستقرار والسلام، بعد اكتمال الفتح، ولم تعد في حاجه إلى قيادة عسكرية عنيفة بقدر حاجتها إلى قيادة سياسية وإدارية حكيمة، ولذا سأل الخليفة سليمان مستشاريه عمن يصلح لهذه المهمة فقال: "أريد رجلاً له فضل في نفسه أُوَلِّيه إفريقية"، ووجد ضالته في محمد بن يزيد القرشي، الذي كسب للإسلام أفواجًا جديدة من البربر، ونعمت البلاد في عهده بالعدل والأمان.

وبالنسبة لقادة المشرق- استكمالاً للحديث- فيرجع عزلهم إلى موقفهم من سليمان عندما كان وليًّا للعهد، فقد زيَّنوا لأخيه أن يعزله منها ويوليها ابنه هو، ولا نستطيع أن نطالب الحاكم الجديد أن يتولى في ظل قادة لا يثق في إخلاصهم له.

***

الفصل الثاني
عصر الولاة في المغرب والأندلس

أولاً: عصر الولاة في بلاد المغرب (٩٥-١٨٤ هـ/ ٧١٤-٨٠٠ م)

أصبح المغرب بأجزائه الثلاثة بعد استقرار الفتح سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م ولاية إسلامية عاصمتها القيروان، وتخضع لنفوذ السلطة المركزية للخلافة (الأموية ثم العباسية)، وهي التي تولي وتعزل وتشرف على الالتزامات العسكرية والمالية تجاه المغرب، حتى بدأ المغرب يتمرد على هذه السلطة، ثم يستقل تمامًا بقيام دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ، وسوف نكتفي بإعطاء صورة مجملة عن هذه الفترة، ونتتبع التيارات التي أثرت في تاريخ المغرب خلالها.

التيارات التي أثرت في تاريخ المغرب:

وفد إلى المغرب تياران مشرقيان هما: العنصر العربي ومذهب الخوارج، والتقيا فيه بتيار البربر الموجود فيه من قبل، فترتب على ذلك نتائج كبيرة وجَّهت أحداثه وشكَّلت تاريخه.

وتكوَّن التيار العربي من موجات متعددة من العرب الفاتحين الذين استقروا في المغرب واتخذوه موطنًا، وما لبثوا أن شكلوا هم وأعقابهم قطاعًا عامًّا من سكانه عُرفوا باسم "العرب الأفارقة" أو "العرب البلديين"، وكان هذا التيار متصلاً بالخلافة، تعمل على تقويته، وتمده بالجند، وتخصص له معونة سنوية من خزانة مصر بلغت مائة ألف دينار، وتستعين به في تثبيت نفوذها ومواجهة الاضطرابات وقمع الثورات التي تهدد هذا النفوذ.

وكان هؤلاء العرب ينقسمون إلى عصبيتين؛ قيسية أو مضرية، ويمنية أو قحطانية (وهم الأكثرية)، وكثيرًا ما كان الصراع والتنافس يحتدم بينهما، فأتاحوا بذلك الفرصة لمناوئيهم أن يظهروا عليهم ويغالبوهم على عرش الزعامة، ثم يغلبوهم عليه.

وكانت روافد من هذا التيار تنزع إلى تقوية سلطانها وبسط نفوذها، إما في إطار الطاعة للخلافة كما فعل المهلبيون، وإما متحديًا لنفوذها مستقلاً عنها كما فعل بنو حبيب.

واستطاع تيار الخوارج الذي ظهر في المشرق في عهد علي بن أبي طالب (أو في أواخر عهد عثمان بن عفان كما يرى البعض) أن يجد طريقه إلى المغرب، ويحقق انتشارًا واسعًا ونجاحًا واضحًا.

ووجدت أفكار الخوارج في تيار البربر – سكان البلاد الأصليين– تربة خصبة استجابت لهذه الأفكار، ووجدت فيها سبيلاً للتعبير عن نزعاتها الاستقلالية ورغباتها في أن يكون لها دور قيادي لا يخضع لسلطان العرب، ولا يدور في فلك الخلافة.

وكان لمبادئ الخوارج جاذبية كبيرة في نفوس البربر، وبعد أن وجدوا من بعض ولاتهم عنتًا واضطهادًا وحيدة عن المساواة الإنسانية التي كانوا ينتظرونها بعد أن اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أبنائه شأنهم في ذلك شأن العرب، لذا أقبلوا على مبادئ الخوارج التي تدعو إلى المساواة بين المسلمين جميعًا، وأن يكون الحكم شوريًّا غير مقصور على فئة معينة، وضرورة الخروج على الحاكم الجائر، وأن يُنفَق المال العام في صالح المسلمين.

وجذبهم أيضًا ما انطبع به الخوارج في حياتهم وسلوكهم من بساطة وصراحة وشجاعة ووضوح وحب للقتال وتشدد في العبادات، وهي صفات تلتقي مع طباع البربر وأسلوب حياتهم القريب من البداوة.

وأقبل البربر على اعتناق مبادئ فرقتين من الخوارج هما: الإباضية والصُّفرية.

وتُنْسَب الإباضية إلى عبد الله بن إباض المري التميمي، وإن كان مؤسسها الحقيقي وواضع قواعدها هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني، وهو من التابعين، ومن كبار علماء الشريعة والفقه في عصره، وكان يدعو إلى إزالة نظام الملك الوراثي الذي أقامه الأمويون والعودة إلى الشورى التي كانت مطبقة في عهد الخلفاء الراشدين، وتوفي سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م.

أما الصفرية فتنسب إلى زياد بن الأصفر أو عبد الله بن الصفار (الذي كان من أتباع نافع بن الأزرق ثم انشق عليه)، ويُرجع البعض هذه التسمية إلى اصفرار وجوههم من طول العبادة وكثرة الصوم.

ويُعزى نجاح هاتين الفرقتين إلى اعتدالهما النسبي، فهما أقل فرق الخوارج غلوًّا وعداءً لمخالفيهم من المسلمين؛ إذ إنهم لا يبيحون – كغيرهم من الخوارج– قتل أطفال المخالفين لهم، ولا يحكمون بالكفر على مرتكب الكبيرة، ويُجيزون مبدأ "القعدة" أي القعود عن قتال الحاكم الجائر حتى تكتمل قوتهم وتحين لهم الفرصة المناسبة، ولذلك كانوا أقل من غيرهم من الخوارج تعرضًا للفناء على أيدي الخلافة ورجالها.

وكان مذهب الخوارج في المشرق يبحث عن طريقه في خطوات متعثرة، ووقفت يد الولاة الأمويين حائلاً دون نجاحه، واعتقل الحجاج بن يوسف الثقفي زعيم

الخوارج أبا عبيدة مسلم بن أبي كُرَيْمَة التميمي، فلما خرج من سجنه رأى أن يغيِّر وجهته، وينطلق بأفكاره إلى الأطراف البعيدة التي تتراخى فبها قبضة الخلافة ويصعب فيها تعقب الثائرين.

وأرسل أبو عبيدة بعض دعاته إلى المغرب، ومنهم: سلامة بن سعيد الإباضي الذي كان شديد الحماس والإخلاص لمذهبه، وكان يقول: "وددتُ لو ظهر هذا الأمر يومًا واحدًا من أول النهار إلى آخره فلا آسف بعده"، ووصل إلى "سِرْت" مع بداية القرن الثاني الهجري، وأخذ الدعاة الإباضية منذ ذلك الحين يتوافدون على المغرب.

وكان البربر من ناحيتهم مقبلين على هذا المذهب، يسعون إلى تعلم مبادئه، فأرسلوا أربعة من رجالهم إلى البصرة ليتلقوا مبادئ الإباضية على أيدي أساتذتها في العراق، وهؤلاء هم: عبد الرحمن بن رستم الفارسي (وهو الذي أسس الدولة الرستمية كما سنذكر)، وعاصم الورداني، وأبو داود القبلي النفزاوي، وإسماعيل بن ضرار الغدامسي، وهناك انضم إليهم داعية خامس هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، وأطلق عليهم جميعًا "حملة العلم الخمسة"، ورجعوا بعد ذلك ليكونوا عُمُد المذهب في المغرب، وملهبي الثورة وقادتها.

ولم تحتفظ مبادئ الخوارج بصورتها المشرقية، بل تلوَّنت بطابع المغرب وتشكلت بروح البربر، ونالها بعض التطوير والتغيير عندما انتقلت من جانب النظرية إلى حيز التطبيق والواقع العملي، وخرج أتباعهما عن الهدوء والاعتدال اللذين عُرفا بهما، واتجهوا إلى العنف والقتال في غير هوادة، وظهرت عند صفرية ورفجومة وبرغواطة بعض البدع والانحرافات عن العقائد الصحيحة.

وسنرى مزيدًا من التطوير في مبادئ الخوارج عندما نتحدث عن الدولة الرستمية التي نجحوا في إقامتها، وكيف أنهم تخلوا عن أهم مبادئهم، وهو الشورى، واتجهوا إلى نظام الحكم الوراثي، متأثرين في ذلك بالنظم السياسية السائدة في عصرهم ومنطقتهم.

<u>الإدارة الأموية في المغرب</u>:

أصبح المغرب بأقسامه الثلاثة ولاية إسلامية كما قلنا، واستمرت هيمنة الخلافة عليه طوال عصر الولاة، وكان في أغلب الأحيان ولاية قائمة بذاتها، لها

إدارة خاصة بها، ولكنه في بعض الأحيان، وبخاصة في الفترات التي تغلب فيها الثورات، كان يُضَمُّ إلى الإدارة المصرية، ويخضع لوالي مصر، وكانت الخلافة ترى في ذلك سبيلاً لمواجهة الثائرين، حيث يتمتع والي مصر بالاستقرار والقوة العسكرية والاقتصادية مما يؤهله لهذه المهمة.

وأعقبت الفتح فترة قصيرة من الهدوء والاستقرار بما لا يدع مجالاً لظهور الفتن والاتجاهات المناوئة، واستمر ذلك في عهدي الخليفتين سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ/ ٧١٥-٧١٧ م) وعمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ/ ٧١٧-٧٢٠ م)، ويرجع ذلك إلى التزام الخلافة إلى حدٍّ كبير بتطبيق المبادئ الإسلامية في معاملة الرعية.

وأوصى سليمان بن عبد الملك واليه محمد بن يزيد القرشي (٩٧-١٠٠ هـ/ ٧١٦-٧١٨ م) قائلاً: "اتق الله وحده لا شريك له، وقم فيما وليتك بالحق والعدل، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله"، فاتجه الوالي الجديد إلى عمله وهو يقول لنفسه: "ما لي عذر عند الله إذا لم أعدل"، وسار في العرب والبربر – على السواء – سيرة العدل والإنصاف، وكان يقسِّم الفيء على الجند، ويتنازل لهم عن نصيبه منه.

أما الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فلسنا في حاجة إلى أن نتحدث عن عدله وروعه، ويكفي أن نذكر عبارته الشهيرة التي كان ما ينفك يرددها: "ان الله بعث محمدًا هاديًا ، ولم يبعثه جابيًا"، ولذلك كان اهتمامه بنشر الإسلام أكثر من اهتمامه بالاستكثار من المال، وكلَّف واليه إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي (١٠٠-١٠١ هـ/ ٧١٨-٧١٩ م) (حفيد أبي المهاجر دينار) أن ينفذ هذه السياسة، فقام ببعث الدعاة ونشر العقيدة، ويقول عنه ابن خلدون: " ثم أسلم بقيه البربر على يد إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة".

ولكن الحال تغير بعد وفاة هذا الخليفة الراشد، واتجهت سياسة الدولة إلى الاهتمام بجمع المال، واشتدت في جبايته واختلفت لذلك سيرة عُمَّالها، وأصبح شغلهم إرضاء الخلافة وتنفيذ سياستها، وتولى المغرب يزيد بن أبي مسلم، وهو أحد تلاميذ الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان عامله على خراج العراق، فتشبع بروحه وسار في أهل المغرب بسيرته.

وبلغ من تجبُّر هذا الوالي أنه أراد أن يَسِمَ حرسه الخاص الذي كونه من البربر بسمات خاصة على أيديهم حتى يُعرفوا من غيرهم كما كان ملوك الروم يفعلون، فرأوا في ذلك مهانة لهم وتشبهًا بالنصارى، فوثبوا عليه وقتلوه سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م بعد شهر واحد من ولايته.

وكانت هذه السابقة هي الأولى من نوعها، وأول عمل ثوري يُقْدِمُ عليه البربر، لكنَّ نتيجته كانت محدودة، إذ لم يتعد الغضبة على الوالي ولم يكن خروجًا على الخلافة، وكتب بعده الثائرون إلى الخليفة يُعْلِمُونه بما حدث ويعتذرون بأن عاملهم سامهم ما لا يرضاه الله والمسلمون، وأنهم لم يخلعوا أيديهم من الطاعة، فقبلت منهم الخلافة هذا الأمر حسمًا للفتنة، وضمَّت المغرب إلى الإدارة المصرية التي يتولاها بشر بن صفوان الكلبيّ (١٠٣-١٠٩ هـ/ ٧٢٢-٧٢٧ م).

وكان البربر يعتقدون أن واليهم السابق يشتد عليهم دون علم الخلافة، فإذا بهم يتبينون أن هذه السياسة صارت طابعًا عامًّا لكل ولاتهم، وإذا بواليهم الجديد عبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمِيّ (١١٠-١١٤ هـ/ ٧٢٨-٧٣٢ م) يشتد في جباية الأموال والهدايا، ويلزمهم أن يقدموا ثمن ذلك من أموالهم وبناتهم.

وبلغت القسوة مداها في ولاية عبيد الله بن الحَبْحَاب القيسيّ (١١٦-١٢٣ هـ/ ٧٣٤-٧٤١ م)، الذي زاد على سلفه من الولاة التعصب الشديد للعرب، وللقيسية بصفة خاصة، وأساء عمالُه السيرة في البربر، فكانوا يذبحون قطعان الغنم التي يملكها البربر بحثًا عن الفراء العسلية اللون التي تؤخذ من سخال الضأن عند ولادتها قبل أن تصير خشنة؛ لإرسالها إلى الخليفة الذي كان يحب هذا النوع من الفراء.

غلبة التيار الخارجي:

وفي هذه الأثناء كانت أفكار الخوارج قد تسربت إلى المغرب واتخذ أصحابها من أخطاء الإدارة الأموية سبيلاً لإثارة البربر، فأخذوا يجسمون لهم هذه الأخطاء، ويحرضونهم على الثورة، ويقول الطبري: "لم يزل أهل إفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك حتى دبَّ إليهم دعاة أهل العراق فاستثاروهم، وشقوا العصا، وفرقوا بينهم".

وقد رفض البربر أن يُقْدِموا على الثورة قبل أن يتبينوا صدق محرضيهم وقالوا

لهم: "لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال". فقالوا لهم: "إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك". فقالوا: "حتى نخبرهم".

وهكذا آثر البربر أن يتبعوا الطريق الدستوري في عرض مظالمهم، وأن يتأكدوا إن كان ظلم الإدارة يتم بعلم السلطة المركزية أو من وراء ظهرها، فأرسلوا وفدًا من بضع وعشرين رجلاً يتزعمهم شيخ قبيلة مَدْغرة (مَطْغرة) هو ميسرة المدغريّ، ووصل الوفد إلى دمشق وطلبوا الإذن بمقابلة الخليفة، فلم يؤذن لهم، ولعل الخليفة ظن أنهم قلة لا يمثلون أهل المغرب، أو لعل رجاله استهانوا بالأمر فحجبوهم عنه.

ولما طال انتظارهم دون جدوى طلبوا مقابلة الوزير وعرضوا عليه مطالبهم ليرفعها إلى الخليفة، ولا يسعنا إلا أن نُبدي الإعجاب بأسلوبهم في عرض مطالبهم وما أبدوه من روح إسلامية ومن استعداد للتسامح في بعض حقوقهم من أجل إخوانهم في العقيدة حتى وصل الأمر إلى ما لا يمكن التسامح فيه.

قال الشاكون: "أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا، وقال: هم أحق به، فقلنا: هو أخلص لجهادنا. وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا، وأخَّر جنده، فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا، وكفيناهم، ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال، يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك، وخلَّيْناهم وذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة، نحن مسلمون فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟ فقال الوزير: نفعل، فلما طالت إقامتهم، ونفدت أقواتهم، رجعوا إلى بلادهم تاركين أسماءهم عند الوزير ليقدمها للخليفة إذا سأل عنهم.

وعاد الموفدون إلى قومهم ليحدثوهم بما رأوا، ويؤكدوا لهم صدق ما سمعوه من المحرضين على الثورة، وكان على البربر أن يبحثوا عن المبادئ الإسلامية الداعية إلى المساواة والعدالة التي افتقدوها في ظل الخلافة، وأحسوا أنهم وجدوا ضالتهم في مبادئ الخوارج، فأقبلوا عليها في حماس بالغ.

وكان الصفرية أسرع تحركًا وأسبق إلى إعلان الثورة على الحكم الأموي

والنفوذ العربي من الإباضية، ويرجع ذلك إلى العامل الجغرافي والتأثيرات السياسية في المنطقة، فقد انتشر الصفرية في المغرب الأقصى بعيدًا عن منال الخلافة وعُمَّالها، أما الإباضية فكانت منتشرة في طرابلس، وبذلك انحصرت بين القوتين التابعتين للخلافة في مصر والقيروان، فكان عليها أن تنتظر حتى تواتيَها الأسباب.

وقاد ميسرة المدغري (المطغري) ثورة البربر الصفرية، واستجابت له عدة قبائل، مثل: مَدْغَرة (مطغرة)، وبُرْغُواطة، وبربر مِكْنَاسة، وأفارقة طَنْجَة، بزعامة عبد الأعلى بن حُدَيْج (جُرَيْج)، وبايعوه إمامًا عليهم، وخاطبوه بأمير المؤمنين.

وتقدم ميسرةُ بقواته فاستولى على أهم المناطق في المغرب الأقصى، وتمكن من إزالة عمال الخلافة من طنجة والسوس، وأصبح المغرب الأقصى كله في يده، ولقَّب نفسه بلقب الخلافة.

وتصدى الوالي ابن الحَبْحَاب لهذه الثورة، ودفع بقائده حبيب بن أبي عبيدة لمقاومتها، فتمكن من إحراز انتصار مبدئي مما جعل البربر يثورون علي قائدهم ميسرة ويعزلونه، ويقال إنهم قتلوه، ولعل ذلك بسبب سوء سيرته فيهم كما ذكر ابن خلدون، أو لاتهامهم له بالتخاذل أمام جند الخلافة، وولوا مكانه خالد بن حُمَيْد الزَّنَاتيّ.

وكانت الجولة الثانية في وادي شلف على حدود المغرب الأقصى، وانتصر البربر انتصارًا ساحقًا، وقتلوا كثيرًا من زعماء العرب وأشرافهم حتى سميت الموقعة بـ"غزوة الأشراف" سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩ م، واستاء الخليفة هشام بن عبد الملك عندما نمت إليه هذه الأنباء، وقال: "والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي".

وعزل هشامُ الوالي ابن الحَبْحَاب لفشله الذريع في القضاء على البربر الثائرين، وولى مكانه كلثوم بن عياض القُشَيْري الذي قدم إفريقية في رمضان سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠ م، و سيَّر معه اثني عشر ألفًا من جند الشام، وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه، ولكن هذه الحملة كانت تحمل معها الآفة التي تقف دون نجاحها، فقد كان الوالي الجديد وابن أخيه بَلْج بن بشر القُشَيْري من غلاة القيسية، وكانوا يعاملون أهل القيروان وعرب إفريقية (وأكثرهم يمنية) بجفاء وغلظة، وقال لهم بَلْج بن بشر: "لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلهم".

استاء أهل القيروان وبعثوا إلى زعيمهم حبيب بن أبي عبيدة (وهو حفيد الفاتح الأول عقبة بن نافع)، وكان في قتال مع الخوارج ناحية الغرب، فكتب يحذر كلثوم بن عياض من هذه السياسة، ويقول: "إن ابن عمك السفيه قال لأهل بلدنا كذا وكذا، فارحل بعسكرك عنهم، وإلا حوَّلنا أَعِنَّة الخيل إليك". فردَّ عليه كلثوم معتذرًا، وأمره أن يبقى مكانه حتى يلحق به ليتعاونا معًا في قتال الخوارج، وعندما التقيا، أخذ كلثومُ يسخر منه ويقول: "هذا الذي يحوِّل أَعِنَّة الخيل إلينا؟"، فتوترت النفوس واحتدمت نار الغضب بين الفريقين حتى دعاه عبد الرحمن بن حبيب إلى المبارزة، وبعد جهد تصافى الفريقان حتى يفرغا لعدوهما المشترك، ولكن الحفيظة والكراهية ظلت باقية في الصدور.

وإلى جانب هذه العصبية كانت القيادة العربية تنظر إلى البربر باستخفاف وتستهين بقوتهم ولا تتخذ التحصينات والاستعداد الكافي لمواجهتهم، ورفض كلثوم بن عياض نصح رجاله الذين قالوا له: "خندق أيها الأمير، وتلوم بالكراديس"، وانساق وراء ابن أخيه الذي قال له: "لا يروعك كثرة هؤلاء، فإن أكثرهم عريان أعزل لا سلاح لهم".

وتم اللقاء عند بلدة يقال لها "بَقْدُورة"، تقع على نهر سَبُّو (نهر مدينة فاس)، وكان رجَّالة البربر أكثر عددًا، ولكن العرب كانوا يتفوقون بامتلاكهم الخيل وكثرة فرسانهم، فعمل البربر على حرمانهم من نقطة تفوقهم، فابتكروا الحيل لإخافة الخيل حتى نفرت، واضطر راكبوها إلى الترجل عن ظهورها، فاكتسحهم البربر بكثرة جموعهم، وأوقعوا بهم هزيمة نكراء في بَقْدُورة (بالقرب من تاهرت) في أوائل سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤١ م.

وبهذين الانتصارين في "الأشراف" و"بَقْدُورة" أكد البربر نجاح ثورتهم، وتغير الوضع السياسي للمنطقة، إذ ترتب على ذلك استقلالهم بالمغرب الأقصى تمامًا، وزال عنه نفوذ الخلافة الأموية نهائيًّا، وأصبح منذ ذلك الوقت بيئة صالحة لنمو الحركات الثورية، وظهور بعض العقائد الفاسدة، مثل: دعوة صالح بن طريف الذي ادعى النبوة في ورفجومة، واستحدث كثيرًا من البدع، ولجوء بعض الثوار الفارين من المشرق كالأدارسة العلويين، وشجع هذا الانتصار خوارج المغرب في المناطق الأخرى على إعلان ثورتهم كالإباضية في طرابلس، وشجع بربر الأندلس أن يحذوا حذو إخوانهم في المغرب.

ثبات التيار العربي في المغرب الأدنى:

ظهرت حركة ثورية ثانية هدفها القضاء على النفوذ العربي في المغرب الأدنى (إفريقية)، وإسقاط عاصمتها القيروان، فقد تجمع الصفرية القريبون من القيروان بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري، وعُكَّاشة بن أيوب الفزاري، وبدأوا يستعدون للزحف عليها.

وكان من الضروري أن تقوم الخلافة بعمل حاسم لتحتفظ بما تبقى لها من نفوذ في المنطقة، وكانت نقطة البداية نحو الإصلاح تبدأ بإزالة العصبيات وتعديل سياسة الخلافة في إيثار القيسية على اليمنية، واستجاب الخليفةُ هشام لمشورة ابن أخيه العباس بن الوليد الذي قال له: "يا أمير المؤمنين ليس يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله، فاصرف نظرك وحسِّن رأيك إلى هذه القحطانية (اليمنية)".

وتطبيقًا للسياسة الجديدة ولى الخليفةُ على المغرب حنظلةَ بن صفوان الكلبي (١٢٤-١٢٧ هـ/ ٧٤١-٧٤٤ م)، وعلى الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وهما يمنيان، ونجح حنظلة في التصدي لثورة الصفرية الجديدة التي كانت تهدِّد القيروان؛ لأنها كانت تختلف عن الثورة الأولى التي استقلت بالمغرب الأقصى، فقد ظهرت الثورة الثانية في المغرب الأدنى حيث يتركز الوجود العربي ويقيم الوالي، وأصبح العرب في حالة دفاع عن أنفسهم وأسرهم، فلو سقطت القيروان لأصبحت نساؤهم وزراريهم وأموالهم غنيمة للثوار، وساعدهم أيضًا أن الثائرين هذه المرة لم يكونوا وحدة واحدة، بل كانوا يعملون تحت قيادتين مختلفتين.

وقد أتاحت هذه العوامل لحنظلة أن يظفر بالبربر، وتمكَّن من أن يواجه كُلاًّ من زعيمَيْ الخوارج على حدة، فهزم عبد الواحد في مكان يُسَمَّى "الأصنام" على مسافة ٤٠ كلم غربي القيروان، فسُمِّيَت المعركة (معركة الأصنام)، ودحر عُكَّاشة في موضع يُسَمَّى "القَرْن"، فعُرفت المعركة به، ولا تتفق المصادر حول تحديد أي من الموقعتين حدثت أولاً، وهكذا نجح حنظلة في الحفاظ على الوجود العربي الإسلامي بالمغرب، وأوقف تيار الخوارج، فاستقرَّ أهل السنة، وهدأت مشاعر المسلمين، وابتهجوا في أنحاء الدولة الإسلامية بهذا النصر المبين حتى قال محدِّث مصر وفقيهها الليث بن سعد: "ما غزوة كنتُ أحب أن أشهدها – بعد غزوة بدر– أحب إليَّ من غزوة القرن والأصنام".

وبهذين الانتصارين عادت الثقة إلى نفوس العرب، وثبَّتوا وجودهم في المغرب الأدنى، وثأروا لهزائمهم السابقة، وعادت هيبة الخلافة الأموية، وحافظت على نفوذها في المغرب.

نزوع التيار العربي إلى الاستقلال:

كان اضطراب المغرب، ونجاح الخوارج في الانفراد بأحد أقسامه حافزًا للعنصر العربي الموجود في المغرب الأدنى، الذي يطلق عليه "العرب الأفارقة" أن ينزع هو أيضًا إلى الاستقلال عن نفوذ الخلافة، وبخاصة أن أكثرهم كان من العرب اليمنية الذين اهتز ولاؤهم للسلطة المركزية بسبب سياسة التعصب للقيسية التي انتهجها كثير من الخلفاء الأمويين.

وكان هؤلاء اليمنية يلتفون حول زعيمهم حبيب بن أبي عُبيدة الفهري حفيد عقبة بن نافع، وقد رأينا كيف دافع عن حزبه في مواجهة أهل الشام القادمين تحت قيادة كلثوم بن عياض وابن أخيه بلج بن بشر القشيري.

وقد قُتل هذا القائد في حرب الخوارج، ولجأ ابنه عبد الرحمن بن حبيب إلى الأندلس بعد هزيمة العرب في "بقدورة"، وحاول أن يستفيد من الاضطرابات هناك ويدعو لنفسه، فلم يلق استجابة من أهلها، فرجع إلى المغرب بعد أن انكسرت شوكة البربر على يد حنظلة بن صفوان، ونزل تونس، فأطاعه أهلها وأخذ يتهيأ للزحف على القيروان.

وكانت المواجهة بين نموذجين متباينين من القيم، فعبد الرحمن بن حبيب يرى أنه أَوْلَى بحكم إفريقية من الوالي حنظلة بن صفوان، وأن له من جهاد آبائه وأجداده ما يزكيه لذلك، ويؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة، فلا يتورع عن أي سلوك يبلغه مأربه، وحنظلة بن صفوان يمثل جانب الالتزام بالقيم، ويرفض أن يخوض الحرب مع عرب مثله، وبخاصة أنهم ينتمون إلى عصبية يمنية، ولا يجيز القتال إلا لكافر أو خارجي، وليس له مطمع في حكم يعلو على بحر من الدماء.

ولذلك اتجه حنظلة إلى طرق أبواب الصلح والمسالمة، وأرسل وفدًا يتكون من خمسين من أعيان القيروان، ولكنَّ ابن حبيب قبض عليهم، واتخذهم رهائن يهدد أهل القيروان بقتلهم إذا قاوموه، وقال: "إن رمى أحدٌ من أوليائهم بحجر قتلتهم"، وطلب من حنظلة وأتباعه أن يرحلوا، وأمهلهم ثلاثة أيام.

ومرة أخري تبدو مثالية حنظلة، فيتنازل عن الإمارة لابن حبيب، ويوليه مقاليد البلاد حقنًا للدماء، ويرفض أن يحمل معه شيئًا من الأموال، بل يأمر بإحضار القاضي والعدول ليفتح بمحضر منهم بيت المال، ويأخذ منه ألف دينار فقط لنفقة عودته مع رجاله، وقال: "لا أتلبس منه إلا بقدر ما يكفيني ويبلغني"، واتجه إلى دمشق في جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٤ م.

وهذا تطور جديد في الوضع السياسي ببلاد المغرب، وخطوة جديدة على طريق الانفصال عن سلطة الخلافة في المشرق، وإضعاف الصلة السياسية التي تربط بين إقليم المغرب والسلطة المركزية، وإتاحة الفرصة لنجاح الحركات الخارجية في إنشاء دول مستقلة عن سلطة الخلافة.

وهكذا خلا الطريق أمام ابن حبيب، وشرع في توطيد حكمه، فأرسل إلى الخليفة مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية ١٢٧-١٣٢ هـ/ ٧٤٤-٧٤٩ م) يعرض عليه الطاعة، ويطلب إقراره على الولاية التي استولى عليها بالفعل، وكان الخليفة مشغولاً بمواجهة ثورات متعددة في الشام والحجاز، وفي مواجهة الخوارج وبعض المنشقِّين عليه من أبناء أسرته، فلم يكن في وسعه أن يفتح الباب أمام حرب جديدة فآثر أن يستجيب له ويقره على إفريقية.

واستخدم ابن حبيب الحيلة والدهاء في القضاء على أعدائه من الخوارج، ودسَّ بعضَ رجاله فاغتالوا اثنين من زعماء الإباضية في طرابلس، وتبادل الخوارج الاتهامات في مقتلهما، كما أرسل أخاه "إلياس" لإخماد الثورات والفتن التي قامت ضده، وكانت سياسته تتسم بالعنف والبطش، وكان بعيد الطموح، فيُروَى أنه سمع نبوءة أن الأندلس سيحكمها رجل اسمه عبد الرحمن من بيت ملك وله ضفيرتان، فأطلق ضفيرتَيْه لتصدق عليه النبوءة.

ولم يكن يعرف الولاء إلا لمقعد السلطان، فلما قامت الدولة العباسية غيَّر ولاءه وأعلن طاعته لأبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ/ ٧٥٤-٧٧٥ م)، ولكن الخليفة لم يكتف منه بالطاعة الاسمية، وطالبه بإرسال قدر من المال إليه، ولم يقبل منه عذرًا، فجمع عبد الرحمن بن حبيب أهل القيروان، وأعلمهم أنه خلع طاعة المنصور، وقال: "إني ظننتُ أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به، حتى تبيَّن لي خلاف ما بايعتُهُ عليه من إقامة العدل، وإني قد خلعتُهُ كما خلعتُ نعلي هذا"،

وخَلَع نعله وقذفه، وأمر بترك السواد (شعار العباسيين).

ولجأ إليه بعض أمراء بني أمية الفارين من وجه العباسيين لارتباطه بينهم بالمصاهرة، فأمَّنهم، ثم خشى أن ينافسوه على الإمارة فغدر بهم وقتلهم، واستاءت لذلك زوجة أخيه إلياس، التي تنتمي إلى البيت الأموي، وأخذت تؤلب عليه زوجها، وتُطْمِعُهُ في الإمارة حتى وثب على عبد الرحمن وقتله، واستأثر بالحكم في أواخر سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م.

ولم يدم الملك بعد ذلك طويلاً في هذه الأسرة، فقد اشتد الصراع بين إلياس وابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب، وأسفر عن مقتل إلياس سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م، وفرَّ أخوه عبد الوارث وأتباعه ولجأوا إلى قبيلة ورفجومة.

وكانت ورفجومة منحرفة عن عقائد الإسلام، تتبع زعيمها "عاصم بن جميل" الذي ادعى النبوة والكهانة، فهاجمت القيروان واستولت عليها في ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م، واستحلت محارمها، وقتلوا كثيرًا من عربها، وربطوا دوابهم في مسجدها الجامع، واشتد البلاء على أهلها، وفشل حبيب بن عبد الرحمن في استعادة ملكه، وقُتل في أوائل سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م، وبذلك انتهى مُلك بني حبيب.

وبرغم قصر عمر هذه الدولة فقد كان لها الفضل في تثبيت الوجود العربي بالمغرب الأدنى أكثر من عشر سنوات، وحمايته من تيار الخارجية والبربر، وترتب على سقوطها تقلص النفوذ العربي فترة من الزمن (من ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م إلى ١٤٤ هـ/ ٧٦١ م) استطاع الخوارج خلالها أن يبسطوا نفوذهم على المغرب كله بأجزائه الثلاثة، فكان للصفرية المغرب الأقصى، ولورفجومة (وهم صفرية منحرفون) المغرب الأدنى، وللإباضية طرابلس وجزء من المغرب الأوسط.

وما لبث إباضية طرابلس بعد أن استغاث بهم أهل القيروان، وساءهم فعل زنادقة ورفجومة أن اجتمعوا تحت قيادة زعيمهم أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري- أحد حملة العلم الخمسة- وقصدوا القيروان، فاستولوا عليها وأنقذوا أهلها من شرور ورفجومة سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٨ م، ودخل أبو الخطاب العاصمة، وأقر الأمور بها، وولى عليها صاحبه "عبد الرحمن بن رستم"، وبذلك انتقلت القيروان من سلطان "الصُّفْرية" إلى سلطان "الإباضية".

ولكن لم يلبث التيار العربي أن عاد ليسترد موقعه في المغرب الأدنى، بعد

أن ركزت الخلافة العباسية جهودها في هذا المضمار، وأرسلت واليها على مصر "محمد بن الأشعث" في جيش قوي، فتمكن من إحراز انتصارات ساحقة على الإباضية سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١ م، وبعث برأس زعيمهم أبي الخطاب إلى الخليفة أبي جعفر المنصور، واسترد إفريقية.

واكتفت الخلافة بذلك ولم تواصل جهودها لإخضاع المغربين الأوسط والأقصى لما يتطلبه ذلك من جهد، ولأن سياستها كانت تهدف إلى الاحتفاظ فقط بإفريقية لتكون سدًّا يحول دون امتداد التيارات الخارجية والثورية إلى مصر التي تعتبرها من أهم ولاياتها.

ونجح الولاة التالين في تنفيذ هذه السياسة، فحافظوا على الوجود العربي في المغرب الأدنى، وحالوا دون امتداد التيار الخارجي شرقًا، وكان طابع هذه الفترة استمرار الصراع بين الفريقين (العرب، وخوارج البربر) دون نتيجة حاسمة.

وساعد على تثبيت الوجود العربي قدوم أسرة المهلبين (أو المهالبة؛ نسبة إلى القائد العباسي المهلَّب بن أبي صُفرة)، وهم أسرة من المقاتلين الأشداء، أبلوا في خدمة الخلافة العباسية في المشرق ثم في المغرب بلاءً حسنًا، وقد أُسندت إليهم الخلافة ولاية المغرب ابتداءً من سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م حتى سنة ١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م.

وهذه الأسرة تختلف عن أسرة بني حبيب، فهي تمثل التيار العربي الوافد حديثًا من المشرق، الساعي إلى تحقيق مزيد من النفوذ والسلطة في ظل الولاء للخلافة، أما بنو حبيب فيمثلون تيار العرب الأفارقة الذين استوطنوا المغرب، وطمحوا إلى الاستقلال عن نفوذ الخلافة.

وتبدأ هذه الأسرة بتولي عمر بن حفص المهلبي على إفريقية سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م، الذي نجح في فرض نفسه على الجميع، فدخل القيروان دون حدث، واستقامت له أكثر من ثلاث سنوات، إلى أن اضطربت الخوارج من جديد، فخرج زعماء الإباضية من تلمسان وتاهرت وطرابلس في أعداد غفيرة لمحاربة جيوش الخلافة، وانتهى الصراع بمقتل عمر بن حفص في ذي الحجة سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧٠ م، وسقوط القيروان في أيدي الخوارج الإباضية بقيادة أبي حاتم الإباضي.

عندئذٍ اختار أبو جعفر المنصور لإفريقية رجلاً آخر من المقربين إليه، ومن كبار المهالبة، هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧١ م،

ووجد يزيد من عرب إفريقية والبربر الموالين لهم تأييدًا قويًّا والتفافًا حوله بدافع الحرص على البقاء في وسط الأمواج المتلاطمة من ثورات الخوارج والبربر.

وخاض يزيد عدة معارك طاحنة مع خوارج الإباضية، حقق فيها النصر، وهيأ لولايته الأمان والاستقرار، كما أوقع بورفجومة الزنادقة سنة ١٦٤ هـ/ ٧٨٠ م، وأتاح له الاستقرار أن يركز جهوده على الإصلاحات الداخلية، وأن يهتم بالاقتصاد والعمارة والفنون، فيُذكر له أنه نظم التجارة والصناعة، وجعل لكل حرفة سوقًا خاصة بها في القيروان، وقام بتجديد المسجد الجامع وزاد في مساحته، وتوفى سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م.

وخلفه بصفة مؤقتة ولده داود، واستمر تسعة أشهر، حتى وصل عمه روح بن حاتم الذي ولاه الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ/ ٧٨٧-٨٠٩ م)، واتسم عهده بالهدوء والاستقرار، لاتجاهه إلى مهادنة الخوارج، وكان الإباضية قد نجحوا في إقامة دولتهم في المغرب الأوسط، وجنحوا للهدوء، يقول ابن خلدون: "ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين ومائة في موادعة صاحب القيروان روح بن حاتم"، وتوفي هذا الوالي سنة ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م.

وكاد الحكم أن يخرج عن هذه الأسرة عندما عيَّن الرشيد واليًا من غير أبنائها، حتى قصده الفضل بن روح بن حاتم وطلب منه الولاية مكان أبيه، فأجابه الرشيد اعترافًا بجهود أسرته وماضيها في خدمة العباسيين، وفي نهاية عهده ثار عليه قائده عبد الله بن عَبْدَوَيْه بن الجارود في تونس، وزحف إلى القيروان، وتمكن من الاستيلاء عليها وقتله سنة ١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م، وبذلك وضع نهاية لهذه الأسرة.

وعين الرشيد على المغرب هَرْثَمة بن أَعْيَن، فوصلها سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥ م، وتمكن من إعادة الهدوء إلى البلاد، واهتم بالتشييد والعمارة، وبنى بالقرب من "سوسة" قصره المعروف بـ"المنستير"، ولكنه ضاق بالمقام لكثرة اضطرابات المغرب، وطلب من الرشيد إعفاءه من ولايته سنة١٨١ هـ/ ٧٩٧ م.

وتولى بعده محمد بن مقاتل العكي، فتجددت الاضطرابات، وخرج عليه أحد رجاله، وهو تمام بن تميم التميمي، وأخرجه عن ولايته، فغضب له إبراهيم بن الأغلب، وانتصر له ولنفوذ الخلافة، وبدأت شخصيته تبرز كمؤسس دولة جديدة هي دولة "الأغالبة"، وبذلك ينتهي عصر الولاة لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المغرب، وهي مرحلة الدول المستقلة.

***

ثانيًا: عصر الولاة في بلاد الأندلس (٩٥-١٣٨ هـ/ ٧١٤-٧٥٥ م)

الإدارة العربية:

أصبحت الأندلس بعد الفتح ولاية إسلامية تابعة للخلافة الأموية، وكانت من الناحية الإدارية تابعة لوالي المغرب المقيم في القيروان، وهو الذي يتولى تعيين عامل من قبله عليها، واستمر هذا الوضع طوال العصر الأموي، باستثناء الفترة القصيرة التي حكم فيها الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ/ ٧١٧-٧٢٠ م)، فقد جعل الأندلس ولاية مستقلة عن المغرب، نظرًا لاتساعها وكثرة مواردها، فلما تولى خلفه يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥ هـ/٧٢٠-٧٢٤ م) ردَّها إلى التبعية المغربية.

وأبقت الخلافة عبد العزيز بن موسى بن نصير واليًا على الأندلس برغم موقفها من أبيه، لكنها كانت تتوجس منه وتراقبه، وزاد ارتيابها فيه بعدما رأت منه اتخاذه لمظاهر الملك، ويقال إن زوجته الإسبانية التي تنتمي إلى الأسرة الحاكمة السابقة كانت تزين له الاستقلال لتستعيد شيئًا من مجد قومها، ورغم كل هذا فإنه يُعزى إلى عبد العزيز بن موسى الفضل في استكمال الفتح باستيلائه على بعض القلاع التي بقيت في أيدي القوط، واهتمامه بتحصين الثغور، وانتهى أمره بأن اغتاله بعض جنده، ويشير المؤرخون بأصابع الاتهام إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ/ ٧١٥-٧١٧ م).

وعامل الفاتحون أهل البلاد وفق المبادئ الإسلامية، فقضوا على النظام الطبقي الجائر الذي كان مطبقًا في عهد القوط، وأعطوا أهل البلاد الحرية في الفكر والعقيدة، وهيأوا لهم الأمن والطمأنينة، فاتجهوا إلى العمل، وازدهرت الزراعة والتجارة، وأبقوا على قوانينهم الخاصة التي يتبعونها فيما بينهم في التقاضي والمعاملات المدنية، بما لا يتناقض مع النظام الإسلامي.

وأبقوا الأرض المفتوحة في أيدي أهلها الذين أسلموا أو بقوا على دينهم مقابل خراج سنوي يؤدونه، واستطاع هؤلاء الرعايا أن يحتفظوا بلغتهم وعاداتهم، وأحيانًا بأساقفتهم وكونتاتهم.

وليس أدل على هذه المعاملة الكريمة من معاهدة عبد العزيز بن موسى بن نصير مع "تدمير" أمير ولاية مرسية (Murcia) التي جاء فيها: "له عهد الله وذمته ألا

يُنْزَع عنه ملكه، ولا أحدٌ من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يُقتلون، ولا يُسبون، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا تُحرق كنائسهم، ما تعبَّد ونَصَح....".

وأبقى الفاتحون على التقسيم الإداري القديم لإسبانيا، فظلت أربع ولايات، يعين عليها حكام محليون يخضعون لسلطة الوالي العام، وعندما امتدت الفتوحات الإسلامية شمالاً أضاف إليها المسلمون ولاية خامسة شمال جبال البرنيه (البرانس) (Pirineos).

ونزلت قبائل العرب في المناطق الجنوبية الخصبة ذات المناخ الدافئ، ووزعت على المدن المختلفة، فنزل الشاميون في قرطبة (Córdoba) وإشبيلية (Sevilla)، واليمنيون في طليطلة (Toledo)، والعراقيون في غرناطة (Granada)، والمصريون في تدمير (Tudmir) وماردة (Mérida)، وأنزل الفرس الوافدون معهم في شريش (Jerez)، وأما البربر فأُسكنوا في المناطق الشمالية الباردة، وهي أقل خصبًا، وأكثر تعرضًا لخطر الحرب باعتبارها مناطق ثغرية مواجهة للعدو، فتحملوا العبء الأكبر في الجهاد، وكان هذا من أسباب حفيظتهم وتمردهم على سلطان العرب.

محاولات فتح غاليا/ فرنسا:

كانت المناطق الواقعة شمال جبال البرنيه/ البرانس (فرنسا الآن) تسمى "غاليا/ غالة" أو "الأرض الكبيرة"، وكانت تضم عدة ولايات هي: سبتمانية، وأكوتين/ أكيتانيه، وبروفانس وبرجنديا، والمملكة الميروفنجية (أو مملكة الفرنجة).

وكانت هذه البلاد تدخل في ممتلكات الإمبراطورية الرومانية حتى توالت عليها ضربات القبائل الجرمانية الهمجية القادمة من شمال أوربا، واستطاع بعضهم- وهم الوَنْدال (الفَنْدال)- أن يسيطروا على شمال فرنسا، واعتنقوا المسيحية، وبدأوا يتجهون إلى التحضر، وكان الحكم فيها في يد الأسرة الميروفنجية، وعندما ضعف أمراؤها أصبحت السلطة الفعلية في يد أمين البلاط أو الحاجب الذي كان يحمل لقب "دوق"، وسيطرت على هذا المنصب أسرة قوية هي الأسرة الكارلية التي ينتمي إليها "شارل مارتل" (Charles Martel)، أو "قارلة" كما يسميه العرب.

وأما مقاطعات غاليا الجنوبية المتاخمة لإسبانيا فقد استقل بها حكام محليون بعد ضعف الرومان، وكان أقواهم الدوق "أودو" حاكم أكوتين، الذي كان ينازع

الفرنجة على السلطان في المنطقة.

راودت خيال المسلمين فكرة بعيدة الطموح، وهي أن يجعلوا من البحر المتوسط (بحر الروم) بحيرة إسلامية، بأن يسيطروا على المناطق الأوربية المحيطة به من الشمال متخذين من الأندلس قاعدة للفتح، وتنطلق منها جيوشهم إلى غاليس/ غاليسيا (Galicia) ثم روما ثم القسطنطينية، حتى تصافح إخوانهم في دمشق.

وكان أول مَن داعبه هذا الأمل هو القائد الكبير موسى بن نصير، فحاول اجتياز جبال البرانس، ولكنه وجد من وعورة مسالكها ومقاومة سكانها (قبائل البشكنس) ما حال دون تحقيق أمله وطموحه، وخشي الخليفة الوليد بن عبد الملك مغبة هذا الطموح، فأرسل إليه يستدعيه، وحاول موسى أن يماطل رسول الخليفة، وواصل التقدم حتى وفد عليه رسول آخر يستحثه للقدوم على الخليفة، وأخذ بعنان دابته ليرجع.

ثم استؤنفت الحملات لفتح غاليا (بلاد غالة) على يد والي الأندلس السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٣ هـ/ ٧١٨-٧٢١ م)، ونجح في الاستيلاء على مقاطعة "سبتمانية" التي كان يحكمها أمراء من القوط، ونظَّم إداراتها، وفرض الجزية على سكانها، ثم تقدَّم غربًا نحو "أكوتين" التي يحكمها الدوق "أودو" الذي ينتمي إلى الأسرة الميروفنجية، مثل أمراء الفرنجة، ووصل إلى مشارف عاصمتها "تولوز" (طولوشة) (Tolosa)، وبعد معركة هائلة سقط القائد المسلم شهيدًا، واختل نظام جيشه، فحاقت بهم الهزيمة، واضطروا إلى الارتداد جنوبًا بقيادة "عبد الرحمن الغافقي".

وجدَّد خلفه الوالي "عَنْبَسة بن سُحيم الكلبي (١٠٣-١٠٧ هـ/ ٧٢١-٧٢٥ م) المحاولة، فأعاد سيطرة المسلمين على "سبتمانية"، ثم اتخذ الطريق الساحلي ففتح إقليم "بروفانس"، ووصل إلى مدينة "أوتون" (Autun) في أعالي نهر الرون سنة ١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م، ولكن الفرنج تمكنوا من مفاجأته أثناء عودته، فلحق بسلفه شهيدًا.

وتولى بعده عدد من الولاة خلال فترة قصيرة، فلم يتحقق الاستقرار، وتوقف جهاد المسلمين في الشمال، وشجع ذلك أمراء القوط وقبائل البشكنس على استرداد كثير من مواقعهم إلى أن تولى "عبد الرحمن الغافقي" سنة ١١٣ هـ/ ٧٣١ م، واهتم بالإصلاحات الداخلية وتنظيم الجيش، فأضاف إليه فرقًا قوية من البربر، يُشرف على تدريبها وقيادتها نخبة من العرب، واتجه إلى مواصلة الجهاد عبر جبال "البرنيه" (Pirineos)، فأخضع الثائرين هناك، ثم اتجه إلى مملكة الدوق "أودو"

ليثأر لهزيمة رفيقه "السمح بن مالك"، وأحرز انتصارًا مؤزرًا، ومزَّق جيش الدوق شر ممزق، واستولى على مقاطعته "أكوتين" كلها.

وفرَّ الدوق ناجيًا بنفسه، ولم يجد أمامه سوى الاستعانة بمنافسيه الألداء أمراء الفرنجة، فاستجابوا له؛ لأنهم كانوا يعرفون أن الخطوة التالية ستكون نحوهم، كما أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم المنافحين عن النصرانية في المنطقة، وكانوا يقاتلون من أجلها قبائل الجرمان التي ظلت على وثنيتها.

ولم يُقْدِم الفرنجةُ على مؤازرة أمراء فرنسا قبل هذه المرة، بل تركوهم للعرب حتى يتخلصوا من منافستهم، ويصبحوا القوة الوحيدة في منطقتهم، كما أنهم تركوا العرب حتى يوغلوا في تقدمهم، وتطول خطوط اتصالهم بعاصمتهم.

وكان اللقاء التاريخي في سهول فرنسا الواقعة بين مدينتي تور وبواتييه، على مسافة ٧٠ كلم من باريس الحالية (في شعبان سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م)، وكان الجيش الإسلامي قد استنفد كثيرًا من جهده، وخلَّف جزءًا من قواته في المناطق التي فتحها، وامتد خط اتصاله بالعاصمة "قرطبة"، حتى بلغ حوالي ألف ميل، وكان الجند مثقلين بالغنائم التي جمعوها في حروبهم السابقة، شديدي الحرص عليها، ورفضوا أوامر قائدهم بضرورة التخفف منها، وبدا من بعضهم التذمر والمعارضة.

وواجه المسلمون محاربين من طراز يختلف عما ألفوه، ولهم أسلوب في القتال لم يعهدوه، فقد اعتاد العرب استخدام القوس والرمح والسيف والحرب في المناطق الواسعة، واعتيادهم على طريقة الكر والفر، أما الجرمان فكان لهم أسلوبهم الذي يناسب حياتهم في المناطق الشمالية الباردة كثيرة الغابات، وهو الاشتباك المتلاحم، ويتسلحون بالبُلُط (جمع بَلْطَة) والسيوف العريضة.

وبعد مناوشات استمرت حوالي ثمانية أيام التحم الجيشان في معركة فاصلة تساوت فيها الكِفتان حتى حال بينهما الظلام، وفي اليوم التالي فطن الفرنجة إلى نقطة الضعف في جيش المسلمين، فقاموا بحركة التفاف للإغارة على غنائمهم في المؤخرة، وعلت الصيحات بأن الغنائم ستقع في يد العدو، فسارع كثير من الجند لإنقاذها، واختلت الصفوف، واستشهد القائد وهو يحاول أن يعيد النظام لجيشه، وحلت بهم الهزيمة، وأطلق المسلمون على هذه الموقعة اسم: "بلاد الشهداء"؛ لكثرة مَن سقط فيها من المسلمين، بينما تسميها المصادر النصرانية: "معركة تور–

بواتييه"؛ نسبةً إلى المدينتين اللتين وقعت بينهما هذه المعركة كما ذكرنا.

وقد هلل المؤرخون الأوربيون لهذه المعركة، وأحاطوها بهالة عظيمة من الاعتزاز والفخار، ونظروا إلى قائدهم "شارل مارتل" على أنه البطل المنقذ الذي أوقف الزحف الإسلامي، وقال "جيبون": "لو انتصر العرب في تور – بواتييه لكان القرآن يُتلى ويُفَسَّر في إكسفورد وكمبردج"، ويقول إدوارد كريزي: "إن النصر العظيم الذي ناله شارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ م وضع حدًّا حاسمًا لفتوح العرب في غرب أوربا، وأنقذ النصرانية من الإسلام".

ولكن علينا أن نضع هذه المعركة في حجمها الحقيقي، فإن الجيش المسلم برغم هزيمته لم يُسْحَق، ولم يتعرض للإبادة، بل تراجعت معظم القوات منسحبة نحو الجنوب، وخشي الفرنجة أن يكون هذا الانسحاب خطة لخداعهم، فلم يتعقبوا المسلمين، يضاف إلى ذلك أن محاولات المسلمين لم تنقطع بعدها، بل عبروا جبال البرنيه بعد ذلك بشهور بقيادة واليهم "عبد الملك بن قطن"، فأغار على "أكوتين" وتوغل فيها، ثم رجع لقلة قواته، وتوالت بعد ذلك حملات "عقبة بن الحجاج"، و"عبد الرحمن اللخمي" (الذي لُقِّب بفارس الأندلس) من سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م إلى سنة ١٢١ هـ/ ٧٣٨ م.

والذي أعطى هذه المعركة هذه الهالة العظيمة أن المسلمين لم يتقدموا بعدها نحو الشمال، وأخذوا فيما تلاها من عصور يفقدون المواقع ويتراجعون أمام أمراء الإسبان، ولكن هذا التوقف والتراجع له عوامل أخرى ترجع إلى تفكك المسلمين وضعفهم، وبخاصة بعد سقوط الخلافة الأموية في دمشق سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م، وهي صاحبة المشروعات العظيمة الطموح في فتح القسطنطينية والأرض الكبيرة، والتي بذل الخليفتان الوليد وسليمان ابنا عبد الملك جهدًا عظيمًا في سبيلها، وسادت المغرب والأندلس الثورات الداخلية والاضطرابات، وتعددت الدول والخلافات.

وهزيمة تور – بواتييه لا تعدو كونها جولة خسرها المسلمون كما هُزموا من قبل في تهودة، واستشهد قائدهم عقبة، وانحسرت مسيرة فتوحاتهم، لكنهم ما لبثوا أن استعادوا نجاحهم، وواصلوا نشاطهم، ولولا ما انتابهم من وهن وصراع داخلي لكان في مقدورهم ألا يجعلوا هذه الموقعة نهاية المطاف، ولكنها سنن الله التي لا تتخلف حول عوامل النصر والهزيمة.

ولذا فإن موقف المصادر العربية يأتي على النقيض من موقف المؤرخين

الأوربيين، فإنها لم تشر إلى هذه الموقعة إلا في سطور قليلة، وبعضها أخطأ في تحديد تاريخها واسم قائدها كابن خلدون، وبعضها أغفل ذكرها كالطبري والبلاذري، مما يشير إلى أنهم اعتبروها هزيمة عابرة لا تزيد عما تعرَّض له "السمح بن مالك" و"عنبسة بن سُحيم" قبل "عبد الرحمن الغافقي".

الصراعات العنصرية:

تكوَّن المجتمع الأندلسي الجديد من عناصر متعددة، يأتي في مقدمتها العرب الفاتحون الذين كانت لهم مراتب السيادة وأسباب الزعامة، وإلى جانبهم البربر المشاركون في موكب الفتح، والوافدون في أعقابه، وأهل البلاد من الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام، والجيل الجديد من أبنائهم الذين عُرفوا باسم "المولدين" أو "البلديين".

وكثيرًا ما كانت نار الشنآن تتوقد في نفوس البربر لاستئثار العرب دونهم بمقاليد الحكم، وانفرادهم بالمناطق الجنوبية الغنية، ويزيد من أوارها تأثرهم بثورات إخوانهم في المغرب، الذين انطلقوا تحت لواء الخارجية فأحرزوا انتصارات كبيرة على العرب، وحصروا نفوذهم في المغرب الأدنى.

ولم يكن العرب يدًا واحدة، بل عملت فيهم أحقاد العصبية اليمنية والقيسية التي تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام، فاعتبر اليمنيون أنفسهم أرباب الحضارة والمجد التليد مذ كانت لحمير دولة زاهرة، وكانت لقبائلهم المهاجرة إلى الشمال ممالك في الحيرة وغسان، واستقرار وتحضر في يثرب، ونظروا إلى أبناء مضر على أنهم بدو ظاعنون ضاربون في التخلف والهمجية، وعلى الجانب الآخر نجد المضرية، وعلى رأسهم قريش، يعتزون بزعامتهم الدينية من لدن إبراهيم عليه السلام، وما اختصهم الله به من شرف النبوة ومنشأ الإسلام، ونقاء لغتهم، وفصاحة لسانهم، حتى شرفها الله بأن جعلها لغة كتابه الكريم.

وفي داخل المضرية نفسها كانت المنافسة تشتد بين الشاميين الوافدين حديثًا مع الجيوش القادمة، والبلديين المستقرين في الأندلس منذ بداية الفتح.

وبدأت الفتنة الداخلية بأن أعلن البربر تمردهم في الولايات الشمالية مثل: جليقية (Galicia) وماردة (Mérida)، ونصبوا على أنفسهم إمامًا، وبدأوا زحفهم جنوبًا ليستولوا على قواعد الأندلس الكبرى مثل: طليطلة (Toledo) وقرطبة

(Córdoba)، ويمهدوا السبيل للاتصال بإخوانهم في الجانب المغربي، وفشلت جهود الوالي عبد الملك بن قطن لقمعهم سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤٠ م، فاتصل بالجيش الشامي الذي يقوده "بَلْج بن بشر القشيري"، وكان محصورًا في "سبتة" (Ceuta) بعد هزيمة "بقدورة"، يطلب السماح له بالعبور إلى الأندلس قبل أن يفتك به البربر.

واتفق الوالي ابن قطن مع الشاميين أن يعاونوه في إخماد الثورة ثم يعودوا من حيث أتوا، وأخذ منهم العهد والميثاق على ذلك، فأبلوا في مؤازرته بلاءً حسنًا حتى انتصر على البربر، لكنهم استمرأوا طيب المقام في الأندلس، ورفضوا الالتزام بشروطهم، ثم أعلن قائدهم "بلج بن بشر" أنه صاحب الحق في ولاية الأندلس، وأيده بعض الزعماء، فقبض على ابن قطن وقتله في ذي القعدة من سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤٠ م.

واعتبر العرب البلديون أهلَ الشام مغتصبين، فأعلنوا الحرب عليهم، واستمرت كِفَّة الصراع تتأرجح بين الفريقين حتى تولى الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فأعاد الأمن إلى نصابه، وفرَّق الشاميين في البلاد حتى يكسر شوكتهم، ونفى بعض الزعماء المنشقين إلى إفريقية، وأرضى بعض الداخلين في طاعته بتوليتهم على المناطق الشمالية.

ولكن عصبية هذا الوالي اليمني ما لبثت أن غلبته، فانحاز لبعض قومه في خصومة وقعت بينهم وبين المضرية، وأهان زعيم المضرية "الصُّمَيْل بن حاتم الكلبي"، فكاتب قومه في أنحاء الأندلس، وأعلنوا التمرد، وتمكنوا من هزيمة الوالي وأسره سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٤ م، وتمكَّن من الفرار، لكنه لم يجد مناصرة قوية يستطيع بها استرداد منصبه المفقود.

وكانت الخلافة الأموية مشغولة بصراعاتها في المشرق، وبقيت الأندلس بغير أمير رسمي حتى اتفق أهلها على "يوسف بن عبد الرحمن الفهري" سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٦ م، فحكم حوالي عشر سنوات مستقلاً عن نفوذ السلطة المركزية التي آلت بعد ذلك إلى العباسيين، وواجه اضطرابات عديدة من اليمنية والأمير المعزول أبي الخطار حسام بن ضرار، وحاكم أربونة عبد الرحمن اللخمي، والزعيم المضري الصميل بن حاتم، وأفاد الفرنجة من هذه الصراعات، فاستولوا على مواقعهم خلف جبال البرنيه، وسقطت أربونة (نَرْبونة) – أقوى ثغور المسلمين هناك– في أيديهم بعد مقاومة باسلة استمرت أربع سنوات، وبذلك زال الوجود الإسلامي نهائيًا من

غاليسيا، وهذا يؤكد ما أسلفناه من أن ضعف المسلمين وصراعاتهم – وليست هزيمة تور – بواتييه – هي سبب تراجعهم أمام الفرنجة.

وعندما قدم عبد الرحمن الداخل (الأول) إلى الأندلس استطاع أن يُفيد من هذه الصراعات العنصرية – كما سنذكر – ويعيد مجد بني أمية الزائل في المشرق، ويقيم دولة لهم في الأندلس.

ظهور المملكة الإسبانية الشمالية (جليقية):

ترجع جذور هذه المملكة إلى الفترة الأولى أثناء فتح المسلمين لبلاد الأندلس، إذ بعد انتصار المسلمين في معركة وادي لَكُّه (Batalla de Guadalete) الحاسمة سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م فرت شراذم قليلة من الجيش القوطي المنهزم إلى شمال إسبانيا، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية في منطقة تقع في الركن الشمالي الغربي المسمى "أشتوريس" (Asturias) في منطق غاليسيا/ جليقية (Galicia)، ولم يفرض المسلمون سلطانهم عليها؛ نظرًا لوعورة مسالكها، وبرودة مناخها، وظروفها القاسية، فأهملوها؛ احتقارًا لشأنها، وظلت فلول الجيش القوطي المنهزم تنتظر الفرصة المناسبة للتجمُّع والاستعداد للقاء المسلمين مرة أخرى، منطلقين من تلك المناطق التي يُطلق عليها الإسبان "قمم أوربا" (Picos de Europa)، وهي تتكون من ثلاثة جبال مرتفعة، القمة الغربية منها تسمى أونجا (Onga)، وبها مغارة تُعرف بكهف أونجا (Cova de Onga) أو كوبادونجا (Covadonga)، ويسميها العرب "صخرة بلاي" (Pana de Pelayo)؛ لأن قائدهم بلاي أو (بيلايو/ بلاجيوس) اختبأ فيها مع فلوله عندما حاصرهم المسلمون، وعاشوا على عسل النحل الذي وجدوه في خروق الصخور، وكانوا ثلاثمائة جندي.

ومن هؤلاء النفر القليل الذين استهان بهم المسلمون واحتقروهم كانت النواة الأولى لحركة التجمع النصراني ضد المسلمين، أو لحركة الاسترداد الإسبانية كما يُطلق عليها المؤرخون الإسبان (La Reconquista).

وكان استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد من قِبَلِ الخلافة الأموية في دمشق قد حال دون إتمام فتح منطقة جليقية وأشتوريس، فحاول الولاة المسلمون سحق هذه المقاومة، ومنهم الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٨ هـ/ ٧١٦ م، حيث اجتاح بلاد البشكنس وهضاب أشتوريش، وأوفد حليفهم الأسقف "أوباس" –

وهو أخو الملك القوطي ويتزا – إلى بلاي ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة، فأبى بلاي، ولجأ إلى كهوفه المنيعة في صخرة كوبادونجا، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثًا أن يستولوا على مراكز العدو، فحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة، وحوصر بلاي وأصحابه في "الصخرة"، وقُطعت عنهم المؤن، وتساقطوا تباعًا من الجوع، حتى لم يبق منهم سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء– كما تذكر الرواية الإسبانية.

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة، ارتدوا عن جلّيقية محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة، وقالوا: "ثلاثون عِلْجًا ما عسى أن يجيء منهم"، فقويت لذلك نفس بلاي وأصحابه، وانضم إليهم كثير من النصارى في كانتابريا (Cantabria) وسهول جليقية، واختاروه ملكًا عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه، وألفى بلاي الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية الشمالية، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التي أخذت تنتظم إلى قوة يخشى بأسها. ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال دون مطاردتها وغزوها.

واستمر "بلاي" تسعة عشر عامًا أميرًا على منطقة جليقية حتى توفي سنة ٧٣٧ م (١١٩ هـ)، وفي ذلك الوقت ظهرت في "كانتابريا" (Cantabria) إمارة إسبانية أخرى، وتحالف أميرها ألفونسو الأول (Alfonso I) مع جليقية، وأكَّد هذا التحالف بالزواج من ابنة بلاي "أرموزندة"، واتحدت الإمارتان في إمارة واحدة هي "ليون" التي يحكمها ألفونسو الأول بن بتروس/ بيدرو الذي اعتبر نفسه ممثل النصرانية وتلقب بالكاثوليكي، وحمل على عاتقه عبء النضال ضد المسلمين مستغلاً ما وقع بينهم من فتن وحروب وصراعات، واستطاع هو وابنه "فرويلا الأول" (Fruela I de Asturias)– الملقب بالقاسي– من بعده أن يستوليا على كثير من المناطق الشمالية وينتزعاها من أيدي المسلمين، حتى كرَّس عبد الرحمن الداخل جهوده ضد هذه الإمارة النصرانية، واستطاع أن يحد من خطرها.

***

الفصل الثالث
الدول المستقلة في المغرب والأندلس

أولاً: الدويلات المستقلة في بلاد المغرب

ما لبثت التيارات المتصارعة التي ذكرناها في عصر الولاة أن جنحت إلى الاستقرار، واتجه كل منها إلى الاستقلال بجزء من بلاد المغرب، وهيأ ذلك للمنطقة قدرًا من الهدوء، وأتاح المناخ الملائم لظهور ألوان من النشاط الحضاري من عمران ونظم اقتصادية وسياسية متطورة.

ومع النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي شهد المغرب أربع دويلات مستقلة، هي- بحسب ترتيبها الزمني:

- دولة بني واسول التي أقامها الخوارج الصفرية في المغرب الأقصى من سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م إلى سنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م.
- دولة الخوارج الإباضية في المغرب الأوسط التي عُرفت بالدولة الرستمية من سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م إلى سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م.
- دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى من سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م إلى سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م.
- دولة الأغالبة التي تمثل التيار العربي في المغرب الأدنى من سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م إلى سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م.

وبرغم ما بين هذه الدويلات من تباين مذهبي وسياسي، فإنها تلتقي جميعًا في ظاهرة واحدة، هي أنها قامت بتأثير مشرقي.

دولتا الخوارج في سجلماسة وتاهرت:

أولا: دولة بني واسول/ بني مدرار في سِجِلْمَاسَة (١٤٠-٣٤٧ هـ/ ٧٥٧-٩٥٨م)

كان للعامل القبلي دور رئيس في تشكيل تاريخ المغرب، وهذا يلتقي مع المنهج الذي اتبعه مؤرخ كبير هو ابن خلدون؛ إذ اتبع في كتابه "العبر" ترتيبًا موضوعيًّا زمنيًّا، وربط تاريخ المغرب بقبائله، متحدثًا عن كل قبيلة على حدة، متتبعًا بطونها وأحداث تاريخها.

كانت قبائل البربر بعد دخولها في رحاب الإسلام تتلمس لها دورًا قياديًّا من خلاله، وتسعى لتأكيد ذاتها تحت شعاره، ولما كانت أقرب إلى حالة البداوة، وليس

لها فكر يوجهها، أو نظرية تلتقي حولها، فقد اتجهت هذه القبائل إلى المذاهب الوافدة من المشرق لتملأ هذا الفراغ، وهذا يفسر لنا إقبالها السريع على مبادئ الخوارج، ثم على أفكار العلويين والشيعة بعد ذلك، ولا تجد حرجًا في الانتقال من مذهب إلى نقيضه دون عناء.

ولكن مبادئ الخوارج عندما اعتنقها البربر لم تبق على صورتها الأولى التي عُرفت بها في المشرق، بل امتدت إليها التأثيرات القبلية، ووضعت عليها البيئة المغربية بصماتها.

وكانت قبيلة مكناسة – بحكم موقعها النائي في المغرب الأقصى – بيئة صالحة لانتشار المبادئ الصفرية وظهور النزعة الاستقلالية، فالتف أبناؤها حول زعيم صفري هو عيسى بن يزيد الأسود، من الموالي، وهذا يتفق مع مبادئهم التي تنادي بالشورى، ولا تقصر الحكم على فئة معينة، ولا تتعصب إلى جنس أو عرق معين، واختطوا مدينة سجلماسة في الجنوب سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م؛ لتكون مركزًا لجماعتهم.

ولكن العامل القبلي غلب على اتجاههم الأول، فنقموا على زعيمهم بعض أعماله، وانقضوا عليه فقتلوه سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧١ م، وولوا مكانه واحدًا من عصبيتهم هو أبو القاسم سمغون (سمكو) بن واسول الذي تُنسب الدولة إليه، فيقال: دولة بني واسول.

وأثبت لنا ابن خلدون قدرًا من المعلومات عنه، يتبين لنا منها أنه كان من طالبي العلم، وارتحل إلى المدينة المنورة، وأخذ عن التابعين، وكان مقدَّمًا في قومه، مسموع الكلمة، يتمتع بقدر من الثراء، وكان مذهبه يجمع بين الإباضية والصفرية.

وكان التطور الثاني الذي أدخلته هذه الدولة على مبادئ الخوارج هو اعترافها بالولاء الروحي للخلافة العباسية، فكان أميرها يخطب لأبي جعفر المنصور والمهدي.

وعاشت الدولة عصرها الذهبي في عهد ابنه وخلفه "اليسع بن أبي القاسم" الملقب بأبي منصور (١٧٤–٢٠٨ هـ/ ٧٩٠–٨٢٣ م) الذي يُعد المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة، حيث بسط سلطانه على المناطق المتاخمة، وفرض عليهم أن يدفعوا له خُمس معادنهم، كما وثَّق علاقته بالإباضية في المغرب الأوسط، وأصهر إلى

زعيمهم عبد الرحمن بن رستم.

واجتاحت الصراعات الداخلية هذه الدولة في عهد أميرها الثالث "مدرار بن اليسع" الملقب بـ"المنتصر" الذي تولى سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م، وإليه تُنسب الدولة في طورها الأخير، فيقال: دولة بني مدرار، ثم تعرضت الدولة بعد ذلك لغزوات متعددة من جانب الفاطميين ابتداءً من سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م، واقتحموا عاصمتها عدة مرات إلى أن سقطت في أيديهم نهائيًّا سنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م.

ثانيًا: الدولة الرستمية في تاهرت (١٦٠-٢٨٦ هـ/ ٧٧٧-٨٩٩ م)

تمكَّن الخوارج الإباضية أيضًا من إقامة دولة أخرى في المغرب الأوسط تُنْسَب إلى مؤسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، وهو من أصل فارسي، وفد إلى المغرب مع أمه التي تزوجت بعد وفاة أبيه من أحد أبناء القيروان، وكان من حملة العلم الخمسة الذين تلقوا مبادئ الإباضية على أيدي أساتذتهم في البصرة العراقية، وعندما رجع إلى المغرب كان الساعد الأيمن لرفيقه أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي آلت إليه الزعامة، وكان ينوب عنه في حكم القيروان عندما استولوا عليها.

واضطر عبد الرحمن وجماعته إلى الانسحاب إلى المغرب الأوسط أمام جيوش الخلافة التي هزمتهم وقضت على زعيمهم أبي الخطاب، وتحصنوا في جبل "سوفجج" (جنوبي تاهرت)، وانضمت إليهم بعض القبائل القوية مثل: هوارة ولواتة ولمايا.

وشرع ابن رستم في بناء مدينة تاهرت لتكون مركزًا لدعوته، وحاضرة لدولته، وتوفرت لها الاعتبارات الاستراتيجية لوقوعها إلى الداخل في منطقة جبلية وعرة، وسط عصبية بترية قوية، إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية لقربها من مياه العيون والأنهار، وتوفر المراعي من حولها، وبايعه أنصاره إمامًا عليهم سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م.

وكان من أسباب اختياره "كونه عامل أبي الخطاب على إفريقية"، وهنا نلمح بداية الخط الذي يحيد عن مبادئ الخوارج؛ إذ اعتبروا ثقة زعيمهم السابق فيه تزكيةً كافيةً له، وهذا اتجاه نحو مبدأ الوصاية.

وكانت دولة ابن رستم على صلة وثيقة بخوارج المشرق، فقد جمعوا له معونة

مالية كبيرة، وبعثوها إليه، وعندما وصل بها رسلهم وجدوه على بساطته الأولى، يعمل بيديه في إصلاح داره، وغلامه يناوله الطين، ولم يجدوا في بيته سوى وسادة وحصير، فزاد إعجابهم به، وبعد ثلاث سنوات وجهوا إليه معونة مماثلة، فأبى أن يقبلها بعد أن نهضت دولته على قدميها، وقال إن إخوانه في المشرق أولى بها.

وعندما حضرته الوفاة رشح لخلافته ستة من أصحابه من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي اجتمعت عليه الكلمة بعد أبيه، وهكذا تخلى الخوارج الإباضية عن أهم مبادئهم وهو الشورى، واتجهوا إلى الوراثة متأثرين في ذلك بالنظم الوراثية المعاصرة لهم لدى العباسيين وأمويي الأندلس، وكان للعامل القبلي دور في هذا الاختيار، فقد آزرت عبد الوهاب قبيلة "يفرنة" التي تنتمي إليها أمه.

وظهر الانقسام في صفوف الإباضية منذ وقت مبكر؛ إذ انشقت طائفة منهم على عبد الوهاب وأنكروا إمامته، ولذلك عُرفوا باسم: "النُّكَّار" أو "النَّكَّارية"، وفي مقابل ذلك عُرف أنصاره باسم: "الوهابية"، ودبَّر المعارضون مؤامراتهم ضده، فاشتبك معهم في معارك طاحنة انتهت بانتصاره عليهم.

وكان الانشقاق الثاني من جانب قبيلة "نفوسة" في جبال طرابلس، فقد ولوا عليهم "خلف بن السمح بن أبي الخطاب" دون الرجوع إلى الإمام، ثم نادوا به إمامًا عليهم، وعُرفوا باسم: "الخلفية"، فانبرى عبد الوهاب لقتالهم، وواصل ابنه "أفلح" جهوده في ذلك حتى انتصر عليهم سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م، ولكنه لم يتمكن من استئصالهم، وبقيت فئة منهم تؤجج الثورة من حين إلى آخر.

وتعددت الصراعات والاضطرابات داخل البيت الحاكم، وواجهت الدولة ضغوطًا خارجية من جانب الأغالبة ثم الفاطميين، فقد أراد إبراهيم بن أحمد الأغلبي أن يجتاز جبال طرابلس ليغزو الطولونيين في مصر فمنعته قبيلة نفوسة، وهي الدعامة القوية في صرح الدولة الرستمية، وعمادها في مواجهة المنشقين والمناوئين، فاشتبك الأغالبة معهم في صراع مرير، وأبادوا منهم الآلاف حتى انكسرت شوكتهم ووهنت قوتهم، ولم يعد في مقدور الدولة أن تستعين بهم.

ولذا عجز أميرها أبو اليقظان عن مواجهة الزحف الفاطمي، واضطر إلى تسليم حاضرته "تاهرت" لهم سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م، ثم قبضوا عليه وعلى أفراد أسرته وقتلوهم، وأحرقوا كتب الإباضية، وبذلك أُسْدِل الستار على دولتهم.

***

الأئمة الرستميون

عبد الرحمن بن رستم	١٦٠- ١٧١ هـ/ ٧٧٦-٧٨٧ م
عبد الوهاب بن عبد الرحمن	١٧١-٢٠٨ هـ/ ٧٨٧-٨٢٣ م
أفلح بن عبد الوهاب	٢٠٨-٢٤٠ هـ/ ٨٢٣-٨٥٤ م
أبو بكر بن الأفلح	٢٤٠-٢٤١ هـ/ ٨٥٤-٨٥٥ م
أبو اليقظان محمد بن الأفلح	٢٤١-٢٨١ هـ/ ٨٥٥-٨٩٤ م
أبو حاتم يوسف بن محمد	٢٨١-٢٨٤ هـ/ ٨٩٤-٨٩٧ م
يعقوب بن الأفلح	٢٨٤-٢٨٦ هـ/ ٨٩٧-٨٩٩ م
أبو حاتم يوسف بن محمد (للمرة الثانية)	٢٨٦-٢٩٤ هـ/ ٨٩٩-٩٠٦ م
اليقظان بن أبي اليقظان محمد بن أفلح	٢٩٤-٢٩٦ هـ/ ٩٠٦-٩٠٨ م

دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى (١٧٢-٣٧٥ هـ/ ٧٨٨-٩٨٥ م)

يمثل قيام هذه الدولة ظاهرة تسترعي الانتباه، وهي تحوُّل المغرب الأقصى من مذهب الخوارج الصفرية إلى الالتفاف حول العلويين والاتجاه إلى مبادئ الشيعة برغم ما بين المذهبين من تباين وخلاف متأصل الجذور.

وكان العامل القبلي وراء هذا التحول السريع؛ إذ كان البربر يبحثون عن الدعوة التي يعبِّرون من خلالها عن نزعتهم الاستقلالية، ولم يجدوا أمامهم في البداية سوى مبادئ الخوارج، فأقبلوا عليها، ولكنهم بتكوينهم القبلي القائم على عصبية الدم ووشيجة القربى كانوا أقرب إلى المبادئ الشيعية الداعية إلى مبدأ الوراثة، وأحقية آل البيت، ولذا حوَّروا في مبادئ الخوارج- كما ذكرنا - واتجهوا بها نحو الوصاية والوراثة.

- إدريس الأول:

استطاع مؤسس هذه الدولة "إدريس بن عبد الله العلوي" أن يفر- في قلة من آل بيته- من المذبحة التي أقامها لهم العباسيون بعد فشل ثورتهم سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م وهزيمتهم في موقعة "فخ" قرب مكة المكرمة، واتجه بمَن معه صوب المغرب، ولعل مولاه ورفيق رحلته "راشدًا"- الذي ينتمي إلى البربر- كان دافعه إلى هذه الوجهة، كما أن نجاح الخوارج في هذا الميدان نبهه إلى ضعف سلطان

الخلافة عليه، لذا قرر الارتحال إليه.

وواجه الرفيقان في رحلتهم كثيرًا من المخاطر، واتبعا عديدًا من الحيل وأساليب التخفي، ووجدا عونًا من القلوب المشربة بحب آل البيت، ومن عمال الخلافة ذوي الميول العلوية، ومنهم عامل البريد في مصر "واضح" الملقب بالمسكين.

وحط إدريس رحاله في مدينة "وليلى" بالمغرب الأقصى، ووجد ترحيبًا من قبيلة "أوربة" التي نزحت إلى هناك أمام حملات الخلافة ضدها، ونزل ضيفًا على زعيمها "إسحاق بن محمد بن عبد الحميد" سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م.

ومن هناك واصل إدريس جهوده لإقامة دولته، وفي المرحلة الأولى اتبع سبيل الدعوة، مستعينًا بما أوتي من فصاحة لسان وحسن بيان، ضاربًا على أوتار القلوب بما له من نسب شريف يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم، واستطاع أن يكتسب إلى جانبه قبائل عديدة، وفي مقدمتها "زناتة" ببطونها الكثيرة، وأعدادها الوفيرة، فأعلن نفسه إمامًا، وتلقَّى البيعة منهم.

وأول خطوة اتخذها إدريس بعد بيعة تلك القبائل له هي تكوين جيش منهم يمكِّنه من تحقيق الأهداف التي وضعها، وكان في مقدوره بعد ستة أشهر أن ينتقل من الدعوة اللسانية إلى الكفاح المسلح، فقام بثلاث حملات متتابعة، بدأت في أواخر سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م حتى رجب من السنة التالية، غزا خلالها قبائل المغرب الأقصى، ومنطقة تلمسان في المغرب الأوسط، وحملهم جميعًا على طاعته.

أحسَّت الخلافة بخطر هذه الدولة الجديدة وبخاصة بعد أن رأت اتجاهاتها التوسعية ونجاحها في السيطرة على تلمسان التي تُعد مفتاح الطريق إلى المغرب الأدنى حيث يتركز الوجود العباسي، وعبَّر "الرشيد" عن مخاوفه لوزيره "يحيي بن خالد البرمكي" قائلاً: "إن إدريس قد ملك تلمسان وهي باب إفريقية، ومَن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار"، ولم يكن في مقدور الخلافة أن توجِّه إليه قوتها العسكرية لانحسار وجودها الفعلي بعد اضطرابات المغرب العديدة، حتى لم يعد سلطانها يتجاوز حدود مصر الغربية، وقيام دولة الخوارج الإباضية التي أصبحت حاجزًا يعزلها عن المغرب الأقصى، ولذا قال "الرشيد": "إني فكَّرتُ في بُعد البلاد وطول المسافة وتنائي المغرب عن المشرق، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب".

ولكن الوزير طمأن خليفته بأن الحيلة والدهاء تصنعان ما تعجز عنه الجيوش، وأرسل إلى المغرب أحد دهاته وهو "سليمان بن جرير الشماخ"، الذي استطاع أن يتصل بإدريس ويكسب مودته، ويصبح من أقرب الناس إليه، وانتهز الشماخ فرصة غياب "راشد" عن العاصمة، فأهدى إلى إدريس قارورة عطر ممزوجة بسم ناقع، فلما استنشقها إدريس سرى السم في جسده، وخرجت روحه إلى بارئها سنة ١٧٧ هـ/ ٧٩٣ م، ودُفن في مدينة وليلى.

- إدريس الثاني:

وكان من الممكن أن تنتهي دولة إدريس بموته؛ إذ لم يكن لها من أبناء البيت العلوي سواه، ولم يترك غير جنين في بطن جاريته "كَنْزَة"، ولكن العامل القبلي ضمن لهذه الدولة الاستمرار؛ لأنها لم تكن تمثل آمال العلويين بقدر ما تمثل آمال البربر، فاجتمعوا لمواجهة مشكلتهم، واتفقوا على أن يقوم "راشد" على أمرهم حتى تضع الجارية حملها، فإن كان المولود ذكرًا قاموا على تربيته حتى يبلغ أشده ويخلف أباه، وإن كان أنثى نظروا لأنفسهم مَن يقوم بأمرهم.

وجاء المولود محققًا لآمالهم، فأطلقوا عليه اسم "إدريس"؛ تيمنًا بأبيه، وإشعارًا باستمرار دولته، وتكفَّل "راشد" بتربيته وتثقيفه، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره اعتبروه راشدًا قادرًا على تدبير أمورهم، وبايعوه على ذلك بمدينة "وليلى" سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م.

وكانت الدولة عربية القيادة فقط، لكن تكوينها الشعبي كان من البربر، ولذا أحس أمراؤها بالغربة، وأنهم أفراد قلائل وسط خضم من القبائل التي تختلف عنهم في الدم والعنصر، ودفعهم ذلك إلى العمل على الاستكثار من العرب، وبدأ هذا الاتجاه في عهد "إدريس الأول" الذي أرسل إلى بلاد الحجاز يستدعي أقاربه ليلحقوا به، ومنهم أخوه سليمان وعمه داود، وكان ابنه "إدريس الثاني" يرحب بالعرب الوافدين عليه من إفريقية والأندلس، ويتخذ منهم بطانة ووزراء، وبذلك تضاءل نفوذ البربر، وتغيَّر بعضُهم عليه.

واستمر الأدارسة في هذا الاتجاه، فشرع "إدريس الثاني" سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م في بناء عاصمة جديدة هي مدينة "فاس" ليقيم فيها العربُ الوافدون بعد أن ضاقت بهم مدينة "وليلى"، واختار لها موقعًا تتوفر له ثلاث ميزات – كما ذكرت المصادر – "الماء الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب"، فجعلها في أرض

فسيحة تقع بين جبلين، ويتوفر لها الماء من نهر فاس.

وفي المرحلة الأولى أُنشئ شطر المدينة الشرقي، وأقام فيه الوافدون من الأندلس، وسُمِّيَ "عدوة الأندلسيين"، وفي المرحلة الثانية أقيم شطرها الثاني، وأُسْكِن فيه الوافدون من القيروان، وسُمِّيَ "عدوة القرويين"، وفيه مقر الإمام، وكان نهر فاس يفصل بين العدوتين.

واتسعت المدينة بسرعة وعمرت بالوافدين، وبخاصة بعد أن لجأ إليها سكانُ الربض الأندلسيون الذين طردهم أميرهم الأموي "الحكم بن هشام"- المعروف بالربضي- بعد ثورتهم عليه كما سنذكر في حينه.

نشأت مدينة فاس لتكون عاصمة لدولة الأدارسة وعاصمة للمغرب الأقصى، فلم تكن مقرًّا للحكم فقط، وإنما كانت مدينة ملكية لمن جاء بعد "إدريس الثاني" من أبنائه وأحفاده، حتى صارت كبغداد، بل قيل عنها: "بغداد المغرب"، وكان لبنائها أثر كبير في دعم إمارة الأدارسة وإرساء دعائمها من الناحيتين السياسية والعسكرية؛ إذ اتخذها "إدريس الثاني" منطلقًا لجيوشه التي أعدها لمواجهة الخارجين على سلطة الإمارة من جهة، والبربر الوثنيين من جهة أخرى، لاسيما في مناطق نفيس وبلاد المصامدة، وكذلك غزو قبيلة "نفزة" في مدينة تلمسان، ومحاربة الخوارج الصفرية.

واستطاع "إدريس الثاني" أن يصل بدولته إلى أقصى اتساعها، ويبسط سلطانه على المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط، وامتدت دولته من تلمسان إلى نفيس، ودفع عنها الخوارج، وهادن الأغالبة وأبرم معهم صُلحًا، ثم توفي سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م.

- الإمارة بعد إدريس الثاني:

بعد وفاة "إدريس الثاني" ظهرت بوادر الضعف في الدولة؛ إذ ترك من بعده اثني عشر ولدًا ذكرًا، وعهد بأمر البلاد إلى ابنه الأكبر "محمد"، وبإشارة من جدته (كنزة) قسَّمَ الأمير "محمد بن إدريس الثاني" إدارة الإمارة بين إخوته واختص هو لنفسه مدينة فاس حاضرة المغرب الأقصى التي سارت مركزًا سياسيًّا احتل شهرة مرموقة في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وبسبب تقسيم الإمارة بين أبناء إدريس الثاني، لم تهدأ الأوضاع فيها، ولم يدم عزها سوى ربع قرن، وتعد فترة حكم محمد بن إدريس (ت ٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م) وابنه

يحيى بن محمد بن إدريس، الذي شهدت في عهده مدينة فاس ازدهارًا واضحًا في جميع ميادينها، إذ وصفها ابن أبي زرع بقوله: "فكثرت العمارات بها، وكثرت الأرباض، واتصل البناء حولها من كل جهة"، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية والدانية.

ومن أعظم الأمراء الأدارسة سلطانًا هو الأمير يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الثاني (ت ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م) الذي قيل عنه إنه: "كان فقيهًا عارفًا بالحديث، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة".

وفي عهد الأمير يحيى المذكور بدأت إمارة الأدارسة تتعرض إلى خطر العُبيديين الشيعة، ففي سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م انهزم جيش الأدارسة أمام جيش العبيديين، بقيادة مصالة بن حَبُّوس الكتامي، فاضطر "يحيى بن إدريس" إلى طلب الصلح على مال يؤديه للعبيديين ومبايعتهم، فجُرِّد من أعماله وأملاكه، وتُركت له فاس ليكون أميرًا عليها، لكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً، ولم يشأ العبيديون أن يتركوا الأدارسة، فقد أقاموا على فاس "ريحان بن علي الكتامي" وهو من كبار قادتهم، غير أن عهده لم يدم طويلاً، فبعد ثلاثة أشهر من ولايته ثار في مدينة فاس "الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس" المعروف بالحجام، واستولى عليها وحكمها عامين، ويشير ابن خلدون الى أن العبيديين دبروا نهاية إمارة الأدارسة بتمكين موسى بن أبي العافية المكناسي الذي ولوه على نول وبلاد تازا وتشجيعه على تصفية أسرة الأدارسة وإجلاء بعضهم عن مدينة فاس، وتعقبهم إلى مدينة حجر النسر سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م.

وفي الطور الأخير لدولة الأدارسة، وبالتحديد في عهد أبي العيش أحمد بن القاسم كنون تركز الأدارسة في مدينة البصرة المغربية، واتخذوها حاضرة لهم وقاعدة لما تبقى من سلطانهم في المغرب الأقصى تحت قيادة الأمير أبي العيش أحمد المذكور، ثم تحت إمرة أخيه الحسن بن كنون آخر أمراء الأدارسة في المغرب الأقصى.

وبعد فترة من الصراع الطويل بين الأدارسة والأمويين في الأندلس استسلم الحسن بن كنون– آخر أمراء الأدارسة – للأمويين وعبر إلى الأندلس مع رجاله وأهل بيته سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م وخضع المغرب الأقصى كله لسلطان أموي الأندلس، وأقام الحسن وأصحابه بقرطبة نحو عام في أحسن حال، ثم صودرت

أمواله، وأجلاه الحكم المستنصر ومَن معه من الأدارسة إلى المرية من شرق الأندلس، ثم أخرجهم إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م، ليستريح من نفقاتهم، ثم توجه الحسن وبنو عمه إلى مصر، حيث نزل ضيفًا على الخليفة العبيدي العزيز بالله نزار بن معدّ (٣٦٥-٣٨٦ هـ/ ٩٧٥-٩٩٦ م)، فأكرم وفادته ووعده بالمساعدة على الثأر من الأمويين الذين غلبوه على مُلك سلفه، وأقام الحسن عنده مدة طويلة، ولم يتم الوفاء بالوعد إلا في سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٤ م عندما كتب نزار بن معدّ للحسن بن كنون بعهده على المغرب الأقصى، وأمر عامله على إفريقية بُلُكِّين بن زيري بن مَنَاد بأن يمده بالجند، فأمده هذا الأخير بثلاثة آلاف فارس دخل بهم المغرب، وانضمت إليه قبائل عدّة.

واضطر المنصور بن أبي عامر إلى توجيه جيش لمواجهة حملة الحسن بن كنون الإدريسي وأمّر عليه ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر، المعروف بعَسْكلاجة، وأتبعه بقوة أخرى يقودها ابنه عبد الملك المظفر، وقيل: عبد الله، وهو الراجح، وأحاطت القوتان بالحسن بن كنون خارج سبتة، وقيل: كان بمدينة الأقلام، فاستسلم مقابل الأمان وأن يعود إلى حاله الأولى في قرطبة، لكن المنصور بن أبي عامر لم يُمْض أمان ابن عمه الوزير أبي الحكم وأرسل إلى الحسن من قتله في الطريق سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م، وانتهى بموته سلطان الأدارسة في المغرب الأقصى.

***

أبرز الأمراء الأدارسة الذين تولوا حكم الإمارة

١- إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب، وعرف بإدريس الأول	(١٧٢-١٧٧ هـ/ ٧٨٨-٧٩٣ م)
٢- إدريس الثاني بن إدريس بن عبد الله	(١٧٧-٢١٣ هـ/ ٧٩٣-٨٣٨ م)
٣- محمد بن إدريس الثاني	(٢١٣-٢٢١ هـ/ ٨٢٨-٨٣٦ م)
٤- عمر بن إدريس الثاني	(٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) حكم بلاد صنهاجة
٥- حمزة بن إدريس الثاني	(٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) حكم وليلى وأعمالها
٦- يحيى بن إدريس الثاني	(٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) حكم أصيلا والعرائش (بلاد زواغة)
٧- عبد الله بن إدريس الثاني	(٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) حكم أغمات وبلد تغمس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى
٨- القاسم بن إدريس الثاني	(٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) حكم سبته وطنجة وقلعة حجر النسر وهسكورة
٩- عيسى بن إدريس الثاني	(٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) حكم مكناسة وتادلا وبلاد فازاز
١٠- داود بن إدريس الثاني	(٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) حكم بلاد هوارة وفازي وقبائل مكناسة وغياثة
١١- علي الأول بن محمد الملقب (حيدرة)	(٢٢١-٢٣٤هـ/ ٨٣٦-٨٤٩ م)
١٢- يحيى الثاني بن يحيى الأول	ــ
١٣- علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني	ــ
١٤- يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني الملقب (العدام)	ــ

١٥- يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	(٢٩٢-٣١٠ هـ/ ٩٠٤-٩٢٢م)
١٦- الحسن بن محمد المعروف بالحجام	(٣١٠-٣١٣هـ/ ٩٢٢-٩٢٥ م)
١٧- كنون بن محمد	ــ
١٨- أبو العيش أحمد	(٣٣٧-٣٤٣ هـ/ ٩٤٨-٩٥٤ م)
١٩- الحسن بن كنون	(٣٣٤-٣٦٤ هـ/ ٩٥٤-٩٧٤ م)

دولة العرب الأغالبة في المغرب الأدنى (١٨٤-٢٩٦ هـ/ ٨٠٠-٩٠٨ م)

تعتبر هذه الدولة استمرارًا لجهود العنصر العربي في التمسك بالمغرب الأدنى وتقوية وجوده وسلطانه فيه، وتُنْسَب إلى قائد عربي هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، حيث تنتمي أسرته إلى قبيلة بني تميم النجدية التي نزلت خراسان منذ الفتح الإسلامي.

وقد نشأت أسرته في ظل الولاء للعباسيين، وشارك أبوه «الأغلب بن سالم التميمي» في دعوتهم مذ كانت في مراحلها الأولى، وجاهد تحت راية أبي مسلم الخراساني، بل كان من أشجع رجاله، ووفد إلى المغرب مع جيش ابن الأشعث سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م، ثم عينته الخلافة واليًا على إفريقية إرضاءً لمشاعر الجند المضرية النافرين من ابن الأشعث اليمني سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥ م، ولكنه ما لبث أن قُتل في إحدى معاركه سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م.

بعد وفاة "الأغلب بن سالم" رحل ابنه "إبراهيم بن الأغلب" إلى مصر، ويذكر ابن عذارى المراكشي أنه تتلمذ على فقهاء مصر؛ إذ كان أحد تلامذة فقيه مصر "الليث بن سعد" (ت ١٧٥ هـ/ ٧٩٥ م) الذي قال عنه: "ليكونن لهذا الفتى شأن"، وهو ذلك الجندي البارز بين جند مصر الذين لم ترق له الفتن التي ألمت بمصر يوم ذاك فغادرها مع رجاله إلى منطقة الزاب في إفريقية.

وهناك شق "إبراهيم" طريقه نحو الصفوف القيادية حتى صار أميرًا على منطقة الزاب سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م، إذ سيطر عليها بعد أن كسب ود أهلها ورضى والي إفريقية-آنذاك- هرثمة بن أعين الذي أتحفه "إبراهيم" بالهدايا حتى أقره رسميًّا على ولاية الزاب، ثم نجح في تكوين دولته، وساعده على ذلك عدة اعتبارات: أولها: ثقة الخلافة فيه وإعجابها به؛ لتفانيه في الدفاع عن نفوذها وبلائه في مؤازرة واليها محمد بن مقاتل العكي ضد الثائرين عليه، ثم اكتسابه تأييدًا شعبيًّا

من أهل القيروان، واجتماع الجند والعامة عليه بعد أن ضاقوا بسياسة واليهم العكي، وألحوا عليه أن يكتب إلى الخليفة طالبًا الولاية لنفسه، فاستجاب لرغبتهم.

والسؤال هنا: ما هي الدوافع التي جعلت الخلافة العباسية تولي إبراهيم بن الأغلب إفريقية؟ ربما يقف وراء هذا الإجراء عدة أمور، منها:

١. انسلاخ المغربين الأوسط والأقصى عن نفوذ الخلافة العباسية.
٢. قيام إمارة الأدارسة وتهديدها بالقضاء على نفوذ الخلافة في إفريقية، فالأدارسة كانوا يطمعون في توحيد المغرب والمشرق في ظل دولة واحدة.
٣. كذلك تفاقم فتن الجند في إفريقية وتشكيلهم خطرًا مستمرًّا على ولاة القيروان.

كما تضافر العامل الاقتصادي مع كل هذه الاعتبارات؛ إذ كانت إفريقية تشكِّل عبئًا ماليًّا على خزانة الخلافة، لاحتياجها بصفة مستمرة إلى تسيير الجيوش للدفاع عنها ومواجهة اضطراباتها، وكانت تخصص لها من أموال مصر معونة سنوية بلغت مائة ألف دينار، لذا كان عَرْض "إبراهيم بن الأغلب" مغريًا؛ إذ أبدى استعداده أن يتنازل عن هذه المعونة، بل وأن يلتزم بإرسال أربعين ألف دينار للخلافة كل سنة، وهذا يعني أنه كان يرى أن في مقدوره تحقيق الاستقرار والهدوء للولاية مما يساعدها على الاتجاه إلى العمل والعمران.

وفوق ذلك كانت الخلافة حريصة على الاحتفاظ بما بقي لها من نفوذ في المغرب بعد أن فقدت معظمه، وقامت فيه للخوارج والأدارسة دول طامحة إلى التوسع، فرأت في قيام أسرة جديدة قوية موالية لها حائلاً يمنع وصول التيارات الثورية والمذهبية المناوئة إلى ممتلكاتها في مصر والشام.

كل ذلك دفع الخلافة العباسية إلى تسليم زمام الأمور في إفريقية إلى والٍ يشهد ماضيه بالإخلاص لها، والعمل على نصرتها، وتثبيت نفوذها في المغرب العربي، حتى وإن كان هذا النفوذ اسميًّا فقط؛ لذا أرسل الخليفة "هارون الرشيد" تفويضًا لإبراهيم بن الأغلب بتوليته على إفريقية سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م، ومن ثَمَّ الإقرار له بتأسيس إمارة وراثية تدين بالولاء السياسي والتبعية الاسمية للعباسيين.

- إعلان إمارة الأغالبة:

وبذا بدأ عهد جديد في إفريقية، وتغير وجهها السياسي، فأصبح لها استقلالها

الذاتي، وتضاءل نفوذ الخلافة عليها، فلم يعد لها سوى الولاء الروحي، وحقق لها ابن الأغلب الاستقرار والهدوء، فقضى على الثائرين والمنشقين، وجعل الحكم وراثيًّا في أعقابه.

أول أمر اتخذه إبراهيم بن الأغلب بعد وصوله القيروان إعلانه إياها عاصمة للإمارة الأغلبية، ثم اتخذ خطوة أخرى ليدلل على مدى التزامه تجاه الخلافة العباسية وإخلاصه وولائه لها هو بناء مدينة جديدة جنوب القيروان، أطلق عليها اسم: "العباسية"، وقد شرع في بنائها في نفس عام تفويضه بإمارة إفريقية، واتخذها مقرًّا له ولحاشيته؛ إذ أسكن فيها خمسة آلاف من حرسه الخاص السود الذين جيء بهم لخدمته وحمايته.

ويبدو أن ابن الأغلب أراد بذلك الابتعاد عن القيروان التي عُرفت بكثرة الاضطرابات ومؤامرات الجند والخصوم فيها، وبنى في وسطها دار الإمارة والمسجد الجامع، وأُحيط بالدواوين، ودار السكة، ودور سكناها وميادينها، ثم أحاطها بأسوار حصينة منيعة.

يضاف إلى ذلك أن ابن الأغلب لم يدخر جهدًا في مواجهة الأخطار الخارجية التي تهدد إمارته، فبنى القلاع والحصون، واتبع من الوسائل ما كفل له الاستمرار في الحكم ومواجهة الأزمات، كما وقف دون أحلام الأدارسة في الامتداد شرقًا، ونجح في استمالة رجالهم وأنصارهم إليه، مثل بهلول المظفر، وبذل المال للبربر ليتفرقوا عنهم، فاضطر أميرهم "إدريس الثاني" أن يحدَّ من آماله وأحلامه، ويطلب المهادنة والموادعة.

ويسجل التاريخ لهذه الدولة انتهاجها سياسة الغزو والجهاد في جزر البحر المتوسط بعد أن كونت قوة بحرية كبيرة، لتحرم الروم من القواعد التي كانوا قد نشطوا في استخدامها لمهاجمة السواحل الإسلامية، وأرضت بذلك نزعة الجهاد عند كثير من المسلمين، واكتسبت تأييد العالم الإسلامي واحترامه، وجنت من ثمار هذه السياسة صرف الجند عن الفتن بشغلهم في ميدان جديد، وتحقيق مزيد من الثراء للدولة بما تفتحه من بلاد وتجلبه من مغانم.

لقد هيأ إبراهيم بن الأغلب لخلفائه دولة مستقرة، وإن لم يستطع القضاء على جميع المشكلات التي واجهته، إلا أنه تمكن من أن يحافظ على تلك الدولة حتى وفاته سنة ١٩٦ هـ/ ٨١١ م، وتابع خلفاؤه مسيرته للحفاظ على الإمارة.

وبدأ نشاطهم البحري سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م بغزو سردانية، ثم تتابعت حملاتهم على صقلية منذ سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م، وذلك لأهمية جزيرة صقلية من حيث:-

١. أهمية موقعها الجغرافي لصد غارات الروم البيزنطيين على سواحل الإمارة الأغلبية.
٢. لدرء خطر المتآمرين وأعداء الأغالبة الذين اتخذوا من جزيرة صقلية ملجأً ومستقرًّا لهم يهددون منها أمن واستقرار الإمارة.
٣. والهدف الأهم هو أنها تُعد بالنسبة للعرب حلقة الوصل بين العالم الإسلامي وأوربا، والمعبر المهم لهم إلى أوربا للقيام بالأعمال الجهادية ونشر الدين الإسلامي.
٤. فضلاً عن الظروف السيئة التي كان يعانيها سكان الجزيرة من حكم البيزنطيين وثقل الضرائب المفروضة على كاهلهم واستلاب موارد ممتلكاتهم في ظل نظام إقطاعي جائر، جعلهم على استعداد لقبول أي تغيير يحقق لهم إصلاح أحوالهم وتحررهم من أوضاعهم السيئة.

ولتأكيد الهدف الجهادي من وراء فتح الجزيرة جاء اختيار القاضي "أسد بن الفرات" قائدًا للحملة، وهو من أعلام الفقه المالكي في مدينة القيروان، بل وفي المغرب العربي كله، ولذلك جاء اختياره ليكون مشجعًا ودافعًا للإقدام على التضحية من أجل فتح الجزيرة، ودارت بين الجيشين الإسلامي والبيزنطي معركة "مرج بلاطة" نسبة إلى قائد الجيش البيزنطي المدعو "بلاطة"، ونتيجة لاستبسال جيش المسلمين وموقف أسد بن الفرات القيادي الشجاع انهزم البيزنطيون وقتل قائدهم بلاطة في ١٧ من ربيع الثاني سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م، ولأهمية هذه المعركة كتب الأمير زيادة الله يبشر الخليفة المأمون بانتصار المسلمين وافتتاح صقلية على يد القائد أسد بن الفرات.

ثم غزا الأغالبة مالطة سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م، ووصلوا إلى شبه جزيرة إيطاليا، ونزلوا في "قلورية" في أقصى جنوبها الغربي.

وضمت الدولة الأغلبية عديدًا من العناصر في مقدمتها العنصر العربي الذي يضم أبناء الفاتحين والجند الوافدين، وكانت بأيديهم مقاليد الزعامة، ثم الفرس

الذين قدموا من فارس وخراسان مع جيوش الخلافة.

وحكمت الدولة كثيرًا من قبائل البربر، وكانوا يشكلون العنصر الغالب من سكانها، وشملهم الأغالبة بالعدل والتسامح وأشركوهم في غزواتهم البحرية، وضمت الدولة أيضًا بقايا من الغزاة القدماء الذين كانوا يقيمون في القلاع القديمة مثل: طبنة وباغاية، وكان الأغالبة يحسنون معاملتهم، ويولون من يُسْلم منهم مناصب عالية.

واتخذ أمراؤهم حرسًا من العبيد المجلوبين من بلاد السودان، وعلموهم فنون القتال، كما اتخذوا رقيقًا من الصقالبة، وبرز عدد منهم، ونُقِشت أسماؤهم على العملة وبعض المنشآت المهمة.

واهتم الأغالبة بالعمارة والبناء، فأضافوا توسعات إلى المسجد الجامع في القيروان وجامع الزيتونة في تونس، وأقاموا مساجد جديدة ورباطات للجند، وأسوارًا للمدن، واستحدثوا مدينة "العباسية" سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م أو في السنة التي تليها؛ لتكون مقرًّا للجند، وأطلقوا عليها هذا الاسم؛ تيمنًا بالخلافة العباسية وتعبيرًا عن الولاء لها.

كما أنشأ الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي (٢٦١-٢٨٩ هـ/ ٨٧٤-٩٠١ م) مدينة "رُقَّادة" سنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٦ م، وبنى فيها مسجد الفتح الجامع سنة ٢٦٤ هـ/ ٨٧٧ م، وعدة قصور، وعُمِّرت بالأسواق والحمامات والفنادق، وغدت دار مُلك لبني الأغلب بعد أن انتقلوا إليها من "العباسية"، وصارت هذه المدينة – بمرور الزمن – مركزًا مهمًّا من مراكز التجارة والعلم والحضارة.

واتجهوا إلى مشروعات الري والمياه، فأنشأوا المواجل (الخزانات) والقناطر للاحتفاظ بمياه الأمطار والسيول، وتحدَّث اليعقوبي الجغرافي عن أشجار النخيل والزيتون التي امتدت على طول السواحل في عهدهم، وعن البساتين والقرى التي تضم كل قرية منها معصرة للزيت، وسجَّل الإدريسي ما حققته القيروان من ازدهار فقال: "أعظم مدن الغرب قطرًا، وأكثرها بشرًا، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناءً.... وأربحها تجارة".

وتعرضت إمارة بني الأغلب للصراعات الداخلية بين أمرائها المتأخرين، ولضغط العُبيديين الشيعة، حيث توالت عليها حملاتهم منذ سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٥ م، ولم يقو آخر أمرائهم أبو مضر زيادة الله الثالث (٢٩٠-٢٩٦ هـ/ ٩٠٣-٩٠٩ م) على الصمود في وجه حشود جيوشهم، فقرر الهروب إلى مصر، وخرج متخفيًا ليلاً

مع وجوه قومه وفتيانه وألف من عبيده الصقالبة، وأفرغ ما في خزائن الإمارة من ذهب وجواهر ورحل إلى مصر، تاركًا إمارته أمام الزحف العُبيدي، وأُسدِلَ الستار على الإمارة الأغلبية سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م.

***

أبرز الأمراء الأغالبة وسني حكمهم

١- إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي	(١٨٤-١٩٦ هـ/ ٨٠٠-٨١١ م)
٢- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم	(١٩٦-٢٠١ هـ/ ٨١١-٨١٦ م)
٣- زيادة الله بن إبراهيم	(٢٠١-٢٢٣ هـ/ ٨١٦-٨٣٧ م)
٤- أبو عقال الأغلب بن إبراهيم	(٢٢٣-٢٢٦ هـ/ ٨٣٧-٨٤٠ م)
٥- أبو العباس محمد الأول بن عقال	(٢٢٦-٢٤٢ هـ/ ٨٤٠-٨٥٦ م)
٦- أبو إبراهيم أحمد بن محمد	(٢٤٢-٢٤٩ هـ/ ٨٥٦-٨٦٣ م)
٧- أبو محمد زيادة الله الثاني بن أحمد	(٢٤٩-٢٥٠ هـ/ ٨٦٣-٨٦٤ م)
٨- أبو الغرانيق محمد الثاني بن زيادة الله	(٢٥٠-٢٦١ هـ/ ٨٦٤-٨٧٥ م)
٩- إبراهيم الثاني بن محمد	(٢٦١-٢٨٩ هـ/ ٨٧٥-٩٠٢ م)
١٠- أبو العباس عبد الله الثاني بن إبراهيم	(٢٨٩-٢٩٠ هـ/ ٩٠٢-٩٠٣ م)
١١- أبو مضر زيادة الله الثالث بن عبد الله	(٢٩٠-٢٩٦ هـ/ ٩٠٣-٩٠٩ م)

الدول الكبرى في بلاد المغرب

قبل أن ينتهي القرن الثالث الهجري كان المغرب قد دخل في مرحلة جديدة، فاتجه إلى الوحدة السياسية والإدارية في ظل دولة كبيرة واحدة، ولم يعد دوره مقصورًا على تلقي التأثيرات الخارجية والتفاعل معها، بل أصبح قادرًا بدوره على أن يكون عنصرًا مؤثرًا محركًا للتيارات الفكرية والسياسية في الشرق والغرب، وشهد المغرب خلال هذه المرحلة قيام ثلاث دول، هي:

- الدولة العُبيدية أو ما يسميها البعض – زورًا – بالدولة الفاطمية، وسيكون حديثنا مقصورًا على الفترة المغربية من تاريخها، منذ قيامها بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م حتى انتقال خلفائها إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م.
- دولة المرابطين من سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م إلى سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م.
- دولة الموحدين من سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م إلى سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م.

ونستطيع أن نلمح ظاهرتين مشتركتين تجمعان هذه الدول الثلاث؛ أولاهما: امتداد سلطانهم إلى معظم جهات المغرب أو كلها، متجهة به نحو الوحدة التي افتقدها في عصر الدويلات، وثانيتهما: أن نفوذهم قد امتد إلى خارج المغرب، فبسط العُبيديون (الفاطميون) سلطانهم على مصر والشام، ومدَّ المرابطون والموحدون نفوذهم إلى الأندلس، وبذلك ارتبط المغرب بصورة أكثر إيجابية بأجزاء العالم الإسلامي الأخرى.

ونلمح أيضًا اختلافًا جوهريًّا بارزًا بين الدولة العُبيدية (الفاطمية) والدولتين الأخريين (المرابطية والموحدية)، فالدور المشرقي بارز في منشأ الدولة العُبيدية (الفاطمية) ومنزعها، فقد قامت على أساس مذهب الشيعة الإسماعيلية الذي نشأ في المشرق، وما لبثت أن اتجهت إلى مصر والشام، متخلية – في سبيل ذلك – عن دورها المغربي، أما دولتا المرابطين والموحدين فهما مغربيتان خالصتان، قامتا بتأثير العامل القبلي في المقام الأول، وكانتا تعبيرًا كاملاً عن استقلال البربر عن التبعية للتيارات المشرقية، وارتبطتا بالمغرب والأندلس دون أن تتجها نحو المشرق.

وسيقتصر حديثنا هنا عن الدولة العُبيدية الشيعية (الفاطمية) في طورها المغربي، أما دولتا المرابطين والموحدين فنخصص لهما الفصل الرابع من هذا الكتاب، وقد جمعناهما معًا في فصل خاص؛ لأنهما حكمتا المغرب والأندلس، وحققتا الوحدة السياسية للإقليمين معًا.

العُبيديون الشيعة (الفاطميون)[١] في بلاد المغرب (٢٩٦-٣٦٢ هـ/ ٩٠٨-٩٧٢ م)

أثمرت الدعوة إلى آل البيت في الأرض المغربية قبل العُبيديين (الفاطميين) بقيام دولة الأدارسة التي أسلفنا الحديث عنها، ولكننا نلحظ عند المقارنة أن دولة الأدارسة قامت نتيجة جهود فردية على أكتاف "إدريس بن عبد الله" وتابعه "راشد"، ولم يكن لها اتجاه مذهبي حاد أو فكر يبتعد بها عن النظم السنية المحيطة بها عند العباسيين أو أمويي الأندلس، ولذا لا نستطيع أن نصفها بأنها دولة شيعية، بل هي دولة هاشمية، أو علوية إذا تحرينا الدقة، أما الدولة العُبيدية (الفاطمية) فقد قامت بدعوة منظمة وتخطيط مرسوم، وكان لها دعاة على قدر كبير من الكفاءة والحماس، وقامت على أساس مذهب الشيعة الإسماعيلية الذي يتباين بوضوح مع أهل السُّنَّة.

ويُنْسَب هذا المذهب إلى "إسماعيل بن جعفر الصادق" من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب، لأن أتباعه يرون الإمامة حقًّا مقصورًا على أبنائه، ويُطلق على هذا المذهب أيضًا "الباطنية"؛ لأن أصحابه يرون أن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلاً، ويُطلق عليه أيضًا اسم "الإمامية"، وتشترك معه في ذلك فرقة الإثنا عشرية؛ لأن البحث في الإمامة وشروطها من أهم الأركان عندهم.

ويرى الإسماعيلية أن الإمامة ركن الدين وأهم أسسه، ولا يجوز أن تُفَوَّض للأمة، وإنما يُعَيِّن كل إمام خليفة، ويقولون بوصاية الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب، وأن عليًّا أوصى لأبنائه من نسل الحسن والحسين، فالإمامة حق لهم وحدهم.

ومن مبادئهم عصمة الإمام، وأنه لا يجوز عليه الخطأ، ويؤمنون بالتقيَّة والمهدية والرجعة، ومعنى التقية أنه يجوز للمرء أن يُظهر خلاف ما يؤمن به حمايةً لنفسه وماله، والمهدية والرجعة مرتبطان، ويُقصد بهما أن هناك إمامًا منتظرًا يستتر عن الأنظار، ولكنه سيعود في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً وخيرًا، بعد أن مُلئت جَوْرًا وشرًّا، ويحوي مذهبهم كثيرًا من الآراء والفلسفات الغريبة عن روح الإسلام ومبادئه.

---

(١) إن تسمية العُبيديين أنفسهم بالفاطميين نسبةً إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسميةٌ كاذبةٌ أرادوا بها خداع المسلمين، وجمهورُ العلماء على عدم صحة نسبهم، وأنهم كَذَبة أدعياء لا حظَّ لهم في هذا النسب الشريف. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٥/ ٢١٣. وابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/ ١١٧-١١٨. وابن تيمية: مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٦٣٦.

وبرغم التزام هذه الدعوة بالسرية، فقد وكَّل بها العباسيون العيون، وتتبعوا أصحابها، وقاوموها مقاومة عنيفة، فاضطر أصحابها إلى الالتجاء إلى الأطراف النائية، وقصد بعضهم اليمن، فحققوا أول نجاح لهم هناك، واستطاع زعيمهم "ابن حوشب" أن يقيم فيه أول دولة إسماعيلية.

وأرسل "ابن حوشب" دعاته إلى عمان والبحرين، وإلى المناطق النائية كإقليم السند، وإفريقية، وكانت بلاد المغرب لتطرفها وتمرد أهلها على سلطان الخلافة من أصلح البلاد لنمو دعوته، فاختار لها اثنين من أكفأ رجاله هما: عبد الله بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني، وأبو سفيان الحسن بن القاسم؛ لاستمالة قبائل المغرب لدعوتهم بستر وحذر، وليمهدا السبيل للدولة المرتقبة، وقال لهما: "بالمغرب أرض بور، فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر".

ووضعت الدعوة أقدامها على أول درجات النجاح عندما عرفت كيف تفيد من العامل القبلي الذي يُحرِّك تاريخ المغرب، وارتبطت بإحدى قبائل المغرب الأقصى القوية، وهي قبيلة كُتامة، وهي – كما يقول ابن خلدون– "من أشد قبائل البربر بأسًا وقوة، وأطولهم باعًا في المُلك"، وكانت لهم بطون كثيرة في المغرب الأقصى، ولم يكن في مقدور أحد من الولاة أن ينالهم بظلم لاعتزازهم بكثرة جموعهم، ونجح داعيتهم الجديد أبو عبد الله الشيعي في استمالة زعماء هذه القبيلة القادمين إلى مكة للحج، وانتقل معهم إلى بلادهم سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠٠ م.

وبوصول أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب تبدأ مرحلة مهمة من مراحل اتصالاته وتقصيه للأوضاع والظروف التي كانت تمر بها هذه البلاد، وكانت لدعوته بما يحيطها من غموض، وبما تحرِّكه من آمال، وتبشِّر به من عهد جديد يظلله العدل والخير، أثر السحر في نفوس البربر، فالتف حولها كثير من قبائلهم، واستطاع أن يوحِّد صفوف قبيلة كتامة خاصة للنهوض بأعباء الدعوة من الناحية العسكرية، وكان يقول لهم: "أنا لا أدعوكم لنفسي وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت"، وبهذه الطريقة جمع حوله الأعوان، وأصبح في مقدوره أن يطوِّر دعوته من اللسان إلى السنان، ليجابه أول قوة واجهته في بلاد المغرب الأدنى، وهي قوة الأغالبة، وقد تمكن من إحراز عدة انتصارات عليهم، كان أبرزها انتصاره في كينونة /كبنونة سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م.

وشجع هذا الانتصار أبا عبد الله على أن يرسل إلى إمامه المستتر أبي محمد عبيد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢ هـ/ ٩٠٩-٩٣٤ م) يدعوه إلى القدوم إلى المغرب، ووصل المهدي متخفيًا، ونزل على أمير سجلماسة اليسع بن مدرار، فأحسن استقباله في البداية، ثم تخوَّف من خطره على سلطانه، ووصلته مكاتبات من الأغالبة تحذره منه، فاعتقله.

وكان داعية العُبيديين (الفاطميين) يواصل انتصاراته على الأغالبة، ودخل عاصمتهم "رقادة" سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م، ثم أسقط في طريق دعوته دولة الرستميين أيضًا، واستولى على عاصمتهم "تاهرت"، واتجه بعد ذلك لإنقاذ إمامه من الأسر، فدخل سجلماسة، وقتل أميرها، وأخرج المهدي من سجنه، وقال لجنده وأتباعه: "هذا مولاي ومولاكم، وقد أنجز الله وعده، وأعطاه حقه، وأظهر أمره".

وسلَّم أبو عبد الله مقاليد الأمور إلى الإمام الجديد، وأخذ له البيعة بالخلافة في "رَقَّادة"- عاصمة الأغالبة- سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م، وشرع المهدي في مباشرة سلطاته، وصبغ الدولة بمذهبه، ومن التدابير التي اتخذها:

١. اتخذ لقب: المهدي أمير المؤمنين.
٢. أمر ألا تصدر فتوى إلا وفق مذهبه.
٣. أمر بإزالة أسماء الأغالبة من على منشآتهم وكتابة اسمه مكانها.
٤. أسند لرجاله من حاشيته مناصب مهمة مثل الإشراف على بيت المال، وقضاء رَقَّادة، وديوان الكتابة، والخراج، والحجابة.
٥. ضرب السكة باسمه.
٦. ثبَّت الموالي وأبناء العبيد في ديوان العطاء.
٧. أنشأ دارًا لصناعة السفن.
٨. قتل أبرز قادته ومؤسس إمارته (أبا عبد الله الشيعي) وأخاه العباس، إذ عمد إلى تجريد أبي عبد الله من جميع سلطاته، وإبعاد رجاله عنه، ثم القضاء عليهم تدريجيًّا، ثم الإجهاز عليه واغتياله بخطة أعدها له.

وكان أبو عبد الله الشيعي وأخوه العباس قد أحسا بالتنكر لهما وتضاؤل نفوذهما بعد أن اتجه المهدي إلى تركيز السلطات في يده، فأخذا يتآمران عليه مع زعماء كُتامة، فأمر بالتخلص منهما، وقتلهما على باب قصره في أول ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م.

٩. شرع في توطيد ملكه بالقضاء على ثورة أهل طرابلس سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م.
١٠. اتخاذه عاصمة جديدة لدولته في المغرب الأدنى وسمَّاها المهدية؛ لتكون ملاذًا له من الفتن، حيث قال عنها: "بنيتُها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار"، وجعلها على البحر لتنطلق منها غزواته البحرية ليحقق طموح دولته في الامتداد إلى مصر والأندلس.

وأصبح للعبيديين (للفاطميين) الزعامة على البحر المتوسط في عهد خليفتهم الثاني "القائم بأمر الله" (٣٢٢-٣٣٤ هـ/ ٩٣٤-٩٤٥ م)؛ إذ تمكَّن من إنشاء أسطول قوي، واستولى على جنوة وجنوبي إيطاليا، وكان في مقدوره أن يحقق مزيدًا من النجاح، ويفتح إيطاليا كلها لولا ظهور الفتن الداخلية ضده.

وواجه القائم ثورة البربر بزعامة أحد الخوارج من زناتة يسمى "أبا يزيد مَخْلَد بن كَيْدَاد اليفرني"، وقد امتدت ثورته حوالي أربع عشرة سنة، وكان هذا الثائر على مذهب الإباضية النكارية، وساءه أن تسقط دولتهم، فأخذ ينشر دعايته ضد العبيديين (الفاطميين)، ويتهمهم بالكفر والانتقاص من كبار الصحابة، واستباحة الأموال والدماء.

واتخذ هذا الثائر من جبال الأوراس الحصينة مركزًا له، ولقي استجابة من كثير من البربر الذين لم يجدوا في ظل العبيديين (الفاطميين) ما كانوا يحلمون به من استقرار وعدل، وساءهم تشددهم في تطبيق مذهبهم، وأنكروا كثيرًا من تعاليمهم.

وتلقَّب "ابن كيداد" بشيخ المؤمنين، وأعلن ولاءه لحاكم الأندلس الأموي "عبد الرحمن الناصر"، واتجه إلى الاصطدام المسلح بالعبيديين (بالفاطميين) سنة ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣ م، واستولى على الجزء الأكبر من أملاكهم، وتراجع أمامه خليفتهم من "رقادة" إلى "المهدية".

ولجأ العبيديون (الفاطميون) إلى الإفادة من العصبيات القبلية ومن العداء القديم بين زناتة وصنهاجة، واستطاعوا بذلك أن يقلبوا ميزان القوة لصالحهم، وأقبلت صنهاجة على مؤازرتهم ضد هذا الثائر الذي ينتمي إلى منافسيهم التقليديين.

وبدأ ابن كيداد يفقد كثيرًا من أنصاره بسبب سياسته في تقديم فريق على فريق، وخرجت بعض المدن عن طاعته بعد أن رأت ضعفه وظهور العبيديين (الفاطميين) عليه، ونجح المنصور أبو طاهر إسماعيل (٣٣٤-٣٤١ هـ/ ٩٤٥-

٩٥٢ م) في إلحاق الهزيمة الساحقة بابن كيداد سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م، وما لبث أن وافته منيته في السنة التالية، وبذلك خمدت ثورته، وابتهاجًا بهذا الانتصار اختط الخليفة مدينة جديدة تكون عاصمة له، وأطلق عليها "المنصورية" نسبة إليه.

وتمكنت الدولة من بسط سلطانها على المغرب كله في عهد المعز أبو تميم معدّ، المعروف باسم: المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٢ هـ/ ٩٥٢-٩٧٢ م) بفضل جهود قائديها جوهر الصقلي، وزيري بن مناد الصنهاجي، وامتد نفوذها من حدود طرابلس شرقًا حتى المحيط الأطلسي غربًا.

لم يكن في تخطيط الفاطميين أن يقنعوا بالمغرب، فهو منطقة فقيرة بسبب طبيعته الصحراوية الجبلية، كثيرة الاضطرابات بسبب تكوينه القبلي، وما انبث فيه من أفكار ومذاهب، ولذلك اعتبروه خطوة تمهيدية ينطلقون بعدها لتحقيق آمالهم في السيطرة على العالم الإسلامي.

ولذلك تطلعت أنظارهم إلى منطقة تتمتع بالثراء والاستقرار، وتقع في قلب العالم الإسلامي، ولذا كانت مصر محط آمالهم، وبدأت محاولاتهم في السيطرة عليها في عهد عبيد الله المهدي، ولكن الظروف لم تكن مواتية لتحقيق هدفهم، بسبب يقظة الخلافة العباسية ومسارعتها إلى التعاون مع الإخشيديين لإيقاف زحفهم، وفشلت حملاتهم الثلاث التي قاموا بها سنوات (٣٠٢ هـ/ ٩١٤ م، و٣٠٦ هـ/ ٩١٨ م، و ٣٢١ هـ/ ٩٣٣ م)، وارتدت على أعقابها.

فركزوا جهودهم غربًا، ريثما تتهيأ الأسباب، واتجهوا نحو الأندلس، ولكن حاكمها القوي المحنك عبد الرحمن الناصر وقف سدًّا منيعًا دون نجاحهم، واستطاع بسياسته البارعة أن يتحول من الدفاع إلى الهجوم، ويكسب منهم الجولات والمواقع، مستفيدًا من التيارات المناهضة لهم، وسيأتي تفصيل ذلك في حديثنا عن الأندلس.

وعاد العبيديون (الفاطميون) إلى الاتجاه نحو مصر في عهد المعز، بعد أن وطدوا أقدامهم وأمنوا ظهرهم بالقضاء على ثورة ابن كيداد، وبسط سلطانهم على المغرب الأقصى، وكانت الظروفُ داخل مصر مواتية لهم، فقد دبَّ الضعفُ في حكامها الإخشيديين بعد وفاة مؤسس دولتهم محمد بن طغج الإخشيدي سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م، ومرت البلاد بأزمة اقتصادية طاحنة بسبب نقصان مياه النيل، فغلت الأسعار، وانتشرت المجاعات تسع سنوات متصلة، وزادت الأحوال سوءًا، وسادت

الفوضـى بعـد وفـاة كـافور الإخشـيدي سـنة ٣٥٧ هـ/ ٩٦٧ م، وشُـغلت الخلافـةُ العباسية وأصحابُ السلطة الفعلية في بغداد (البويهيون الشيعة) بصراعاتهم الداخلية عن نصرة مصر، واحتدم الصدام بين عز الدولة أبي منصور بختيار وابن عمه عضد الدولة أبي شجاع فنَّا خسرو البويهي.

وكان العامة في مصر قد ضاقوا بما ساد بلادهم من فوضى وصراعات بين الجند والأمراء، وأصبحوا لا يأمنون على أنفسهم وأموالهم، ومال فريق منهم إلى دعوة العُبيديين (الفاطميين) الذين نشطوا في إرسال دعاتهم إلى مصر، فكاتبوا المعز لدين الله يدعونه إلى القدوم.

وتهيأ المعز لغزو مصر، فأعد الأموال والجند، وأمر بتمهيد الطريق من برقة إلى مصر، بحفر الآبار، وإقامة المنازل على رأس كل مرحلة سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م، ودفع بجيش جرار يقوده جوهر الصقلي، فوصل إلى الاسكندرية، حيث كان في استقباله وفدٌ من المصريين، فرحبوا به، ولم يجد القائد العُبيدي (الفاطمي) صعوبة في فتح الإقليم، والتقى بالقوات الإخشيدية عند الفسطاط، فألحق بها الهزيمة، وخلص له الأمر.

وبذل جوهر جهوده ليهيئ الجو لقدوم الخليفة العُبيدي (الفاطمي)، وبنى عاصمة جديدة هي "القاهرة"، ووصل المعز إليها سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م، وارتحل معه كثيرٌ من بطون كتامة، وبهرهم ثراءُ مصر، فغرقوا في الترف والبذخ حتى اضمحلت قوتهم ووهنت عصبيتهم، وأصبحت مصرُ منذ ذلك الحين مركزًا للوجود العُبيدي (الفاطمي)، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الدولة.

ونتج عن انتقال العُبيديين (الفاطميين) من المغرب ما يسمى بالفراغ السياسي، مما سمح بقيام عدة دويلات، وما لبث المغرب كله بأقسامه الثلاثة أن خرج عن طاعتهم.

وكان العُبيديون (الفاطميون) قد استخلفوا حلفاءهم بني زيري الصهناجيين على المغرب فواجهوا منافسة قوية من أندادهم الزناتيين الذين تمكنوا من الانفراد بالمغرب الأقصى، ثم انقسم بنو زيري على أنفسهم، فاستقل بنو حماد بالمغرب الأوسط، وأعلنوا ولاءهم للعباسيين سنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م، وبقى لبني باديس المغرب الأدنى، ولم يستمروا على ولائهم للفاطميين، بل أعلنوا استقلالهم عنهم سنة

٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م، وبذلك فقد الفاطميون كل نفوذ لهم في بلاد المغرب.

وبحث العبيديون (الفاطميون) عن سبيل للانتقام من بني زيري، وتوهين قوتهم، وذلك بشغلهم بالصراعات والفتن، وتفتق ذهن وزيرهم أبي محمد اليازوري عن خطة لتقوية التيار العربي بالمغرب، وذلك بدفع أعداد كبيرة من قبائل العرب الذين نزلوا صعيد مصر إلى المغرب، وإغرائها بانتزاع السلطان من بني زيري، فاصطنع الوزير مشايخ بني هلال، وبني سُلَيْم المضربين، وأغدق عليهم الهدايا، وقال لهم: "أعطيتكم المغرب، ومُلك المعز بن بُلُكِّين الصنهاجي العبد الآبق، فلا تفتقرون".

وبذلك حقق العبيديون (الفاطميون) هدفهم في الانتقام من الزيريين، وفي نفس الوقت تخلصوا من هذه القبائل التي كانت مصدر إزعاج لهم، وبدأت الزحفة العربية على المغرب منذ سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م، واستمر تيارها المتدفق عدة سنوات، ونتج عنها كثير من الحروب الطاحنة، وألحقت كثيرًا من الخراب والدمار بالمغرب.

وكان من نتائجها الحضارية زيادة الدماء العربية، وانتشار اللغة العربية والدين الإسلامي على نطاق واسع، ومن آثارها السياسية انقسام المغرب إلى دويلات عديدة أو طوائف استمرت حتى قامت دولة المرابطين فأعادت إلى المغرب شيئًا من الاستقرار والوحدة المفقودين.

***

الأمراء العُبيديون (الفاطميون) في المغرب

أبو محمد عُبيد الله المهدي	(٢٩٧-٣٢٢ هـ/ ٩٠٩-٩٣٤ م)
القائم بأمر الله أبو القاسم محمد	(٣٢٢-٣٣٤ هـ/ ٩٣٤-٩٤٥ م)
المنصور أبو طاهر إسماعيل	(٣٣٤-٣٤١ هـ/ ٩٤٥-٩٥٢ م)
المعز لدين الله أبو تميم معدّ	(٣٤١-٣٦٢ هـ/ ٩٥٢-٩٧٢ م) وفي عهده سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م انتقل العُبيديون إلى مصر، وتلقبوا بالفاطميين، حيث أوجد لهم المعز لدين الله النسب العلوي، وتسمى بالخليفة الفاطمي، ثم توفي بالقاهرة سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م.

***

ثانيًا: الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨-٤٢٢ هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠ م)

- الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦ هـ/ ٧٥٥-٩٢٨ م):

عندما صعد ملك بني العباس في بغداد، وتهاوى عرش الأمويين في دمشق، تتبَّع المنتصرون أبناء الأسرة الغاربة بالقتل، واحتالوا لاستدراج مَن استخفى منهم، وتظاهروا بالعفو عنهم، حتى إذا برزوا من مكامنهم امتدت السيوف لتطيح برؤوسهم، ولاذ مَن كُتبت له النجاة منهم بالفرار إلى المغرب والأندلس، وكان منهم ذلك الشاب الفتيّ الشجاع عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك الذي لُقِّب بالداخل؛ لدخوله الأندلس، ونعته أبو جعفر المنصور العباسي بصقر قريش.

استطاع صقر قريش أن يفلت من حبائل العباسيين، وأن يحلِّق عبر فلسطين ومصر ليحطَّ على المغرب، حيث لحق به مولياه "بدر" و"سالم"، ووجد هناك مؤازرة من أخواله البربر بني نفزة الذين تنتمي إليهم أمه "راح"، وحاول أن يقتنص إفريقية، ولكن واليها "عبد الرحمن بن حبيب" كان يتوجس من أمراء بني أمية الفارين، وغدر بمن لجأ إليه منهم، وأخذ يترصده، فواصل رحلة الخطر حتى بلغ المغرب الأقصى، ونزل على قبيلة زناتة، وأخذ يترقب الفرصة للوثوب على الأندلس، وانتزاعها من أمرائها المتناحرين.

ومهد عبد الرحمن بإرسال مولاه "بدر" ليستطلع له الأحوال، ويجمع له الأنصار، فالتقى هناك بأشياع بني أمية، فالتفوا حوله، وحاولوا الإفادة من الصراعات العنصرية في الإقليم، فاتصلوا أولاً بزعيم المضرية "الصُّمَيْل بن حاتم الكلبيّ"، فوجدوا منه تخوفًا وفتورًا، فولوا وجوههم شطر اليمنية وزعيمهم "أبي الصباح اليحصبي"، فلقوا منها استجابة وترحيبًا؛ إذ رأت في مناصرتها للأمير الأموي سبيلاً للظهور على منافسيها.

ونزل الداخل إلى شواطئ إلبيرة (غرناطة) سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م، والتف حوله مؤيدوه، وتوالى عليه الأمراء يعلنون طاعتهم، ويأخذون له البيعة من أجنادهم، وكان من اليسير عليه أن يتغلب على الوالي "يوسف بن عبد الرحمن الفهري" الذي انفض من حوله معظم أشياعه، لما وجدوه من قسوته على مخالفيه، وقيامه بإعدام بعض الثائرين عليه، وحاقت به الهزيمة في معركة المصارة (قرية على نهر قرطبة) يوم الجمعة ١٠ من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ/ ١٣ من مايو ٧٥٦ م، واستمر عبد

الرحمن الداخل في مطاردته حتى قتله سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م.

ولم يكن هذا الانتصار سوى بداية لمرحلة من النضال الطويل والعمل الشاق لتوطيد المُلك الجديد، وكان على الأمير الأموي أن يخوض صراعات متعددة الجبهات في الداخل والخارج ليوطد أقدامه ويحمي إمارته.

وكان من أشد الأخطار التي واجهها ثورة "العلاء بن مغيث اليحصبي" من زعماء "باجَّة" (Beja) غربي الأندلس (جنوب البرتغال حاليًّا)، وكان يعمل تحت شعار العباسيين وبتحريض منهم، وانضم إليه عدد من الأمراء، فأعلن تمرده سنة ١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م، واضطر الداخل إلى التزام جانب الدفاع في المرحلة الأولى، فأقام قريبًا من مركز التمرد، وتحصن في "قرمونة" (Carmona)، واكتفى بالتصدي لهجمات الثائر ودحرها حتى أوهن قوته وفلَّ عزيمته، وعندئذٍ انقلب الداخل من الدفاع إلى الهجوم، وبعد معركة حامية الوطيس، استمرت رحاها عدة أيام، مزَّق أعداءه، وأردى غريمه، ووضع رءوس القتلى في جواليق، وعليها أسماء أصحابها، وبعثها مع بعض التجار سرًّا إلى القيروان ومكة، نكاية واستهزاءً بالعباسيين، وكان أبو جعفر المنصور في موسم الحج، فراعته رؤيتها، وقال: "ما في هذا الشيطان مطمح، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر".

وفشلت محاولات الفرنجة في غزو المناطق الشمالية – كما سيأتي تفصيله– وشغلوا عن عبد الرحمن الداخل بمواجهة القبائل السكسونية المنشقة عليهم، وبذلك تمكَّن عبد الرحمن من الانفراد بالعصاة في الشمال، فأخضع "الحسين بن يحيي" والي "سرقسطة" (Zaragoza)، وأجبر قبائل البشكنس على الانقياد له والالتزام بالجزية.

وبهذه الجهود تمكَّن الداخل من إحياء مجده الزائل، وكان جديرًا بأن يشهد له ألد أعدائه بالكفاءة والمقدرة، فقد سأل أبو جعفر المنصور أصحابه عمن يستحق أن يُلقَّب بصقر قريش، فاختلفوا في الرأي، فقال لهم: إنه عبد الرحمن بن معاوية الذي تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظبأة السيوف، يعبر القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدًا أعجميًّا منفردًا بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه بحُسن تدبيره وقوة شكيمته".

استمرت الدولة الأموية في عقب عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ما يقرب من ثلاثمائة سنة (١٣٨–٤٢٢ هـ/ ٧٥٦–١٠٣٠ م)، ونجح خلفاؤه في الاحتفاظ

بها رغم منافسة القوى الإسلامية الكبيرة لهم كالعباسيين والعبيديين (الفاطميين).

واتبع عبد الرحمن الناصر – أعظم حكام هذه الدولة–(٣٠٠–٣٥٠ هـ/ ٩١٢–٩٦١ م) سياسة بارعة في التصدي لأطماع العبيديين (الفاطميين)، واستطاع أن ينقل ميدان الصراع إلى مناطق نفوذهم فيصرفهم من الهجوم إلى الدفاع، وأن يكسب منهم المواقع والجولات مستفيدًا من التيارات المناهضة لهم.

دفع الناصر بعيونه إلى المغرب لمراقبة تحركات العبيديين (الفاطميين)، وترصد أعدائه الأندلسيين اللاجئين إليهم، واهتم بمضاعفة قواته البحرية لحماية شواطئ الأندلس، ومنع وصول الإمدادات الفاطمية لابن حفصون الثائر عليه، وتمكن من إغلاق الطريق التي يمكن مهاجمته منها، وذلك باستيلائه على الثغور المغربية المواجهة لجبل طارق، فملك طنجة ومليلية سنة ٣١٤ هـ/ ٩٢٦ م، وسبتة سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م.

وتعاون الناصر مع القوى الممالئة للعبيديين (للفاطميين)، كأمير فاس موسى بن أبي العافية، واستمال زعماء زناتة، وشجعهم على الثورة، وأمد أبا يزيد مخلد بن كيداد اليفرني– الذي سلف ذكره في الحديث عن العبيديين (الفاطميين)– وفتح أبوابه لإيواء المتمردين اللائذين به، مثل: بنو صالح أمراء "نكور" بالمغرب الأقصى، وتعاون مع القوة الأوربية كالبيزنطيين والفرنجة الذين كانت تفزعهم سيطرة العبيديين (الفاطميين) على البحر المتوسط، ويطمعون في استرداد صقلية وجنوة من أيديهم، كما وطَّد علاقته بالإخشيدين حكام مصر (٣٢٣–٣٥٨ هـ/ ٩٣٤–٩٦٨ م) ، وأرسل الفقهاء المالكية، ومنهم محمد بن القاسم القرطبي، لمناهضة المذهب الإسماعيلي هناك.

وهكذا وقفت سياسة الناصر سدًّا منيعًا أمام تسرب النفوذ العبيدي (الفاطمي) والدعوة الإسماعيلية إلى الأندلس.

– الخلافة الأموية في الأندلس (٣١٦–٤٢٢ هـ/ ٩٢٨–١٠٣٠ م):

كان الحكام الأمويون في الأندلس يكتفون بلقب الأمير؛ اعترافًا منهم بوحدة العالم الإسلامي، وأن الأجدر بهذا اللقب هو الذي يشرف على الحرمين الشريفين، وبيده جزيرة العرب، ولكن بعد قيام الدولة العبيدية (الفاطمية) تغيرت وجهة نظر الأمويين، ورأوا أنهم أجدر أن يحملوا هذا اللقب من الخلافة العباسية التي يعتبرونها

في حكم المغتصَب، خاصة بعد أن ضعف خلفاؤها، وتقلص نفوذهم بعد أن سيطر عليهم القادة الأتراك السلاجقة، وأجدر به أيضًا من الخلافة العبيدية (الفاطمية) الطارئة، ورأوا في اتخاذهم لقب الخلافة قوة روحية تكسبهم احترام المسلمين، ومهابة رعيتهم، وحاجزًا يدرأ عنهم منافسة العبيديين (الفاطميين)، ويرد دعايتهم.

ولم يكن عبد الرحمن الناصر بعد أن دانت له الأندلس كلها يرى أنه أقل قوة من نِدَّيْه (العباسيين والعبيديين/ الفاطميين)، فأعلن نفسه خليفة، وأمر أن ينادي بأمير المؤمنين، وأصدر كتابًا إلى عماله بذلك في ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م، قال فيه: "قد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك؛ إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فَأْمُر الخطيب بموضعك أن يقول به، و أَجْرِ مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله".

وبذلك يكون الناصر قد استكمل جهود جده الداخل في إحياء ملك الأمويين، ووضع له الواجهة الروحية التي افتقدها، ولكن هذا التغيير في اللقب كان تغييرًا شكليًّا، ولم يترتب عليه تعديل في سياسة الدولة أو جهازها الإداري أو علاقتها الخارجية.

الثورات الداخلية:

ظلت الأندلس طوال عهدها الإسلامي عرضة للأخطار الخارجية المتمثلة في الفرنجة الذين امتدت أطماعهم– بعد نجاحهم في ضم ولايات غاليسيا كلها إليهم– عبر جبال البرنيه إلى المناطق الإسلامية، والإسبان وبقايا القوط الذين تجمعت فلولهم في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، مكونين مملكة ليون (أو جليقية)، وإلى جانب ذلك كانت الأندلس تتربع على قمة بركان من الصراعات الداخلية، والفتن التي فجرتها العصبيات العربية، والطامعون في السلطان، والبربر والمولَّدون (مسلمو الإسبان) الناقمون على النفوذ العربي، والنصارى المتعصبون.

ونبدأ بالحديث عن الصراعات الداخلية التي أمضى أمراء بني أمية وخلفاؤهم معظم عهودهم وجل جهودهم في مواجهتها.

ومن أخطر هذه الاضطرابات ثورة الفقهاء التي اندلعت في "الرَّبَض"، وهو

ضاحية قرطبة الواقعة على الجانب الجنوبي لنهر الوادي الكبير في عهد الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦ هـ/ ٧٩٦-٨٢١ م) الذي عُرف بالحكم الرَّبَضِيّ.

وكان فقهاء المالكية قد بلغوا درجة عالية من النفوذ والسلطة في عهد أبيه هشام بن عبدالرحمن الداخل، المعروف بـ"هشام الرضا" (١٧٢-١٨٠ هـ/ ٧٨٨-٧٩٦ م)، إذ دفعه ما عرف به من ورع وتقى، وشغف بمجالس العلم والدين إلى تبني مذهب مالك، وتقريب أتباعه، وكان الإمام مالك (٩٣-١٧٩ هـ/ ٧١١-٧٩٥ م) في المشرق معاصرًا له، متابعًا لسيرته، يُشيد بعدله وخلاله، وفي عهده تولى الفقهاء المالكية كثيرًا من المناصب المهمة، وكثر تدخلهم في أمور السياسة وشئون الدولة.

ولما خلفه ابنه الحَكَم حاد عن هذا المسار، وكان عزوفًا عن الفقهاء، شغوفًا باللهو، ومجالسة الندماء، فاتجه إلى الحدّ من سلطانهم، وإقصائهم عن مناصبهم ونفوذهم، فأخذوا يهاجمون سياسته، ويثيرون العامة ضده، متخذين من المنابر وسيلة للتشهير به، ومن أشعارهم وأدعيتهم سبيلاً للتعريض به، كأن يقولوا: "أيها المسرف المتمادي في طغيانه المُصِرُّ على كِبْرِه، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك".

ووجدوا استجابة من بعض أعيان قرطبة الناقمين على الحَكَم صرامته وبطشه بمن يخالفه، ومن المولَّدين والبربر الرافضين لسيادة العرب، ودبروا مؤامرتهم الأولى لخلع الأمير الأموي سنة ١٨٩ هـ/ ٨٠٥ م، وكان من ورائها يحيي بن يحيي الليثي، وعيسى بن دينار وغيرهما من الفقهاء، لكن أحد أنصارهم أفشى أمرهم، فبطش بهم الحكم، وأعدم اثنين وسبعين منهم وصلبهم، وعُرفت هذه الحادثة في التاريخ الأندلسي بـ"هيج الرَّبَض الأول".

ازدادت النقمة وسخط العامة، وتوجس الحَكَم منهم خيفة، فحصَّن قرطبة، ورمَّم أسوارها، واستكثر من الحرس، وفرض على الرعية أحكامًا صارمة، فدفعهم ذلك إلى التمرد مرة أخرى بعد أشهر قليلة، لكنه نجح في إخماد ثورتهم، وقبض على زعيمهم "ديبل" وكثير من أنصاره، فكان مصيرهم كسابقيهم.

جعلت هذه الأحداث مراجل الغضب تغلي في صدور أهل الربض، وأكثرهم من المولدين وطلاب العلم وأهل الحرف الكادحين، وفجَّر بركان الغضب حادث يسير، وهو اعتداء جندي من حرس الأمير على حدَّاد يصقل السيوف، فوثب عليه

العامة وقتلوه، ثم خرجوا في ثورة شعبية تلقائية سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٨ م، لكنها كانت تفتقر إلى الزعامة والتنظيم، ولم يكن معهم سوى أسلحتهم البسيطة من عصي وسكاكين وبلط، يتقدمهم بعض الفقهاء مثل: يحيي بن يحيي الليثي، وطالوت بن عبد الجبار، وعيسى بن دينار، حتى وصلوا إلى قصر الأمير في قرطبة وحاصروه، وعُرفت هذه الثورة بـ"هيج الربض الثاني".

وإزاء هذا الخطر كلف الأمير قوة من جنده وفرسانه باختراق الحصار وعبور النهر، فشقت الفوة طريقها نحو الربض وأضرمت النار في مساكن الثوار، فهُرعوا لإنقاذ بيوتهم وأسرهم، فأحاط بهم الجند، وأمعنوا فيهم القتل والنهب، وأمر الحكم بإجلاء أهل الناحية جميعًا ونفيهم، فتفرق بعضهم في البلاد، وفرَّ بعضهم خارج الأندلس متجهين إلى المغرب ومصر.

وترتب على هذه الثورة نتائج سياسية وحضارية مهمة، فقد تقلص نفوذ الفقهاء في الأندلس، وعبرت مع النازحين إلى المغرب التأثيرات الحضارية الأندلسية، فقد كان أكثرهم أهل صناعة وفنون، ورحَّب بهم الأدارسة- كما ذكرنا في حديثنا عن دولتهم- وأسكنوا في حاضرتهم "فاس" حوالي ثمانمائة أسرة منهم، وسموا شطرها الشرقي الذي أقاموا فيه "عدوة الأندلسيين".

واتجه حوالي خمسة عشر ألفًا من المنفيين في سفنهم إلى مصر، فنزلوا الإسكندرية، وأفادوا مما كان في البلاد من فتنة داخلية، ففرضوا سيطرتهم على المدينة، إلى أن قصدهم "عبد الله بن طاهر" قائد الخليفة العباسي "المأمون"، فأجلاهم عنها، فرحلوا في سفنهم إلى جزيرة إقريطش (كريت)، يقودهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطي، فأسسوا هنالك دولة صغيرة سنة (٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م)، عُرفت باسم "الدولة الكلبية"، وظلت قائمة إلى أن سقطت على أيدي البيزنطيين سنة (٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م).

وكان الخطر الثاني متمركزًا في "طليطلة" حاضرة الأندلس القديمة في عهدها القوطي؛ إذ كان معظم سكانها من مسلمي الإسبان الذين عُرفوا باسم: "المولدين"، ونصارى الإسبان المعاهدين الذين عُرفوا باسم: "المستعربين"، والفريقان يجمعهما التعصب ضد العرب والكراهية لسلطانهم.

وما لبثت "طليطلة" أن أعلنت ثورتها على الحكم العربي بقيادة "عبيدة بن

حميد"، ولجأ الحكم إلى أسلوبه العنيف الذي لا يتورع عن اللجوء إلى الغدر والغيلة، فاستمال إليه بعض أتباع هذا الثائر بالمال والوعود، فاغتالوه، وسكنت الفتنة، ولكن إلى حين، ثم برزت روح التمرد من جديد، فلجأ الحكم إلى خداعهم، فسكَّتهم يتولية أمير منهم عليهم يُدعى "عمروس بن يوسف"، وكتب لهم: "إني قد اخترتُ لكم فلانًا، وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه، وأعفيتُكم ممن تكرهون من عمالنا ومواليا، لتعرفوا جميل رأينا فيكم".

وتظاهر الوالي الجديد بممالأة أهل المدينة ضد السلطة المركزية، بينما كان يدبِّر مع الحكم مؤامرة للتخلص من زعمائهم، وكانت المؤامرة تقضي بأن يرسل الحكم جيشًا زاعمًا أن وجهته نصارى الشمال، ثم يُعرِّج في طريقه على "طليطلة"، ويخرج الوالي وزعماء "طليطلة" لتحيته واستقباله، ودُبِّرت المؤامرة في إحكام، وفي أثناء الحفل الذي أقامه الوالي لجيش الأمير في إحدى القلاع، وقد تعالت أصوات الموسيقى والطبول لتغطي على صيحات الاستغاثة، كانت تجري مذبحة رهيبة لهؤلاء الزعماء، وألقيت جثثهم في حفرة، حتى سُمي الحادث بواقعة "الحفرة" سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م.

وفي أواخر عهد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨ هـ/ ٨٢١-٨٥٢ م) ظهرت بين نصارى الأندلس حركة تعصب مقيتة عُرفت باسم: فتنة المستعربين، تزعمها قس كاثوليكي يدعى إيولوخيو (Eulogio)، دون أن تبدر من حكومة قرطبة أية مساءة أو ظلم لهم، وكان مبعثها رجال الدين والغلاة الذين دفعوا سفهاءهم إلى الانتقاص من تعاليم الإسلام والتطاول على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، مجاهرين بذلك، متحدين لمشاعر المسلمين، وكان من الطبيعي أن يُقدَّم هؤلاء للمحاكمة، فيبدو منهم إصرار غريب على غيهم وضلالهم، ويكررون سبابهم أمام القضاة، فيصدر عليهم الحُكم العادل، ويَلقون جزاء ما قدَّموا.

وعقد عبد الرحمن الأوسط مؤتمرًا دينيًّا في قرطبة، اجتمع فيه بالأساقفة وشرح لهم ما يمكن أن يترتب على هذا الاتجاه من عواقب وخيمة، وانتهى المؤتمر إلى إصدار قراره باستنكار مثل هذه الأعمال، وبرغم ذلك استمر هذا الاتجاه المتعصب.

وكانت أخطر الثورات التي واجهت الحُكم الأموي في الأندلس هي ثورة المولدين التي أشعلها المتمرد "عمر بن حفصون" وأبناؤه من بعده في أقصى الجنوب، في جبال "بُبَشْتر" (Bobasrto) المنيعة سنة ٢٦٥ هـ/ ٨٧٨ م، وامتدت

حتى سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م.

وكان "ابن حفصون" مُوَلَّدًا يرجع إلى أصل قوطي نصراني، وبرغم عراقة أسرته وثرائها اتجه إلى أعمال السلب والنهب، وكوَّن عصابة تلوذ بالجبال، وقد توالت محاولات الحكومة المركزية ضده حتى وقع أسيرًا، ثم عفا عنه الأمير "المنذر بن محمد" (٢٧٣-٢٧٥ هـ/ ٨٨٦-٨٨٨ م)، واستعمله في جيشه لما رآه من شجاعته، لكن نزعة التمرد غلبته من جديد، ففر مع بعض أصحابه إلى معقله الأول، وكثر أتباعه، وتمكَّن من السيطرة على معظم المناطق الجنوبية، فازداد طموحه، وتطلَّع إلى حُكم الأندلس كلها.

وعمل "ابن حفصون" على تقوية سلطانه، فأظهر الدعوة لبني العباس؛ أملاً في أن يلقى منهم العون، وكاتب والي إفريقية فلم يلق منه استجابة، فدعا المولدين والناقمين على العرب من الإسبان، وأثار فيهم روح العصبية والحقد، فالتفوا من حوله، استشرى خطره حتى هدَّد قرطبة نفسها.

وفي سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م أعلن ارتداده عن الإسلام، واعتنق النصرانية هو وأسرته، واتخذ لنفسه اسم: "صمويل"؛ أملاً في التفاف النصارى حوله، ولكن ذلك عاد عليه بالوبال، فانفضَّ من حوله كثير من رجاله وقادته من المسلمين، وتبرأوا منه، فاتجه إلى التحالف مع ثائر آخر، هو "إبراهيم بن حجاج" أمير إشبيلية وقرمونة.

وتوالت جهود الأمراء الأمويين في مقاومته، وذلك بتوهين قوته وإحباط خططه، ومنع وصول الإمدادات من المغرب إليه، وازدادت هذه الجهود في عهد عبد الرحمن الناصر، وتلقَّى هذا الثائر على يديه ضربات موجعة، وما لبث أن توفي سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م، وواصل أبناؤه الثورة والتمرد من بعده، لكنهم لم يكونوا في مثل قوته وبأسه، فوقعوا واحدًا بعد الآخر، واستولى الناصر على معقلهم الأخير "بُبَشْتر" سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م.

مواجهة الأخطار الأوربية:

تَمثَّل الخطر الأوربي في ثلاث قوى هي: "الفرنجة"، و"نصارى الشمال"، و"النورمانديون".

خطر الفرنجة:

وكان الفرنجة بعد أن بسطوا سلطانهم على ولايات "غاليسيا" (Galicia)

كلها يخشون بأس الدولة الإسلامية في الأندلس التي يفصلها عنها جبال البرنيه (البرانس) Pirineos، وبنى الفرنجُ سياستهم على أساس حماية ممتلكاتهم في فرنسا بمهاجمة أطراف الدولة الإسلامية الشمالية لشغلها بالدفاع عن نفسها والتحالف مع المنشقين عليها والطامعين فيها، ومحاولة اتخاذ خط دفاعي جنوب البرنيه بالاستيلاء على بعض الثغور والمواقع الإسلامية.

وتنفيذًا لهذه السياسة استجاب "شارلمان" (امبراطور الغرب، وزعيم الإمبراطورية الكارولنجية، وحفيد الإمبراطور شارك مارتل) لدعوة الثائرين على عبد الرحمن الداخل، فكان منهم: "سليمان بن يقظان الكلبي" أمير "برشلونة" (Barcelona) وجِيرُونَةُ (Gerona)، و"الحسين بن يحيي الأنصاري" أمير "سرقسطة" (Zaragoza)، حيث كانا يخشيان انتقام الأمير الأموي منهما بعد أن أعلنا تمردهما وانتصرا على الجيش الذي سيَّره إليهما وأسرا قائده.

وزحف "شارلمان" في جيش ضخم، وأحس حليفاه أنه ينوي أن يبدأ بهما ويستولي على مملكتيهما؛ تنفيذًا لرغبته في تكوين خط وقائي جنوب البرنيه، فنزع الحسين بن يحيي يده من هذا التحالف، وتحصَّن في ولايته خلف أسوار "سرقسطة"، وقاوم في بسالة حتى ردَّه عنها.

استاء "شارلمان" لهذا التطور الذي لم يكن في حسبانه، والذي حوَّل غزوه من رحلة ممتعة إلى حرب مضنية، فقبض على حليفه الثاني سليمان بن يقظان، وقرر العودة من حيث أتى، وفي جبال البرنيه، وعند ممر رونسفال الجبلي في جبال البرانس (الواقع على الحدود بين فرنسا وإسبانيا، والذي تسميه المصادر العربية: باب شيزروا أو باب الشرزي) كانت في انتظاره مفاجأة أشد وأقسى، إذ تعقبه "مطروح" و"عيشون" ولدا سليمان بن يقظان لإنقاذ أبيهما، وعزلا عنه مؤخرة جيشه، حيث الغنائم والأسرى، فأوقعا بها هزيمة فادحة سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م، وخلَّصا أباهما، ويبدو أن طائفة من قبائل البشكنس المعادية لشارلمان شاركت في هذا الهجوم الذي أبيد فيه خيرة جنده وفرسانه؛ لأن المصادر الفرنجية تنسب ما حلَّ به لهذه القبائل، وعُرفت هذه المعركة باسم: معركة باب الشرزي، أو معركة ممر رونسفال (Batalla de Roncesvalles).

وتبع ذلك فترة من الهدوء، جنح فيها الفريقان للمسالمة والتهادن، وعقدا معاهدة صداقة وحسن جوار، وساعد على هذا الاتجاه انشغال كل منهما بما لديه

من فتن داخلية، فعبد الرحمن الداخل يواجه الثائرين عليه، وشارلمان يواجه القبائل السكسونية الناكثة.

ولم يقبل هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢-١٨٠ هـ/ ٧٨٨-٧٩٦ م) أن يظل المسلمون في موقف الدفاع، فأعلن استئناف الجهاد والغزو في غاليسيا سنة ١٧٦ هـ/ ٧٩٢ م، وعبر جيشه جبال البرنيه، وغزا سبتمانية، وأسقط عديدًا من القلاع، واقتحم بعض المدن الحصينة، وعاد مُحمَّلاً بالسبي والغنائم.

وعاد الفرنجة إلى سياسة التعاون مع المنشقين على حكومة قرطبة، فأكرموا وفادة عبد الله عم الحكم بن هشام عندما لجأ إليهم وطلب عونهم لانتزاع الملك من ابن أخيه، وسيَّر معه شارلمان ابنه لويس، فاستولى على بعض المدن الإسلامية الشمالية، ولكن هشامًا بادر إلى ردِّهم، واسترداد ما استولوا عليه.

وعندما لم تؤت سياسة التحالف مع المنشقين ثمارها المرجوة اتجه الفرنجة إلى تأمين حدودهم بالاستيلاء على بعض الثغور الإسلامية الشمالية، وإنشاء ولاية فرنجية تقف حائلاً دون غزوات المسلمين لهم، فدفع شارلمان بقواته سنة ١٨٥ هـ/ ٨٠١ م للاستيلاء على "برشلونة"، وكان الأمير الأموي "الحكم بن هشام" (١٨٠-٢٠٦ هـ/ ٧٩٦-٨٢٢ م) مشغولاً عن نجدتها بمواجهة الثائرين عليه، وبرغم ما أبدته المدينة من مقاومة باسلة وما أظهره واليها "سعدون الرعيني" من شجاعة نادرة، فقد سقطت أخيرًا في أيدي الغزاة، وأصبحت ولاية تابعة لهم، وما لبثت أن نمت وأصبحت إمارة مستقلة عن الفرنجة تحت اسم: "قطالونيا".

وليس من المستبعد أن تكون الخلافة العباسية وراء هذه الغزوات الفرنجية بالتحريض والتعضيد، فقد كان الفريقان يشتركان في هدف واحد وهو إضعاف الدولة الأموية في الأندلس، ومنع خطرها من الامتداد إلى مناطق نفوذهما في فرنسا والمغرب، وبخاصة بعد أن انتصر عبد الرحمن الداخل على العلاء بن مغيث الجذامي حليف العباسيين، ولم يكن في مقدورهم أن يواجهوه مواجهة مباشرة إلا عن طريق إغراء أعدائه به، ويُقوِّي هذا الاحتمال ما نعرفه من حسن الصلات بين الفريقين وتبادل السفراء بين الإمبراطور "بيبين الثالث" (أبي شارلمان) والخليفة أبي جعفر المنصور سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥ م، ثم بين شارلمان والخليفة هارون الرشيد عدة مرات.

خطر نصارى شمال إسبانيا:

وكان الخطر الثاني الأشد فتكًا والأوخم عاقبة هو تجمُّع الإسبان وبقايا القوط

فـي الشـمال حتـى كونـوا ممالـك قويـة أخـذت تزحـف علـى الوجـود الإسـلامي فـي الأندلس وتدفعه إلى التقلص والانكماش نحو الجنوب إلى أن أزالته عن الأندلس كلها في النهاية.

وقد بدأت جرثومة الخطر صغيرة محدودة الأثر، فلم يتنبه المسلمون إلى أثرها وخطرها البعيد، ولم يولوها الاهتمام الكافي، وتمثلت في فلول القوط والإسبان المنهزمين أمام الموجات الأولى للفتح الإسلامي، لائذة بالجبال المنيعة والطبيعة الوعرة في أقصى الشمال، وتكوَّنت منهم مجموعتان؛ إحداهما في هضاب "كانتابريا" (نافار) في الشرق، والأخرى في هضاب "أشتوريش" (جليقية) في الغرب.

ووجه ولاة الأندلس حملاتهم إلى هذه المناطق، وأهمها الحملة التي اجتاحت بلاد البشكنس وهضاب أشتوريش سنة ٩٨ هـ/ ٧١٦ م، وحاصرت زعيم الإسبان بلاي- كما يسميه العرب- أو (بيلايو Pelayo/ بلاجيوس) في كهوفه المنيعة وسط الآكام والوهاد، حتى تساقط أتباعه جوعًا، ولم يبق منهم إلا بضع عشرات، فلم يُقم المسلمون لهم وزنًا، ورجعوا إلى الجنوب.

وما لبث "بلاجيوس" أن استعاد قوته وتعاظم أتباعه وكثرت غاراتهم على المناطق الإسلامية، وفشلت جهود القادة المسلمين في تعقبهم وسط جبالهم المنيعة، وأتيح لهذه القوة أن تتحول إلى إمارة قوية بسبب انشغال الولاة المسلمين بمواجهة الفتن الداخلية المتعددة، وبخاصة بعد الزواج السياسي بين أمير "كانتابريا" ألفونسو الأول (Alfonso I) و"أرموزندة" ابنة "بلاجيوس"، وتكونت منها إمارة واحدة تمتد من بلاد البشكنس شرقًا حتى المحيط غربًا، وعُرفت باسم: "مملكة ليون" (Reino de León)، واستطاعت أن تضم إليها خلال سنوات كثيرًا من المناطق المجاورة بإغارتها على ممتلكات المسلمين سنتي ١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م، و ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م.

وعندما استتب الأمر للأمير الأموي عبد الرحمن الداخل وجَّه جهوده لدرء هذا الخطر، وتوغل جيشه في المملكة الإسبانية وأجبرها على دفع جزية كبيرة، ولكنها سرعان ما تمردت مرة أخرى، واستمرت هذا الإمارة الإسبانية تناضل من أجل البقاء والتوسع، وتوالت حملات الأمويين ضدها، وتعاقبت الانتصارات والهزائم دون نتيجة حاسمة.

وإلى جانب هذه المملكة قامت إمارة أخرى إسبانية في جبال البشكنس هي مملكة نَبَرَّةُ أو نَبَارَّةُ (Reino de Navarra)، فقد استطاعت القبائل القاطنة في هذه المنطقة أن تحتفظ باستقلالها، وتقاوم غزوات الفرنجة والمسلمين ومحاولات

أمـراء "ليـون" (جليقيـة) لإخضـاعها، واسـتطاع زعـيمهم "جارسـيا" (Garcia) أن يؤسس أسرة حاكمـة تتـوارث الملـك، واتخـذت هـذه المنطقـة شـكل دولـة أو إمـارة مستقلة، وكانـت لهـم علاقـة وطيـدة بأسـرة بنـي قسـي الإسـلامية التـي اسـتقلت فـي منطقة "الثغر الأعلى" في الشمال.

وتكثفت جهود الأمويين ضد هاتين الإمارتين في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ/ ٩١٢-٩٦١ م) الـذي قـاد قواتـه بنفسـه عـدة مـرات، وسيَّر إليهم خيرة جنده وقادته، فتحالفت الإمارتان ضده، وتمكَّن الناصر من دحر هذا التحالف بغزواته القوية، ولكن جهوده كانت مقصورة على إيقاف الزحف الإسباني، وحصر نطاق الخطر، دون أن يتمكَّن من القضاء عليه نهائيًّا.

خطر النورمانديين المجوس:

تعرضت الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨ هـ/ ٨٢١-٨٥٢ م) لخطـر أوربـي ثالـث، هـو غـارات النورمانـديين البحريـة علـى مناطقهـا الساحلية، والنورمانديون كلمة تعني "سكان الشمال"، وتُطلق على قبائل "الفايكنج" الذين ينحدرون من إسكندنافيا، وهم أمة بحرية لها تاريخ طويل في جوب البحار ومقارعة أهوالها، وكثرت هجماتهم على الشواطئ الأوربية واحتلال بعض مدنها بهدف السلب والنهب، ثم الارتداد إلى سفنهم، مدفوعين إلى ذلك بما جُبلوا عليه من روح المخاطرة وشظف بلادهم.

ووصلت أساطيلهم إلى مياه الأندلس سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م، ونزلوا عدة مدن ساحلية، مثل: "قادس" (Cádiz)، و"برشلونة" (Barcelona) حتى بلغوا "إشبيلية" (Sevilla)، فعاثوا في البلاد، ونهبوا خيراتها، وقصدتهم جيوش المسلمين حتى ردتهم على أعقابهم بعد معارك طاحنة.

ونبهت هذه الغارة الأمراء الأمويين إلى ضرورة الاهتمام بمضاعفة قوتهم البحرية وبناء السفن الكبيرة، فبنى عبد الرحمن الأوسط دارًا لصناعة السفن الحربية، وزودها برجال مدربين، وآلات، وقوارير النفط، وأقام أسطولاً على الشاطئ الغربي كما فعل بالشاطئ الشرقي، فكانت قاعدة الأسطول على المحيط الأطلنطي "الأشبونة/ لشبونة" (Lisboa)- عاصمة مملكة البرتغال حاليًّا- وعلى البحر الأبيض المتوسط في "مالقة" (Málaga)، ثم زاد اهتمام الأمويين بالبحرية حتى بلغ

أسطولهم في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ/ ٩١٢-٩٦١ م) حوالي مائتي سفينة.

وكانت هذه الغارات تشكِّل قلقًا بالغًا للأندلسيين، وتقتضي منهم الاستعداد الدائم؛ إذ كانت تحدث فجأة، وهم لا يعرفون لأصحابها موطنًا يهاجمونهم فيه ويثأرون لأنفسهم.

وتكررت هذه الغارات في عهد الأمير "محمد بن عبد الرحمن" (٢٣٨-٢٧٣ هـ/ ٨٥٢-٨٨٦ م)، وبالتحديد سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م، حيث بدأ النورمان بمهاجمة شواطئ الأندلس الغربية، فردتهم السفن الإسلامية على أعقابهم، فاتجهوا إلى المناطق الجنوبية، واستولوا على منطقة الجزيرة الخضراء (Algeciras)، وتصدت لهم القوات الأندلسية في البر والبحر حتى وهنت قوتهم، فانسحبوا نحو الشمال.

ضعف الحكم الأموي ونهايته:

كان عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ/ ٩٦١-٩٧٦ م) آخر عهود القوة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، وانكمش بعده نفوذ الخلفاء، وتسلط عليهم الوزراء والقادة، وكثرت الصراعات داخل الأسرة الحاكمة، وانبثقت الفتن والاضطرابات في كل مكان.

لم يخلف الحكم المستنصر سوى ابنه الحدث "هشام الثالث" الذي عُرف بلقب "المؤيَّد بالله" أو "هشام المؤيَّد" (٣٦٦-٣٩٩ هـ/ ٩٧٦-١٠٠٩ م)، وكان قد أخذ له البيعة قبل وفاته، ولكن رجاله اختلفوا عليه، فرأت طائفة العسكر أن يولوا "المغيرة" أخا "المستنصر"، بينما رأى الوزراء – وعلى رأسهم الحاجب أبو جعفر المصحفي– ضرورة الالتزام بعهد الخليفة الراحل؛ إذ كان من مصلحتهم أن يتولى العرش فتى صغير، فيتسنى لهم أن يحققوا مزيدًا من النفوذ والسلطان، ويفرضوا وصايتهم عليه، لذا فقد دبروا مؤامرة لاغتيال "المغيرة"، ووكلوا تنفيذها إلى "محمد بن أبي عامر" الذي كان يتمتع بثقة أم الخليفة السيدة "صبح البشكنسية"، وأخذ شأنه يعلو منذ ذلك الحين.

وكان ابن أبي عامر يتصف بالحيلة والدهاء، فعمل على التخلص من ذوي النفوذ في القصر، بالاستعانة بفريق ضد فريق، وإغراء بعضهم ببعض، فدفع الوزيرَ المصحفيَّ ليتخلص من الصقالبة الذين بلغوا شأوًا بعيدًا في القصر وإدارة الدولة منذ اعتمد عليهم الخليفة الراحل الحكم المستنصر، فأخرجهم من القصر، وكان

عددهم أكثر من ثمانمائة، ثم تحالف ابنُ أبي عامر مع أحد رجال البلاط وهو الفارس "أبو تمام غالب بن عبد الرحمن الناصري"، وتزوج من ابنته "أسماء"، وأفاد منه في التخلص من المصحفيّ، ثم استعان بأحد قادة الشيعة ويسمى "جعفر بن علي الأندلسي" للتخلص من غالب، ثم استعان بآخرين لاغتيال حليفه الأخير.

وأصبحت السلطة الفعلية في يد ابن أبي عامر (٣٦٨-٣٩٢ هـ/ ٩٧٨-١٠٠٢ م)، فاتخذ لنفسه جندًا وأنصارًا من البربر لتخوفه من الاعتماد على العرب، وتلقب بالمنصور والحاجب، وأمر أن تنفذ الكتب الرسمية باسمه وأن يُدعى له على المنابر بعد الخليفة، وابتنى لنفسه مدينة شرقي قرطبة أسماها "الزاهرة"، وحجر على الخليفة، ومنع رجال دولته من الاتصال به.

ورغم كل شيء فقد كان المنصور بن أبي عامر إداريًّا ناجحًا، وعسكريًّا قادرًا، فأحرز انتصارات مؤزرة في غزواته العديدة ضد الممالك النصرانية في شمال إسبانيا، وقد بلغت هذه الغزوات – على أرجح الروايات– اثنتين وخمسين غزوة.

وبعد حياة حافلة بالغزو والجهاد والصراع توفي سنة ٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م أثناء رجوعه من الغزو، وتولى مكانه ابنه أبو مروان عبد الملك الذي لُقب بالمظفر (٣٩٢-٣٩٩ هـ/ ١٠٠٢-١٠٠٩ م)، وهكذا أصبحت الأسرة العامرية بمثابة دولة داخل الدولة الأموية، تتوارث الملك، وتملك في يدها كل مقاليد الحكم، وجرى الأمير الجديد على سنن أبيه في الغزو، وحقق عديدًا من الانتصارات.

وخلفه أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجول (Abderramán Sanchuelo)، نسبةً إلى جَدّه لأمه ملك "نافار" (Navarra) "سانشو غرسية" (Sancho Garcia)، وشنجول تعني: شانشو الصغير، حيث كانت أمه تدعوه منذ صغره باسم شنجول (Sanchuelo) تذكُّرًا منها لأبيها سانشو، ولأنه كان شديد الشبه بجده، أشقر البشرة مثله بهيئة إفرنجية واضحة، وكان لذلك أثره في انصراف أهل الأندلس عن محبته والتعاطف معه، كما أنه ورث عن جده طموح الملوك في الوصول بسرعة إلى أعلى مراتب السّلطة والنفوذ والأبهة وعقد مجالس اللهو والشراب، فابتعد الناس عنه.

وعندما وصل شنجول إلى منصب الحجابة خلفًا لأخية عبد الملك خطا خطوة جديدة نحو الاستئثار بما بقي للأمويين من سلطة اسمية، حيث حمل الخليفة

"هشامًا المؤيَّد" على أن يعهد له بولاية العهد من بعده، فاستاء وجوه الدولة ورجال الأسرة الأموية، وكرهوا أن تنتقل الخلافة من المضريين إلى بني عامر القحطانيين، وأغضبهم موافقة الخليفة على ذلك، فخلعوا طاعته، وبايعوا أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر وهو "محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر" ولقبوه "المهدي بالله"، ووثب فريق منهم على "عبد الرحمن بن أبي عامر" (شنجول) فقتلوه في اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ/ ٣ من مارس ١٠٠٩ م، ووضعوا بذلك نهاية لأسرته العامرية وحكمها في الأندلس.

وبرغم ما كان لهذه الأسرة من مآثر، وإيقافها لخطر الإسبان، فإنها كانت أول الوهن الذي دبَّ في أوصال الدولة الأموية في الأندلس، إذ فقد خلفاؤها هيبتهم، وتجرأ الكثيرون على شق عصا طاعتهم، طامعين أن يكون لهم مثل ما للعامريين من نفوذ وسلطان.

وكانت الفترة التالية من سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م إلى سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠ م فترة تدهور وانهيار للحكم الأموي في الأندلس الذي دام ما يقرب من ثلاثة قرون، وتوالى على عرش الخلافة خلال هذه الفترة القصيرة (٢٣ سنة) ما يربو على عدد حكامها السالفين، وتفاقمت العصبية والانقسامات بين البربر والعرب والصقالبة والقرطبيين، ولجأ كل فريق إلى الاستعانة ضد منافسيه بأمراء الإسبان في الشمال.

واستمر هذا الوضع المضطرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠ م عندما توفي آخر حكام الأسرة الأموية وهو "المستعين بالله"، فوقف الوزير "أبو محمد بن جهور" ليعلن نهاية الخلافة الأموية لعدم وجود مَن يستحقها، وحكم الدولة مجلس شورى من الوزراء يرأسه ابن جهور، بما يشبه النظام الجمهوري في العصر الحديث، وترتب على سقوط الدولة الأموية استقلال كل أمير بولايته، ودخول الأندلس في عهد جديد من الانقسام والضعف عُرف باسم: "عصر ملوك الطوائف"، وسنعرض له في السطور التالية.

<u>– ملوك الطوائف والممالك الإسبانية (٤٢٢-٤٨٤ هـ/ ١٠٣٠-١٠٩١ م):</u>

أدى ضعف الدولة الأموية وسقوطها إلى تمزق الأندلس الإسلامية وانقسامها، فقد طمع كل أمير في الاستقلال بولايته، وظهر عدد كبير من الإمارات الصغيرة المستقلة، حتى أطلق المؤرخون على هذه الفترة "عصر ملوك الطوائف"، ولم يقف الحال عند هذا الحد، بل ساد الصراع والتناحر؛ إذ تطلع كل منهم إلى

الاستئثار بما في يد الآخرين ليؤول إليه ملك الأندلس كلها، ولم يتورع فريق منهم – في سبيل مآربه – عن الاستعانة بالإسبان ضد إخوانه المسلمين، فأتاحوا لهم فرصة ذهبية للإفادة من هذه الصراعات والبدء في تنفيذ مخططهم لالتهام الأندلس الإسلامية، والإلقاء بالمسلمين خارج حدودها.

ويكفي أن نعطي صورة عامة مجملة للأندلس في هذه المرحلة، دون أن نتتبع بالتفصيل تطور الأحداث في كل إمارة من إماراتها، ويمكننا أن نحدد ممالك الطوائف – كما فعل المؤرخ الألماني يوسف أشباخ – في أربع مجموعات، أولاها في جنوبي الأندلس يتزعمها بنو حمود، وهم من نسل الأدارسة العلويين الذين كانوا يحكمون المغرب الأقصى، ثم استعملهم آخر الخلفاء الأمويين هشام المؤيَّد بالله على الجزيرة ومالقة، فما لبثوا أن أعلنوا استقلالهم سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م، واتخذوا ألقاب الخلفاء، ويجري في ركابهم بنو زيري أمراء غرناطة، وأمير قرمونة محمد بن عبد الله بن إسحاق البرزالي.

والتجمع الثاني في الجنوب الغربي، ويضم بني عبَّاد أمراء إشبيلية، وبني جهور حكام قرطبة، وبني الأفطس أمراء بطليوس، وكان بنو عبَّاد زعماء هذا الفريق، وأقوى ملوك الطوائف، وهم من أصل شامي، استعملهم بنو حمود – في الفترة التي سيطروا فيها على قرطبة – على إشبيلية، فاستقلوا بها، وتعاونوا مع بني جهور، الذين وضعوا نهاية لحكم بني أمية، وحكموا قرطبة من خلال مجلس شورى، وكان أميرهم أبو الحزم بن جهور يفيد من هذا النظام، فينسب إلى هذا المجلس القرارات التي تثير سخط الناس، وينسب لنفسه ما يرضون عنه، وكانت قرطبة تحاول أن تحتفظ لنفسها بالسلطة على أمراء الأندلس كما كان الحال في العهد الأموي دون جدوى.

وفي وسط الأندلس ظهرت إمارة إسلامية قوية يحكمها بنو ذي النون في طليطلة، ومؤسسها إسماعيل بن عبد الرحمن الملقب بالظافر سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م، فقد أعلن تحديه للسلطة الجديدة في قرطبة، ورفض أن يدين لها بالطاعة.

وفي شرقي الأندلس، وعلى شواطئ المتوسط ظهر تجمع رابع يتزعمه بنو عامر أمراء بلنسية، وهم أحفاد المنصور بن أبي عامر الحاجب الذي أسلفنا الحديث عنه، ومن ورائهم التجيبيون أمراء سرقسطة (التي تسمى أيضًا الثغر

الأعلى) حتى غلبهم عليها بنو هود، ويضم هذا الفريق بعض الأمراء الآخرين الأقل قوة وسلطة.

وفي الوقت الذي تمزقت فيه وحدة الأندلس الإسلامية على هذه الصورة كانت الممالك النصرانية في الشمال تزداد قوة واتساعًا على حساب المسلمين، وكانت نقطة البداية في ظهور مملكتي ليون (León) ونافارًا (نبرَّة) (Navarra) اللتين تحدثنا عنهما، وما لبثت نافارًا (نبرَّة) أن امتدت واتسعت جنوبًا في عهد ملكها سانشو الثالث (Sancho III) ت ١٠٣٥ م (٤٢٧ هـ)، ثم قُسِّمت مملكته بين أبنائه الأربعة، فأصبحت هناك خمس ممالك نصرانية، ولكن ما لبث معظمها أن آل إلى ابنه الثاني فرناندو الأول (Fernando I) الملقب بالكبير (El Magno)، الذي كان يحكم مملكة قشتالة (Reino de Castilla)، ثم صار إليه عرش ليون (León) بعد وفاة صهره، وضم إليه معظم ممتلكات إخوته بعد معارك عديدة حالفه فيه النصر، ثم حالفه الحظ أيضًا بوفاتهم واحدًا إثر الآخر، ولم يترك إلا أجزاء يسيرة لابني أخويه سانشو الرابع (Sancho IV) ملك نافارًا (نبرَّة) (Navarra)، وسانشو الأول (Sancho I) ملك أراجون (Aragón).

وبذلك أصبح فرناندو الأول (Fernando I) ممثل إسبانيا النصرانية في مواجهة الأندلس الإسلامية، ولم يكن في حروبه مع المسلمين أقل ظفرًا من حروبه مع إخوته؛ إذ انتزع منهم كثيرًا من القلاع والحصون، واستولى على سمورة (Zamora) ولاميجو (Lamego)، وأسكن النصارى في المناطق التي فتحها ليكونوا مانعًا بشريًّا يحول دون عودة المسلمين إليها، وحاصر طليطلة وسرقسطة، وأجبرهما أن يدينا له بدفع الجزية.

ووقع فرناندو الأول (Fernando I) في الخطأ الذي ارتكبه أبوه، إذ قسم مملكته بين أولاده الثلاثة وابنتيه، فاشتعل من بعده الصراع بينهم من أجل الاستئثار بالملك كله، وجرت الأحداث في نهايتها لصالح ابنه الأوسط ألفونسو السادس (Alfonso VI) الذي استطاع بالخديعة والدهاء أن ينفرد بمملكة أبيه كلها، وأن يخلفه في قيادة إسبانيا النصرانية ضد مسلمي الأندلس.

وكانت الممالك النصرانية في عهده ثلاثة، أقواها مملكته قشتالة (Reino de Castilla)، وتضم ليون وجزءًا من نافارًا (نبرَّة) (Navarra)، وإلى جوارها مملكة

أرجوان (Reino de Aragón) التي يحكمها سانشو الثاني (Sancho II) ومملكة كتالونيا (Reino de Cataluña) التي يحكمها الكونت ريموند برنجار (Ramón Berenguer)، وكان على صلة وثيقة بالفرنجة وراء البرنيه (البرانس).

وبينما كانت الممالك النصرانية تتجه على هذا النحو إلى الاستقرار، وتفرغ من صراعتها الداخلية، مركزة نشاطها للزحف على المناطق الإسلامية، كانت الأندلس الإسلامية تموج في بحر من الصراع والتطاحن، لا يتورع أمراؤها عن الاستعانة بأمراء الإسبان، ولا يجدون غضاضة في أن يخضعوا لهم بالجزية مقابل هذا العون.

كانت حكومة قرطبة تحاول الاحتفاظ بسالف سلطانها على الممالك الإسلامية، وكتب حاكمها ابن جهور إلى أمراء الطوائف يدعوهم إلى طاعته، فلم يجد منهم إلا الرفض والسخرية، ولم يحفل بعضهم بمجرد الرد عليه، وأعلن بنو ذي النون أمراء طليطلة عن عدائهم لحكومة قرطبة، واستعدوا لحربها مستعينين بمرتزقة من القشتاليين، فاضطرت قرطبة إزاء هذا الخطر إلى عقد محالفة مع بني عباد وبني الأفطس، واعترفت لهما باستقلالهما، واستمرت الحرب بين الجانبين سجالاً عدة سنوات.

وقد خرج بنو عباد بنصيب الأسد من هذه الصراعات، إذ استولوا على ملك بني حمود وأتباعهم في الجنوب، ثم غدروا بحلفائهم في قرطبة فانتزعوها منهم سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م، وبذلك صارت لهم السيطرة على جنوبي الأندلس وغربيها.

سببت قوة بني عباد المتزايدة خوفًا وقلقًا لدى أمراء طليطلة، وكانوا على صلة طيبة بملك الإسبان ألفونسو السادس (Alfonso VI)، فوثَّقوا هذه العلاقة بعقد تحالف معه، فسعى ابن عباد إلى إحباط هذا التحالف، والاستئثار بصداقة ألفونسو السادس، فبعث إليه برسوله ابن عمار، واستطاع أن يعقد معه محالفة تقضي بأن يمده ألفونسو السادس بالجند المرتزقة في حروبه مع أمراء المسلمين، وأن يلتزم ابن عباد في مقابل ذلك بدفع جزية كبيرة، وألا يتعرض لمشروع ألفونسو السادس في ضم طليطلة، وهكذا ضحَّى أمراء المسلمين في سبيل أطماعهم بتقديم إخوانهم فريسة للإسبان، وكان هذا الحلف وبالاً على الأندلس كلها.

- <u>سقوط طليطلة وتفاقم الخطر النصراني:</u>

أصبح الطريق ممهدًا أمام ألفونسو السادس (Alfonso VI) ملك قشتالة وليون لتنفيذ مخططه، ومواجهة طليطلة منفردة، فزحف نحوها سنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م

متجاهلاً حلفه القديم معها، ناسيًا إيواءها له عندما كان مطاردًا من أخيه سانشو الثاني (Sancho II)، فدمر ضواحيها حتى يحرمها من الحصول على القوت، ولم يهب لنجدتها سوى أمير بطليوس المنصور يحيي بن المظفَّر بن الأفطس (ت ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م)، واضطر ألفونسو السادس إلى التراجع عن أسوارها.

وفي العام التالي جدد ألفونسو السادس (Alfonso VI) محاولاته، وعاث في أنحاء طليطلة، بينما قام حليفة المعتمد بن عباد بالزحف على أمير بطليوس لشغله عن نصرة المدينة المهاجَمة، وتواصل هذا الهجوم ست سنوات، حتى وهنت طليطلة وخارت عزيمتها، فضاعف ألفونسو السادس قواته، وأحكم حصاره، وهب أمير بطليوس لنجدتها، لكنه مُني بالهزيمة، وارتد على أعقابه، ولم يعد في مقدور طليطلة سوى أن تفتح أبوابها مستسلمة في المحرم سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، وانتهى عهد المسلمين بها، بعد أن أظلتها راية الإسلام اثنتين وسبعين وثلاثمائة سنة، ونقل إليها ألفونسو السادس (Alfonso VI) قاعدة ملكه؛ لتعود عاصمة لدولته كما كانت في عهدها القوطيّ.

كان سقوط طليطلة دليلاً واضحًا على عجز ملوك الطوائف عن مواجهة الخطر النصراني الداهم الذي كان قد بدأ حركته الصليبية الغاشمة لاسترداد بلاد الأندلس من أيدي المسلمين وطردهم منها نهائيًّا، بل كان سقوط هذه المدينة "الضربة القاصمة التي شالت بعدها كفة المسلمين ورجح جانب الكاثوليك، وكانت محنة حقيقية؛ لما تمثله طليطلة من ثقل في حياة الأندلس السياسية والحربية والشعورية"

ولم تقف أطماع الملك الإسباني ألفونسو السادس (Alfonso VI) عند هذا الحدّ، ولم يُقم وزنًا لتذكير ابن عباد بشروط التحالف وتحذيره له ألا يتجاوز حدود طليطلة، فتقدم بجيشه مهددًا قرطبة وماردة وبطليوس، وكتب إلى ابن عباد يطلب منه أن يسلمه بعض الحصون التي في يده بحجة أنها كانت تابعة لطليطلة.

وأحس ابنُ عباد بفداحة الخطب، وإلى أية هاوية تردى، وصبَّ جام غضبه على وزيره ابن عمار الذي أشار عليه بعقد هذه المحالفة، فألقاه في غيهب السجن ثم أمر بإعدامه.

وبدأ مصير طليطلة يهدد مملكة إسلامية أخرى هي مملكة سرقسطة في الشمال، وكانت محاطة بممالك الإسبان الثلاث، تواجه في بسالة هجمات أمراء

كتالونيا وأراجون وقشتالة، لذا رأى ألفونسو السادس (Alfonso VI) أن يُثنِّيَ بها، ووجَّه إليها غارة قوية، ثم ضرب حولها حصارًا طويلاً، فظلت صامدة بقيادة أميرها يوسف المؤتمن بالله بن هود (٤٧٤-٤٧٨ هـ/ ١٠٨١-١٠٨٥ م).

وتضاعفت الأهوال عندما اتحد أمراء الإسبان الثلاثة ألفونسو السادس (Alfonso VI) وسانشو الثاني (Sancho II) والكونت ريموند برنجار (Ramón Berenguer)، واجتمعت كلمتهم على سحق المسلمين وطردهم خارج شبه الجزيرة، وسار جيش من الحلفاء، فانتزع مدينة قورية (Coria)- قاعدة الثغر الأدنى- من بني الأفطس، ووصل إلى إشبيلية فأحرق قراها، واتجه فريق منهم إلى شِذُونَة (Medina-Sidonia)، ووصلوا إلى جزيرة طريف (Tarifa) في أقصى الجنوب.

وهنا فقط تنبَّه أمراء المسلمين إلى جسامة الخطر، وعلموا أنهم سيلقون جميعًا مآل طليطلة، فتوقفوا عما كانوا سادرين فيه من صراع، واجتمعت كلمتهم لأول مرة في مؤتمري إشبيلية وقرطبة، ليبحثوا عن وسيلة لإيقاف الزحف الإسباني الجارف.

ولم يجد المؤتمرون أمامهم من سبيل سوى أن يوجهوا صيحة استغاثة إلى إخوانهم على الشاطئ المغربي الذي ارتفعت عليه دعائم دولة فتية قوية هي دولة المرابطين، واستطاع أميرهم يوسف بن تاشفين أن يبسُط سلطانه على المغرب الأقصى ومعظم المغرب الأوسط، وأبدى بعضُهم تخوفه من تسلط المرابطين عليهم، ولكن اعتراضهم لم يلق تأييدًا، وتغلب المعتمد بن عباد على المعترضين وقال كلمته الشهيرة: "رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير"، ومعناها: أنه لو وقع أسيرًا في يد يوسف بن تاشفين يرعى جماله في صحراء المغرب خيرٌ له من أن يقع أسيرًا في يد ألفونسو السادس يرعى خنازيره في مملكة قشتالة.

وجادله كثيرًا ابنه "الرشيد" محاولاً ردَّه عن هذه الفكرة قائلاً له: "يا أبتِ أتُدْخِلُ علينا في أندلسنا مَن يَسْلبنا ملكنا ويُبدد شملنا. فقال له المعتمد: أي بُنيّ، والله لا يُسْمَع عني أبدًا أني أعدت الأندلسَ دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنةُ على منابر الإسلام مثلما قامت على غيري، حَرْزُ الجمال- والله- عندي خيرٌ من رعي الخنازير".

وبعد اجتماع كلمتهم واستقرار رأيهم كلف الحاضرون أمير بطليوس المتوكل على الله عمر بن محمَّد بن الأفطس أن يكتب باسمهم رسالة إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين يستصرخونه لنجدة إخوانه في الدين، ووقَّع عليها ثلاثة عشر من أمرائهم.

***

الفصل الرابع
المغرب والأندلس تحت حكم المرابطين والموحدين

المرابطون في المغرب والأندلس

أولاً: المرابطون في المغرب:

لم يكن تاريخ الإسلام وحضارته مقصورين على العرب وحدهم، فقد أخذ نفوذ العرب يتضاءل منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لتبرز عناصر أخرى أمدت الإسلام بدم جديد، وأسهمت في إثراء حضارته، فآلت السلطة في المشرق للبويهيين الفرس سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م، ثم السلاجقة الأتراك سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م، وفي المغرب توج البربر استقلالهم عن التبعية المشرقية بظهور دولتي المرابطين سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م، ثم الموحدين سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م.

وأدت هذه الأجناس دورها في الذود عن بلاد الإسلام، ودرء الأخطار عنه، فبينما كان السلاجقة يواصلون هجماتهم الجريئة على الممالك البيزنطية، ويحرزون الانتصارات المؤزَّرة، كان المرابطون يعبرون المضيق ليدفعوا عن الأندلس خطر الإسبان والقوى الأوروبية.

ينتسب المرابطون إلى قبائل صنهاجة التي كانت تقطن الصحراء الغربية (شنقيط) أو ما يسمى اليوم بموريتانيا، وفي هذه الصحراء الشاسعة التي تشبه في مجموعها البلاد الحجازية أرضًا وماشية ونباتًا والتي تحدها من الجنوب بلاد السودان (مملكة غانة الكبيرة)، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشرق نهر النيجر عندما يلتوي شمالاً إلى جهة تمبكتو، ومن الشمال منطقة سجلماسة التي يقال لها اليوم (تافيلالت)، وكان يعيش فيها قبائل صنهاجة اللثام، ومن أشهرها قبيلة لمتونة في شمال الصحراء، وتليها جنوبًا قبيلة مسوفة، ثم قبيلة جدالة بالقرب من نهر السنغال والنيجر وساحل المحيط الأطلسي.

وكانت دولة المرابطين ثمرة لتقدم تيار البربر، وبروز العوامل القبلية التي رأيناها من قبل في احتضان مكناسة لدعوة الصفرية، والتفاف نفوسة وبربر المغرب الأوسط حول دعوة الإباضية، وتبني أوربة دعوة الأدارسة، وتعضيد كُتامة وصنهاجة للعُبيديين (للفاطميين).

وإذا كان تيار البربر في المرات السابقة قد تضافر مع تيارات مشرقية، فإنه

في هذه المرة يتحرك ذاتيًّا دون معوان مشرقي، فقد ظهرت دعوة المرابطين في مجموعة من قبائل صنهاجة عرفت باسم (الملثمين)، لاتخاذهم لثامًا على وجوههم، ويرجع سببُ هذه التسمية كما يذكر ابن خلّكان في (وفيات الأعيان) إلى أنهم: «قوم يتلثَّمُون ولا يكشفون وجوههم؛ فلذلك سَمَّوْهُم الملثَّمين، وذلك سُنَّة لهم يتوارثونها خلفًا عن سلفٍ، وسبب ذلك على ما قيل: أن (حِمْيَرَ) كانت تتلثَّم لشدَّة الحرِّ والبرد، يفعله الخواصُّ منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعله عامَّتُهم. وقيل: كان سببه أن قومًا من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم، فيطرقون الحي، فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زيِّ الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت ملثَّمين في زيِّ النساء، فإذا أتاهم العدوُّ ظنُّوهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبرُّكًا بما حصل لهم من الظفر بالعدوِّ».

وقال ابن الأثير في سبب اللثام: وقيل كان سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا غائرين على عدوٍّ لهم، فخالفهم العدوُّ إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلاَّ المشايخ والصبيان والنساء، فلمَّا تحقَّق المشايخ أنه العدوّ، أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثَّمن ويُضَيِّقْنَه حتى لا يُعْرَفْنَ، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدَّم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدوُّ؛ رأى جمعًا عظيمًا فظنَّه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجًا عن حريمهم. فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحي، فبقي العدوُّ بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدوِّ فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سُنَّة يُلازمونه، فلا يُعرف الشيخ من الشاب، فلا يُزيلونه ليلاً ولا نهارًا، ومما قيل في اللثام: [الكامل]

قَـوْمٌ لَهُـمْ دَرْكُ الْعُـلا فِـي حِمْيَـرٍ وَإِنِ انْتَمَـوْا صِـنْهَاجَةً فَهُـمُ هُـمُ
لَمَّـا حَـوَوْا إِحْـرَازَ كُـلِّ فَضِـيلَةٍ غَلَـبَ الْحَيَـاءُ عَلَـيْهِمُ فَتَلَثَّمُـوا

ومهما اختلفت التفسيرات في تعليل اتخاذ اللثام فإنها تلتقي عند سبب رئيس وهو محاولتهم إرهاب أعدائهم، وفي مقدمة هذه القبائل لمتونة وجدالة ومسوفة.

وكانت قبائل الملثمين تضرب في أعماق الصحراء، وبدأت في الظهور على

صفحات التاريخ مع اتجاهها إلى اعتناق الإسلام في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وبدا منها الحماس والإقبال على الجهاد لنشر الإسلام بين جيرانها في بلاد السودان.

وبدأت هذه القبائل تهجر موطنها في الجنوب عند نهري السنغال والنيجر، نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية، فقد ظهرت في المنطقة مملكة غانا القوية وغلبتهم على طريق التجارة بين سلجماسة وأودغشت (شمالي نهر النيجر)، وبذلك فقدوا أهم مواردهم الاقتصادية.

وبدافع الحرص على البقاء اتجه الملثمون إلى التوحد، وآلت زعامتهم إلى قبيلة لمتونة، كما اتجهوا بدافع الحاجة إلى المناطق الخصبة في الشمال، ودخلوا في صراع مع الأعداء التقليديين لصنهاجة، وهم قبائل زناتة، الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى.

والتقى العامل الديني بالعوامل السابقة، إذ أبدى الملثمون حماسًا بالغًا لعقيدتهم، وكانت رغبتهم قوية في مزيد من المعرفة بدينهم، ورغبوا فيمن يعلمهم مبادئه ويفقههم فيه، واتصل زعيمهم يحيي بن إبراهيم الجُدَالي في طريق عودته من الحج سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م بعلماء القيروان وفاس، فأمدوهم بأحد دعاتهم المخلصين وهو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، وهو يلتقي بالملثمين في آصرة الدم الصنهاجي.

لقد استطاع هذا الفقيه بفضل ذكائه وإخلاصه وحزمه أن يخلق من قبائل الملثمين قوة دينية تقوم على أساسين هما:

- الأول: الإيمان الراسخ وإقامة شعائر الإسلام على وفق ما جاءت به السُنة النبوية المطهرة.
- الثاني: التمسك بمذهب مالك بن أنس فيما يرجعون إليه من قوانين دينية ودنيوية، ويبدو أن عبد الله بن ياسين أراد أن يتوِّج أتباعه بتسمية تتفق مع تلك الأهداف السامية فسماهم بتلك التسمية الخالدة: "المرابطين".

منذ ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م أخذ عبد الله بن ياسين ينشر تعاليمه بين قبائل الملثمين، ويحملهم على لون من حياة الزهد والالتزام لم يألفوه، فضاقوا به، وتمردوا عليه بعد وفاة عاهلهم يحيي بن إبراهيم الجُدَالي، وتركوا الأخذ عنه– كما يقول ابن

خلدون- لما تجشموا فيه من مشاق التكليف، فقرر اعتزالهم مع القلة المتمسكة بدعوته، والاتجاه إلى الزهد والتنسك.

ورحل ابن ياسين إلى الجنوب، واختار موقعًا لإقامته عند مصب نهر السنغال في عدة جزر وسط النهر، تتقطع عند البر إذا زاد الماء في فصل الشتاء، وتعود إلى الاتصال به إذا غاض الماء في فصل الصيف، ويصف ابن خلدون هذه الجزيرة بقوله: «يحيط بها النيل(١)، ضَحْضَاحًا(٢) في الصيف، يخاض بالأقدام، وغمرًا(٣) في الشتاء يُعْبَر بالزوارق»، ويُرَجَّح أن هذه الجزيرة تقع في منحنى نهر (النيجر)، على مقربة من مدينة تنبكتو، وتسامع به الناس، فأقبل عليه المُريدون والمتحمسون، وتزايد أتباعه.

وأطلق على المكان الذي يقيمون فيه اسم "الرباط"، وسمى أتباعه بـ"المرابطين"، ويلتقي في هذه التسمية المعنى الديني والعسكري، فالرباط في الأصل محرس على الثغور يرابط فيه الجند، وتعقد فيه الخيل لجهاد العدو، وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ"، ثم اتخذت المرابطة طابعًا دينيًّا مرتبطًا بالإقبال على العبادة والتزام التعاليم الدينية، وهذا المفهوم مستمد من قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

واستمر ابنُ ياسين يسوس أتباعه على تعاليمه ويصقلهم بمنهجه، حتى تشبعوا بأفكاره، وأخلصوا طاعته حتى بلغ عددهم في سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م- بعد أربعة أعوام فقط من بداية دعوته ونزوحه إلى الجزيرة- ألف نفس مسلمة، وعندما بلغوا هذا العدد دعاهم إلى بدء مرحلة جديدة، والخروج من الرباط للجهاد المسلح في سبيل دعوته، وقال لهم: "إن ألفًا لن تُغلب من قلة، وقد تعيَّن علينا القيام بالحق والدعاء له، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك".

---

(١) المقصود هنا فرع من نهر النيجر، ولا علاقة له بالنيل الذي في مصر والسودان، وقد كان يُعرف هذا النهر في ذلك الوقت باسم النيل.

(٢) الضحضاح: الماء القليل وقريب القعر يكون في الغدير وغيره.

(٣) الغَمْر: الماء الكثير الذي يعلو ويغطي الأماكن.

وبدأ بقومه الملثمين، فدعا زعماء لمتونة لطاعته وأنظرهم سبعة أيام، فلما أبوا قاتلهم وأخضعهم بالقوة، وولى عليهم "يحيي بن عمر اللمتوني"سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م، وتفرغ هو للجهاد، والإشراف الديني، ثم لم يلبث الشيخ يحيى بن عمر اللمتوني أن استشهد في إحدى الغزوات سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، فتولى أمر المرابطين من بعده أخوه الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني.

وأخذ ابن ياسين وأتباعه الذين سماهم بالمرابطين يبسطون سلطانهم جنوبًا حتى أودغشت في بلاد السودان، ثم تجاوزا الصحراء شمالاً حتى درعة وسجلماسة، وفرضوا عليهم أن يدفعوا زكواتهم وصدقاتهم لهم، ثم رجعوا، وكانت لقبائل زناتة حتى ذلك الوقت حكم المغرب الأقصى إلا أنهم ركنوا إلى الدعة والترف، وتفشى فيهم الانحلال الخلقي والتجافي عن القيم الدينية، وكانت برغواطة تنشر عقائدها الفاسدة في المناطق الواقعة على ساحل الأطلسي، كما اشتبكت مغراوة ويفرن في صراع حول فاس، فأتاحت هذه الظروف للمرابطين أن يسيطروا عليه.

وبدأوا بسجلماسة عندما كاتبهم أحد أمرائها يشكو إليهم ما نال أهلها من عسف الحكام وجورهم، فاستولوا عليها وعلى درعة سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، ثم توالت فتوحاتهم، فاستولوا على بلاد السوس سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م، وتوالت غزواتهم ضد برغواطة سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م حتى استأصلوا شأفتهم ومحوا دعوتهم من المغرب كما يقول ابن خلدون.

وتُوفِّي داعيهم ابن ياسين سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م موصيًا أتباعه أن يلتزموا تعاليمه وألا يتفرقوا، واتفق رأى المرابطين على اختيار أبى بكر بن عمر للرئاسة مكان ابن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية، ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م، ثم تابع سيره في بلاد المغرب يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثَّاني سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م، ثم عاد إلى أغمات التي اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقرًّا للأمير وإخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع الاختيار على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع في بنائها، فأتاه رسول من الصحراء سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م يخبره

بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، ونشوب خلافات بين قومه في مواطنهم الأصلية جنوب الصحراء، فارتحل لإصلاح ذات البين، ولمواصلة الجهاد لنشر الإسلام في بلاد السودان، تاركًا السلطة في يد ابن أخيه يوسف بن تاشفين الذي استأثر لنفسه بالسلطة، وعندما رجع عمه وشعر منه بذلك، عزف عن المنازلة، وآثر العودة إلى الجهاد في الجنوب حتى استشهد سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م، وإليه يرجع الفضل في امتداد الإسلام في هذه المناطق.

وبلغت الدولة أوج اتساعها وقوتها في عهد يوسف بن تاشفين، وامتدت من شواطئ المحيط الأطلسي غربًا حتى مدينة الجزائر غربًا، فشملت المغرب الأقصى كله، ومعظم المغرب الأوسط، وسمحت لدولة بني حماد بالبقاء في المغرب الأوسط لانتمائهم إلى الدولة الصنهاجية مثلهم.

وتأخر فتح طنجة وسبتة بسبب حصانتهما وانشغال المرابطين بفتح المغرب الأوسط، وكان يحكمهما أمير من برغواطة يُدعى "سقوت الحاجب"، ولكن فتحهما أصبح ضرورة استراتيجية لتأمين ظهرهم وفتح المعابر أمامهم قبل جوازهم إلى الأندلس، فوجه ابن تاشفين عزمه طنجة وفتحها سنة٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م على يد القائد اللمتوني صالح بن عمران بعد قتال عنيف قُتل فيه سكوت البرغواطي، وهو شيخ في التسعين من عمره، ثم توجهوا نحو مدينة سبتة ففتحوها على يد المعز بن يوسف بن تاشفين، وتعاون معهم في فتحها المعتمد بن عباد (أمير إشبيلية)، فحاصر سبتة بقواته البحرية، حتى دخلوها سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م.

ومما يذكر لهذه الدولة بالفخر أنها استجابت لصيحة الاستغاثة التي أطلقها أمراء الأندلس، فعبرت لنجدتهم وحققت بذلك الوحدة الأندلسية المغربية، وحمت الإسلام من أطماع القوى النصرانية طوال عهدها، وسنعرض لهذه النقطة بشيء من التفصيل في حديثنا عن المرابطين في الأندلس.

اتجه المرابطون إلى الجانب الحضاري والعمراني، فكان من أبرز أعمال يوسف بن تاشفين العمرانية بناء عاصمة جديدة هي (مراكش)، إذ اختطها سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م بعد أن اكتظت العاصمة القديمة (أغمات) بالوافدين، ولم تعد صالحة لإقامته، واتخذ لها موقعًا يحقق أهداف الدولة الاقتصادية والاستراتيجية، فهي بوقوعها بين مدينتي أغمات ونفيس تشرف على الطرق التجارية في المغرب،

وبذلك تهيء الأمان والحماية لتجارة المرابطين وقوافلهم، كما أنها تكون قريبة من جبال المصامدة المنافسين الذين تخشاهم الدولة وتحرص باستمرار أن تكون تحركاتهم تحت سمعهم وبصرهم.

وارتبط المرابطون بالولاء الروحي للخلفاء العباسيين، فلم يزعموا لأنفسهم حق الخلافة، ورفض أميرهم يوسف بن تاشفين أن يتخذ لقب أمير المؤمنين، وقال: "ما شاء الله أن نتسمى بهذا الاسم، إنما تسمى به خلفاء بني العباس، لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا رجلهم القائم بدعوتهم"، وآثر أن يتخذ لقبًا مُغايرًا هو "أمير المسلمين".

والتزم المرابطون بالحصول على تفويض من الخلافة العباسية بإقرارهم على ما في أيديهم، وأرسل ابن تاشفين رسله إلى المستنصر العباسي حتى عقد له على المغرب والأندلس، واتخذ المرابطون السواد في أعلامهم وملابسهم.

وتبنى المرابطون المذهب المالكي وعملوا على نشره في المناطق الواقعة تحت نفوذهم، وأعطوا علماءهم سلطات واسعة، ولم يقدم يوسف بن تاشفين على قتال ملوك الطوائف بالأندلس إلا بعد أن أخذ الفتوى بذلك من الفقهاء، ولم يستطع أن يفرض ضريبة جهاد على أهل الأندلس، لأن فقهاء الأندلس أفتوا بعدم جواز ذلك حتى يقسم الأمير بأن ما لديه لا يفي بهذا الباب، وكان ابنه على بن يوسف لا يقطع أمرًا إلا بمشورتهم.

وما لبث نفوذ هؤلاء الفقهاء أن تزايد حتى صار زمام الأمور في أيديهم، وظهر منهم الجمود والتحجر الفكري، وحاربوا علم الكلام، وأمروا بحرق كتب الغزالي وأصروا على فهم آيات القرآن الكريم على حرفيتها، فمالوا إلى التجسيم والتشبيه، وعندما ظهرت دولة الموحدين استغلت هذه الثغرات في مهاجمة المرابطين وصرف الناس عنهم.

واهتم المرابطون بالمنشآت الدينية، فأنشأ يوسف بن تاشفين عددًا من المساجد في جزائر بني مزغنة، وتلمسان، ومراكش، ويروي أنه كان يشارك بيده مع البنائين ومن أعظم آثارهم جامع القرويين، الذي أصبح جامعة إسلامية عريقة تداني الأزهر بالقاهرة.

وحقق المرابطون الاستقرار الاقتصادي لرعيتهم وأبطلوا كثيرًا من الضرائب

والمكوس التي لم يقررها الشرع، واقتصروا على الموارد الشرعية من زكوات وأعشار وأخماس الغنائم، والجزية، ويصف ابن عذاري الحالة الاقتصادية على عهدهم فيقول: "كانت هذه المواضع كلها في غاية الخصب وكثرة المياه والأشجار، وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين" .

ولكن معارك المرابطين في الأندلس استنفدت كثيرًا من ثرواتهم ولم يلقوا عونًا صادقًا من أهل الأندلس، وظلوا يحملون عبء الجهاد وحدهم مما أوهن قوتهم في نهاية عهدهم.

دبَّت عوامل الضعف في دولة المرابطين لتزايد نفوذ الفقهاء وجهادهم في الأندلس دون أن يقدر لهم الأندلسيون هذا الدور فكانوا يعلنون التمرد عليهم عند أول بادرة، طمعًا في الاستئثار بالملك، ولم يتورعوا عن الاستعانة ضدهم بالقشتاليين والبرتغاليين، ودخول بعضهم في دعوة القوة الجديدة الناشئة "الموحدين".

وليس من العدل أن ننساق وراء الذين يعزون ضعف المرابطين إلى اتجاههم إلى حياة الترف والدعة وإسلام مقود دولتهم إلى النساء، فهذه الآراء تعتمد على ما ذكره عبد الواحد المراكشى صاحب كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" الذي يتضح انحيازه إلى منافسيهم الموحدين.

ونجحت الدعوة المناوئة التي أعلنها ضدهم المهدي بن تومرت، والتفت حولها قبائل المصامدة، ولم تجد هذه الدعوة تكتلا صنهاجيًّا فتمكنت في يسر من إسقاط دولتهم سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م.

***

ثانيًا: المرابطون في الأندلس:

ظل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين حينًا يتردد في قبول صيحة الاستغاثة التي وجهها له أمراء الأندلس، وأوضح له كاتبه عبد الرحمن بن أسباط ما يعترضه من صعوبات من وعورة البلاد، وعدم إخلاص أمرائها، وأشار عليه أن يؤمن طريق عبوره وخطوط اتصاله بأن يطلب من كبيرهم المعتمد بن عباد أن يسلمه منطقة الجزيرة الخضراء ليتخذ فيها تحصيناته، وتصله بالشاطئ المغربي، فقال: "هي (أي الأندلس) ضيقة عرجة، سجن لمن دخلها .. وهو الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم، ولا صداقة متصلة .. فاكتبوا إليه أنه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيَك الجزيرة

الخضراء، فتجعل فيها أثقالك وأجنادك، ويكون الجواز بيدك متى شئت".

واستجاب المعتمد بن عباد لمطلب الأمير المرابطى بعد أن زاد عليه ضغط ملك قشتالة، واستخف به سفراؤه، فأصروا عندما جاءوا لتسلم الجزية أن يفحصوا النقود خشية أن يكون فيها شيء زائف، فغضب المعتمد ورد عليهم الإهانة بضربهم وإعادتهم إلى ملكهم، وأصبح الصدام بين الجانبين مؤكدًا، ولا طاقة له به، ولذا لم يصغ سمعًا لتحذير ابنه من تسلط المرابطين عليه، وقال له: "أي بني، والله لا يُسمع عنى أبدًا أنني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى، فتقوم علىَّ اللعنة في منابر المسلمين مثلما قامت على غيري".

وعندما علم ألفونسو باستعداد ابن تاشفين للعبور إلى الأندلس لإيقاف حركة الاسترداد النصرانية وإنقاذ المدن الإسلامية من قبضة النصارى، اخترق بلاد المسلمين، مُعْرضًا عن ملوك الطوائف، لا يرضى أخذ الجزية منهم، حتى انتهى إلى الجزيرة الخضراء، ووقف على شاطئ البحر والموج يضرب أرساغ فرسه– كما تقول الرواية النصرانية(١).

وأمر ألفونسو أن يُكْتَب إلى ابن تاشفين برسالة، هذه الرسالة تتضح كلماتها بالاستعلاء والتكبر والغطرسة، يصف فيها نفسه بأنه أمير الملتين (الإسلامية والنصرانية)، ويصف ليوسف بن تاشفين ما عليه ملوك الطوائف من التخاذل والتواكل والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنهم تحت أمره وطوع يمبنه ورهن إشارته، ثم يحاول أن يستثير ابن تاشفين، فيقول له: "ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنتك فرصة"، ويزيد ألفونسو من غطرسته وتكبره ويقول لابن تاشفين: "فإن كنت لا تستطيع الجواز، فابعث إلىَّ ما عندك من المراكب لأجوز إليك وأناجزك في أحب البقاع إليك، فإن غلبتني فتلك غنيمة جاءت إليك، ونعمة مثلت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا واستكملتُ الإمارة، والله يتم الإرادة".

فأمر يوسف بن تاشفين أن يُكْتَبَ في ظهر كتابه: "جوابك يا أذفونش ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله، وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبي:

فَـلاَ كُتْـبَ إلاَّ المَشْـرَفِيَّة والْقَنَـا ولاَ رُسْـلَ إلاَّ بـالخَمِيسِ العَرَمْـرَمِ

(١) A. G. Palencia: Historia de la España Musulmana, p. ٨١.

في يوم الخميس (منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ/ ٣٠ من يونيو سنة ١٠٨٦ م) أذن يوسف بن تاشفين لجنوده في العبور إلى العدوة الأندلسية، وبعد أن اطمأن إلى عبورهم عبر بنفسه إليها، فقابله أهل الأندلس باحتفاء كبير، وقدم الناس بطبقاتهم وفئاتهم المختلفة من كل مكان لاستقباله، حيث يرون فيه منقذًا ومخلِّصًا لهم مما يعانون من الظلم والاضطهاد تحت وطأة كل من ملوك الطوائف والقوات النصرانية على السواء، وكانت جيوش المرابطين أينما حلَّت تثير في الناس الأمل في حياة أفضل تتوفر فيها العدالة والحرية والإنصاف.

وبعد أن أُخذت الاستعدادات اللازمة لمواجهة النصارى ما لبث أن تقابل الجيش الإسلامي من المرابطين والأندلسيين مع الجيش النصراني بالقرب من مدينة بطليوس في سهل تسميه الروايات الإسلامية "سهل الزلاقة"، بينما تسميه الروايات النصرانية "سَكْرَالْيَاس" (Sacralias)(١)، فكان اللقاء التاريخي الحاسم في معركة الزلاقة إحدى المعارك الشهيرة في تاريخ الأندلس، وحلقة في سلسلة الحروب الصليبية التي واجه بها الغرب المسيحي المسلمين هناك، وكانت في يوم الجمعة (١٢ من رجب سنة ٤٧٩ هـ/ ٢٣ من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) على أرجح الآراء.

واقتضت خطة المسلمين أن يكمن الأمير المرابطي بمعظم قواته، بينما يلتحم الباقون بالاشتراك مع الأندلسيين، وتمكن ألفونسو من اكتساح هذا الفريق وردهم حتى أسوار بطليوس، وظن بذلك أن المعركة قد انتهت فإذا به يفاجَأ بسيل جارف من فرسان لمتونة والمرابطين يتدفق من خلفه ومع سدول الليل كان قد تجرع كأس الهزيمة إلى آخره، وحمله قلة من رجاله لائذين بالفرار، وهو يلعق جراحه البالغة، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين انتصارًا عظيمًا كسر شوكة النصارى مدة من الزمن، وأعاد للمسلمين مجدهم وعزهم في بلاد الأندلس مرة أخرى.

ورجع الأمير المرابطي إلى قاعدة ملكه، بعد هذا النصر الباهر تاركًا حامية من جنده في إشبيلية، دون أن يستثمر نتائجه في إحراز مزيد من الانتصارات، فأتاح لعدوه أن يلم شعثه، ويوحد صفوفه، واتجه الإسبان بعد عام واحد إلى مهاجمة

---

(١) A. G. Palencia: Historia de la España Musulmana, p. ٨٤. M. G. Remiro: Historia de Murcia Musulmana, p. ١٣٣.

المنـاطق الشـرقية الضـعيفة بعيـدًا عـن تمركـز قـوات المـرابطين وإمـارتي إشـبيلية وبطليـوس القـويتين فـي الغـرب، متخـذين مـن حصـن "ليـيط" أو "أليـدو" (Aledo) الداخل في بلاد المسلمين قاعدة لنشر الدمار والفزع، حيث كان ألفونسو السادس قد ابتناه قرب مدينة مرسية؛ ليكون قاعدة للإغارة على مناطق شرقي الأندلس، وحشد فيه أعدادًا غفيرة من حاميات النصارى، وبالتالي فقد أصبحت إمارتا مرسية ولورقة واقعتين تحت تهديدهم.

ولـذا عبـرت القـوات المرابطيـة للمـرة الثانيـة سـنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م، وقامـت بحصـار هذا الحصـن مدة شـهر كامل، ولكنهـا عجزت عن اقتحامـه، فارتدت عنـه مكتفيـة بـدرء خطـره، واضـطر ألفونسـو بعـد ذلـك إلـى هدمـه، لوقوعـه فـي بـلاد المسلمين، واحتياجه إلى قوة كبيرة لحمايته.

وتبين لابن تاشفين أن مكمن الخطر يوجد في صفوف المسلمين أنفسهم، ورأى رأي العين ما بين ملوك الطوائف من الحقد والكراهية والتنازع، وبلغته أنباء تعاون بعضهم مع الإسبان، وتحالف البعض الآخر مثل عبد الرحمن بن رشيق، وعبد الله بن بُلُكِّين (أمير غرناطة) مع ألفونسو ورجاله، فاضطر الأمير المرابطي إلى العبور للمرة الثالثة ، وطلب من أمراء الأندلس أن يعاونوه في فتح طليطلة، ليختبر نواياهم، فلم يستجب منهم أحد سوى ابن عباد الذي جعل معونته مشروطة بأن تُضم المدينة إلى ملكه بعد فتحها.

وعندئذ قرر ابن تاشفين أن يستأصل الداء، ووجه إلى ملوك الطوائف أربعة جيوش في وقت واحد، ليحول دون اجتماعهم عليه، وبدأ بكبيرهم ابن عباد، وتمكن قائده "سير بن أبي بكر" من إزالته عن ملكه وساقه أسيرًا إلى مراكش، وكان من اليسير بعد ذلك أن تتهاوى في أيديهم الإمارات الأخرى، ولم يستثنوا سوى إمارة سرقسطة التي يحكمها المستعين بالله، لإخلاصه في معاونتهم، فقد كتب إلى ابن تاشفين قائلاً: "نحن بينكم وبين العدو سد، لا يصل إليكم منه ضرر ومِنَّا عينٌ تطرف، وقد قنعنا بمسالمتكم، فاقنعوا منا بها، إلى ما نعينكم به من نفيس الذخائر"، وبـذلك دخلـت الأنـدلس رسـميًّا تحـت حكـم المـرابطين سـنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م، وتحققت على أيديهم الوحدة بينها وبين المغرب.

وفـي أول المحـرم سـنة ٥٠٠ هـ/ ٢ مـن سـبتمبر سـنة ١١٠٦ م تـوفي أميـر

المسلمين يوسف بن تاشُفين، وترك لابنه عليّ بن يوسف دولة واسعة الأطراف، وصف سعتها ابن أبي زرع في (الأنيس المطرب) وصفًا دقيقًا وشاملاً، وأنهى وصفه بقوله: "وملك من البلاد ما لم يملكه والده، لأنه وجد البلاد هادئة، والأموال وافرة...."، وأثنى عليه ابنُ خلدون فقال: "وقام بالأمر من بعده (أي من بعد يوسف بن تاشفين) ابنُه عليّ بن يوسف فكان خير ملك، وكانت أيامه صدرًا منها وادعة...".

ولكن هذا العهد الموصوف بالهدوء شهد أخطر حركة وُجِّهت للمرابطين، وهي ثورة المهدي ابن تومرت ضدهم في المغرب، حيث كان لها أثر كبير في اضطراب أحوالهم في المغرب والأندلس على السواء، حيث ركز المرابطون جهدهم الحربي لمقاومته في بلاد المغرب، وانشغلوا به عن الأندلس، بل سحبوا منها معظم قواتهم وجيوشهم، فضلاً عن الأسلحة والمؤن والأموال، لصد عدوانه وإيقاف غاراته، وفقدت الأندلس بذلك كثيرًا من حماتها المدافعين عنها، فكان ذلك "أعظم فساد حل بالأندلس، واختل أمرها عليهم"، وعبر ابن خلدون عن هذا التراجع فقال: "وفشل ريحُ لمتونة بالعدوة الأندلسية، وظهر أمر الموحدين وفشت كلمتهم في برابرة المغرب".

استمر سلطان المرابطين في الأندلس حوالي ستين عامًا، مضت في جهاد متصل ضد الإسبان، وتمكنوا خلالها من الحفاظ على الوجود الإسلامي، وقلموا أظافر القشتاليين والأراجونيين، وحققوا عديدًا من الانتصارات البارزة مثل انتصار (أقليش) أو (أقليج) (Batalla de Uclés) سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٧ م، وكانت مدينة أقليش لا تزال تحت حكم النصارى، وتقع على طريق المسلمين إلى بلنسية (Valencia) وسرقسطة (Zaragoza) وتحول بينهم وبين القيام بعمل حاسم في هذه الناحية، فحاصرها المرابطون، وكان ألفونسو السادس (Alfonso VI) يعلِّق عليها أهمية كبيرة، فأخذ الأهبة للمسير ليدفع المرابطين عنها، ولكن ما لبث المرابطون أن فتحوا المدينة، وفرَّ النصارى منها ليتحصنوا في قصبة أقليش المنيعة، فأمدهم ألفونسو بعشرة آلاف فارس بقيادة ولده وولي عهده (شانجه) مع سبعة قواد آخرين، لذا سميت المعركة في المصادر الإسبانية معركة الأقماط السبعة (Batalla de los siete condes)، وكلمة الأقماط جمع قمط، وهي بالإسبانية (Conde) وتعني: قائد أو حاكم منطقة متمتع باستقلال تام أو محدود، وتُنطق بالعامية (كونت)، ورغم هذه الاستعدادات النصرانية فقد حقق الجيش الإسلامي انتصارًا كبيرًا على الجيش القشتالي، وقُتل (شانجه) ابن ألفونسو السادس الذي مات بدوره غمًّا وحزنًا على ولده في العام نفسه، أو في العام التالي سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م.

وكان من سوء حظ المرابطين أنهم في الوقت الذي شغلوا فيه عن الأندلس بحروب "ابن تومرت" بدأت إسبانيا النصرانية انتفاضتها الكبرى ضد المسلمين في الأندلس، وتوحدت قيادتها تحت حكم "ألفونسو الأول" Alfonso I (المحارب) El Batallador ملك "أراجون" و"قشتالة" و"ليون"، وبلغ الصراع الإسلامي النصراني في عهده ذروته، وتفانى في حرب المرابطين تفانيًا لا مزيد عليه، فكان "أشد ملوك الفرنج بأسًا، وأكثرهم تجردًا لحرب المسلمين، وأعظمهم صبرًا"، فغزا الأندلس كلها غزوته الشهيرة سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م، تمكن فيها من الإيقاع بالمسلمين، لكنه عندما حاول أن يكرر غزوته سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٣ م منى بالهزيمة الفادحة، ودفع حياته ثمنًا لتطاوله في موقعة "إفراغة" (Fraga).

وإزاء هذا الوضع المتفاقم وقع المرابطون بين قُطْبَي الرحى؛ ثورة "ابن تومرت" عليهم في بلاد المغرب، واتحاد الممالك النصرانية في الشمال الإسباني ضدهم، فكان ذلك من أهم عوامل ضعفهم العسكري، حيث تشتت قواتهم بين العدوتين، وبدأت نُذُر ضياع دولتهم تلوح في الأفق، فانتهز النصارى هذه الفرصة، فكثفوا غاراتهم على كثير من المدن الأندلسية حين علموا عجز الإمارة المرابطية عن الدفاع عنها، حتى تغلبوا على كثير من هذه المدن رغم الجهود الكثيرة التي بذلها أمير المسلمين علي بن يوسف للمحافظة على ملك المرابطين.

وبعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م بدأ الخط البياني لقوة المرابطين في الهبوط السريع، حيث ترك هذا المُلك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب لابنه أبي محمد تاشفين بن علي[١]، وكان – كما وصفه ابن الخطيب– شابًّا حسن الاستعداد، بطلاً شجاعًا، جميل الهيئة، سالكًا طريق الشريعة، مستقيم الأحوال، عظيم العفاف، لم يشرب مسكرًا، ولا استعمل أهواء، ولا تلبس بشيء مما تلبس به الملوك، ورزقه الله عز وجل من الظهور على العدو وتوفيق الرأي في حربه، فهزم الجيوش، وفتح الحصون، ولم ينهض إلا ظاهرًا، ولا صدر إلا ظافرًا".

لكن رغم كل هذه الاستعدادات وتلكم الصفات إلا أن الظروف التي تولى

---

(١) يرى البعض أن وفاة علي بن يوسف هو نهاية الإمبراطورية المرابطية، انظر:
- Francisco Codera*: Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España* – Zaragoza, ١٨٩٩, p. ٢٧.

فيها تاشُفين بن عليّ مقاليد الأمور كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذي تجربة أوسع، ثم إن ابن تومرت استعمل أساليب غاية في العنف والقسوة والبعد عن المألوف في محاربة المرابطين، معتمدًا على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم، لذلك فقد انشغل الأمير تاشُفين بمحاربته وأهمل بلاد الأندلس، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: "واستثقل الأمير تاشفين أمر الأندلس بعد موت أبيه بما دهمه من حرب المهدى واستيلائه على المغرب، فلم يُلْقِ إلى الأندلس رأسًا".

وظلت ظروف المرابطين تتحول من سيء إلى أسوأ، وتتوالى عليهم الهزائم من كل ناحية إلى أن سئمهم المسلمون في الأندلس، وعندما أحسوا بتراخي قبضة المرابطين على الأندلس بعد تعرضهم لهجمات الموحدين في المغرب، واضطرارهم لسحب بعض قواتهم من الأندلس بدأوا حركة التمرد والثورة ضدهم سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م، وقد أطلق المستشرق ليفي بروفنسال على هذه الفترة مسمى "عصر الطوائف الثاني".

بدأ الثورة ضد المرابطين أحدُ رجال الدين يدعى أبا القاسم بن قَسِي، وتسمى ثورته "ثورة المريدين"؛ إذ تبعه فيها عدد كبير من أتباعه ومريديه في غرب الأندلس (البرتغال حاليًّا)، ثم ثورة القاضي ابن حمدين التغلبي في قرطبة، وثورة القاضي أبي الحسن بن أضحى في غرناطة، وثورة القاضي أبي الحكم بن حسُّون في مالقة، وثورة القاضي ابن أبي جعفر الخشني في مرسية، وثورة القاضي أبي عبد الملك بن عبد العزيز في بلنسية، وغيرها من الثورات التي تمكن المرابطون من مواجهة بعضها والقضاء عليها، وفشلوا في مواجهة بعضها الآخر، وتكاثرت عليهم المحن، وهزمهم الموحدون في المغرب، وقضوا على دولتهم بقتل إسحاق بن علي بن يوسف- آخر أمراء المرابطين- بمراكش سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م ليُطْوَى بذلك تاريخُ دولة المرابطين التي لم يكد يصل عمرها إلى قرن كامل من الزمان.

***

أمراء دولة المرابطين

يحيى بن إبراهيم الجدالي	(٤٢٧-٤٤٠ هـ/ ١٠٣٢-١٠٤٨ م)
يحيى بن عمر اللمتوني	(٤٤٠-٤٤٧ هـ/ ١٠٤٨-١٠٥٦ م)
أبو بكر بن عمر اللمتوني	(٤٤٨-٤٥٣ هـ/ ١٠٥٦-١٠٦١ م)، ويمثل

	عهده بدء المرحلة الأولى من إمارة المرابطين
يوسف بن تاشفين	(٤٥٣-٥٠٠ هـ/ ١٠٦١-١١٠٦ م)
علي بن يوسف بن تاشفين	(٥٠٠-٥٣٧ هـ/ ١١٠٦-١١٤٢ م)
تاشفين بن علي بن يوسف	(٥٣٧-٥٣٩ هـ/ ١١٤٢-١١٤٤ م)
إبراهيم بن تاشفين بن علي	دامت إمارته أربع أسابيع خلال سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م، أو سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م
إسحق بن علي بن يوسف	قتل على أيدي الموحدين في مراكش سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، فكان آخر أمراء المرابطين في المغرب والأندلس

***

الموحدون في المغرب والأندلس

أولاً: الموحدون في المغرب:

تحرك العامل القبلي في فرع آخر من صنهاجة، وهم قبائل المصامدة الذين يسكنون المغرب الأقصى، وينقسمون إلى ثلاثة بطون هي: غمارة وبرغواطة وأهل جبال درن.

وكان مصامدة جبال درن يتصفون بالقوة والمنعة، وأبدوا مقاومة عنيفة أمام الفاتحين المسلمين الأوائل، ودخلوا تحت حكم المرابطين، ولكن شوكتهم ظلت قوية وبأسهم شديدًا حتى خشيهم المرابطون وبنوا مدينة "مراكش" لتطل عليهم وتراقب أمرهم.

وكما قامت دولة المرابطين على أساس دعوة دينية حمل لواءها "عبد الله بن ياسين"، فقد قامت هذه الدولة أيضًا على أساس الدعوة الدينية التي رفع لواءها "أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت" الذي لُقِّب بالمهدي، وأبوه عبد الله من "هرغة" (أحد بطون المصامدة)، ويصل بعض المؤرخين نسبه بالعلويين الأدارسة الذين حكموا المغرب الأقصى من قبل، ونشأ في أسرة عُرفت بالدين والنسك، وارتحل مع بداية القرن الخامس الهجري إلى المشرق ليتلقى العلم على أعلامه، ويُقال إنه التقى هناك بالإمام أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م)، كما أخذ عن أئمة الأشعرية من أهل السنة، وأعجبته طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية بالحجج العقلية، وتأويل المتشابه من الآي والحديث، كما تأثر بالشيعة الإمامية في القول بعصمة الإمام، وألف في ذلك كتابًا.

وعاد ابن تومرت من رحلته المشرقية إلى المغرب، فأعلن أفكاره الجديدة، وأخذ يهاجم علماءه لتركهم التأويل حتى مالوا إلى التجسيم والتشبيه، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأثار ضده الحكام في كل مكان ينزله في طرابلس وتلمسان وفاس، حتى وصل إلى "مراكش"- عاصمة المرابطين- فأخذ ينعى على أهلها وأمرائها حياة اللهو والدعة، وخروج نسائهم سافرات، وإقبالهم على الطرب والغناء، ويتهم فقهاءهم بالجمود والتشبيه، وتعرَّض لأخت الأمير المرابطي "علي بن يوسف بن تاشفين"- واسمها" الصورة"- ووبخها لأنه رآها في موكبها ومعها جواريها وهن سافرات على عادة المرابطين؛ إذ كان من عادتهم أن يتلثم الرجال، وتسفر النساء عن وجوههن، فأمرهن أن يسترن وجوههن، وضرب دوابهن، فسقطت "الصورة" عن دابتها، وأحدث ذلك ضجة في السوق، وعلم علي بن يوسف بما فعله هذا الفقيه فدعاه إلى مناظرة فقهاء مملكته فبزَّهم جميعًا، وأحس بالشر، فلحق بقومه في جبال درن سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م.

وأنشأ ابن تومرت رباطًا للعلم، فاجتمع عليه الطلاب والقبائل، وتعقبه الأمير، وأرسل رجاله في طلبه، فارتحل إلى السوس، وسرعان ما اجتمع عليه الأنصار وأطاعته القبائل، وكان يُقَسِّم أتباعه بحسب سبقهم إلى طاعته، جماعة العشرة، ثم جماعة الخمسين، وكان في مقدمتهم أخلص تلاميذه "عبد المؤمن بن علي"، وهو الذي سيكون خليفته بعد ذلك، وأطلق على أتباعه "الموحدين" تعريضًا بالمرابطين الذين عدلوا عن التأويل فمالوا إلى التجسيم، وسمى أتباعه أيضًا بالمؤمنين؛ لأنه- في رأيه – لا يوجد على الأرض من يؤمن إيمانهم.

واتخذت دعوته طابعًا سياسيًّا وأسلوبًا عسكريًّا؛ إذ دعا إلى الخروج عن طاعة المرابطين، وأخضع المصامدة لطاعته، واشتبك مع المرابطين في عدة معارك، الأمر الذي أتاح للموحدين أن يبسطوا سيطرتهم على منطقة السوس، وفي عام ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م سيطر على مدينة تينمل التي اتخذها دارًا ومعسكرًا وقاعدة للانطلاق، وأقام بها رباطًا للعبادة، وأعظم المعارك التي خاضها ابن تومرت ضد المرابطين هي التي وضع خطتها سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م، والتي أفضت إلى دخول مراكش والقضاء على المرابطين في عاصمتهم.

ويبدو أن ابن تومرت لم يتمكن من وضع نهاية الدولة المرابطية؛ لأنهم كانوا

قد استنفروا كل أمراء القبائل المغربية الموالية لهم، وكثرت حشودهم العسكرية، ودارت بينهم وبين الموحدين معركة مصيرية، وقعت أمام بستان كبير، وسميت بمعركة البحيرة، وقد هُزِم فيها الموحدون بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، وسقط فيها معظم الرؤساء والقادة، ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت، وعلى إثر هذه الهزيمة توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م.

أخفى أتباع المهدي نبأ موته، وكانوا يدخلون إلى بيته ويتفاوضون في شئونهم، وكأنه اختصهم بمجالسته، حتى قوي أمرهم، فاتفق جماعة العشرة على تولية تلميذه "عبد المؤمن بن علي الكومي"، من قبيلة كومية المقيمة بساحل تلمسان، وكان أقربهم وأحبهم إلى المهدي بن تومرت، حتى أنه بعد هزيمته في موقعة "البحيرة" ومقتل كثير من أصحابه سألهم: "ما فعل عبد المؤمن؟ قالوا: هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء. فقال: ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحدٌ".

ويسوق ابن خلدون رأي بعض النسابة في انتماء "عبد المؤمن بن علي" إلى قبيلة "كومية" من البربر البتر، وكانت تعيش مع المصامدة (وهم من صنهاجة البرانس)، فإذا صح ذلك فإن الدولة الموحدية تكون كومية في قيادتها مصمودية في بنائها السياسي وتكوينها الشعبي.

ويعتبر "عبد المؤمن بن علي" (٥٢٤-٥٥٨ هـ/ ١١٢٩-١١٦٢ م) المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين، فقد نجح في تثبيت أقدامها بعد كبوتها، وحمل لواء الكفاح المسلح ضد المرابطين، ونجح في دخول عاصمتهم "مراكش" سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، وعبر إلى الأندلس، فتمت له السيطرة عليه، وسيأتي تفصيل ذلك، وتفرغ بعد ذلك للمغرب الأوسط فانتزعه من بني حمَّاد، واستولى على عاصمتهم "الجزائر" سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م، واستمر في تقدمه إلى المغرب الأدنى الذي كان يعاني من تناحر القبائل العربية من بني سليم وبني هلال، وقام بتطهير شواطئه من قوات النورمانديين التي نزلت سواحله مستفيدة مما وقع فيه من اضطرابات، وبذلك تحققت الوحدة للمغرب الكبير الذي يضم المغارب الثلاثة والأندلس تحت راية الموحدين.

وجعل "عبد المؤمن بن علي" الحكم وراثيًّا في عقبه، واستمر فيهم إلى نهاية عهدهم، ولم يكتف الموحدون بألقاب الأمراء، بل اتخذوا ألقاب الخلفاء، وتسموا بأمراء المؤمنين، ولذلك اتجهوا إلى البحث عن أصول عربية لأنسابهم؛ ليؤكدوا

لأنفسهم هذا الحق، وتتوفر فيهم الشروط التي وضعها أهل السنة للخليفة، ومنها عروبة النسب، وقد ذكرنا أن داعيتهم "ابن تومرت" كان ينتسب للأدارسة العلويين الذين حكموا المغرب الأقصى، وكذلك انتسب خلفه "عبد المؤمن بن علي" إلى مضر، وكان يقول: "إنما نحن لقيس عيلان من مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم، وهم الأخوال".

وما لبث الموحدون أن تخلوا عن كثير من أفكار المهدي، مثل المهدية والعصمة التي أثارت استنكار الكثيرين، وأقدم خليفتُهم "أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور" الملقب بـ"المأمون" (٦٢٤-٦٢٩ هـ/ ١٢٢٦-١٢٣٨ م) على خطوة جريئة وحاسمة، فأمر سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م بإبطال مذهب المهدي، وأزال اسمه من على السكة، وأصدر منشورًا بإلغاء القول بعصمة الإمام، قال فيه: «ولتعلموا أَنَّا نبذنا الباطل، وأظهرنا الحقَّ، وأن لا مهدي إلاَّ عيسى ابن مريم، وما سُمِّيَ مهديًّا إلا أنه تَكَلَّم في المهد، وتلك بدعة قد أزلناها، والله يُعيننا على القلادة التي تقلدناها، وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة؛ فلذلك أزلنا عنه رسمه، فتسقط وتُبَتُّ، وتُمْحَى ولا تثبت، وقد كان سيدنا المنصور- رحمه الله- هَمَّ أن يصدع بما به الآن صَدَعْنَا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُساعده لذلك أمله، ولا أَجَّلَه إليه أجله، فقدم على ربِّه بصدق نية، وخالص طويَّة، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يَدْرِ بأي يدٍ يأخذ كتابه..."، وأثار هذا القرار غضبة الكثيرين من الفقهاء ورعايا الدولة، وتخلوا عن ولائهم لها.

واهتم الموحدون بقوتهم العسكرية، فضم جيشهم – إلى جانب البربر- أعدادًا من العرب من أهل إفريقية والأندلس، وكذلك من الأتراك الغز الذين وفدوا من مصر في عهد يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥ هـ/ ١١٨٤-١١٩٩ م)، وأيضًا من السودان الذين يشترونهم من جنوب الصحراء.

وتزايدت قوتهم البحرية، وبلغ أسطولهم أربعمائة قطعة في عهد "عبد المؤمن بن علي" (٥٢٤-٥٥٨ هـ/ ١١٢٠-١١٦٣ م)، وتطلع صلاح الدين الأيوبي إلى مؤازرتهم في حروبه ضد الصليبيين، وأرسل مبعوثه "أسامة بن منقذ" إلى المنصور الموحدي يطلب منه أن يمده بقواته البحرية، وأبدى المنصور احترامه لهذا المبعوث، ولكنه لم يستجب لمطلبه؛ وذلك لتخوفه من سياسة صلاح الدين التي

كانت ترمي إلى التوسع غرب مصر.

وكان صلاح الدين قد أثار قلق الموحدين عندما وجَّه أخاه "تقي الدين" ثم مولاه "قراقوش"، فأغارا على برقة وطرابلس، ثم انضم "قراقوش" إلى الثائر "ابن غانيَّة" وعرب بني هلال في صراعهم مع الموحدين.

ويُعْزى هذا الرفض أيضًا إلى احتياج الموحدين إلى الاحتفاظ بقواتهم البحرية لمواجهة الإسبان والقوى الأوربية في الأندلس، وحماية شواطئها من هجماتهم.

واتسعت العمارة والبناء في عهدهم، فأضافوا إلى المدن القديمة كثيرًا من التجديدات، وأقاموا مدنًا جديدة، فأسس "عبد المؤمن بن علي" مدينة "تازا" سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م، وأنشأ يعقوب المنصور مدينة "الرباط" سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، واستمر العمل فيها أربع عشرة سنة، وجلب إليها كثيرًا من العمال والصناع والمفكرين، وكان يقيم فيها ستة أشهر كل سنة، يبغي من ذلك أن ينافس بها مدينة "الإسكندرية" في الضخامة والجمال.

ونشطت في عهدهم صناعات التعدين والورق والآلات الحربية، واهتمت قبائلهم بالزراعة وغرس الأشجار وبخاصة الزيتون، وازدهرت التجارة، وأصبحت "طنجة" و"الرباط" من أهم مراكزها وموانيها.

وكان للموحدين دور عظيم في الأندلس سيرد ذكره في موضعه، وحققوا انتصارات باهرة، منها انتصارهم في معركة "الأرك" (نسبة إلى حصن بهذا الاسم يقع على بعد ٢٠ كلم إلى الغرب من قلعة رباح)، وتُعرف هذه المعركة في المصادر النصرانية باسم معركة "الأركوس" (Alarcos)، ويمثل انتصار الموحدين في هذه المعركة ذروة سلطانهم، ولكن تحالف القوى النصرانية ضدهم أدى إلى هزيمتهم الفادحة في موقعة "العقاب" سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م، وترتب على هذه الهزيمة نتائج خطيرة؛ إذ انكمشت جهود الموحدين العسكرية، وازدادت جرأة الإسبان عليهم، وانتفض عليهم أمراء المسلمين هناك حتى خرجت الأندلس من أيديهم نهائيًّا بسقوط عاصمتهم الأندلسية "إشبيلية" في أيدى النصارى سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م.

وفي نفس الوقت واجه الموحدون حركة تمرد قوية أعلنها بنو غانيَّة الذين يمتون بصلة قرابة إلى المرابطين، وكانوا يهدفون إلى استعادة مجدهم الزائل، وسيطروا على عدة إمارات في الأندلس، وكان زعيمهم "علي بن إسحاق بن غانيَّة" أمير جزيرة "ميورقة".

واستطاع هؤلاء الثائرون أن ينزلوا جانب المغرب، ويغزو أملاك الموحدين، واستولوا على جزء كبير من المغرب الأوسط، ووجدوا تحالفًا من بعض العرب الموجدين في برقة، وانضم إليهم "قراقوش" أحد مماليك صلاح الدين الأيوبي وجماعته من الأتراك الغز، وكانوا يعلنون الطاعة للعباسيين، واستمرت حركتهم إلى سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م، حتى موت زعيمهم، واستنزفت هذه الحركة كثيرًا من جهد الموحدين وقوتهم.

وأصبح للعرب نفوذ في المغرب الأقصى بعد أن استقدم المنصور الموحدي بعض قبائلهم من إفريقية وأسكنهم شمالي فاس وسهول الأطلسي، وزادت شوكتهم وكثرت مطالبهم حتى تدخلوا في شئون الدولة، وحاولوا فرض وصايتهم عليها.

ونتيجة لكل العوامل السابقة دب الوهن في أوصال دولة الموحدين، فتمكنت القوى الناشئة في منطقتهم أن تغالبهم على ما في أيديهم، فقامت ثلاث دول على أنقاض إمبراطوريتهم الواسعة، حيث أعلن عمالهم "بنو حفص" استقلالهم بإفريقية سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٧ م، واتحدث قبائل بني عبد الواد (أو بني زيَّان) الضاربة في أعماق الصحراء بالمغرب الأوسط، واتجهت إلى المناطق الغنية في الشمال وأسسوا الدولة الزيانية سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م، وانتهى مُلك الموحدين باستيلاء بني مرين على المغرب الأقصى، وقتلوا آخر خلفائهم "أبا دبُّوس"، ودخلوا عاصمتهم "مراكش" سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م.

ثانيًا: الموحدون في الأندلس:

بدأ توسع الموحدين في بلاد الأندلس بعد أن قدَّم علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي في مياه قادس طاعته للموحدين سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م أثناء حصار مدينة فاس، وقام هذا القائد بالخطبة في قادس بالأندلس باسم خليفة الموحدين، وكانت هذه أول خطبة للموحدين بالأندلس، ثم قَدِم على عبد المؤمن بن علي وفدٌ من أهل إشبيلية ورفعوا إليه البيعة مكتوبة بخطهم، فاستحسن خليفة الموحدين موقفهم، وقبل طاعتهم، وكان لهذا الأمر أثره فيما بعد في إيثار الموحدين لإشبيلية واتخاذها حاضرة الأندلس في عهدهم.

بعد ذلك بدأت جيوش الموحدين في الزحف على الأندلس منذ سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، ووجدت مؤازرة من بعض الثائرين على المرابطين أمثال أبي القاسم بن

قسي وابن حمدين التغلبي، وتمكنت من دخول إشبيلية التي أصبحت طوال عهدهم عاصمة للأندلس، وبعد ذلك بعامين وجَّه الخليفة الموحدي "عبد المؤمن بن علي" حملة كبيرة استولت على قرطبة، وانتزعت مواقع المرابطين التي كان آخرها غرناطة سنة ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م.

ولم يبق ممتنعًا عليهم من الأندلس الإسلامية سوى معقلي ميورقة ومرسية في المناطق الشرقية، وكان أولهما جزيرة ميورقة ملاذًا تجمعت فيه فلول المرابطين بقيادة ابن غانية، وقد أسلفنا الحديث عنه في حديثنا عن المغرب، أما ثانيهما فكان مركزًا تجمعت فيه بقايا المقاومة الأندلسية بقيادة أمير مرسية وبلنسية محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش، وكان يتلقى عون مملكتي قشتالة وأراجون الإسبانيتين، فاتجه إلى انتزاع الأندلس من أيدي الموحدين، فمُنى بالفشل الذريع، ولقى هزيمتين سنة ٥٥٧ هـ/ ١١٦١ م عند أسوار غرناطة وقرطبة، وجدد محاولته بعد ذلك بثلاث سنوات، فلم يكن حظها بأحسن من سابقتها.

وما لبث حلفاؤه الأندلسيون أن انفضوا من حوله، وانضم بعضهم إلى جانب الموحدين، وضعفت الإمدادات التي يتلقاها من الإسبان، وتواطأ أحد رجاله من زعماء بلنسية مع الموحدين فاستولوا على مملكته سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م، وكان غائبًا في إحدى غزواته، فاتجه إلى جزيرة ميورقة، فانتزعها من بني غانية، وما لبث أن توفى في العام التالي، واتجه أبناؤه إلى مصالحة الموحدين، وتنازلوا عن حقهم في الملك مقابل أن يتقلدوا بعض المناصب الرفيعة.

وكان الإسبان يحاولون الإفادة من هذه الصراعات، وكان من الممكن أن تسقط الأندلس على أيديهم، وبخاصة بعد أن استطاع ألفونسو ريموندس (Alfonso Raymonds) أن يجمع الممالك الإسبانية تحت سلطانه، ويتخذ لنفسه لقب القيصر، وكان يتدخل في الصراع لمؤازرة القوى التي تقاوم الموحدين كبقايا المرابطين وابن مردنيش، كما قام بغزو المرية، واستولى عليها بعد مقاومة عنيفة سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م، ولكن من حسن حظ الأندلس أن تمزقت إسبانيا بعد وفاته سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) إلى أربع إمارات متناحرة، بالإضافة إلى مملكة البرتغال الناشئة في ذلك الوقت.

وكان الطموح يراود الموحدين في إعادة سلطان الإسلام على ربوع شبه الجزيرة كلها، وإزالة الممالك النصرانية عنها، وفي نفس الوقت كان الإسبان ما

ينفكون يواصلون جهودهم ويستمدون القوى الأوربية لانتزاع ما بقى للمسلمين في الأندلس، ولذا شهدت الأندلس لقاءات تاريخية حاسمة بين الفريقين.

وكان أول من حداه الأمل من الموحدين خليفتهم الأول "عبد المؤمن بن على"، فقد هيأ نفسه، وحشد مئات الألوف من جنده، وأعد أسطوله الذي يضم حوالي أربعمائة سفينة كبيرة، ولكن الموت أعجله سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م.

وشُغل خلفه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠ هـ/ ١١٦٣-١١٨٤ م) في بداية عهده ببعض الاضطرابات الداخلية، فلما فرغ منها شحذ عزمه لتنفيذ مشروع أبيه، وبدأ بأقوى الممالك النصرانية وأكثرها تهديدًا لأراضي المسلمين في ذلك الحين، وهي مملكة البرتغال، فحاصرها بأسطوله عن طريق البحر، وعبر إليها بقواته البرية الضخمة نهر التاجه (Tajo)، وبدأ بمحاصرة مدينتها الحصينة شنترين (Santarém) سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، وتهاوت أمامه أسوارها، واستولى على معظم أجزائها، ولكن حدث خلل في صفوفه، وسوء فهم في تنفيذ أوامره، فقد ظن ابنه أبو إسحاق إبراهيم- كما ظن الناس أيضًا وتعجبوا- أن والده يأمره بالرحيل عن المدينة، فتأهب الجند وارتحلوا عن المدينة دون أن يعلم الخليفة بذلك، وأصبح هو ومَن معه من أفراد حاشيته فقط في المعسكر، فكانوا فريسة سهلة أمام القوات البرتغالية، ولحقت به هزيمة فادحة، وأصيب الخليفة بجراح بالغة، وعندما بلغت الأنباء أبا إسحاق، رجع بسرعة لينقذ البقية من جند أبيه، ويعود بفلوله المهزومة، وعاد المسلمون بالخليفة جريحًا، ولكنه ما لبث أن أسلم الروح، وتوفي في ١٨ من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ/ ٢٩ من يوليو سنة ١١٨٤ م.

وعقد خلفه أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور (٥٨٠-٥٩٥ هـ/ ١١٨٤-١١٩٩ م) عزمه على الانتقام لهزيمة أبيه، والرد على عيث النصاري في بلاد المسلمين، وتمكن من إخراج البرتغاليين من شلب (Silves) سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م، واستثارته اعتداءات ألفونسو الثامن (Alfonso VIII) ملك قشتالة على أراضي المسلمين حتى وصل إلى أعماق الأندلس، واغتراره بقوته، حتى إنه كتب إلى المنصور يتعجل لقاءه، ويعلن استعداده أن يقاتله في المغرب لو أرسل إليه السفن التي يعبر عليها، فكان رد المنصور أنْ أعاد إليه رسله بالآية الكريمة: "ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ".

وكان اللقاء الكبير عند حصن "الأرك" بين قرطبة وقلعة رباح، في ٩ من شعبان سنة ٥٩١ هـ/ ١٨ من يوليو سنة ١١٩٥ م، وتُعرف هذه المعركة في المصادر النصرانية باسم معركة "الأركوس" (Alarcos)، ومَنَّ الله على المسلمين بالنصر المؤزر، وتقدم المنصور الموحدى يخترق قلب العدو تتقدمه الراية البيضاء منقوشًا عليها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالب إلا الله"، وكان انتصار الأرك من الأيام المشهودة في تاريخ المسلمين، بل يمثل ذروة سلطان الموحدين في الأندلس.

وقد ذكر بعض المستشرقين أن هذا الانتصار قد منح الإمبراطورية الموحدية أكبر قوة بلغتها دولة إسلامية في العصور الوسطى، ولكنه في الوقت نفسه هيأ لسقوطها، حيث أدرك النصارى مدى الخطورة التي يمثلها الإسلام على وجودهم، وبخاصة وهم يرون مدنهم تسقط واحدة تلو الأخرى، فحرضتهم الهزيمة على المواجهة والتصدي بأقصى قوة للخطر الإسلامي(١).

وأعقب المنصور هذا النصر بمحاولات للتوسع في ممالك النصارى، واستولى على كثير من حصونهم وقلاعهم، ولكنه لم يتمكن من اقتحام طليطلة عاصمة قشتالة، وسعى ألفونسو الثامن إلى مهادنته، فأجابه المنصور لذلك سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦ م؛ ليفرغ لمواجهة ما نجم في المغرب من اضطرابات، ولكن ما لبث أن توفى سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م.

ما لبثت اسبانيا النصرانية أن اتجهت إلى توحيد قواها، وإنهاء خصوماتها، وعقد صلح بين ملكي ليون وقشتالة، وعادت جيوشهم إلى تهديد أراضي المسلمين، والعيث في أطرافها، ولذا أعلن خليفة الموحدين أبو عبد الله محمد الناصر (٥٩٥-٦١٠ هـ/ ١١٩٩- ١٢١٣ م) نداء الجهاد، وسار إليهم في جيش وافر العدد والمدد، ولكنه أساء التخطيط، فأصر على البدء بحصن شَلْبَطَرة (Salvatierra) المنيع (سربطرة/ شربطرة/ شلب ترة)، وظل محاصرًا له ثمانية أشهر حتى سقط في يده، بعد أن استنفد قوته، وأنهك جنده، وأتاح لملك قشتالة أن يستنفر قوى أوربا، فجاءته إمدادات من فرنسا وإيطاليا وغيرهما، وتحالف ملكا أراجون والبرتغال معه.

وبعد الجولات الأولى التي انتزعوا فيها بعض المدن والقلاع الإسلامية آثرت

---

(١) Titus Burckhardt: La Civilization hispano-arabe, ١٧٦.

القوى الأوربية العودة إلى مواطنها، بينما أصر ملوك الإسبان الثلاثة على مواصلة الزحف، والتقوا بقوات الموحدين في سهل تولوسا عند حصن "العِقاب" (بكسر العين) الذي عرفت الموقعة باسمه في (١٥ من صفر سنة ٦٠٩ هـ/ ١٦ من يوليو ١٢١٢ م)، وتُعرف هذه المعركة في المصادر النصرانية بمعركة هضاب أو عقاب تولوسا (Batalla de Las Navas de Tolosa) وبرغم التقدم المبدئي لجيوش الموحدين، فقد دارت عليهم الدائرة بعد أن شدد الإسبان هجومهم، وركنت القوات الأندلسية الموجودة في الميمنة إلى الفرار، وحاقت الهزيمة بالناصر رغم المقاومة الشجاعة التي أبداها مع حرسه وخاصته.

كان لهزيمة المسلمين في معركة العقاب نتائج خطيرة على مستقبل دولة الإسلام في الأندلس؛ إذ ضعفت شوكة المسلمين من بعدها، وهانوا في أعين أعدائهم، وتوالى سقوط المدن الأندلسية في أيدي النصارى دون أمل في عودتها للمسلمين مرة أخرى، وقد عبَّر عن ذلك المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي حين قال عن هذه المعركة: "وهي التي كانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلاد الأندلس حتى استولوا على معظمها، وأفضى إلى إخلائها من أهل الملة الحنيفية"، وأشار الذهبي إلى خراب الأندلس بعد هذه المعركة، فقال عنها: "هي التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها"، وقال ابن عذاري أنها :كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن" (أي: إلى عصره)، وقال عنها ابن الخطيب: "ولم تستقل الأندلس بعدها العثرة"، وقال المقري: وهذه الواقعة هي الطامة على الأندلس، بل والمغرب جميعًا.... ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تُحْمَد".

والحقيقة أن جيش الموحدين كان يحمل في نفسه عوامل هزيمته قبل أن يخوض المعركة على الرغم من كثرة عدده، وكان من أهم هذه العوامل:

١. تغيُّر قلوب الموحدين على أميرهم "الناصر"، وخوضهم المعركة وهم كارهون لأسباب متعددة، منها تأخير أعطيات الجند، مما أدى إلى ضعف معنوياتهم وازدياد سخطهم على وزرائهم وقادتهم، ومنها قتله لعدد من أشياخهم على يد رجل من رجاله يُدعى "ابن مثنى"، مما أدى إلى غضبهم منه وكراهيتهم له.
٢. تغير قلوب الأندلسيين على "الناصر" ووزرائه أيضًا؛ لأنه قتل أكبر قوادهم "أبا الحجاج يوسف بن قادس" وصهره قُبيل المعركة لوشاية وصلت إليه دون

أن يستقبله أو يستمع إلى عذره، مما أوغر صدور الأندلسيين ضده، فقرروا أن يغدروا به في المعركة... بالإضافة إلى إهانة الوزير "أبي سعيد بن جامع" للقواد والجنود الأندلسيين، وتهديده لهم، وطردهم من أرض المعركة، فأضعف ذلك من قوة الموحدين العسكرية إلى حدٍّ كبير؛ لأنهم كانوا أكثر خبرة ومعرفة بقتال النصارى الإسبان، وأكثر دراية بطريقتهم في الحرب.

٣. اغترار "الناصر" بكثرة جموعه واعتماده على ذلك دون أن يُحسن تنظيم الجيش وإعداده الإعداد الجيد لخوض هذه المعركة الحاسمة الفاصلة، فضلاً عن اتخاذه بعض القرارات غير الموفقة في توقيت غير مناسب، كأمره بقتل أشياخ الموحدين أثناء عبوره للغزو، وعدم إحكامه السيطرة على وزرائه الذين اتخذوا أيضًا بعض القرارات الطائشة التي كان لها أكبر الأثر في قلب ميزان المعركة، فأهدوا بذلك للنصارى نصرًا لم يتوقعوه.

لقد أصاب الموحدين بعد هذه الهزيمة انهيار نفسي، وتمزق سياسي، فانشق عليهم أولياؤهم ، وغدوا فريسة سهلة لأعدائهم، فقد اتجه الناصر إلى أمراء الأندلس ورجاله، ينفث فيهم غضبه ويصب عليهم انتقامه، ثم اعتكف في قصره بمراكش تاركًا الأمر لوزرائه وولي عهده الحدث، وتوفى بعدها بعام واحد سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م.

وتولى ابنه أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠ هـ/ ١٢١٤-١٢٢٣ م)، وقد جاوز العاشرة بقليل، ولم يكن مؤهلاً للحكم ولا عالمًا بتدابيره وسياسته، وكان مولعًا بالراحة، فضعفت الدولة الموحدية في أيامه، ولم تكن له حركة ولا غزوة، ولا خرج من حضرته إلا لمدينة "تينمل" على العادة في التبرك بالمهدي، وتوفي سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م، فتولى الحكم من بعده عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م)، فلم يحسن – أيضًا- التدبير، وكان أبو محمد عبد الله بن المنصور الموحدي الملقب بـ"العادل" آنذاك في مرسية من بلاد الأندلس، ورأى أنه أحق بالأمر، فاستولى على ما بقي للمسلمين في الأندلس، وبعد فترة خُلع عبد الواحد بن يوسف، وخُنق بمراكش بعد ثلاثة أيام من خلعه (سنة ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م)، فانتهز النصارى في الأندلس هذه الفرصة، فتقاتلوا مع العادل، وهزموه هزيمة كبيرة، فهرب إلى مراكش، وترك بإشبيلية –

حاضرة الموحدين في الأندلس– أخاه أبا العلاء إدريس الملقب بـ"المأمون"، ودخل مراكش بعد خطوب– كما يقول المقري– ثم قبض عليه الموحدون، وقدَّموا يحيي بن الناصر للخلافة، وكان صغير السنّ، غير مجرِّب للأمور.

وعندما علم المأمون أبو العلاء إدريس بذلك، ادعى الخلافة بإشبيلية، وبايعه أهل الأندلس، ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس، ولكنه واجه بعض العقبات، كان من أهمها ثورة الأمير "ابن هود المتوكل محمد بن يوسف الجذامي" ضده سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٧ م، ودعا لبني العباس، فمال إليه الناس، ورجعوا عن بيعة المأمون أبي العلاء إدريس، فخرج المأمون عن الأندلس، وترك ما وراء البحر لابن هود، وتقاتل مع ابن أخيه يحيي بن الناصر في مراكش، فهزمه، واستقرت له الأمور بعض الشيء.

وبذلك انصرفت وجوه ملوك الموحدين عن الأندلس، وانشغلوا عنها بالصراع على الحكم في مراكش، ولكن ما زال عمالهم وولاتهم على بعض جهات الأندلس يقاتلون من أجل البقاء إلى أن سقطت عاصمة الموحدين الأندلسية "إشبيلية" في أيدي النصارى سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م، وبعدها لم يبق للموحدين بالأندلس ذكر؛ لأن سقوط العاصمة يعني سقوط الدولة ونهايتها، وسارع مَن بقي من رجالهم إما إلى العدوة المغربية للانضمام إلى فلول الدولة الموحدية المحتضرة هناك، أو الانضمام إلى "ابن هود" أو "ابن الأحمر" أقوى رجلين في الأندلس آنذاك، وانطوت بذلك صفحة الموحدين في الأندلس.

ثالثًا: القوى المغربية بعد الموحدين ودورهم في نجدة الأندلس:

١. الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى (إفريقية) (٦٣٤–٩٨١ هـ/ ١٢٣٦–١٥٧٤م):

- **<u>نسب الحفصيين:</u>**

ينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهَنْتاتي، وهَنْتاتة من أعظم قبائل المصامدة، وأكثرها جمعًا، وأشدها قوة، وهم السابقون للقيام بدعوة المهدي بن تومرت (مؤسس حركة الموحدين) والممهدون لأمره، وكان أبو حفص من أصحاب المهدي ومن خواصه المقربين؛ فلما توفي ابن تومرت وبايع الموحدون عبد المؤمن بن علي أصبح أبو حفص أحد كبار قادته المخلصين، وقد بلغ من تعظيم الناس لقدر الحفصيين أنهم كانوا كما يقول ابن خلدون: «يتداولون الإمارة

بالأندلس والمغرب وإفريقية هم وأولاد عبد المؤمن».

كان أول من تولى منهم أمور إفريقية نائبًا عن الخليفة الموحدي الناصر بن يعقوب المنصور الموحدي هو أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص سنة ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م؛ لأن الخليفة الموحدي أدرك أنه لابد لولاية إفريقية البعيدة عن عاصمة الموحدين "مراكش" من جهاز إداري وعسكري خاص بها يستطيع التصرف بسرعة وحرية ذاتية عندما يهدد البلاد خطر مفاجئ.

وقد أثبت أبو محمد عبد الواحد ولاءه للخليفة من جهة، وصلاحيته للمنصب من جهة ثانية، فقد انتصر على الثائر ابن غانية وأجبره على التراجع إلى طرابلس (بنو غانية من قبيلة مسوفة من أتباع المرابطين هددوا ولاية إفريقية منذ وفاة الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن منذ سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، ولمدة خمسين سنة).

- **جهود أبي زكريا الحفصي في تأسيس الدولة:**

استمر ولاء الحفصيين للموحدين حتى عهد أبي زكريا يحيى الأول بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص (٦٢٥-٦٤٧ هـ/ ١٢٢٨-١٢٤٩ م) الذي قطع الخطبة للخليفة الموحدي، ولقب نفسه بالأمير، ثم جعل الخطبة باسمه، وبويع البيعة الثانية سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧ م، ومنذ هذا العام يبدأ تاريخ الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى (إفريقية).

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي على الانفصال عن الدولة الموحدية، منها:

أ. انهيار دولة الموحدين في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م.

ب. رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م لتعاليم ابن تومرت، ثم إزالة اسمه من السكة والخطبة.

ج. قتل الخليفة الموحدي إدريس لأشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته، وكان معظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

فاستغل أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته، واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد

وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال عن الموحدين على التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة، وإن كانت الظروف قد اقتضت بعد ذلك تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان.

وبعد أن استقل أبو زكريا يحيى الأول في الديار التونسية قام بحملات ناجحة، فضم قسنطينة وبجاية، واستخلص طرابلس من الثائر ابن غانية، وفي سنة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م ضم الجزائر وأخضع وادي شلف، وشجع العرب من بني سليم على التوسع على حساب بني رياح (الدواودة) في منطقة قسنطينة والزاب، وأخضع قبيلة هوارة المقيمة على الحدود الجزائرية التونسية، واستولى على تلمسان سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م، ولكنه ترك الحكم فيها لبني عبد الواد لقاء ولائهم للحكم الحفصي.

واتسعت سلطة أبي زكريا يحيي بعد سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٨ م لتشمل المغرب الأقصى والأندلس، إذ أظهر بنو نصر في الأندلس والمرينيون في المغرب الأقصى الولاء له، ودعا له عدد من ولاة الأندلس، وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية، كما وجَّه إليه أمير بلنسية وفدًا برئاسة المؤرخ والشاعر الشهير ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية، فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشد قصيدته السينية الفريدة، وكان مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلُسَا إن السبيل إلى مَنْجاتها درسَا
وهَبْ لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عزُّ النصر مُلْتَمسَا

ولقد لبى السلطان أبو زكريا الحفصي النداء، وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة، إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية؛ بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى، مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للنصارى، ثم ما لبثت المدينة المحاصرة أن استسلمت في ١٧ من صفر ٦٣٦ هـ/ ٢٩ من سبتمبر ١٢٣٨ م.

- **أمير المؤمنين محمد بالمستنصر بالله وبداية عهد الاستقرار:**

توفي أبو زكريا يحيي سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م، فخلفه في الحكم ابنه أبو عبد الله محمد (٦٤٧-٦٧٥ هـ/ ١٢٤٩-١٢٧٧ م) الذي اتخذ لنفسه لقب الخليفة المستنصر بالله، وهو أول مَن تلقب من الحفصيين بألقاب الخلافة، ونجح في

الحصول على وثيقة من شريف مكة تجعله وريثًا للخلفاء العباسيين بعد أن قضى المغول على الخلافة العباسية واستولوا على بغداد سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، وكان إعلانه كأميرٍ للمؤمنين سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م، وبايعه شريف مكة بالخلافة.

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الإفريقي عاصمتها تونس، وبسطت نفوذها في بلاد الأندلس والمغرب والحجاز، وأحس حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسة، ومن أهم تلك الأهداف السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالطولونيين، والإخشيديين والفاطميين [العبيديين] قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز، ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب "خدام الحرمين".

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨-٦٧٦ هـ/ ١٢٥٩-١٢٧٧ م) السلطان الظاهر بيبرس، وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر، واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وانتصر على الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضربًا للأمثال، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته، لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله، وقام الخليفة الجديد فقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء، وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذًا أدبيًّا وروحيًّا وسياسيًّا، ووجَّه ضربة موجعة للدولة الحفصية، وشرع في القيام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف، وأرسل كسوة الكعبة، وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب ... .الخ، ثم أدى فريضة الحج، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي، ووضع مندوبًا تابعًا له بجانب شريف مكة، إلا أنه بعد مُضِيِّ وقت قصير ضعف نفوذ كل من الخلافتين، وصار سلطان كل منهما لا يتعدى المنطقة التي توجد فيها.

لم يكن عصر المستنصر بأقل من عصر أبيه ازدهارًا، فما كاد يخرج ظافرًا من الفتنة التي أثارها ابن عمه محمد اللحياني (عرف باللحياني لطول لحيته) بدعم

من عرب بني رياح الدواودة وغيرهم حتى اتجه لتمكين الحفصيين في المغرب الأوسط، وردَّ الحملة الصليبية التي قادها القديس لويس (لويس التاسع ملك فرنسا) والتي وصلت إلى قرطاجنة سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م، وكانوا زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألفًا من الرجال، وكانت أساطيلهم تضم ثلاثمائة سفينة، فطلب المستنصر المدد من أتباعه، فوافته الإمدادات من كل ناحية، واتصلت الحرب والتقوا في محرم سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م، وقتل من الفريقين عدد كبير، وهلك لويس لإصابته بالوباء (أو لإصابته بسهم غَرْب وفق رواية أخرى)، مما اضطرهم إلى الرجوع.

حقق قيام دولة الحفصيين لإفريقية سنوات من الازدهار والاستقرار، وأصبحت مدينة تونس عاصمة للدولة ومركزًا ثقافيًّا وسياسيًّا، وشاد أبو زكريا والمستنصر الكثير من القصور والمساجد والزوايا والقناطر والمكتبات، واجتذبا إلى البلاد الشعراء والعلماء من بقاع العالم الإسلامي.

وكان للمهاجرين المسلمين من الأندلس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي مشاركة قيمة في النهوض بدراسات الأدب وفقه المالكية، وكان من بينهم مهندسون وحرفيون يحملون عناصر حضارة راقية، فنقلوا إلى الدولة الحفصية مكونات حضارتهم وثقافتهم، كما تولَّى بعض الأندلسيين المناصب القيادية في الدولة، مثل ابن الأبار الذي تولَّى الكتابة لأبي زكريا الحفصي، وقاضي القضاة "ابن الغماز"، وبنو عصفور من إشبيلية، وبنو خلدون أجداد ابن خلدون المؤرخ المشهور الذي ولد ونشأ في تونس.

وقد حدث تقدم اقتصادي في عهد أبي زكريا يحيى والمستنصر نتيجة للسلم والأمن اللذين انتشرا في المنطقة، فزادت المبادلات التجارية مع البروفانس والجمهوريات الإيطالية، وتوثقت العلاقات مع صقلية وأراغون، وكان من نتيجة ذلك أن استقرت جاليات من التجار المسيحيين (من إسبانيا والبروفانس وإيطاليا) في موانئ المملكة الحفصية، ولاسيما في تونس، فصار لهم فيها قناصل وفنادق خاصة.

- **<u>أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا وبداية مرحلة الاضمحلال:</u>**

بوفاة المستنصر سنة ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦ م انتهى العصر الذهبي الأول للدولة الحفصية، وتبدأ مرحلة من الاضطرابات والحركات الانفصالية استمرت إلى سنة ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م، حيث خلفه ابنه المولى أبو زكريا يحيي وتلقب بـ"الواثق"، و لم

يكن رجل سياسة، وكان ضعيف الشخصية وألعوبة في يد الأندلسيين الذين عظم شأنهم في عهده، فخرج عليه عمه أبو إسحاق إبراهيم الأول، وكان قد فرَّ إلى الأندلس أيام أخيه المستنصر، فلما علم بوفاة المستنصر عاد إلى تونس، وبويع بالخلافة سنة ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م، و تلقب بالأمير (المجاهد)، ولم يتلقب بلقب (الخليفة)، واجتمع أمر الناس عليه، وبدأ أمره بتقسيم المناصب المهمة في دولته بين الأندلسيين والموحدين.

وفي سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م خرج عليه صاحب قسنطينة أبو بكر بن موسى بن عيسى الملقب بالوزير، وكان قد كاتب ملك أراجون يطلب منه المساعدة ضد أبي إسحاق، فزحف إليه أبو فارس بن أبي إسحاق من بجاية في معسكره واحتل قسنطينة، ووصل أسطول النصارى متأخرًا، فعاد أدراجه، وكان فتح قسنطينة سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م.

ثم قامت ثورة قضت على ملك أبي إسحاق، وتولي كبر هذه الثورة رجل يدعى أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي، حيث رحل إلى أطراف طرابلس الغرب، وادعى أنه الفضل بن الواثق بن المستنصر الحفصي لشبهه به، فصدقه أهل تلك النواحي وبايعوه بالخلافة، ثم لم يلبث أبو إسحاق أن قُتل سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م، بينما فرَّ ابنه أبو زكريا يحيي نحو تلمسان لاجئًا عند بني زيان، وفي العام التالي (٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م) تمكَّن أبو حفص عمر الأول بن أبي زكريا الواثق من القضاء على ابن أبي عمارة المسيلي، واستعادة ملك أبيه الواثق.

وفي عهد أبي حفص عمر الأول (٦٨٣-٦٩٤ هـ/ ١٢٨٤-١٢٩٤ م) انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين؛ شرقي وغربي، وكان ذلك بسبب كثرة الفتن والثورات، فقد عاد أبو زكريا ابن أبي إسحاق- الذي كان لاجئًا عند بني عبد الواد- إلى إفريقية، واستولى على بجاية، فانفرد بالجزء الشرقي، وجعل مركزه قسنطينة، وكان النزاع قائمًا بين العم وابن أخيه، وقد أضعف هذا الصراع الدولة الحفصية، وجعلها عرضة للغزو الصقلي.

وفي سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م توفي أبو حفص عمر الأول صاحب تونس، بعد أن عهد لابنه أبي محمد عبد الله بولاية العهد من بعده، و لكن أهل تونس رفضوا مبايعته لصغر سنه، فاستشار الشيخ أبي محمد المرجاني، فأشار عليه

بتولية ابن الواثق محمد الملقب بأبي عصيدة (٦٩٤-٧٠٩ هـ/ ١٢٩٤-١٣٠٩ م)، والسبب في تلقيبه بهذا اللقب أنه لما قتل الواثق وأبناؤه، فرت إحدى جواريه- وكانت قد اشتملت على حمل منه- إلى رباط الشيخ المرجاني حتى وضعت حملها، فسماه الشيخ المرجاني، وعق عنه بعصيدة، فأطلق عليه لقب أبي عصيدة، وكان عهده عهد أمن وسلام، فقد التأم شمل الدولة الحفصية، فأصبحت دولة واحدة بعد انقسامها، حيث عقد أبو عصيدة صلحًا مع صاحب بجاية أبي البقاء خالد الأول الذي خلف والده أبا زكريا، وكانت شروط الصلح تنص على أن من مات منهما أي (أبو البقاء خالد وأبو عصيدة) قبل الآخر يصير ما بيده لقسيمه الموجود، وتجتمع الدولة الحفصية من جديد في سلطة واحدة.

لكن وحدة الحفصيين لم تستمر طويلاً، حيث توفي السلطان أبو عصيدة سنة ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م، ولم يكن له أبناء، فأوصى بالخلافة من بعده لأبي يحيي أبي بكر الشهيد، فخشي أبو البقاء خالد الأول انتفاض أهل تونس لهذا الشرط، فقدم إلى تونس، فوجد أن أهلها قد بايعوا أبا بكر بن يحيي بن عبد الرحمن، فحدث قتال بينهما، هُزم فيه جيش أبي بكر، وبويع أبو البقاء خالد الأول سلطانًا على الحفصيين (٧٠٩-٧١١ هـ/ ١٣٠٩-١٣١١ م)، وقُتل أبو بكر ولم يستمر عهده إلا ستة عشر يومًا.

ثم عاد انقسام الدولة الحفصية من جديد، حيث خرج أخو أبي البقاء ويدعى أبو بكر (أبو يحيي أبو بكر الثاني)، وكان عاملاً بقسنطينة على أخيه، فوجه له أبو البقاء جيشًا، واتفق ذلك مع وصول أمير حفصي آخر كان قد ظهر في طرابلس وهو أبو يحيي زكرياء بن اللحياني (عُرف بذلك لطول لحيته)، ولما علم باضطراب أحوال إفريقية وانقسامها، تقدم إلى طرابلس واستولى عليها، والتف الأعراب من حوله، وراسله الثائر أبو يحيي أبو بكر الثاني من قسنطينة ووعده بالمساعدة، فوصل تونس سنة ٧١١ هـ/ ١٣١١ م.

وتنازل أبو البقاء خالد عن الخلافة بتشجيع من قاضي الجماعة ابن عبد الرفيع، حيث كان يشجعه على المواجهة، ولكن أبا البقاء خالد اعتذر له قائلاً: "لا قدرة لي على المدافعة؛ لكثرة جنود أبي يحيي، فهل أنجو إذا انخلعتُ؟ فقال له: ينجيك ذلك".

ثم بويع أبو يحيي زكرياء بن اللحياني (٧١١-٧١٧ هـ/ ١٣١١-١٣١٧ م) سنة ٧١١ هـ/ ١٣١١ م، وكان طاعنًا في السن، فحاول مهادنة الأمير أبي يحيي أبي بكر الثاني الذي استقل بقسنطينة، ولكن أبا يحيي أبا بكر الثاني كان قد استفحل أمره، حيث انضمت إليه زناتة، بل إنه نزل إفريقية وأخذ الجباية من هوارة سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م وعاد إلى قسنطينة، ولجأ اللحياني إلى إشراك الأعراب الكعوب في سلطانه، حيث أقطعهم إفريقية ليكونوا في مواجهة أبي يحيي أبي بكر الثاني، ولكن انقلب الوضع ضده، فزادت سلطة العرب في إفريقية، وأصبحت سلطة الحفصيين سلطة اسمية فقط، وعندما رأى اضطراب الأمور وعجزه عن المواجهة قرر الفرار ومغادرة البلاد، فغادر تونس سنة ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م متجهًا إلى قابس، ومنها إلى طرابلس، وكان قد استخلف على تونس الشيخ أبا الحسن بن واندوين.

وفي هذه الأثناء قدم أبو يحيي أبو بكر الثاني إلى تونس ودخلها، وكان للحياني ابنٌ يدعى "محمد"، ويكنى أبا ضربة، وكان قد سُجن بأمر من القاضي أبي إسحاق ابن عبد الرفيع، فأخرجه الأعراب وبايعوه عندما سمعوا بقدوم أبي يحيي أبي بكر الثاني من قسنطينة، وعندما سيطر أبو يحيي أبو بكر الثاني على تونس خرج محمد أبو ضربة متوجهًا إلى القيروان، والتقى هناك مع زعيم الأعراب الكعوب من بني أبي الليل، فسألهم زعيم الأعراب حمزة بن أبي الليل عن مقصدهم، فأخبروه أنهم ذاهبون إلى القيروان، ومن هناك يكاتبون ابن اللحياني بقابس ويعلمونه بأمر أبي يحيي أبي بكر الحفصي، ولكن حمزة بن أبي الليل غير وجهة الجماعة، فأعلن مبايعة محمد أبي ضربة سلطانًا على إفريقية (٧١٧-٧١٨ هـ/ ١٣١٧-١٣١٨ م)، فتبعه مَن كان معه، وبايعوا أبا ضربة، واجتمعت عليه كلمة الأعراب والموحدين.

وهكذا عاد الانقسام إلى الدولة الحفصية، ولكنه- هذه المرة- انقسام أكبر من الانقسام الأول، حيث أصبح ثلاثةٌ من بني حفص يدَّعون التسلطن على إفريقية: أبو يحيي أبو بكر الثاني في تونس، وابن اللحياني في قابس، وأبو ضربة في الطريق بين القيروان وتونس.

إلا أن السلطان أبا يحيي أبا بكر الحفصي (الثاني) لم يستمر طويلاً في تونس، فقد خدعه الأعراب وأقنعوه بالخروج من تونس إلى قسنطينة، وبالفعل تم للأعراب ما أرادوا، وما إن خرج أبو بكر من تونس حتى دخلها محمد أبو ضربة،

وبايعه الناس، وتلقب بالمستنصر، ثم علم أبو يحيي أبو بكر الثاني بغدر الأعراب له، فقرر دخول تونس بمساعدة قبيلة زناتة وعظمائها، ومن بينهم عبد الحق بن عثمان المريني، إضافة إلى رجال دولته الأفذاذ، وعند اكتمال جيوشه خرج أبو يحيي أبو بكر الثاني متوجهًا إلى تونس سنة ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م، والتقى جيشه مع جيوش أبي ضربة، فانهزم أبو ضربة بعد أن خذله الأعراب كعادتهم في الغدر، وانضموا إلى أبي يحيي أبي بكر الثاني، وعُرفت هذه المعركة بـ"فج الحمام".

واستطاع أبو ضربة الفرار إلى القيروان، ومنها إلى المهدية، وكان والده اللحياني قد أرسل جيشًا لنجدته، ولكنه عندما سمع بهزيمة ابنه توجه إلى الإسكندرية حيث نزل على السلطان محمد بن قلاوون.

وهكذا استولى أبو يحيي أبو بكر الثاني (٧١٨-٧٤٧ هـ/ ١٣١٨-١٣٤٦ م) على تونس سنة ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م، وتلقب بالمتوكل على الله، وكانت الحقبة الأولى من حكمه محفوفة بالمكاره التي أثارها أبو ضربة سلطان تونس السابق وقبائل الكعوب التي تحالفت مع بني عبد الواد أصحاب تلمسان، فهدَّد بنو عبد الواد المقاطعات الحفصية مرارًا ما بين سنتي ٧١٩ هـ(١٣١٩ م) و ٧٣٠ هـ(١٣٢٩ م)، ولم يتغلب أبو يحيى أبو بكر الثاني على أعدائه إلا بدعم من المرينيين الذين عقد معهم حلفًا وثيقًا، وزوَّج ابنته من أبي الحسن المريني ولي عهد سلطان فاس.

دفعت الصعوبات التي واجهت أبا يحيى أبا بكر الثاني في المرحلة الأولى من حكمه إلى أن يزيد من اعتماده على أبنائه في إدارة الولايات، مع تعيين حجاب (رؤساء ووزراء) لهم، ونجح في أواخر سنوات حكمه أن يعيد الأمن والاستقرار في ربوع إفريقية، وأن يخضع مدن الجريد التي انتهزت فرصة الفوضى والاضطراب التي كانت سائدة لتستقل عن المركز، وإذا كانت طرابلس قد خرجت من قبضته إلا أنه حرر جربة من الحكم الصقلي.

عادت الفوضى ثانية إلى إفريقية بعد موت أبي يحيى أبي بكر عام ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م، فقد اغتصب أبو حفص عمر الثاني السلطة من أخيه الوريث الشرعي أبي العباس وقتله، فأثار هذا العمل المرينيين، وتقدم السلطان أبو الحسن علي المريني، وزحف بجيوشه، واستولى على تونس سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م، وقتل أبا حفص عمر الثاني، وشرع في بناء مدينة سماها "المنصورة" لسكنى جيشه.

ولما تملك البلاد منع العرب من أعطياتهم، ومنع عنهم الإقطاعات فغضبوا، وشنوا الغارات في البلاد كلها، فلم تطل أيام السلطان أبي الحسن بإفريقية، وعاد ملك إفريقية إلى بني حفص، وبايع التونسيون أبا العباس أحمد الأول (الفضل) بن أبي يحيى أبي بكر حاكم بونة، حكم الفضل سنة واحدة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م)؛ لأنه وقع فريسة لمؤامرة دبَّرها له وزيره أبو محمد عبد الله بن تفرَّاجين (تافراكين) الذي أوصل أخاه أبا إسحاق إبراهيم الثاني إلى سدة الحكم.

كان أبو إسحاق إبراهيم الثاني (٧٥١-٧٧٠ هـ/ ١٣٥٠-١٣٦٨ م) صغير السن، مما جعل السلطة الحقيقية في تونس بيد ابن تفرَّاجين مدة أربع عشرة سنة، واستطاع المرينيون أن يستغلوا الفوضى في ربوع الدولة الحفصية التي حكمها ثلاثة أمراء حفصيين في وقت واحد: أبو إسحاق إبراهيم الثاني في تونس، وأبو عبد الله محمد المنصور في بجاية، وأبو العباس في قسنطينة، فاستولى أبو عنان المريني على بجاية سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م، وعلى قسنطينة وبونة وتونس ما بين ٧٥٧ هـ(١٣٥٦ م) و٧٥٨ هـ(١٣٥٧ م)، وحصل على ولاء قابس ومنطقة الجريد، إلا أن محاولة أبي عنان كَبْح جماح العرب- الذين لم يروا في هذه الحروب إلا وسيلة للتخريب والسلب والنهب، ومنعه الدواودة من جباية بعض الضرائب من السكان المستقرين- جعلت جيشه يتخلى عنه، مما اضطره إلى ترك إفريقية والعودة إلى بلاده، فانتهز أبو إسحاق إبراهيم الثاني هذه الفرصة ودخل تونس ثانية مع وزيره ابن تفرَّاجين.

بقيت الفوضى سائدة في مملكة الحفصيين حتى نجح حاكم قسنطينة أبو العباس أحمد الأول (٧٧٢-٧٩٦ هـ/ ١٣٧٠-١٣٩٤ م) في أن يعيد للسلالة الحفصية مكانتها، فقد أعاد الأمن والنظام والاستقرار إلى البلاد، فكبح جماح العرب، وأرغم مشايخ الجريد وقفصة وقابس على الخضوع له، واستمرت سلطة الحفصيين التي استعادها قائمة في عهد ابنه أبي فارس عبد العزيز (عزوز) (٧٩٦-٨٣٧ هـ/ ١٣٩٤-١٤٣٣ م) الذي أكمل ما كان قد بدأه والده، فقضى على السلالات المحلية في كل من طرابلس وقفصة وتوزر وبسكرة، وغزا صقلية، واستولى على الجزائر سنة ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م، وقام بعدة حملات في الغرب، فأخضع بني عبد الواد في تلمسان، وتدخل في شؤون مراكش والأندلس.

كان أبو فارس شجاعًا، حازمًا، تقيًّا، موقرًا للعلماء، كثير الصدقات، محبًّا

للخير وأهله، فمن فضائله عموم صِلاته لأهل الحرمين وعلماء المشرق، وكان يوجِّه صِلاته إليهم صحبة الركب الحجازي، ووظَّف لأهل الأندلس – في كل عام – من الطعام وغيره إعانة لهم على جهاد العدو، كما أنشأ خزانة كتب مشتملة على أمهات الدواوين، وجعل لها مقصورة في الجامع الأعظم، وأوقفها على طلبة العلم شريطة ألا يخرج منها شيء عن محله، وجعل لها موظفين يعتنون بنظافتها ومناولتها للطلبة وردها لمكانها، ووقَّت لها وقتًا محددًا في كل يوم، وكان ملازمًا لقراءة العلم سَفَرًا وحَضَرًا، وأقام العدل، وأنصف المظلوم من الظالم، وعظم في أيامه شأن المولد النبوي، وجاءته الوفود من المشرق والمغرب، وأرسل له السلطان المملوكي ناصر الدين فرج بن برقوق (٨٠١–٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦–١٤١٢ م) هدية حافلة لعظيم ذكره، وتورد المصادر التاريخية بيانًا بشتى المباني التي أقيمت برعايته كالمساجد والزوايا والمدارس والمستشفيات.

لم يحكم حفيد أبي فارس المنتصر بالله محمد الرابع إلا مدة سنتين (٨٣٧–٨٣٩ هـ/ ١٤٣٣–١٤٣٥ م)؛ إذ كان عليه أن يواجه ثورات أقربائه وحلفائهم العرب، فخلفه أخوه أبو عمرو عثمان (٨٣٩–٨٩٣ هـ/ ١٤٣٥–١٤٨٨ م).

كان أبو عمرو عثمان حاميًا للأدب والفن، وأنشأ المدارس والمكتبات والزوايا ومكاتب لقراءة القرآن، وأوقف عليها الأوقاف، وكان يكرم أهل البيت النبوي، ويحسن إليهم، ويقود حملات سنوية لقمع أهل الفساد من الأعراب، وحدث في عهده الطاعون العظيم الذي مات فيه أربعمائة ألف نفس، وتوفى أبو عمرو عثمان سنة ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨ م، بعد أن حكم أكثر من نصف قرن، فقد حكم أربعًا وخمسين سنة، فكان آخر عظماء بني حفص و ختامهم.

- **<u>ضعف السلطنة الحفصية ونهايتها:</u>**

تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاة أبي عمرو عثمان، وخلفه في الحكم حفيده أبو زكريا يحيى الثالث بن أبي عبد الله المسعود (٨٩٣–٨٩٩ هـ/ ١٤٨٨–١٤٩٣ م) الذي كان حاكمًا صالحًا دانت له البلاد، ولكنه توفي سنة ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٣ م بالطاعون الذي اجتاح البلاد، فخلفه ابن عم له هو أبو عبد الله محمد الخامس المتوكل على الله، حفيد أبي عمرو عثمان (٨٩٩–٩٣٢ هـ/ ١٤٩٣–١٥٢٦ م).

كان أبو عبد الله محمد فطنًا، ذكيًّا، محبًّا للخير وأهله، إلا أنه كانت تعوزه

القوة، مما أدى إلى انحلال سلطان الحفصيين من جديد، وزاد الأمر سوءًا حتى لم يبق في يد هذا الأمير إلا مدينة تونس وعنابة وما بينهما، ثم قتله ابنه الحسن بن محمد، وقام بحكم تونس.

وفي عهد الحسن بن محمد (٩٣٢-٩٤٢ هـ/ ١٥٢٥-١٥٣٤ م) ازدادت الأوضاع سوءًا، واستولى خير الدين بربروس على تونس سنة ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣ م، ولكن ملك إسبانيا شارل الخامس انتزعها منه في السنة التالية، وعاد الحسن بن محمد إلى مملكته بمعونة ملك إسبانيا شارل الخامس على أن يدفع الجزية لإسبانيا، وبذلك دخلت تونس تحت الحماية الإسبانية، وحينما أخفق الحسن بن محمد في تحرير القيروان، قرر الاستعانة ثانية بالإسبان، فما كان من ابنه أبي العباس أحمد الثالث الذي كان واليًا على عَنّابة إلا أن أقبل إلى تونس خفية، واجتمع ببطانته، وخلع والده، واتصل الخبر بالناس، فهُرِعوا لمبايعته، وحاول الحسن أن يستعيد ملكه بمساعدة الإسبان إلا أنه فشل وقُبِض عليه، فسجنه ابنه أبو العباس أحمد الثالث، وسمل عينيه.

قبض أبو العباس أحمد الثالث على زمام السلطة حتى سنة ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩ م حين استولى "أولوج علي" على تونس؛ ليمنع الإسبان من استعمال المدينة قاعدة عسكرية ضد الأتراك العثمانيين، وخلفه أبو عبد الله محمد بن الحسن (٩٧٧-٩٨١ هـ/ ١٥٦٩-١٥٧٣ م)، واستطاع الحفصيون استعادة عرشهم لآخر مرة سنة ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٢ م بفضل حملة دون جوان النمساوي الظافرة، ولكن سنان باشا ما لبث أن استولى على تونس والقلعة في العام التالي (٩٨١ هـ/ ١٥٧٣ م) بعد قتال مرير أُسِرَ فيه أميرُ تونس أبو عبد الله محمد بن الحسن آخر الأمراء الحفصيين، وحُمِلَ أسيرًا إلى اسطنبول، وبأسره انقرضت الدولة الحفصية بعد أن حكمت ما يقارب ثلاثة قرون ونصف، ثم صارت تونس ولاية عثمانية ملحقة بالجزائر يحكمها باشا، ثم صارت تابعة للباب العالي مباشرة.

***

٢. الدولة الزيانية أو دولة بني عبد الواد بالمغرب الأوسط – الجزائر وتلمسان– (٦٣٣-٩٦٢ هـ/ ١٢٣٥-١٥٥٥ م):

- **نسبهم وموطنهم:**

يعود الزيانيون في أصلهم ونسبهم إلى قبيلة بني عبد الواد، التي هي فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة البربرية التي كانت قبائلها تعيش حياة البداوة والترحال، تجوب صحراء المغرب الأوسط بحثًا عن المراعي الخصبة لمواشيها، وامتدت مواطنهم من تاهرت إلى نهر ملوية، حتى قيل: "إن المغرب الأوسط وطن زناتة"، وهم ينتمون إلى فرع بني واسين إحدى أهم بطون زناتة.

وقد اختلف بعض المؤرخين في نسب الزيانيين وأجدادهم من بني القاسم، فعبد الرحمن بن خلدون رفض نسبهم إلى الأدارسة، بينما أيده أخوه يحيي بن خلدون في بغية الرواد، والتنسي في نظم الدر والعقيان.

ولما أخلص بنو عبد الواد الطاعة للموحدين أقطعوهم ضواحي من المغرب الأوسط، وبالتحديد فيما بين البطحاء وملوية، حيث كان عبد المؤمن بن علي قد استنجد بشيخ بني عبد الواد أبو محمد عبد الحق لرد أمواله وغنائمه التي اغتصبها بنو مرين، فلبى هذا الأخير نداءه واسترجع غنائمه، فاستحسن عبد المؤمن صنيعهم فأقطعهم تلك الربوع جزاء مؤازرتهم له.

ونلاحظ اختلاف المؤرخين في تسمية الدولة التي ظهرت في تلمسان ما بين العبد الوادية أو الدولة الزيانية، فقد أطلق عليها بعض المؤرخين لقب الدولة العبدوادية نسبة إلى بني عبد الواد إحدى بطون زناتة، وبقيت تعرف بهذا اللقب منذ ظهورها في تلمسان سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م إلى أن غيَّر السلطان أبو حمو موسى الثاني لقبها إلى الدولة الزيانية، نسبة إلى زيان بن ثابت والد يغمراسن مؤسس هذه الدولة، وهم الفرع الحاكم من بني عبد الواد، وقد استمرت منذ سنة ٦٣٣-٩٦٢ هـ/ ١٢٣٥-١٥٥٥ م.

- **نشأة دولتهم:**

أما فيما يخص الطريقة التي وصل بها بنو عبد الواد إلى الحكم ، فيُجمع كل من يحي بن خلدون وعبد الرحمن بن خلدون والتنسي بأن أبا سعيد شقيق المأمون سلطان الموحدين كان واليا على تلمسان فاعتقل بعض مشايخ بني عبد الواد ،

فقصده إبراهيم بن إسماعيل بن علان الصنهاجي اللمتوني متشفعًا فيهم، فلم يأبه له أبو سعيد وردَّ شفاعته، فغضب إبراهيم لذلك وثار ضده، فاعتقله أبو سعيد، ثم أطلق سراحه وسراح مشايخ بني عبد الواد، ولكنه تمادى إلى أبعد من ذلك؛ إذ خلع طاعة الموحدين، وطمح إلى إحياء الدولة اللمتونية، واعتقد أن ذلك لن يتم له إلا بالقضاء على كبار بني عبد الواد، وتحقيقًا لغايته أراد التحايل على مشايخ القبيلة لقتلهم، فبعث إلى جابر بن يوسف (عم يغمراسن) الذي كان على رأسهم حينذاك، فأعدَّ لهم وليمة دعاهم إليها بغرض تصفيتهم عند وصولهم، لكن المشايخ كان قد بلغهم ما عزم عليه، فتوقفوا خارج البلد، وبلغه قدومهم، فخرج إليهم مسرعًا يستقبلهم، فوقع هو وأصحابه أسرى بين أيدي بني عبد الواد.

فدخل جابر بن يوسف تلمسان وأعلن الدعوة للمأمون، وبعث إليه معلنًا الطاعة، فعهد له المأمون بولاية تلمسان وتسيير أمورها وما يليها من بلاد زناتة سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٢٩ م، وبذلك أصبح بنو عبد الواد سادة على تلمسان وضواحيها، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تأسيس دولتهم.

حاول جابر بن يوسف توسيع نفوذه، وإخضاع جيرانه، فأطاعه كثيرون، فقصد أهل ندرومة يطلب منهم الطاعة، فأبوا، فحاصر المدينة، لكنه قُتل حول أسوارها بسهم يوسف الغفاري التلمساني، فخلفه ولده الحسن الذي تخلى عن الحكم لعمه عثمان بن يوسف بعد ستة أشهر، فعُزل من قِبَلِ الرعية بعد عام ونصف لاستبداده وسوء حكمه، فآلت السلطة إلى أبي عزة زيدان بن زيان بن ثابت بن محمد لمدة ثلاث سنوات،[٤] غير أن بني مطهر رفضوا مبايعته وحاربوه بمساندة بني راشد، وانتهت الفتنة بينهم بقتل أبي عزة زيدان في معركة دارت رحاها خارج تلمسان سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م.

- **ظهور يغمراسن بن زيان وقيام دولة بني عبد الواد:**

بعد مقتل أبي عزة زيدان بن زيان تولى أمر تلمسان أخوه يغمراسن بن زيان سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م، وكان قد أدرك منذ البداية أن الطريق في سبيل بناء دولته محفوفًا بالمصاعب؛ نظرًا لتعقد الأوضاع في المغرب الإسلامي آنذاك، فقد دخلت دولة الموحدين في طور الانهيار، وأصبح سقوطها مسألة وقت فقط، وأدرك صعوبة موقفه لكون دولته أصغر دويلات الشمال الأفريقي وأقلها قوة.

لذا فقد تحلى بالعزم والإرادة كي يحقق طموحاته ويصل إلى مبتغاه، فبدأ بالقضاء على المشكلات الداخلية، وتمكن من إخضاع بني مطهر وبني راشد وجمع كلمتهم في ظل الدولة العبد الوادية التي سارع إلى إعلان استقلالها عن دولة الموحدين، مستبدًا بالحكم دونهم متخذًا تلمسان عاصمة لبلاده.

وبذلك يدخل بنو عبد الواد مرحلة جديدة بعد أن أصبح لهم كيان سياسي يمثلهم، وقوة يعتدون بها في المغرب الأوسط، لكنها مرحلة يشوبها العديد من الصراعات والمؤامرات خاصة من قبل جارتيها الحفصية والمرينية، وكذا القبائل المجاورة العربية والبربرية، وكان محور هذا الصراع التوسع وزيادة النفوذ وتحقيق الريادة بالقوة، ولم يكن يغمراسن بن زيان أقل طموحًا من جيرانه، فعندما بويع بالإمارة بعد مقتل أخيه أبي عزة اضطلع بالأمر في عزم وقوة، فأخضع إلى سلطانه كل الذين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه (بني مطهر وبني راشد)، فأحسن السيرة في الناس تدبيرًا وسياسة، وعمل على تنظيم قواته العسكرية، استعدادا للدفاع عن بلاده، كما اعتنى بالجهاز الإداري لدولته بعدما ألغى السلطة الفعلية للموحدين، ولم يبق لهم سوى التبعية الأدبية والروحية، خاصة في عهد الخليفة السعيد والدعاء له على المنابر أيام الجمعة والأعياد.

وبعدما تمكن يغمراسن من التوسع غربًا كان الحد الفاصل بين مملكته ودولة بني مرين وادي ملوية شمالاً إلى إقليم فيجيج، واستطاع الوصول بمملكته – بمساعدة القبائل المنضوية تحت نفوذه – إلى ما بعد مدينة وجدة إلى تاوريت والبلدان التي تلي نهر ملوية ووادي (صا) أو (زا)، وإقليم فجيج في الجنوب الغربي، أما من الناحية الشرقية فقد عرفت تطورًا ملحوظًا منذ اعتلاء السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن عرش المملكة.

وتطبيقًا لوصية يغمراسن ركَّز أغلب خلفائه اهتمامهم نحو توسيع إقليم دولتهم على حساب الحفصيين، لاسيما في عهد كل من عثمان بن يغمراسن وأبي زيان محمد وأبي حمو الأول وابنه أبي تاشفين الأول، فقد استطاعت الجيوش الزيانية في عهد الأخيرين الوصول إلى بجاية وقسنطينة وعنابة من أراضي الحفصيين، حيث حاصرتها عدة مرات إلى أن بلغت عاصمتهم تونس في عهد أبي تاشفين الأول (٧١٨-٧٣٧ هـ/ ١٣١٨-١٣٣٧ م)، لكنها تراجعت إلى أطراف بجاية وبلاد

الزاب، وهو أقصى اتساع لها في المنطقة الشرقية.

كما امتدت حدودها من البحر المتوسط شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوبًا، تلك هي الحدود التي استمرت عليها الدولة الزيانية في أغلب الأحيان طوال تاريخها على الرغم من تعدد الهجمات والغزوات التي تعرضت لها من قبل المرينيين والحفصيين.

- **علاقة الزيانيين مع الحفصيين:**

غلب طابع الصراع المحتدم على العلاقات السياسية بين السلطان يغمراسن بن زيان وجيرانه الحفصيين، فكلاهما كان يحاول ضم أكبر قسم من التركة الموحدية، حيث لم تقتنع أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، لذلك صاحب علاقتهما شعور بالريبة والحذر منذ الوهلة الأولى.

ولاء يغمراسن للحفصيين:

كان الحفصيون أول الأخطار التي واجهها العاهل التلمساني، فقد اتصل به أبو زكريا الحفصي دون جدوى محاولاً استمالته كي يقطع آخر صلة له بمراكش، ومع ذلك أبقى يغمراسن علاقته بالموحدين، خاصة وأنه تلقى هدية من الرشيد الموحدي، وتم تبادل السفارات والهدايا بينهما.

ويتضح من القرار الذي اتخذه يغمراسن الزياني أنه رجح كفة الموحدين لكونهم أكبر خطر من ناحية، و قرب تلمسان من مراكش أكثر من تونس من ناحية أخرى.

لقد كانت الهدايا والاتصالات التي تم تبادلها بين البلاطين الموحدي والزياني سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م، السبب الذي استثار الأمير الحفصي أبا زكريا ضد السلطان يغمراسن، وجعله يستشعر خطورة هذه الصلة على إمارته بتونس، فأعد أبو زكريا حملة عسكرية، وخرج بها من عاصمته تونس في شهر شوال ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م نحو تلمسان، ومن رجال القبائل التي انضمت إليها فوصل إلى أسوار تلمسان في نهاية شهر محرم سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م، وتمكن من دحر الجيش الزياني الذي تصدى له أمام المدينة، فدخلها سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م.

أما يغمراسن بن زيان فقد أفلت من قبضة الحفصيين ولجأ إلى الجبال المجاورة لتلمسان مع عائلته ومجموعة من أنصاره تاركًا عاصمته في يد أبي زكريا الحفصي الذي عرض بدوره حكمها على أفراد بني زيان وبني حفص فرفضوا تقلدها خوفا من سطوة أبي يحي يغمراسن، عند ذلك قال أبو زكريا: "ليس لها إلا صاحبها"

ويقصد بذلك يغمراسن، فتفاوض مع أم يغمراسن المعروفة "بسوط النساء" نيابة عن ابنها في عقد صلح ومعاهدة بينهما على الجلاء مقابل أن يقطع ابنها صلته نهائيا بمراكش، ويصبح تابعًا للحفصيين، وإتاوة مالية قدرها مائة ألف دينار، بينما تذكر المصادر أن أبا زكريا هو الذي أقطع أرضا ليغمراسن في افريقية مقدار جبايتها مائة ألف دينار، إعانة له ولخزانة تلمسان مقابل الولاء والتبعية السياسية.

وفي طريق عودته كلف أبو زكريا الحفصي شيوخ القبائل الموالين على توجين ومغراوة بمراقبة تحركات يغمراسن، وأن يكونوا سدًّا منيعًا أمامه، ليعيقوا تحركه نحو الشرق.

واستمر ولاء دولة بني عبد الواد في عهد يغمراسن للحفصيين الى أن عزم الخليفة الموحدي أبو الحسن علي السعيد (٦٤٠-٦٤٦ هـ/ ١٢٤٢-١٢٤٨ م) على تأديب يغمراسن، فخرج في جيش كبير، واتجه نحو تلمسان سنة ٦٤٥ هـ/ ١٢٤٧م، لكن أبا يحي يغمراسن لم ينتظر وصوله، بل خرج إليه، وفي الطريق تحصَّن بجبل "تيمز جزجت" ينتظر وصول الجيش الموحدي.

وبعد معركة شديدة بينهما انتهت بمقتل الخليفة الموحدي يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م و بعد مقتله عاد ولاء السلطان يغمراسن إلى الحفصيين مرة أخرى، وبعد وفاة أبي زكريا الحفصي يوم ٢٣ جمادي الآخرة سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م أعلن يغمراسن تمسكه بالطاعة والولاء لخلفه أبو عبد الله محمد المستنصر، وأرسل كبار رجال دولته لتأكيده، كما استمرت الإمارات التي أقامها الحفصيون بالمغرب الأوسط على ولائها لهم.

وهكذا كانت سياسة يغمراسن مع جيرانه بني حفص – في أغلب فتراتها – صورة من الصراع الدائم، حيث تصارعت أفكار كل منها عكس الآخر، فقد كان بغمراسن يريد التوسع شرقًا، وبنو حفص يريدون التوسع غربًا، وهذا جعل المجابهة بين الطرفين قوية، لكن هل ظل طابع العداء هو السمة البارزة التي تطبع العلاقات بين البلدين؟

إن طابع العداء والصراع سرعان ما تبدد وأخذ طابع الهدوء النسبي يسود العلاقات بين البلدين، وتجلى ذلك في الاتفاقيات التي تمت بين يغمراسن وبني حفص، والمصاهرة التي تمت بين الطرفين، وفي الهدايا المتبادلة والسفارات، وكذلك

في الزواج السياسي الذي تم بالمصاهرة عندما أرسل يغمراسن وفدًا مهمًّا إلى تونس ليخطب ابنة السلطان أبي إسحاق إبراهيم (٦٧٨-٦٨٣هـ/ ١٢٧٩-١٢٨٤م) لابنه الأمير وولي عهده أبي سعيد عثمان، ولكن شاءت الأقدار أن يتوفى يغمراسن بـ"رهيو" من وادي شلف بعد أن استقبل – بحفاوة بالغة – موكب العروس بمليانة سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٤م، كما كان خروجه أيضًا لحمايتها من غارات قبيلتي توجين ومغراوة رغم كبر سنه الذي كان قد تجاوز السبعين.

خلف يغمراسن ابنه أبو سعيد عثمان الذي قام بعدة تحركات في شرق المملكة لإخضاع القبائل الثائرة هناك، واستمر بنو زيان خاضعين للحفصيين إلى أن غزا السلطان المريني يوسف بن يعقوب تلمسان سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨ م وفرض عليها ذلك الحصار الطويل المشهور، وأسس مدينة "تلمسان الجديدة"، الشهورة باسم: "المنصورة" معسكرًا للجيش، وبعد الحصار بخمس سنوات توفي أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م، وخلفه ابنه السلطان أبو زيان محمد الذي استمر في الحكم لمدة ثلاث سنوات فقط، فقد أصيب بمرض أودى بحياته في أخريات شوال من سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧ م، فقام بالأمر من بعده أخوه أبو حمو موسى الأول، وكان صارمًا يقظًا، قوي الشكيمة، مفرط الدهاء.

وقد افتتح عهده بإبرام الصلح وتحقيق السلم مع سلاطين بني مرين؛ تأمينًا لظهره، فأوفد كبراء وزرائه إلى السلطان أبي ثابت المريني لإمضاء هذا الصلح وتوثيقه، كما بذل جهدًا كبيرًا في إصلاح تلمسان وترميم أسوارها وتحصينها، ومدَّ سلطانه غربًا حتى وادي ملوية، ثم اتجه إلى الجانب الشرقي حتى وصل إلى بجاية وقسنطينة، وكان ذلك على حساب الحفصيين، كما أخضع بني توجين ومغراوة لسلطانه، وبسط سيطرته على الجزائر والعديد من المناطق الأخرى مثل دلس ومنطقة الزاب في الصحراء الشرقية، وبذلك تقلص نفوذ الحفصيين كثيرًا، في حيت توسع نفوذ بني عبد الواد.

وفي الوقت الذي كان أمراء بني عبد الواد يحاولون بسط نفوذهم وتوسيع سيطرتهم على الجهات الشرقية كان سلطان المغرب الأقصى أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني يبيِّت الشر، ويتأهب للعدوان على تلمسان، فخرج من حاضرته فاس سنة ٧١٤ هـ/ ١٣١٤ م لغزو تلمسان وضواحيها، ولكنه فشل في

اقتحامها، واضطر إلى الانسحاب، فانتهز أبو حمو موسى الأول هذه الفرصة وواصل تصفية نفوذ المرينيين بالمغرب الأوسط، وقضى على إمارة الثعالبة بمتيجة، وطارد أمراءها إلى جهات كثيرة في حوض الشلف، وبنى قصره المعروف باسمه "قصر حمو موسى"

وفي غمرة هذا الانتصار تعرَّض أبو حمو موسى الأول لمحاولة اغتيال أودت بحياته يوم الأربعاء ٢٣ من جمادى الأول سنة ٧١٨ هـ/ ٢٢ من يونيو سنة ١٣١٨ م على يد ابنه بتحريض من رجال دولته والمقربين منه.

وخلفه في حكم الدولة الزيانية ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن، لكنه كان شؤمًا على آل زيان، حيث كان صغر سنه، وتسرعه في اتخاذ القرارات الصعبة والمصيرية وطموحه الزائد خيَّل له أن بإمكانه السيطرة على مساحات أوسع على حساب المرينيين، وكانت قد حدثت جفوة بين الدولتين واستوحش الأمر بينهما، فغزا أبو تاشفين تازة، واكتسح مزارعها، فردَّ عليه السلطان أبو الحسن المريني بغزو موانئ تلمسان الساحلية بأسطوله والسيطرة على عدة مدن مهمة، مثل: ندرومة وهنين ووهران وجبال تسالة وتنس والجزائر الشرقية، فخسر خسارة فادحة، وتخلى عنه العديد من حلفائه، وبعد العديد من المناوشات بين الطرفين انتهى الأمر بالاحتلال المريني لمدينة تلمسان في ٢٧ من رمضان سنة ٧٣٧ هـ/ ٢٩ من أبريل سنة ١٣٣٧ م، وبعد ثلاثة أيام كان مقتل أبي تاشفين، وخضعت تلمسان للسيادة المرينية، وكان هذا هو الدور الأول من مُلك بني عبد الواد في المغرب الأوسط.

- **مرحلة البعث الثاني للدولة الزيانية والتدخل المريني ضدها:**

ظل المرينيون يسطرون على تلمسان حتى كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان على يد عرب بني هلال وبني سُليم بعد أن تخلى عنه معظم جيشه الذي كان قد أعده لغزو تونس، فاغتنم بنو عبد الواد الفرصة، وسعوا لإحياء دولتهم وبعثها من جديد، فبايعوا أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يغمراسن، وتصالحوا مع المغراويين وبني توجين، ثم أسرعوا إلى مدينتهم تلمسان فدخلها أبو سعيد عثمان سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م، وكانت الخطبة والسكة له، والشئون العسكرية وأمور الحرب لأخيه أبي ثابت، ثم نهض مقاومة الخصوم والمنشقين، وأعاد سيطرة بني عبد الواد على كثير من المناطق التي فقدوها قبل ذلك.

ما كادت الأوضاع تستقر لبني زيان حتى عاود المرينيون هجماتهم عليهم، فكانت لبني مرين الغلبة بعد معركة "وادي القصب" في جمادى الآخرة سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م، وقتلوا أمير تلمسان أبا سعيد عثمان، وعجز أبو ثابت عن مواجهتهم، فانسحب إلى الوراء شرقًا، وخرج متنكرًا إلى مدينة الجزائر بصحبة عدد من أفراد أسرة بني عبد الواد، ومن الجزائر اتجهوا إلى بجاية، فاعترضهم في الطريق بعض الناس، وسلبوا ما معهم من أمتعة وزاد، ثم وقعوا في أيدي أنصار بني مرين الذين اقتادوهم إلى بجاية، وسلموهم إلى الأمير المريني أبي عنان، فاصطحبهم معه إلى تلمسان، ونفذ القتل في أبي ثابت على غرار أخيه في ١٣ من رمضان سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م، وبذلك اندثرت دولة بني عبد الواد للمرة الثانية، وخضعت لسيطرة بني مرين مدة من الزمن حتى أعاد إحياءها من جديد أبو حمو موسى الثاني.

- **مرحلة البعث الثالث لدولة بني عبد الواد:**

استمرت سيطرة بني مرين على تلمسان سبع سنوات، وكانت نجاة أبي حمو موسى الثاني (ابن أخي أبي ثابت) من مذبحة المرينيين بمثابة طوق نجاة لبعث دولة بني زيان من جديد، فبعدما عصفت بهم رياح بني مرين، وتغلب السلطان أبو عنان المريني عليهم، وبعد مقتل عمه أبي ثابت، غفلت عنه العيون، فسار إلى تونس، ونزل بها على الحاجب أبي محمد عبد الله بن تافراكين، فأكرم نزله، وأحله مكانًا مرموقًا في مجلس سلطانه.

فبعث السلطان أبو عنان المريني إلى ابن تافراكين في طلب أبي حمو ومَن معه من بطانته، فأبى ابن تافراكين تسليمهم إليه، مما دفع بالسلطان المريني إلى حصار تونس، ولما وقعت تونس بيد الدولة المرينية في أواخر شعبان سنة ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٧ م خرج منها أبو حمو برفقة سلطانها أبي إسحاق إبراهيم الثاني الملقب بالمستنصر إلى ناحية الجريد، ومن هناك أخذ أبو حمو وقومه يعدون العدة للاتجاه نحو تلمسان، وكان بنو عامر بن زغبة من عرب بني هلال خارجين عن طاعة السلطان أبي عنان المريني منذ احتلاله تلمسان، فلما علموا بخروج أبي عنان إلى حاضرته فاس، رغبوا في العودة إلى صحراء المغرب الأوسط، فدعوا أبا حمو إلى مرافقتهم على أن يحالفوه في الإجلاب على تلمسان وينصبوه للأمر، فوافقهم على ذلك، وصادف هذا الرأي قبولاً من السلطان الحفصي أبي إسحاق إبراهيم الثاني

وحاجبه ابن تافراكين؛ لما في ذلك من إزعاج لعدوهم المريني ليشغله عنهم.

وتوجَّه أبو حمو إلى تلمسان، واستغرقت مسيرته ستة أشهر، وفي أثنائها وصلهم خبر موت السلطان أبي عنان المريني، فرفع هذا الخبر من معنوياتهم وقوَّى عزائمهم، وواصلوا السير نحو تلمسان، فلما وصلها أبو حمو حاصرها لمدة ثلاثة ايان، ثم نجح في اقتحامها في اليوم الرابع، ودخلها من باب كشوط يوم الأربعاء ٨ من ربيع الأول سنة ٧٦٠ هـ/ ٧ من فبراير سنة ١٣٥٩ م، وبايعه الناس بالخلافة، وأمر بني مرين بالخروج، وصفح عنهم، وكان فيمن خرج منهم متولي تلمسان للمرينيين ابن السلطان أبي عنان.

أعاد أبو حمو موسى الثاني تجديد دولة أجداده وآبائه للمرة الثالثة على أنقاض السلطة المرينية الراحلة، وأطلق عليها اسم: الدولة الزيانية بعد أن كانت تسمى بإمارة بني عبد الواد.

لم يكف المرينيون عن إثارة القلاقل داخل الدولة الزيانية، مستغلين هذه المرة أحد أفراد البيت الزياني وهو أبو زيان بن أبي سعيد عثمان الذي كان في قبضتهم منذ انتصارهم على الزيانيين في وقعة وادي القصب سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م، فوسوسوا له لمنافسة أبي حمو موسى الثاني ومنازعته الملك، وأمدوه بالعدة والعتاد، فنشبت بين الطرفين عدة معارك، انتصر فيها أبو حمو موسى، وانحاز أبي زيان مرة أخرى إلى بني مرين، ثم أغار أبو حمو موسى على المغرب الأقصى، وثقلت وطأته على بني مرين، فصالحون، وانعقدت الهدنة بين الطرفين.

ولم يلبث الزحف المريني أن تجدد على تلمسان مرة أخرى بعدما رفض أبو حمو موسى طلب السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز بالإفراج عن عرب المعقل، فتحرك أبو فارس عبد العزيز إلى تلمسان، واحتلها يوم الأحد (يوم عاشوراء) من سنة ٧٧٢ هـ/ ٤ من أغسطس سنة ١٣٧٠ م، وخرج أبو حمو إلى الصحراء خشية حصاره ونفاد مؤنه، وظل متنقلاً مُشَرَّدًا حتى توفي أبو فارس عبد العزيز في ٢٢ من ربيع الأول سنة ٧٧٤ هـ/ أكتوبر سنة ١٣٧٢ م، فانفرجت عنه الشدة، وعاد إلى عاصمته تلمسان فدخلها بعد غياب دام سنتين.

عاود المرينيون إشعال الفتنة بين أبناء البيت الزياني مرة أخرى، فأوغروا صدر أبي تاشفين ضد أبيه أبي حمو موسى، وكان أبو تاشفين قد اغتال كاتب سر

أبيه وموضع ثقته "يحيي بن خلدون" سنة ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦ م، وكانت هذه بداية العصيان وإعلان الحرب بين الابن وأبيه، ثم تمكن أبو تاشفين من الاستيلاء على الحكم وسجن أبيه، فنجا أبو حمو موسى من السجن، وحاول استرجاع ملكة، فباءت كل محاولاته بالفشل، بسبب مساندة بني مرين لابنه؛ رغبةً منهم في التخلص من هذا الحاكم المحنك الشجاع الذي رفض الخضوع لهم، وهددهم في عقر دارهم، وظل مرفوع الهامة حتى وافته المنية في إحدى معاركه مع ابنه في غرة ذي الحجة سنة ٧٩١ هـ/ ٢١ من نوفمبر سنة ١٣٨٩ م.

كانت وفاة أبي حمو موسى الثاني بداية انهيار الدولة الزيانية، فلم تصفُ الأيام لأبي تاشفين، فسرعان ما نازعه أخوه أبو زيان – حاكم مدينة الجزائر– الحكم، ودارت رحى الحرب بينهما طويلاً حول تلمسان والمناطق الشرقية، انتهت بمقتل أبي تاشفين ليصبح العرش من بعده محل صراع بين الإخوة، ثم ظهور الحفصيين مرة أخرى للتدخل في الشئون الداخلية لبني زيان، خاصة بعد ضعف الدولة المرينية التي تلاعبت كثيرًا بعرش تلمسان، مما ساعد القوى الخارجية على إلحاق الهزائم بهم.

ففي الوقت الذي انحسرت فيه أخطار بني مرين من الغرب عن الزيانيين، برزت أخطار الحفصيين من الشرق، وتجددت أطماعهم في تلمسان، فبعد أن اعتلى أبو مالك عبد الواحد عشر تلمسان في ١٦ من رجب سنة ٨١٤ هـ/ أكتوبر ١٤١١ م عزم على استرجاع كل ما بيد الحفصيين من المناطق الشرقية، وتوسَّع غربًا حتى استولى على فاس عاصمة المرينيين، وعيَّن عليها واليًا من قِبَله، فكان هذا آخر عهد بتدخل دولة بني مرين في الجزائر، وحاول الحفصيون الدفاع عن ممتلكاتهم، ونجح السلطان أبو فارس عزوز الحفصي في دخول تلمسان سنة ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م، وجاءته البيعة من فاس والأندلس حتى صار المغرب الإسلامي كله تحت سيطرته وسلطانه.

وظلت الدولة الزيانية تحت سيطرة الحفصيين حتى اعتلى عرش تلمسان السلطان أبو عبد الله محمد السابع بن أبي ثابت الثاني سنة ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦ م، وكان من ذوي الفطنة والذكاء ورجاحة العقل وحسن التدبير، وكانت مملكة غرناطة في الأندلس قد سقطت في يد الإسبان سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م، فلجأ آخر ملوكها أبو عبد الله محمد

بن سعد المعروف بـ"الزغل" إلى وهران، وانتقل معه الكثير من الأعيان والكبراء إلى مدينة الجزائر وما حولها بالمغرب الأوسط، فاستقبلهم السلطان الزياني أحسن استقبال، فكان هذا مما أثار حنق الإسبان ضد الدولة الزيانية، وعندما أحس السلطان الزياني أبو عبد الله محمد السابع بهذا التغيُّر سارع بالسفر إلى إسبانيا، حاملاً معه الهدايا الثمينة، وقدَّمها لملك إسبانيا؛ إرضاءً له، ثم عاد إلى وطنه.

وفي سنة ٩٠٩ هـ/ ١٥٠٣ م خلفه أخوه أبو زيان الثالث الملقب بـ"المسعود"، لكن عمه أبا حمو موسى الثالث الملقب بـ"أبي قلمون" ثار عليه، واستولى على العرش، وسجنه، وباشر الحكم في ظل اضطرابات كثيرة، وازداد وتيرة التنافس على العرش بين أفراد البيت الزياني، فاغتنم الإسبان هذه الأحداث وتلك الاضطرابات، وقاموا باحتلال المرسى الكبير سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م، كما لجأوا إلى سياسة الإيقاع بين الزيانيين، فثار يحيي الثاني أخو أبي زيان المسعود ضد عمه أبي حمو موسى الثالث سنة ٩١٢ هـ/ ١٥٠٦ م، واستقل بتَنَس ونواحيها تحت حماسة الإسبان حتى لا تقوم وحدة وطنية ضدهم في المغرب الأوسط.

ثم احتلوا وهران سنة ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م، وبجاية في العام التالي (٩١٦ هـ/ ١٥١٠ م)، ثم مستغانم سنة ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م، ودلس وعنابة وهنين سنة ٩٣٨ هـ/ ١٥٣١ م، وصارت الجزائر مع بدايات القرن العاشر الهجري ميدانًا للحروب الأهلية، وكانت تعاني من تنافس الملوك حول السلطة من جهة، وتكالب النصارى المغيرين عليها من جهة أخرى، فلجأوا إلى الأمير البحري عرُّوج بن يعقوب التركي وأخيه خير الدين بربروس طالبين النجدة والمساعدة.

لبى عروج وأخوه خير الدين النداء، ونجحوا في إنقاذ الموقف إلى حين، لكن لم تلبث حدة التنافس على الحكم أن ازدادت بين أفراد البيت الزياني، بالإضافة إلى أطماع الإسبان في المغرب الأوسط، واستعانة الزيانيين بهم ضد بعضهم البعض، ثم ازدادت الأمور تعقيدًا بظهور الدولة السعدية في المغرب الأقصى ومحاولتها هي الأخرى التدخل في شئون تلمسان بغية احتلالها سنة ٩٥٧ هـ/ ٥ من يونيو سنة ١٥٥٠ م، ثم احتلت مستغانم بعدها، وأخذت تتقدم في اتجاه الجزائر العاصمة، مما أكَّد نواياهم العدوانية ضد السلطة التركية بالجزائر، ولذلك فإن البايلر باي حسن باشا بن خير الدين بربروس– الذي كان يستعد لمواجهة الإسبان في وهران– وجَّه

قواته بقيادة حسن قورصو إلى الجيش المغربي، وألحق به هزيمة كبيرة في حوض الشلف، وأرغمه على الانسحاب إلى المغرب الأقصى.

وبعد ذلك اتجه حسن باشا إلى تلمسان، وعزل عن عرشها أبا زيان أحمد، وعيَّن مكانه الأمير الحسن بن عبد الله الزياني تحت إشراف أحد الضباط الأتراك، وبقي في منصبه إلى أن عزله نهائيًّا الباياي باي صالح رايس سنة ٩٦٢ هـ/ ١٥٥٥ م، بفتوى من بعض علماء تلمسان توجب خلعه، ثم ألحق تلمسان بالجزائر العاصمة مباشرة، واضعًا بذلك نهاية الدولة الزيانية التي استمرت في الحكم ثلاثة قرون وثمانية عشر عامًا.

***

٣. الدولة المرينية بالمغرب الأقصى (٦٦٨-٨٩٦ هـ/ ١٢٦٩-١٤٦٥م):

- **نسبهم وظهورهم:**

المرينيون، أو بنو مرين، سلالة من البربر حكمت المغرب الأقصى، وأجزاء من المغرب الأوسط، وسيطرت على مقدراته نحو قرنين ونيف بعد أن قضت على سلطة الموحدين فيه.

ينحدر بنو مرين من بني واسين أحد بطون زناتة وجدهم الأعلى جرماط بن مرين؛ وإليه ينسبون، أما مؤسس دولتهم فهو أبو محمد عبد الحق بن أبي خالد محيو المريني (٥٩٢-٦١٤ هـ/ ١١٩٦-١٢١٧ م) الذي انتخب رئيسًا لبني مرين بعد أبيه المتوفّى سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦ م إثر معركة الأرك، حيث كان من فرسانها.

كان المرينيّون قد استوطنوا الأجزاء الشرقية من المغرب منذ منتصف القرن السادس للهجرة / الثاني عشر الميلادي، ويحددها ابن خلدون بالمناطق الصحراوية الغربية من المغرب الأوسط بين جبل راشد وملوية وفيكيك إلى سجلماسة، وكانوا يعيشون حياة البداوة، يطرقون المرتفعات والأرياف صيفًا يرعون فيها قطعانهم، وينحدرون إلى مواطنهم شتاءً يمتارون من الحبوب لأقواتهم.

وتشير المصادر التاريخية إلى أول وجود لبني مرين في نزاعات محلّية مع أبناء عمومتهم من بني عبد الواد وبني يادين وبني يلومي ومغراوة ومع الموحدين، وقد غزا الموحدون جموع زناتة أكثر من مرة قبل أن يستفحل شأنهم، ودخل الجميع في طاعة الموحدين خلا بني مرين الذين لحقوا بالقفار في منطقة الزاب.

أما بداية ظهورهم السياسي فكانت حين شاركوا في الجهاد في الأندلس بقيادة محيو بن محمد بن حمامة، وخاضوا معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م إلى جانب الموحدين كما أشرنا، حيث أصيب رئيسهم بجراح، وتُوفِّي بعد عودته إلى المغرب، وتولى الزعامة من بعده ابنه عبد الحق، وبقيت في عقبه إلى انتهاء دولتهم.

بعد وفاة أبو عبد الله محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م اختلت أمورهم، واغتنم المرينيون هذا الوضع المتردي، فغادروا القفار، ودخلت أولى طلائعهم جهات المغرب الأقصى بزعامة الأمير عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بعد أن اختاره أشياخ بني مرين بعد وفاة والده سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٥ م، وكان فيه وفي ذريته الملك والرئاسة، وارتبط اسم الدولة به، فقيل: الدولة العبد حقية، أو: دولة بني عبد الحق، وكان أول مَن نقل بني مرين من مرحلة البداوة إلى مرحلة التفكير في بناء الدولة.

وعندما وطئت أقدامهم جهات المغرب الأقصى اكتسحوا بسائطه، وحاول الموحدون ردَّهم وإخضاعهم، فصمد لهم بنو مرين في بلاد الريف، وهزموهم هزيمة منكرة بوادي نكور سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م، ورجع الموحدون عرايا يغطون عوراتهم بورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة، فسمي العام عام المشعلة.

وبإيعاز من الموحدين واتباع سياسة التفرقة انفض بنو عسكر عن أبناء عمومتهم بني مرين وانضموا إلى الموحدين، وتحالفوا عليهم أيضًا مع بني عبد الواد وأكثر قبائل زناتة والقبائل العربية في المنطقة، وبذلك اكتمل الحلف المعادي للمرينيين، والمكون من الموحدين وبني رياح وبني عسكر ومَن انضم إليهم.

واتفقت كلمة المرينيين على مواجهة هذا الحلف، وتم اللقاء عند وادي سَبُّو، وتمخض عن هزيمة المرينيين ومقتل أميرهم عبد الحق بن محيو في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ/ سبتمبر ١٢١٧ م، وتولى الزعامة ابنه أبو سعيد عثمان الملقب بـ"أردغال"، ومعناه: الأعور (٦١٤-٦٣٧ هـ/ ١٢١٧-١٢٤٠ م) الذي نجح في بسط سيطرته على قسم كبير من المغرب، وتوحيد زناتة كلها تحت لوائه، وإخضاع القبائل العربية، مستغلاً حالة الفوضى السائدة في بلاد المغرب، وما لبث أن قُتل غيلة بيد أحد العلوج سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م.

وقام بالأمر من بعده أخوه محمد بن عبد الحق، الملقب بـ"أبي معرف" (ت

٦٤٢ هـ/ ١٢٤٥ م)، فسار على نهجه، وتابع إخضاع المتمردين، ومناهضة الموحدين، يقتطع من أملاكهم جزءًا بعد جزء، ولإضفاء الشرعية على سلطته أمر بالدعوة للحفصيين في تونس ومما لأتهم نكاية في الموحدين من بني عبد المؤمن حكام المغرب.

وفي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٥ م دارت معركة حاسمة بين الموحدين بقيادة الخليفة علي بن المأمون الملقب بـ" السعيد" والمرينيين بقيادة الأمير أبي معرف، كانت الدائرة فيها على بني مرين، وقُتل أميرهم على يد أحد زعماء الفرنج الذين اشترك عدد كبير منهم في المعركة إلى جانب الموحدين، فانقلب المرينيون إلى بوادي الصحراء.

وتولى زعامتهم الأمير أبو بكر ابن عبد الحق المكنى بأبي يحيى، وهو الذي رفع راية بني مرين، وسما بها إلى مرتبة الملك، وكان عنوان سعد بني مرين كما يقول النويري، وفور توليه مهام الحكم اتخذ إجراءين مهمين:

أ. جمع شيوخ المرينيين ووزَّع عليهم أراضي المغرب الأقصى، وأنزل كل قبيلة منهم بناحية، وأمرهم بالتأهب والاستعداد الدائم، والاستكثار من الفرسان والمقاتلة، وهذا الإجراء يدل على بُعد نظر سياسي لدى الأمير المريني، حيث أوجد للقبائل المرينية أملاكًا خاصة سيستميتون في الدفاع عنها في حال الهجوم على حدود الدولة المرينية.

ب. دعا للدولة الحفصية بإفريقية؛ تأكيدًا على شرعية النضال المريني ضد الموحدين، وحتى لا يقوم الموحدون بإعاقة حركة وتقدم المرينيين، وأيضًا حتى لا يقوم بنو زيان بالهجوم على التخوم الشرقية للمغرب الأقصى، خاصة وأن هؤلاء جميعًا كانوا يحسبون ألف حساب للدولة الحفصية.

وبعد ذلك تمكّن الأمير أبو بكر بن عبد الحق من الاستيلاء على مكناسة سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م، ثم على فاس سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م، واتخذها حاضرة له، كما استولى على درعة وسجلماسة وسائر بلاد القبلة سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م، وأصبح المغرب كله مقسمًا بين المرينيين في المغرب الأقصى (فاس)، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط (تلمسان)، والحفصيين في إفريقية (تونس)، وانحصر الموحدون من بني عبد المؤمن في مراكش وما حولها، وظل بنو عبد الواد الخصوم

الرئيسيين المزاحمين لبني مرين مدة حكمهم.

- **نشأة الدولة المرينية:**

تُوفِّي أبو بكر بن عبد الحق في جمادى الآخرة سنة ٦٥٦ هـ/ يونيو ١٢٥٨ م، وخلفه أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو (٦٥٦-٦٨٥ هـ/ ١٢٥٨-١٢٨٦ م)، وأطاعته بلاد المغرب كلها، وسار على نهج أخيه في إخضاع ما بقي من بلاد المغرب، وهاجمه بنو عبد الواد، فظفر بهم، واستطاع التغلب على العديد من حالات الشغب ونبذ الطاعة من أفراد البيت المريني الذين كانوا يرون أنهم أحق بالحُكم منه، فقضى على هذه الخلافات بالحرب أحيانًا، وبالاسترضاء والمصالحة أحيانًا أخرى.

يعد أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المؤسس الفعلي للدولة المرينية، وسيد بني مرين على الإطلاق، ومن أهم ما قام به اتخاذه شعار الملك ولقب السلطان، واستخلاص مدينة سلا من أيدي النصارى الإسبان وطردهم منها سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ م. وفي عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م أرسل حملة من ثلاثة آلاف فارس اجتازت بحر الزقاق إلى عدوة الأندلس للجهاد، وهو أول من فعل ذلك من بني مرين.

وزحف بجيش قوي لقتال الموحدين، فدخل مراكش في التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ هـ/ أغسطس ١٢٦٩ م، وهزم آخر خلفائهم أبا دبوس إدريس بن محمد بن عبد المؤمن، وسرعان ما تلقَّب بلقب "أمير المسلمين"، وهو اللقب الذي تلقب به أمراء المرابطين قبل ذلك، ثم توجه للفتح، فاستولى على طنجة وسبتة عام ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م؛ لأهميتهما الاستراتيجية، حيث يشكلان ثغر العدوة المغربية، ومرفأ السفن والأساطيل، وبهما دور صناعة السفن، كما أنهما المعبران الوحيدان إلى الأندلس حيث ميدان الجهاد المريني.

ثم لم يلبث أن استرد سجلماسة من بني عبد الواد في العام نفسه (٦٧٢ هـ/ ١٢٧٤ م)، وباستردادها أكمل سيطرته على جميع أراضي المغرب الأقصى من وادي ملوية شرقًا حتى الأطلسي غربًا، ومن البحر المتوسط شمالاً حتى سجلماسة جنوبًا، وصفا له المغرب كله، فقطع الدعوة للحفصيين في تونس، وطمح إلى ترتيب دولته وفق الشريعة الإسلامية وإضفاء الشرعية الكاملة على سلطته، فأعلن الجهاد، واجتاز المضيق إلى الأندلس بنفسه سنة ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م، وكان أمر النصارى

فيها قد استفحل، فأثخن فيهم، وتوغّل في بلادهم، ووصل إلى إشبيلية حاضرة ألفونسو العاشر (Alfonso X) ملك قشتالة، فحاصرها، وقتل قائده العسكري (ذنونة) دون نونيو دي لارا (Don Nuño de Lara)، الذي عُرفت المعركة باسمه، فيقال: المعركة (الدونونية)، التي كان لانتصار المرينيين فيها أثر كبير في تاريخ الأندلس الإسلامية؛ إذ إنها أوقفت زحف النصارى على الأراضي الإسلامية، وأخرت سقوط مملكة غرناطة لمدة تزيد عن قرنين من الزمان، كما أنها عززت تواجد المرينيين في القواعد الأندلسية الجنوبية كجبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف ورندة.

ثم أكمل الأمير أبو يوسف يعقوب زحفه على المدن الأندلسية، فاستولى على شريش، وبنى بالجزيرة الخضراء مدينة حصينة؛ سماها «البنية»، ثم رجع إلى المغرب، فأقام بفاس، وبنى إلى جوارها المدينة البيضاء، وسكنها مع حاشيته وذويه، كما أمر ببناء قصبة مكناسة.

ثم عاد إلى الجهاد في الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م، فانتهى إلى إشبيلية، وفتك بجموع الجلالقة عندها، واستولى على جبل الشرف وحصن قطنيانة (Cantillana) وجليانة والقليعة (Alcolea del Río)، ثم تحول إلى قرطبة، ودخل حصن الزهراء وغيره، وكرّ راجعًا عن طريق غرناطة، فزار صاحبها ابن الأحمر، وعاد إلى المغرب سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م.

كان العبور المريني الثالث للأندلس سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م، وكان بهدف مناصرة ألفونسو العاشر ملك قشتالة ضد ولده سانشو الثائر عليه، ثم كان العبور الرابع سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م، وقد تميز هذا العبور بالقوة والتأثير، حيث وصلت القوات المرينية إلى تخوم إشبيلية وشريش، وكان من أهم الإنجازات الجهادية للأمير أبي يوسف يعقوب تشكيله ما عُرف في الخطط الغرناطية باسم: مشيخة الغزاة، وهي عبارة عن قوات مرينية تواجدت بشكل دائم على الأراضي الأندلسية، مهمتها الأساسية جهاد النصارى، وقد تولى بنو العلاء من بني مرين قيادة هذه المشيخة لفترة طويلة من الزمن.

وخلال هذا العبور أيضًا اهتم الأمير أبو يوسف يعقوب بالبناء وتنظيم أمور الدولة، فشيد البيمارستانات، ورتّب لها الأطباء، وخصص بعضها لعلاج الفقراء

والمساكين، وبنى المدارس لطلبة العلم، ووقف عليها الأوقاف، واستمر غازيًا ومصلحًا إلى أن تُوفِّي بالجزيرة الخضراء بالأندلس سنة ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م، ودفن برباط الفتح.

وبعد وفاته جرت البيعة لابنه السلطان الناصر لدين الله أبي يعقوب يوسف بن يعقوب وهو في الجزيرة الخضراء، فرجع إلى فاس بعد أن نزل للسلطان محمد بن يوسف – ابن الأحمر – صاحب غرناطة عن ثغور الأندلس كلها ما عدا الجزيرة ورندة وطريف.

وبعد أن رتب أموره في المغرب اجتاز البحر ثانية لقتال سانشو الرابع (Sancho IV) ملك النصارى الجديد، ودارت بين الطرفين معارك ووقائع تبادلا فيها النصر والهزيمة، وعاد أبو يعقوب إلى المغرب في شتاء ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م.

ومع أن أبا يعقوب ظل سائرًا على نهج أبيه في الجهاد والإصلاح والبناء طوال عهده، فإن العقبات التي وقفت في وجهه كانت كثيرة، فضاعت جهوده في الأندلس بمخالفة ابن الأحمر الذي مال إلى مهادنة ملوك النصارى والتخلي لهم عن كثير من الحصون؛ خوفًا من سطوة بني مرين، كذلك لم يستطع بسط سلطة دائمة على المناطق النائية من المغرب الأقصى، ولا إخضاع بني عبد الواد، مع أنه أقام على حصار حاضرتهم تلمسان ثماني سنوات، وبنى في أثنائه مدينة "المنصورة" قبالتها، ومات محاصرًا لها سنة ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٦ م، حيث اغتيل على يد خصيّ من مماليكه.

ويعد أبو يعقوب يوسف أول من هذّب حكم بني مرين، وأكسبه رونق الحضارة، وكانت له صلات مع ملوك المشرق وشرفاء مكة الذين بادلوه الهدايا.

تولى الحكم بعد السلطان يوسف بن يعقوب سنة ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٦ م حفيده السلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب (٧٠٦–٧٠٨ هـ/ ١٣٠٦–١٣٠٨ م) على إثر أزمة سياسية داخلية مرجعها الخلاف على تولي الحكم، وحاول السلطان أبو ثابت عامر استعادة مدينة سبتة، فأسس مدينة "تطوان" لتكون قاعدة عسكرية للانطلاق منها لتخليصها من السيطرة الغرناطية، ولكنه فشل في استعادتها، ولم يتمكن المرينيون من السيطرة عليها إلا في عهد ابنه السلطان أبي الربيع سليمان (٧٠٨–٧١٠ هـ/ ١٣٠٨–١٣١٠ م)، وبالتحدي سنة ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م.

وقد أثار هذا الفتح فزعًا لدى سلطان غرناطة الجديد أبي الجيوش نصر (٧٠٨-٧١٣ هـ/ ١٣٠٨-١٣١٣ م)، وجعله يجنح إلى مهادنة بني مرين وخطب ودهم، حيث تنازل لهم عن الجزيرة الخضراء ورندة وحصونهما؛ ترغيبًا في الجهاد، فقبل السلطان المريني ذلك، وزيادة في توثيق هذه العلاقة وزَّجه السلطان أخته، وبعث إليه بالمدد والأموال الخيول، وظلت العلاقات ودية بين الطرفين حتى وفاة السلطان المريني أبي الربيع سليمان سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م.

اعتلى عرش الدولة المرينية السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (٧١٠-٧٣١ هـ/ ١٣١٠-١٣٣١ م)، وخلال عهده اعترى سياسة دولة بني مرين تجاه مملكة غرناطة شيء من الجمود بسبب موقف المرينيين من بني الأحمر على خلفية مشاكل شيوخ الغزاة من بني العلاء، ففي سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٦ م نشب خلاف بين شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء والوزير محمد بن أحمد المحروق المستبد بالملك الغرناطي محمد بن إسماعيل بن فرج بن الأحمر (٧٢٥-٧٣٣ هـ/ ١٣٢٤-١٣٣٣ م)، فلحق عثمان بالمرية، وهمَّ بمغادرة الأندلس، ولكن سرعان ما تمت تسوية الخلاف بين الطرفين، وأعيدت الأمور إلى نصابها، ثم توفي السلطان أبو سعيد عثمان بعلة النقرس ليلة الجمعة ٢٥ من ذي القعدة سنة ٧٣١ هـ/ ١٣٣٠ م.

وتولى الحكم من بعده السلطان أبو الحسن علي بن عثمان (٧٣١-٧٤٩ هـ/ ١٣٣٠-١٣٤٨ م)، الملقب بـ"المنصور بالله"، وقد بلغت الدولة المرينية في عهده أوج عظمتها، وقد وصفه الناصري بقوله: "هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مرين دولة، وأضخمهم ملكًا، وأبعدهم صيتًا، وأعظمهم أبهةً، وأكثرهم آثارًا بالمغربين والأندلس"، وخصه العلامة ابن مرزوق الخطيب بمؤلف جمع فيه شمائله وأخلاقه ومناقبه سماه: "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن".

وكان من أهم إنجازاته أنه تمكّن من إنهاء حكم بني زيان (بني عبد الواد) والاستيلاء على حاضرتهم تلمسان سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧ م وضمها إلى أملاك دولته، وقضى على حركات المتمردين، وانصرف إلى الجهاد في الأندلس، فأوعز إلى ابنه أبي مالك الذي كان أميرًا على الجزيرة الخضراء بالتوغل في بلاد النصارى والعيث بها، فحقق تقدمًا كبيرًا، غير أن جيشًا متحالفًا من

القشتاليين والأراغونيين والبرتغاليين فاجأه في طريق عودته، فنشبت بين الفريقين معركة دموية في أواسط سنة ٧٤٠ هـ/ ١٣٣٩ م هُزم فيها المسلمون هزيمة فادحة، وقُتل قائدهم الأمير أبو مالك.

عندئذ قرر السلطان أبو الحسن العبور إلى الأندلس بنفسه ليثأر لهذه الهزيمة المؤلمة، فجهز الجيوش والأساطيل الضخمة، ودخل الأندلس في أوائل المحرم سنة ٧٤١ هـ/ يوليو ١٣٤٠ م، ونزل بسهل طريف الذي عُرفت المعركة به في المصادر العربية، فيقال: معركة طريف، ولحق به السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل في قوات الأندلس، وكانت الجيوش الإسبانية قد نفذت آنذاك إلى أعماق مملكة غرناطة، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء، ورابط الأسطول النصراني في مياه المضيق بين المغرب والأندلس، ليمنع قدوم الإمدادات والمؤن، وضرب النصارى الحصار حول ثغر طريف، وتغلبوا على حاميته، ومضت أشهرٌ قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين، فشحّت الأقوات بين المسلمين، ووهنت قواهم، وكان الجيش الإسلامي يرابط عندئذ في السهل الواقع شمال غربي طريف على مقربة من نهر سالادو الصغير الذي يصب في المحيط الأطلنطي عند بلدة كونيل التي تبعد قليلاً عن القمة الجبلية المعروفة بـ"رأس طرف الغار"، وعُرفت المعركة في المصادر النصرانية بمعركة نهر سالادو (Batalla del Salado)، أو موقعة الملوك الأربعة (La Batalla de los Cuatro reyes).

في جمادى الأولى من سنة ٧٤١ هـ/ ٣٠ من أكتوبر ١٣٤٠ م اشتبك الفريقان في معركة عامة على ضفاف نهر سالادو، وتولى السلطان أبو الحسن علي بن عثمان قيادة الجيش بنفسه، بينما تولى السلطان أبو الحجاج يوسف قيادة فرسان الأندلس، وتقدم ألفونسو الحادي عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة، فصُدَّ في البداية بقوة، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال، غير أن موازين المعركة انقلبت عندما تسللت حامية طريف النصرانية من الجنوب، وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامي، فدبَّ الخلل إلى صفوفه، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هائلة، قُتل فيها من المسلمين عدد جم، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص في يد النصارى وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده، فذُبحوا جميعًا، وتبعثرت قوات المسلمين، وفرَّ السلطان أبو الحسن علي ابن عثمان، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله، وارتد السلطان أبو الحجاج

يوسف إلى غرناطة، وكانت محنة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب، وكان لها أعمق وقع في المغرب والأندلس.

رجع السلطان أبو الحسن المريني إلى فاس يتجهز لإعادة الكَرَّة، فعلم بوفاة أبي يحيي أبي بكر الحفصي صاحب تونس، ونشوب الفتنة بين ولديه، فتوجه إلى تونس، ودخلها سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م، غير أن القبائل العربية في إفريقية تمردت عليه، وحصروه في القيروان سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م، فتسلل منها إلى تونس. وأشيع في المغرب أنه قتل، فانتقضت عليه زناتة، وكان ابنه أبو عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩ هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٨ م) نائبه في تلمسان، فدعا لنفسه، وبويع بقصر السلطان بالمنصورة، ثم انتقل إلى فاس، وخضع له المغرب.

وعلم السلطان أبو الحسن بما جرى، فركب البحر من تونس سنة ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م في أسطول كبير (نحو ٦٠٠ مركب) يريد المغرب، غير أن الريح عصفت بسفنه، فغرق معظم مَن كان معه من أعلام المغرب وعلمائه، وكانوا نحو أربعمائة عالم، ونجح هو في النزول على بر الجزائر في سفن قليلة، وتوجه إلى تلمسان، فقاتله بنو زيان (بنو عبد الواد)، وكانوا قد استردوها، ونهبوا ما بقي معه، فلجأ إلى الصحراء، وانتهى إلى سجلماسة، ثم توجه منها إلى مراكش، فخرج إليه ابنه أبو عنان فارس، وقاتله في وادي أم الربيع، فانهزم السلطان أبو الحسن، واعتل بسبب ذلك، وتوفي في ربيع الأول سنة ٧٥٢ هـ/ أبريل سنة ١٣٥١ م، واستقر الأمر لابنه المتوكل على الله أبي عنان فارس بن علي بن عثمان.

ترك أبو الحسن آثارًا كثيرة في المغرب، وكان له اشتغال بالأدب، ويجيد الشعر، وأنشأ من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من العصور، وشيد العديد من المساجد كمسجد الصفارين وحلق النعام بفاس، ومساجد المدينة البيضاء المعروفة بفاس الجديد حاليًّا، ومساجد المنصورة بسبتة، ومساجد أخرى بتلمسان وطنجة وشالة وسلا وجامع المنصور بمراكش وغيرها، كما شملت آثاره مدارس عدة بناها في مدن المغرب مثل مراكش وسلا وتازة وغيرها، ولا تزال رخامة التحبيس موجودة تحمل اسمه في مدرسة الصهريج بفاس، وكانت عندما أسسها وهو أمير سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م تسمى المدرسة الكبرى، وأسس بعد خلافته مدرسة أخرى في فاس سنة ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤ م سميت المدرسة المصباحية، نسبة

إلى أول أساتذتها وهو أبو الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م.

وبنى في مكناسة الزيتون زاويتيين، بنى القديمة في زمان أبيه، والجديدة حين تولى الخلافة، وله في هذه المدينة غير الزاويتين عدة آثار كثيرة جميلة، كما أقام المارستانات، ومدَّ القناطر والجسور، واهتم ببناء السقايات في ربوع البلاد حتى قال الفقيه أبو الحسن اليعمري في ذلك: "ما مررتُ في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها إلا وجدتُها من إنشاء السلطان أبي الحسن".

بدأ السلطان أبو عنان فارس عهده بإخضاع بني زيان (بني عبد الواد) واسترداد تلمسان سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م، والقضاء على خصومه ومنافسيه، ثم توجه إلى تونس، فاستولى عليها وعلى قسنطينة، وعاد إلى فاس بعد أن بدت له ريبة في بعض قواده، ومرض فيها، فدخل عليه وزيره، وقتله خنقًا سنة ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٧ م، وخلفه على العرش ابنه أبو بكر السعيد.

- **ضعف الدولة المرينية وانهيارها:**

بمقتل أبي عنان فارس تنتهي الحقبة الأولى من السيادة المرينية على المغرب، والتي اتصفت بالهيمنة العسكرية والتوسع في المدن والاستقرار في الحكم، وتبدأ الحقبة الثانية (٧٥٩-٨٧٠ هـ/ ١٣٥٨-١٤٦٥ م) بانقسامات داخلية ضعضعت البنيان السياسي للدولة، وجزأتها، وقلّصت ممتلكاتها حتى انهارت تمامًا.

وقد تميّز كل السلاطين المرينيين في المرحلة الأولى تقريبًا بالفعالية والهمة والمقدرة العسكرية في حملاتهم، وطول مدة بقائهم في الحكم، في حين ضعفت سلطة السلاطين الذين توالوا على العرش، وتنازعوه في الحقبة الثانية (١٩ سلطانًا)، وتسلط وزراؤهم والمتنفذون من قرابتهم، فتوالت الأزمات والنزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة وأبناء عمومتهم، واستهلكت الحروب المتوالية مصادرهم، فسادت الفوضى البلاد، وطمع فيها الخصوم والبدو وقبائل العرب والبربر.

شهدت الدولة المرينية في أعقاب مقتل السلطان أبي عنان تحولاً كبيرًا في نظامها السياسي، وكان من أهم مظاهر هذا التحول هو انتقال السلطة الفعلية في الدولة من يد السلاطين إلى يد الوزراء، وكانت هذه الظاهرة تشكل خللاً في الجهاز

الحاكم للدولة، كما كانت دليلاً على انتهاء مرحلة القوة في الدولة المرينية وبداية مرحلة الانهيار والسقوط.

وقد بدأ عصر نفوذ الوزراء بوزارة الحسن بن عمر الفودوي الذي حجب السلطان أبا بكر السعيد بن أبي عنان في داره واستقل هو بأمر الدولة، وحاول التخلص من أبناء السلطان أبي عنان فارس، ولكن لم تصفُ له الأيام، وظهر في ذلك الوقت الأمير المستعين بالله أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن (٧٦٠-٧٦٢ هـ/ ١٣٥٩-١٣٦٢ م) – وكان منفيًّا إلى بلاط غرناطة مع أخيه محمد منذ سنة ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١ م؛ لإبعادهما عن التطلع إلى العرش المريني– بجبال غمارة يدعو إلى نفسه، فالتف الناس حوله، وتوجهت الأنظار إليه ليخلصهم من هذا الوضع المتردي.

وفي يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩ م دخل أبو سالم إلى البلد الجديد– مقر الحكم المريني– واستولى على العرش، ومضت سنوات حكمه وسط جو من الخوف والقلق والترقب، وتخلص من أبناء البيت المريني المنافسين، وتركز اهتمامه في المحافظة على عرشه، والاحتياط لذلك بشتى الوسائل.

وقد أدى غياب السلطة المركزية القوية إلى نشوب حركات انفصالية، وتجزؤ أراضي الدولة في المناطق البعيدة عن العاصمة خاصة الجنوب على تخوم الصحراء، والشمال الذي أصبح هدفًا لأطماع البرتغاليين والقشتاليين، فاحتلوا تطوان وسبتة. وحاصر الحفصيون قسنطينة، واستردوا بجاية، واستعاد الزيانيون تلمسان سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨ م، فكانت هذه الأحداث نهاية لسياسة بني مرين التوسعية، وضياع كثير من التضحيات المادية والعسكرية التي بذلوها في إفريقية والمغرب الأوسط، وانتهى الأمر بمقتل السلطان أبي سالم في شهر ذي القعدة سنة ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١ م.

بويع السلطان تاشفين بن أبي الحسن المعروف بلقب "الموسوس" سنة ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١ م تحت استبداد الوزير عمر بن عبد الله، ويبدو أن هذا الوزير أجبر شيوخ بني مرين على مبايعة هذا السلطان؛ لأنهم بدأوا يتململون من أن يحكمهم سلطان لا عقل له، لكن الأحداث أثبتت للوزير المذكور ضرورة اختيار سلطان جديد، فوقع نظره على الأمير أبي زيان محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني؛ لأن شخصيته الاستسلامية ستحقق للوزير مآربه وأهدافه، وتسهل له عملية الاستبداد بالحكم، فأحضره من الأندلس وبايعه سلطانًا في منتصف صفر

سنة ٧٦٣ هـ/ ١٣٦١ م، وبعدها أحكم الوزير عمر بن عبد الله قبضته على الدولة، وأحضر أقاربه وأصهاره وولاهم المناصب العليا في الدولة، ووصل به الأمر إلى أن قتل السلطان أبي زيان بيده في ذي الحجة سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م.

ولم يكن أمام الوزير عمر بن عبد الله وقت طويل ليختار سلطانًا من نفس طراز شخصية السلطان أبي زيان محمد، فاستدعى عبد العزيز بن أبي الحسن الملقب بـ"أبي فارس"، وأجلسه على سرير الملك، وبايعه الخاصة والعامة سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م، وبدأ الوزير يمارس استبداده بالسلطان الجديد، لكن السلطان أبا فارس عبد العزيز – الذي كان يتمتع بشخصية قوية– رفض هذا الاستبداد، وأخذ كل منهما يدبر للتخلص من الآخر، فكانت يد السلطان أسبق؛ إذ أمر خصياه بالفتك بالوزير، ثم تتبع أتباعه بالاعتقال والقتل حتى قضى عليهم.

وانفرد السلطان أبو فارس عبد العزيز بالسلطة، ووضع في يده كل مقاليد الحكم، ونجح في استعادة وحدة دولته التي مزقتها الصراعات والأهواء، فاستولى على مراكش، واحتل تلمسان سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م، واهتم كثيرًا بإنعاش الوضع المالي للمرينيين، وكسب صداقة مملكة أراجون من خلال معاهدتي صلح وصداقة، بيد أن العمر لم يمتد بالسلطان أبي فارس عبد العزيز ليحقق للمرينيين انتصارات أكثر؛ إذ توفي سنة ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م.

وبوفاته عادت الدولة المرينية إلى ما كانت عليه من استبداد الوزراء بالحكم، بل الأكثر من ذلك هو أن بني الأحمر في غرناطة أصبحوا يمسكون بكل خيوط اللعبة السياسية في المنطقة، ويوجهون سياستها وفق إرادتهم، بل نستطيع القول بأن سلطان غرناطة الغني بالله ابن الأحمر أصبح هو الحاكم الفعلي للمغرب، يولي ويعزل مَن يراه من أمراء بني مرين، فبعدما توفي السلطان عبد العزيز تولى ابنه الطفل أبو زيان الملقب بـ"السعيد"، واستبد به الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس، وساءت العلاقات بين سلطان غرناطة الغني بالله ابن الأحمر والوزير المذكور، فقام السلطان "الغني بالله" بإطلاق سراح عبد الرحمن بن أبي يفلوسن (ت ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م)– أحد المرشحين للحكم والمحجور عليهم لديه– وأرسله إلى المغرب لإثارة الفتن والقلاقل هناك، ثم قام بمراسلة والي سبتة محمد بن عثمان بن الكاس– صهر الوزير أبي بكر بن غازي– وحرضوه على خلع طاعة السلطان المريني

السعيد لصغر سنه، ووعدوه بالدعم المالي والعسكري، ووقع اختيار سلطان غرناطة "الغني بالله" على "أبي العباس أحمد بن أبي سالم" (دولته الأولى: ٧٧٦-٧٨٦ هـ/ ١٣٧٤-١٣٨٤ م) ليكون بديلاً عن السعيد، وتم ذلك في المحرم سنة ٧٧٦ هـ/ يونيو ١٣٧٤ م، واستوزر ابن الأحمر له محمد بن عثمان بن الكاس.

وعندما ساءت العلاقات بين الغني بالله والسلطان أبي العباس أحمد، قام الغني بالله بخلعه سنة ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م، وسرح من عنده موسى بن أبي عنان (٧٨٦-٧٨٨ هـ/ ١٣٨٤-١٣٨٦ م)، واستوزر له مسعود بن ماساي (ت ٧٨٩ هـ/ ١٣٨٧ م)، وعندما حاول ابن ماساي تحريض أهل سبتة على الثورة ضد غرناطة، نقم ابن الأحمر على الوزير وسلطانه هذا التصرف، فخلعهم واستبدل بهم الواثق بالله محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن الذي حكم لعشرة أشهر فقط، وتمت الإطاحة به ليتولى السلطان أبو العباس أحمد ولاية حكم ثانية (٧٨٩-٧٩٦ هـ/ ١٣٨٧-١٣٩٤ م)، بقيت خلالها العلاقات ودية مع الغني بالله ابن الأحمر الذي وافته المنية سنة ٧٩٣ هـ/ ١٣٩٠ م.

وخلال الفترة ما بين ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م حتى ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٨ م تناوب على الحكم المريني سلطانان شقيقان هما: أبو فارس عبد العزيز الثاني بن أحمد ابن أبي سالم حتى وفاته سنة ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦ م، وشقيقه أبو عامر عبد الله بن أحمد بن أبي سالم حتى وفاته سنة ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٨ م.

ثم بويع السلطان أبو سعيد عثمان الثاني بن أبي العباس أحمد بن أبي سالم (٨٠٠-٨٢٣ هـ/ ١٣٩٨-١٤٢٠ م)، وهو في السادسة عشرة من عمر، فاستبد الوزراء والحجاب بشئون الدولة، وفي عصره امتد نفوذ بني حفص إلى المغرب الأقصى، وأصبح بنو مرين تابعين لهم من الناحية السياسية.

أما في عهد السلطان أبي محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان الثاني (٨٢٣-٨٦٩ هـ/ ١٤٢٠-١٤٦٥ م) آخر ملوك بني مرين، فقد ضعفت الدولة، وأشرفت على الانحلال والانهيار، وأصبحت مطمعًا للأتراك العثمانيين والإسبان والبرتغاليين، وخلال فترة حكمه قام القشتاليون والأراجونيون بإرسال سفرائهم إليه يحذرونه من مغبة التدخل في شئون غرناطة أو محاولة حمايتها، فاستجاب لرغبتهم، ثم كان سقوط جبل الفتح (جبل طارق) سنة ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٣ م في يد

الإسبان إيذانًا بانقطاع الجهاد المغربي ضد النصارى الإسبان، وتُركت غرناطة بذلك لمصيرها تحت رحمة ضربات الممالك النصرانية الإسبانية.

وكان من أسوأ تصرفات هذا السلطان أنه قرَّب اليهود من مقاليد الحكم، فتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمت أحياء فاس كلها، واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله (الحفيد) محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٥ م، وألقي القبض على السلطان أبي محمد عبد الحق المريني، وانتُزعت منه شارات الملك، وسيق إلى مصرعه في يوم الجمعة ٢٧ من رمضان سنة ٨٦٩ هـ/ أبريل سنة ١٤٦٥ م، فانتهت بموته دولة بني عبد الحق (بني مرين) من المغرب.

وصفا الأمر للشريف أبي عبد الله الحفيد حتى سنة ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠ م حتى تم عزله من قبل أبي الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوَطَّاسيّ، وبقيت فاس في يد أخت أبي الحجاج المذكور – وهي الزهراء المدعوة بزهور – إلى أن تولى الأمر أبو عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكريا الوَطَّاسيّ في رمضان سنة ٨٧٦ هـ/ ١٤٧٢ م، مؤسِّسًا بذلك الدولة الوَطَّاسيَّة (دولة بني وَطَّاس ٨٧٦–٩١٠ هـ/ ١٤٧٢–١٥٠٤ م) في المغرب الأقصى.

***

الفصل الخامس
مملكة غرناطة ونهاية الأندلس

- جغرافية مملكة غرناطة وحدودها:

غرناطة، ويقال أغرناطة، وتسمى أيضًا سنام الأندلس، وغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان، واشتق من الكلمة الرومانية (Granata) أي: الرمانة، والتي أصبحت فيما بعد شعار غرناطة التاريخي، ويعود سبب هذه التسمية لكثرة حدائق الرمان التي كانت تحيط بها، وتقع مملكة غرناطة- التي سميت على اسم عاصمتها آنفة الذكر- في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيرية.

يحدها من الجنوب والشرق البحر المتوسط، ومن الشمال نهر الوادي الكبير، أما حدودها الغربية فتنتهي عند سفوح الجبل الأسمر والوهاد التابعة لمنطقة نهر الوادي الكبير، وتمتد بذلك من نهر الوادي الكبير حيث مدن: جيان وقرطبة وإشبيلية شمالاً حتى الزقاق (مضيق جبل طارق) جنوبًا، ومن ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط شرقًا حتى قادس غربًا.

وقد اشتملت مملكة غرناطة على ثلاث ولايات هي:

أ- **ولاية غرناطة** في الوسط، ومن أهم مدنها: غرناطة وشلوبانية وبسطة ولوشة والحامة ووادي آش والمنكب.

ب-**ولاية مالقة** على البحر المتوسط بين مملكتي إشبيلية وغرناطة، ومن أهم مدنها: مالقة ومربلة ورندة وأنتقيرة وأرشذونة وبليش، ويليها مباشرة طريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق.

ج- **ولاية المرية** وتشمل المساحة التي تشغلها مرسية حتى شاطئ المتوسط، ومن أهم مدنها: المرية وأندرش ودلاية وبرجة وبرشانة والمنصورة وبيرة.

وتشرف غرناطة على بسيط أخضر شاسع في المنطقة الجنوبية الغربية منها يسمى "فحص غرناطة" (La Vega de Granada) الذي يشبه غوطة دمشق، ونظرًا للشبه الكبير بين المدينتين، فقد سُميت غرناطة في بدايات الفتح الإسلامي بدمشق.

بعد أن ضعفت قبضة الموحدين عن الأندلس، وبدأت المدن الأندلسية تسقط تباعًا في يد النصارى الإسبان، قام محمد بن يوسف بن هود الجذامي (ت ٦٣٥

هـ/ ١٢٣٧ م)- الذي ينحدر من سلالة بني هود ملوك سرقسطة- بالتمرد في مرسية سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م، واتخذ من حصن الصخيرات ملجأً له ومقرًّا لقيادته، وقد أسبغ على حركته الدافع الوطني والقومي-بالمفاهيم الحديثة- خاصة بعد قيام الخليفة الموحدي المأمون- وخلال صراعه مع أخيه المعتصم- بالتحالف مع ملك قشتالة من أجل الوصول إلى السلطة مقابل امتيازات وتنازلات معلومة منحها للنصارى، وقد اتخذ ابن هود ذلك دافعًا ومبررًا لتحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معًا، وكان ذلك سببًا مباشرًا في دخول الكثير من الأندلسيين تحت لوائه؛ إذ كان أول ظهور سياسي لابن هود في رمضان سنة ٦٢٥ هـ/ أغسطس ١٢٢٨ م حين بايعه أتباعه على الطاعة والولاء، فذاع صيته وازداد عدد الموالين له.

ولإضفاء الشرعية السياسية على حركته دعا للخليفة العباسي المستنصر (ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م) ببغداد، وقد لاقى ذلك قبولاً من الخليفة العباسي، فدفع لابن هود بمراسيمه وخلعه، وسماه بمجاهد الدين سيف الدولة أمير الأندلس، ولقب ابن هود نفسه بالمتوكل على الله، واتخذ السواد- شعار العباسيين- شعارًا له.

تمكن ابن هود سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م من انتزاع المنطقة الجنوبية من الأندلس من أيدي الموحدين، وأعلن أهل إشبيلية وماردة وجيان وبطليوس انضمامهم إليه، ولكنه اضطر لمواجهة عدوين في وقت واحد؛ أولهما المأمون الموحدي الذي بذل جهودًا كبيرة في محاربته، ولكنه فشل في التغلب عليه. وثانيهما: نصارى إسبانيا الذين قاموا بمحاصرة بطليوس سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م، ولم تجد نفعًا محاولات ابن هود في الدفاع عنها، فسقطت، كما حارب النصارى في فحص شريش على ضفاف وادي لكه سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م، لكنه هُزم، فاضطر- من أجل وقف الزحف النصراني- إلى مهادنة فرناندو الثالث ملك قشتالة مقابل إتاوة باهظة، ومما دفعه إلى ذلك أيضًا ظهور أطراف منافسة له على ساحة الأندلس تمثلت في ثورات بني مردنيش في بلنسية، ثم تمثلت العقبة الأخطر في ظهور محمد بن يوسف بن الأحمر كمنافس قوي لابن هود على الساحة الأندلسية.

- **مملكة غرناطة: مرحلة النشأة والتطور:**

محمد بن يوسف بن الأحمر هو مؤسس مملكة غرناطة، ينتمي إلى أسرة قوية، هي أسرة بني نصر (أو بني الأحمر)، وهم عرب ينتسبون إلى نصر بن قيس من

أحفاد الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج في مطلع الإسلام، وقد هاجر أسلافه من المشرق واستقروا مع بداية الفتح الإسلامي للأندلس بقرية تُعرف بقرية الخزرج، ثم استوطنوا مدينة أرجونة، إحدى حصون قرطبة، وبظهور هذه الأسرة العربية اتجهت آمال مسلمي الأندلس إليهم بعد أن استولى الإسبان على معظم قواعدهم، وتعلقوا بزعيمهم محمد بن يوسف الذي عرف بالشيخ وبابن الأحمر، وأما تسميته بابن الأحمر؛ فإما لنضارة وجهه واحمرار شعره، أو لأن جده "عقيل" كان أشقر الشعر، مائلاً للحمرة، أو لأنه أنشأ حصن الحمراء (على اختلاف الروايات).

وقد قال عنهم ابن الخطيب: "وجمع الله الأندلس على قوم من خيار الأمة، مِمَّن الجهادُ شأنُهم، والفلحُ (الزراعة) معاشهم، والنجدة شهرتهم، وإلى سعد بن عبادة سيد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم نسبهم".

وبعد مساجلات بين ابن هود وابن الأحمر، وفي خطوة تكتيكية من ابن الأحمر قام بالتظاهر بالدخول في طاعة ابن هود والدعوة للخليفة العباسي المستنصر ببغداد حتى يتمكن من استجماع قواه من جديد بهدف انتزاع السلطة من ابن هود، ثم جاءته السلطة على طبق من ذهب بمقتل ابن هود سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٨ م على يد ابن الرميمي عامله على المرية، وقيام أهل غرناطة بالثورة على عتبة بن يحيي المغيلي والي ابن هود عليها، وتسليمها لابن الأحمر.

تقدَّم ابن الأحمر من جيان، ودخل غرناطة في رمضان سنة ٦٣٥ هـ/ أبريل سنة ١٢٣٨ م، واتخذ من حصن الحمراء قاعدة لحكمه، ورفع عليه راية بني نصر (بني الأحمر)، وخط عليها شعاره المشهور (لا غالب إلا الله)، ولُقِّب بـ"الغالب بالله"، وبـ"أمير المسلمين"، وأصبح هو المؤسس الحقيقي لمملكة غرناطة.

وكانت غرناطة في ذلك الحين تشكل ملجأً وملاذًا أخيرًا للمسلمين في الأندلس بسبب سقوط المدن الشمالية في يد النصارى الإسبان، حيث فضَّل الكثير من المسلمين الهجرة إلى مملكة غرناطة على البقاء تحت حكم النصارى والخضوع لسلطتهم وقبول التدجن، ورغم ذلك فإن البعض من المسلمين أجبرتهم ظروفهم ومصالحهم على البقاء في مدنهم التي سقطت في أيدي النصارى مغلوبين على أمرهم تحت السيادة الإسبانية الجديدة، وهؤلاء عُرفوا في تاريخ الأندلس باسم "المدجنين".

وبعد سنتين من دخول ابن الأحمر إلى مدينة غرناطة دخلت مالقة في

طاعته، وعاونه في ذلك أصهاره من بني أشقيلولة، ثم قام ابن الأحمر بالاستيلاء على المرية من يد ابن الرميمي قاتل ابن هود وعامله عليها، وفرَّ ابن الرميمي إلى تونس لاجئًا عند الأمير أبي زكريا الحفصي، وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يرث ما بقى من تراث الأندلس، وكان استيلاؤه على هذين الميناءين المهمين (مالقة والمرية) من أكبر العوامل التي ساعدت على تدعيم قيام هذه المملكة الناشئة؛ لما لهما من أهمية عظمى في المجالين التجاري والبحري.

وهكذا قامت بين أنقاض الأندلس الغاربة مملكة إسلامية قوية استطاعت أن تصمد أمام الزحف الاسباني أكثر من قرنين ونصف (٦٣٥-٨٩٧ هـ/ ١٢٣٨-١٤٩٢ م)، وساعدها على ذلك موقعها النائي في أقصى الجنوب محصنة بجبال سييرا نيفادا من الشمال، واتصالها بعدوة المغرب عن طريق مضيق جبل طارق، مما يتيح لهما أن تتلقى العون والنجدة من إخوانها المسلمين، وقوة حكامها واهتمامهم بتحصينها والذود عنها، وتأجج قلوب سكانها واللاجئين إليها بنار الحمية، والحرص على البقاء بعد أن أصبحت الملاذ الأخير لمسلمي الأندلس.

يضاف إلى ذلك قوتها الاقتصادية لخصب أرضها، ووفرة خيرها، وبراعة أهلها في الصناعة والتجارة.

وقد حاولت مملكة قشتالة- التي حملت على عاتقها النصيب الأوفى من الصراع مع المسلمين- أن تقضى على هذه المملكة الناشئة وهي في مهدها، لكن جيوشها ارتدت على أعقابها متكبدة خسائر فادحة سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م، ولم يكن في مقدور ابن الأحمر أن يواجه الإسبان وحده، فاضطر إلى مصانعتهم، وأن يدين لهم بالطاعة والجزية، بل اضطر أن يتعاون معهم ضد إخوانه المسلمين في إشبيلية حتى سقطت في أيديهم في ٣ من شعبان سنة ٦٤٦ هـ/ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م.

ولكن ابن الأحمر كان يتطلع إلى تحطيم أغلال هذا التحالف والاستذلال المفروضة عليه، فاتجه إلى حليف الأندلس الطبيعي الذي اضطلع برسالته التاريخية في حمل راية الجهاد معها ضد الإسبان، وهو المغرب الإسلامي، فاتصل بالقوة الفتية الجديدة التي ورثت ملك الموحدين في المغرب الأقصى "بني مرين"، وطلب منهم العون والنصرة، فكان ذلك فاتحة عهد من الجهاد المشترك بين غرناطة والمرينيين.

واستطاعت القوات المشتركة أن تصد هجمات الإسبان سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١

م، وأن تسترد منهم مدينة "شريش" سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣ م، وكان ابن الأحمر إذا فتر العون المغربي لانشغال بني مرين بمواجهة ما ينجم على ساحتهم من اضطرابات، يلجأ إلى مصانعة الإسبان، ويضطر إلى التنازل لهم عن بعض الحصون.

اجتهد محمد الأول ابن الأحمر أن يؤسس مملكة متماسكة قوية رغم تربص النصارى الإسبان بها وتكالبهم عليها، واستمرت محاولاته إلى أن وافته المنية في ٢٩ من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ/ ١٢٧٣ م، وكان قد أخذ البيعة لولده وسميِّه "محمدٍ"، فأضفى بذلك على أسرته مبدأ الملكية الوراثية.

وخلفه في الحكم ابنه محمد الثاني بن محمد بن يوسف بن نصر (٦٧١-٧٠١ هـ/ ١٢٧٣-١٣٠٢ م)، المعروف بلقب "الفقيه"؛ وذلك لولعه بالعلم واشتغاله به أيام أبيه، ولاشتغاله بالفقه زمنًا في صباه، وهو ثاني حكَّام مملكة غرناطة من بني نصر (بني الأحمر)، وهو الذي رتب رسوم الملك للدولة، ووضع ألقاب خَدَمَتِهَا، ونظَّم دواوينها وجبايتها، واستمر على نهج أبيه في تثبيت أركان المملكة الناشئة، ورغم ذلك فقد شهدت سنوات حكمه العديد من الفتن الداخلية والخارجية، إلا أنه نجح في مواجهتها بالحكمة والحنكة السياسية.

وفي عهده زاد اهتمام بني مرين بأمر الأندلس، وأصبحت ركنًا مهمًّا في سياستهم، وأحرزوا انتصارات عديدة ضد الإسبان، كان أبرزها انتصار "إستجة" (Ecija) في ربيع الأول من سنة ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م، بما يعيد إلى الأذهان انتصار المرابطين في الزلاقة (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م) والموحدين في الأرك (٥٩١ هـ/ ١١٩٤ م)، وقُتل قائد القشتاليين دون "نونيو دي لارا" (ذنونة) (Don Nuño de Lara)- الذي عُرفت المعركة باسمه، فيقال: المعركة (الدونونية)- وعدة من زعمائهم، وأُرْسلت رأسه إلى ملك قشتالة ألفونسو العاشر (Alfonso X)، وتقدموا حتى وصلوا قرب إشبيلية، فاضطر الإسبان إلى طلب الصلح، وجاء ملكهم "ألفونسو العاشر" بنفسه طالبًا الصلح، راضيًا بما يفرضه السلطان المنصور أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو (٦٥٦-٦٨٥ هـ/ ١٢٥٨-١٢٨٦ م) من شروط، لكن بني الأحمر كانوا ينظرون بعين التوجس والحذر إلى تقدُّم بني مرين في الأندلس، ويخشون أن ينالهم على أيديهم ما أصاب ملوك الطوائف من قبل على أيدي المرابطين، ولذلك كان ولاؤهم للمرينيين مذبذبًا، وكثيرًا ما كانوا يلجأون

إلى صداقة الإسبان ومحالفتهم، ثم يعودون إلى موالاة بني مرين مرة أخرى، ليحتفظوا بوجودهم بين القوتين الكبيرتين.

وتعود جذور هذا التوجس إلى ما يمكن تسميته بأزمة بني إشْقَلْيُولة، وذلك عندما عير السلطان يعقوب بن عبد الحق عبوره الأول إلى الأندلس سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م، ونزل برندة، والتقى هنالك بالسلطان الغرناطي محمد الفقيه والأمير أبي محمد بن إشْقَلْيُولة لتنسيق المواقف، إلا أن ابن الأحمر ما لبث أن غادر المكان غاضبًا بسبب ما اعتبره تحالفًا بين المرينيين وبني إشْقَلْيُولة، ورغم محاولة السلطان المريني إصلاح ذات البين إلا أنه فشل في ذلك، وبقي ابن الأحمر غاضبًا من هذه العلاقة، وكرد فعل من جانب سلطان غرناطة على عدم رضاه عن هذه العلاقة قام بالتودد لملك قشتالة ألفونسو العاشر، وأظهر رغبته في التعاون معه لمواجهة بني مرين وبني إشْقَلْيُولة معًا، فأرسل له في نهاية ربيع الأول من سنة ٦٧٤ هـ/ أغسطس ١٢٧٥ م رأس القائد القشتالي دون "نونيو دي لارا" مُضمَّخًا بالطيب.

ثم ازدادت العلاقة سوءًا بين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني وسلطان غرناطة محمد الفقيه بسبب قيام محمد بن إشْقَلْيُولة بعد وفاة والده عبد الله سنة ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م وتنازله عن مالقة للسلطان المريني قائلاً له: "إنني عجزت عن ضبطها، فإن لم تصل إليها وتقبضها من يدي أعطيتها الروم (النصارى)، ولا يتملكها ابن الأحمر"، فبعث له السلطان يعقوب ولده أبا زيان، فاستلمها منه، وحاول محمد الفقيه استعادتها إلا أنه فشل في تحقيق ذلك.

ثم كانت وفاة محمد الثاني الفقيه سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠٢ م، ليخلفه في حكم مملكة غرناطة ابنه أبو عبد الله محمد الثالث المعروف بالمخلوع (٧٠١-٧٠٨ هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩ م)، وقد تميزت فترة حكمه بالأمن والسلام، حيث سعى إلى تحسين علاقاته مع المرينيين والقشتاليين، وتصادفت فترة حكمه مع الحصار المريني الطويل لمدينة تلمسان عاصمة بني زيان، وقام بإمداد المرينيين بفرقة من الرماة، شاركت في هذا الحصار، كما تودد إلى القشتاليين، وعقد معهم هدنة لمدة ثلاث سنوات.

أصيب محمد الثالث المخلوع بمرض في عينيه أبعده عن سدة الحكم، وأناب عنه في الحكم وزيره أبو عبد الله بن الحكيم، إلا أنه استبد بالحكم، مما أدى إلى مقتله، وتم خلع محمد الثالث من الحكم- لذا عُرف بالمخلوع- ليحل محله أخوه

نصر بن محمد الفقيه، المعروف بـ"أبي الجيوش" (٧٠٨-٧١٣ هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤ م)، قال ابن الخطيب عن فترة حكمه: "كانت أيامه كما شاء الله أيام نحس مستمر، شملت المسلمين فيها الأزمة، وأحاط بهم الذعر..".

كان تذبذب ولاء بني الأحمر بين المرينيين والقشتاليين مسلكًا أدى إلى توتر العلاقة بين الحليفين المسلمين، وأفاد الإسبان من ذلك، فشددوا هجماتهم على غرناطة، وخططوا لقطع طريق الاتصال بينها وبين الجانب المغربي، ونجح فرناندو الرابع ملك قشتالة من انتزاع جبل الفتح (جبل طارق) من أيدي المسلمين في عهد أبي الجيوش نصر بن محمد سنة ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م، كما تحالفت – ولأول مرة- مملكتا أراجون وقشتالة ضد مملكة غرناطة، مما دفع أبا الجيوش إلى التصالح مع المرينيين لمواجهة هذه المحنة، كما اضطر لعقد السلم مع ملك قشتالة، والتزم له بدفع الجزية، فثار عليه ابنُ عمه أبو الوليد إسماعيل الأول بن فرج (٧١٣-٧٢٥ هـ/ ١٣١٤-١٣٢٤ م)، عندما بلغه ذلك، وقام بعزله، ونفاه إلى وادي آش، واستولى هو على الحكم.

وفي عهد أبي الوليد إسماعيل الأول بن فرج حاول النصارى الاستيلاء على الجزيرة الخضراء لإكمال خطتهم الرامية إلى قطع الاتصال بين بني مرين ومملكة غرناطة، ولكن أبا الوليد إسماعيل استطاع أن يحبط محاولتهم، وتمكَّن جيشه الصغير من استعادة المواقع التي استولى عليها الإسبان في الجزيرة الخضراء، كما قام القشتاليون بهجوم كبير على غرناطة نفسها بجيش تحت قيادة دون بدرو (Don Pedro) ودون خوان (Don Juan) الوصيان على عرش ألفونسو الحادي عشر (Alfonso XI)، ولكن هذا الهجوم انتهى بمقتل الأميرين القشتاليين في مرج غرناطة سنة ٧١٩ هـ/ ١٣١٩ م، وعُرفت هذه المعركة باسم: "موقعة المرج".

وفي عهده أيضًا تطور التعاون المغربي الغرناطي إلى اتفاق وُضعت بموجبه في مملكة غرناطة مجموعات عسكرية مغربية بشكل دائم، سُميت بـ"مشيخة الغزاة"، وهي عبارة عن قوات مرينية على الأراضي الأندلسية، مهمتها الأساسية جهاد النصارى، وقد تولى بنو العلاء من بني مرين قيادة هذه المشيخة لفترة طويلة من الزمن، وقد أدى ظهور هذه الخطة إلى نزوح الكثير من المجاهدين من المغرب إلى الأندلس؛ رغبةً في الجهاد.

وفي عهد السلطان أبو عبد الله محمد الرابع بن إسماعيل بن فرج الناصري

(٧٢٥-٧٣٣ هـ/ ١٣٢٤-١٣٣٢ م)، زادت حدة الصراعات مع ألفونسو الحادي عشر (Alfonso XI) ملك قشتالة، ورغم ذلك فقد تمكَّن محمد الرابع وبمساعدة السلطان المريني أبي الحسن علي بن عثمان من استرداد جبل الفتح (جبل طارق) سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م، وَوُضِعَ بعد تحريره تحت نفوذ بني مرين.

- **مرحلة القوة والازدهار:**

أحست قشتالة أنها لن تستطيع وحدها أن تقضي على هذه المملكة الإسلامية الصامدة التي يشد أزرها عونُ المرينيين، ولذا اتجهت إلى التحالف مع مملكتي أراجون والبرتغال، وبذلك استطاعوا أن يلحقوا ببني مرين عدة هزائم كبيرة، كان أخطرها في عهد السلطان أبي الحجاج يوسف الأول بن أبي الوليد إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥ هـ/ ١٣٣٢-١٣٥٤ م) حيث كان خطر القشتاليين قد اشتد على مملكة غرناطة أكثر من ذي قبل، مما دفع بالسلطان المريني أبي الحسن علي بن عثمان إلى العبور إلى الأندلس على رأس قوة عسكرية كبيرة لنجدة غرناطة، واشتبكت القوات المرينية الأندلسية المشتركة مع قوات التحالف النصرانية في جمادى الأولى من سنة ٧٤١ هـ/ ٣٠ من أكتوبر ١٣٤٠ م في السهل الواقع شمال غربي طريف على مقربة من نهر سالادو الصغير، ولحقت بالمسلمين هزيمة فادحة، وعُرفت المعركة في المصادر العربية باسم "معركة طريف"، بينما عُرفت في المصادر النصرانية بمعركة نهر سالادو (Batalla del Salado). أو موقعة الملوك الأربعة (La Batalla de los Cuatro reyes).

بعد هذا الانتصار قام ملك قشتالة بالاستيلاء على قلعة يحصب (Alcala la Real) (شمال غرب غرناطة)، كما حاصر الجزيرة الخضراء التي سقطت في يده سنة ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٤ م، ثم عُقدت معاهدة سلام بين قشتالة وغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات.

وتوفي يوسف الأول قتيلاً في أول شوال سنة ٧٥٥ هـ/ أكتوبر ١٣٥٤ م، وخلفه في الحكم ولده محمد الخامس الغني بالله (دولته الأولى ٧٥٥-٧٦٠ هـ/ ١٣٥٤-١٣٥٩ م)، وفي عهده توطت العلاقات بين غرناطة وفاس، ولكن لم تلبث أن راودت السلطان المريني أبا عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩ هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٨ م) فكرة غزو الأندلس والسيطرة على مضيق جبل طارق، لكن وفاته الفجائية سنة

٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م أوقفت كل هذه المشاريع، وقام السلطان المريني الجديد المستعين بالله أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن (٧٦٠-٧٦٢ هـ/ ١٣٥٩-١٣٦٢ م) بالتحالف مع قشتالة وغرناطة، وكانت الحرب بين قشتالة وأراجون على أشدها في تلك الفترة، فقام محمد الخامس بمساعدة حليفه ملك قشتالة بأسطول حربي، كما سمح له باستخدام القواعد البحرية الغرناطية.

وفي تلك الأثناء وقع انقلاب في مملكة غرناطة انتهى بخلع الغني بالله محمد الخامس، حيث انتهز الثائرون فرصة ابتعاده عن قصره، فقاموا بمهاجمة مقر الحمراء، وقتل الحاجب رضوان النصري، وسجن الوزير لسان الدين ابن الخطيب، وتولية أخيه أبي الوليد إسماعيل الثاني (٧٦٠-٧٦٣ هـ/ ١٣٥٩-١٣٦٢ م) مكانه في رمضان سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩ م، واستطاع الغني بالله محمد الخامس الفرار إلى المغرب لاجئًا إلى سلطانه أبي سالم المريني.

ولكن سرعان ما قام انقلاب آخر في غرناطة أودى بالسلطان أبي الوليد إسماعيل الثاني في شعبان سنة ٧٦١ هـ/ يونيو ١٣٦٠ م، وخلفه في الحكم زوج أخته وابن عمه وقاتله أبو سعيد محمد المعروف بـ"البرميخو" (EL Bermejo)- ومعناها بالإسبانية اللون البرتقالي الضارب إلى الحمرة، وذلك نسبة إلى لون لحيته وشعره- الذي تحالف مع أراجون ضد قشتالة التي كانت تربطها علاقة طيبة مع الغني بالله محمد الخامس، فقام بدرو الأول ملك قشتالة بعقد الصلح مع أراجون ليتفرغ لقتال غرناطة، وأرسل في طلب محمد الخامس ليساعده في استرداد عرشه، فعبر السلطان الغرناطي المخلوع إلى مدينة رندة التابعة لبني مرين، وتحرك من رندة إلى غرناطة، واسترد ملكه سنة ٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢ م بعد حروب ومعارك سانده فيها حليفه الملك القشتالي بدرو القاسي.

وانتهز الغني بالله محمد الخامس (دولته الثانية ٧٦٣-٧٩٣ هـ/ ١٣٦٢-١٣٩١ م) فرصة اشتعال الحرب الأهلية في قشتالة، وقام بعقد حلف مع ملك البرتغال فرناندو الأول وسلطان المغرب عبد العزيز بن أبي الحسن المريني (٧٦٧-٧٧٤ هـ/ ١٣٦٥-١٣٧٢ م) على أن يقوم السلطان المريني بالهجوم على قشتالة من جهة غاليسيا شمالاً، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء جنوبًا بمعاونة أسطول المغرب، ونجحت الخطة، وسقطت الجزيرة الخضراء في أيدي المسلمين سنة ٧٧٠ هـ/

١٣٦٩ م، وقام محمد الخامس بتدمير حصونها وأسوارها خوفًا من سقوطها في أيدي العدو مرة أخرى، وانتهت تلك الأحداث بعقد صلح دائم بين قشتالة وأراجون وغرناطة والمغرب سنة ٧٧١ هـ/ ١٣٧٠ م.

- **مرحلة الضعف والسقوط:**

بعد وفاة السلطان الغني بالله محمد الخامس سنة ٧٩٣ هـ/ ١٣٩١ م تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف، وقاست المملكة الكثير من الدسائس والفتن والمؤامرات حول العرش، وفي سنة ٨٢٢ هـ/ ١٤١٩ م ثار الأمير أبو عبد الله محمد التاسع بن نصر المعروف بالأيسر (دولته الأولى ٨٢٢-٨٣١ هـ/ ١٤١٩-١٤٢٧ م) على سلطان غرناطة الشرعي محمد الثامن بن يوسف الثالث الملقب بالصغير (٨١١-٨٢٢ هـ/ ١٤٠٨-١٤١٩ م)، واستطاع أن ينتزع منه العرش بمساعدة بني السراج، ولكنَّ محمدًا الصغير خلعه واستعاد منه العرش سنة ٨٣١ هـ/ ١٤٢٧ م إلى سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩ م، ثم ما لبث أن ثار الأيسر مرة أخرى، وتمكن من هزيمة الصغير واستعادة العرش منه سنة ٨٣٤ هـ/ ١٤٣٠ م إلى سنة ٨٣٥ هـ/ ١٤٣١ م بمؤازرة ملك قشتالة خوان الثاني وسلطان تونس أبي فارس الحفصي.

وكان خوان الثاني ملك قشتالة منذ سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩ م- حين توجه إليه سفراء السلطانين المتنازعين الأيسر والصغير لكسب تأييده- قد عزم على شن الحرب ضد غرناطة لانتزاعها نهائيًّا من أيدي المسلمين، ولكن نزاعه مع مملكتي أراجون ونبرة (نافارًّا) اضطره إلى إرجاء خطته، وبعد أن انتهى إلى عقد الهدنة مع مملكتي أراجون ونبرة، وساءه أن سلطان غرناطة محمدًا الأيسر لم يف بوعوده له من إعلان الخضوع لقشتالة بعد انتصاره على غريمه محمد الصغير، فأرسل له خوان الثاني بسفيره لوبي ألفونسو (Lope Alfonso) يستحثه لإعلان تبعيته لمملكة قشتالة، وتسليم بعض الحصون والقلاع إليه.

ولما رفض الأيسر (دولته الثانية ٨٣٤-٨٣٥ هـ/ ١٤٣٠-١٤٣١ م) تنفيذ هذا الاتفاق وقعت بعض الحروب بين الجانبين، ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى دُبِّرت مؤامرة جديدة انتهت بتولي أمير يُدْعَى "أبا الحجاج يوسف الرابع بن المَوْل" (٨٣٥-٨٣٦ هـ/ ١٤٣١-١٤٣٢ م) العرش، وتسميه المصادر الإسبانية (Abenalmao)، وكان قد مال إلى ملك قشتالة خوان الثاني طالبًا منه العون على

انتزاع العرش لنفسه، في مقابل تعهده بأن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة وتحت طاعته، وأن يحارب معه ضد أعدائه، ويؤدي له جزية سنوية، وأن يشهد اجتماعات مجلس البلاط القشتالي، فأجابه خوان الثاني إلى ما يريد.

وفي ٧ من المحرم سنة ٨٣٥ هـ/ ١٦ من سبتمبر ١٤٣١ م وقّعت معاهدة بين «يوسف بن المول» و«خوان الثاني» ملك قشتالة، لتحقيق هذا الهدف، متضمنة بنودًا مهينة للطرف المسلم، نصت على إقرار من «يوسف» بأنه من أتباع ملك قشتالة وخُدّامه، وتعهد منه بدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار ذهبي، وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين، وأن يقدم يوسف ألفي وخمسمئة فارس إلى ملك قشتالة لمحاربة أعدائه، سواء أكانوا من النصارى أو المسلمين.

وفي مقابل هذه التنازلات يتعهد الطرف القشتالي بأن يكون الصلح مستمرًّا طوال حكم «يوسف بن المول» ومَن يخلفه من أبنائه، وأن يعينه على محاربة أعدائه من المسلمين والنصارى، وطبقًا لهذه المعاهدة وتنفيذًا لبنودها تحركت القوات القشتالية لمعاونة يوسف في حربة مع السلطان الأيسر، ونشبت بينهما معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة الأيسر، ودخول يوسف بن المول غرناطة ظافرًا بمؤازرة القشتاليين، وجلس على عرش السلطنة في جمادى الأولى سنة ٨٣٥ هـ/ يناير سنة ١٤٣٢ م، وكان أول ما فعله يوسف أن جدّد المعاهدة مع ملك قشتالة باعتباره سلطان غرناطة.

وبهذه المعاهدة قطعت قشتالة خطوة كبيرة في سبيل تحقيق أمنيتها لإزالة الوجود الإسلامي من إسبانيا.

ولم يستمر يوسف بن المَوْل في الحكم طويلاً؛ إذ إن هذه التبعية الإقطاعية التي عقدها مع النصارى جعلته غير محبوب لدى أهل غرناطة، فقاموا بالثورة ضده، ووضعوا محمدًا التاسع (الأيسر) على العرش الغرناطي للمرة الثالثة (دولته الثالثة ٨٣٦-٨٤٩ هـ/ ١٤٣٢-١٤٤٥ م)، وقد طالت هذه الفترة من حكم محمد التاسع (الأيسر) حتى الشهور الأولى من سنة ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥ م (١٣ عامًا)، نعم خلالها الغرناطيون بشيء من السلام، ثم ما لبث أن عُزل على يد محمد بن نصر بن محمد الغني بالله المعروف بـ"الأحنف" (٨٤٩-٨٥٢ هـ/ ١٤٤٥-١٤٤٨ م)، وكان قد تمكن من دخول غرناطة سرًّا، وجمع ما يمكن جمعه من الأنصار، وعندما

سنحت له الفرصة هجم على الحمراء والحصون المحيطة بها، وقبض على محمد التاسع (الأيسر) وذويه، وأودعهم السجن، ونادى بنفسه ملكًا على غرناطة.

وفي بداية سنة ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م عاد محمد التاسع (الأيسر) إلى الحكم للمرة الرابعة (دولته الرابعة ٨٥٢-٨٥٧ هـ/ ١٤٤٨-١٤٥٣ م)، ولكنه عاني خلال هذه السنوات من كثرة الثورات التي أخذت في تقويض أركان عرشه، ومع زيادة الاضطرابات في هذا العهد لجأ بعض الفرسان المسلمين إلى قشتالة، ولاذوا بها، ومنهم سعد بن إسماعيل النصري ابن شقيق السلطان محمد التاسع (الأيسر)، الذي هاجم عمه محمدًا التاسع (الأيسر) في غرناطة، وأسره وأعدمه في قصر الحمراء.

وتولى سعد بن إسماعيل النصري عرش غرناطة (٨٥٨-٨٦٨ هـ/ ١٤٥٤-١٤٦٤ م)، وعمل على استتباب الأمن، وتحصين قواعد البلاد، وأظهر الطاعة لملك قشتالة يوحنا الثاني، لكنه لم يتمكن من إخماد الاضطرابات والفتن في غرناطة، فاستغل النصارى هذا الوضع المضطرب واستأنفوا هجماتهم ضد حصون غرناطة وقلاعها، وقبل وفاة سعد النصري ثار عليه ابنه أبو الحسن علي.

تولى أبو الحسن علي بن سعد النصري حكم غرناطة نحو عشرين سنة (٨٦٨-٨٨٧ هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢ م)، وقد عُرف بين الإسبان باسم: مولاي حسن (Muley-Hacén)، وقد دخل في حروب مع أخيه أبي عبد الله محمد الثالث عشر بن سعد المعروف بـ"الزغل" (El Zagal)- ويلقبه النصارى بالباسل- وكان قد استغاث بالقشتاليين في صراعه مع أخيه، فانقسمت المملكة الصغيرة، إذ استقر الزغل في مالقة وما جاورها بمساندة القشتاليين، وبقي أبو الحسن في غرناطة.

كانت قشتالة دائمًا تتوجس خيفة من المملكة الإسلامية الصامدة، وتخشى أن تصبح نواة تحالف أندلسي مغربي من جديد، ورأت أن القضاء عليها قد استغرق وقتًا أكثر مما كانت تتصور وتتوقع، ولذا كثَّفت ضغوطها عليها، وشددت من عنف ضرباتها، وكانت- مثل أوربا كلها في ذلك الوقت- تحتدم بنار التعصب والغضب ضد المسلمين، خاصة بعد انتصار الأتراك العثمانيين في الشرق وانتزاعهم قاعدة الغرب المسيحي "القسطنطينية"، واجتياحهم جنوب شرقي أوربا حتى طرقوا أبواب فيينا، وكانت هذه الروح التعصبية تحدو الإسبان إلى توجيه ضربة انتقامية للمسلمين بالقضاء على معقلهم الأخير في الأندلس.

ووقعت في عهد أبي الحسن النصري كثير من الأحداث المهمة التي كانت بمثابـــة إرهاصـــات لســـقوط غرناطـــة، منهـــا زواج فرديناننـــد (فرنانـــدو) الثـــاني (Fernando II) ملك أراجون من إيزابيلا الأولى (Isabella I) ملكة قشتالة سنة ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤ م، وبزواجهمـا ازدادت قـوة إسـبانيا النصـرانية باتحـاد مملكتـي أراجون وقشتالة، ثم آل عرش قشتالة إلى إيزابيلا بعد وفاة أخيها هنري الرابع، سنة ١٤٧٤ م (٨٧٩ هـ)، وبعدها بخمس سنوات ورث زوجها فرديناند عرش أبيه في أراجـون، وأعلنـا اتحـاد مملكتيهمـا، وتلقبـا بـالملكين الكـاثوليكيين (Reyes Católicos)، وبدت منهما النزعة التعصبية المقيتة ضد المسلمين، والتي كان يزيد من أوارها الأحبار ورجال الدين.

لقد حاول أبو الحسن علي بن سعد في بداية حكمه القضاء على الفتن والاضطرابات في المملكة الغرناطية، ونجح في ذلك إلى حدٍّ كبير، واحتدم الصراع بينه وبين ملك قشتالة عندما رفض أن يعترف بطاعته أو أن يدفع الجزية له، وكتب إليه متحديًا: "إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا، وإن دار الضرب في غرناطة لا تطبع الآن غير السيوف"، وأتبع قوله هذا بالعمل، فشنَّ غارة شعواء على قلعتهم المسماة بالصخرة، واستاق أهلها أسرى، وبدت غرناطة وكأن روحًا جديدة قد سرت في عروقها.

ولكن هذه الروح لم تستمرَّ طويلاً؛ إذ مال السلطان أبي الحسن في النصف الثاني من حكمه إلى الإفراط في اللهو، مستسلمًا لحب "ثريا" حظيته النصرانية– كان اسمها "إيزابيلا دي سوليس" (Isabel de Solís)، ثم اعتنقت الإسلام وأطلق عليها اسم "ثريا"، وأبوها القائد القشتالي "سانشو خيمنيث دي سوليس" (Sancho Jiménez de Solís)– رغم زواجه من ابنة عمه السلطان محمد التاسع (الأيسر) عائشـة التـي عُرفـت باسـم: عائشـة الحـرة، فـازدادت الأوضـاع سـوءًا، وتعرضـت غرناطة لغارات النصارى المتلاحقة، وسقوط عدد من المدن والحصون في أيديهم.

وفـي الوقت نفسـه فر أبـو عبد الله محمد وأبـو الحجـاج يوسـف– ولـداه مـن عائشـة الحرة– خوفًا مـن أبيهمـا أن يفتك بهمـا بإشـارة مـن زوجتـه الروميـة "ثريـا"، واستقرا بوادي آش، وأخذا يدعوان لنفسيهما، فاستغل أهالي غرناطة غياب السلطان أبـي الحسـن علـي بـن سـعد فـي نـواحي المنكـب، وبـايعوا ابنـه أبـا عبـد الله محمـد

المعروف بـ"الملك الصغير" (٨٨٧-٨٨٨ هـ/ ١٤٨٢-١٤٨٣ م)، وقد سماه الإسبان «el chico» أي الصغير، و«Boabdil» أبو عبديل؛ بينما سماه أهل غرناطة: الزغابي «أي المشؤوم أو التعيس».

وفي عهده تعرضت بعض الحصون الغرناطية لعدوان النصارى الإسبان في صفر سنة ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣ م مثل بلش ومالقة، إلا أن الغرناطيين ردوهم على أعقابهم، فكثف النصارى هجومهم مرة أخرى، وحاول أبو عبد الله مقاومتهم، فوقع في قبضتهم خارج قلعة اللسانة (Lucena)، وأخذوه أسيرًا.

وبعد وقوع أبي عبد الله الصغير في الأسر، استدعى كبار غرناطة وقادتها والده أبا الحسن علي بن سعد وبايعوه للمرة الثانية (٨٨٨-٨٩٠ هـ/ ١٤٨٣-١٤٨٥ م)، ولكنه بعد عامين- ونظرًا لشيخوخته- تنازل عن العرش لأخيه أبي عبد الله محمد الزغل (٨٩٠-٨٩٢ هـ/ ١٤٨٥-١٤٨٧ م)، وكان "الزغل" قليل الخبرة، لم يستطع تدبير شئون المُلك، فثار عليه أهل ربض البيازين، ثم انتقلت الفتنة إلى أنحاء غرناطة، وعمتها حرب أهلية استمرت عدة أشهر (شوال ٨٩١-جمادى الأولى ٨٩٢ هـ/ أكتوبر ١٤٨٦-أبريل ١٤٨٧ م) انتهت بانتصار أبي عبد الله الصغير، وعودته إلى الحكم مرة ثانية، حيث كان ملكا قشتالة - فرديناند وإيزابيلا- قد أطلقا سراحه بعد أن وقَّعا معه معاهدةً سريةً يتعهد فيها بالولاء لهما، ودفع جزيةً سنويةً، وترك ابنه رهينةً لديهما، مقابل مساعدتهما له على استرجاع ملكه، ثم أفرجوا عنه في شوال سنة ٨٩٠ هـ/ أوائل سبتمبر سنة ١٤٨٥ م، وتابعوا غزوهم لمدن مملكة غرناطة وقراها.

ولم تبق سوى مدينة غرناطة وحدها كالمصباح المرتجف أو الشمعة الزاوية وسط العواصف العاتية، ولجأت إليها الألوف المكلومة من المسلمين، وردت الهجوم عن أسوارها عدة مرات، بل واستردت بعض القلاع من الإسبان.

واشتعلت الحرب الأهلية في قاعدة غرناطة نفسها، يدعو فيها الزغل إلى الجهاد ضد النصارى؛ بينما يعتقد أبو عبد الله الصغير أن السلامة في المفاوضات السلمية، واتفق المتحاربان على اقتسام المملكة بينهما، يختص فيها أبو عبد الله الصغير بغرناطة ومالقة والمرية والمنكب، ويختص الزغل بالمناطق الشرقية؛ لكن النصارى تابعوا تقدمهم، فاحتلوا لوشة في جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ/ مايو سنة

١٤٨٦ م، وأسروا أبا عبد الله مرةً ثانيةً، ثم أطلقوا سراحه في شوال من السنة نفسها، وأمدوه بالعدة والرجال ليحارب عمه "الزغل".

وركز النصارى بعد ذلك على احتلال الأراضي التي بيد "الزغل" المرابض في وادي آش، بينما تظاهروا بمسالمة الأراضي الموالية لأبي عبد الله الصغير، فاحتلوا بلش مالقة (Vélez-Málaga) في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ/ أبريل سنة ١٤٨٧ م، ثم مالقة في أواخر شعبان سنة ٨٩٢ هـ/ أغسطس سنة ١٤٨٧ م بعد مقاومة مستميتة، فأمر الطاغية النصراني باسترقاق جميع أهلها الذين نجوا من القتل. ثم احتل النصارى باقي أراضي "الزغل"، ودخلوا عاصمته وادي آش في أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ/ ديسمبر سنة ١٤٨٩ م، وهاجر "الزغل" إلى تلمسان بالمغرب الأوسط.

- **معاهدة التسليم وسقوط غرناطة:**

ولم يبق أمام النصارى- للقضاء على دولة الإسلام في الأندلس- سوى الاستيلاء على ما بيد أبي عبد الله الصغير، ففي أوائل صفر ٨٩٥ هـ/ يناير سنة ١٤٩٠ م أرسل فرديناند (فرناندو) سفارةً إلى أبي عبد الله يطلب منه الاستسلام، وبعد رفضه تهيأت غرناطة لحصار طويل، وخرج إليها الطاغية في جيش ضخم في ربيع سنة ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م، فهاجم مرج غرناطة، ولكن ثورة أهل البشرات (Alpujarras) وتحرير بعض معاقلها كأندرش (Láujar de Andarax) وغيرها أرغمته على الرجوع، ثم عاد بجيش ضخم إلى حاضرة غرناطة ووصلها في جمادى الثاني سنة ٨٩٦ هـ/ أبريل سنة ١٤٩١ م، وبنى قربها مدينة "سانتا في" (Santa Fe)، أي العقيدة المقدسة، ثم أحكم حولها الحصار، وبعد أن يئس الغرناطيون من إمكانية الدفاع، ابتدأت المفاوضات التي انتهت بتوقيع معاهدة الاستسلام بتاريخ ٢١ من محرم سنة ٨٩٧ هـ/ ٢٥ من نوفمبر سنة ١٤٩١ م.

وظهرت خلال هذا الحصار أروع ضروب البسالة عند المسلمين، وكان في مقدمة المناضلين الفارس العربي الشجاع "موسى بن أبي الغسان" الذي كان يقول لأصحابه: "ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة، في المكان الذي أموت مدافعًا عنه من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين"، وقد أبى إلا أن يغنم الشهادة وسيفه في يده.

وقد تضمنت وثيقة التسليم سبعة وعشرين مادةً، تُحدِّد أولاها ضرورة تسليم غرناطة قبل ٢٥ من يناير سنة ١٤٩٢ م للملكَيْن الكاثوليكيَيْن، وتضمن المواد الأخرى حقوق المسلمين الأندلسيين بعد دخولهم في حكم النصارى، واحترام دينهم وعاداتهم، وعدم مصادرة أسلحتهم، وعدم إجبارهم على وضع شارات خاصة، وعدم استخدامهم دون رغبتهم، واحترام مساجدهم وعلمائهم، وضمان الحكم بينهم بالشريعة الإسلامية، وضمان الأوقاف الإسلامية وإدارتها بيد فقهائهم، وعدم إرغام أحد منهم على اعتناق النصرانية، والحفاظ على امتيازات قوادهم...الخ.

وقد ذُيِّلت المعاهدة بتأكيد من الملكَيْن الكاثوليكيَيْن، ضامنين بدينهما وشرفهما القيام بكل ما يحتويه العقد، ثم ذُيِّلت بتأكيد جديد مُوَقَّع من ولي العهد وسائر عظماء المملكة الإسبانية باحترام المعاهدة من الآن وإلى الأبد.

وفي نفس اليوم الذي وُقِّعت فيه معاهدة تسليم غرناطة أُبْرِمت معاهدة أخرى سرية يضمن فيها الطاغية وزوجه حقوقًا وامتيازات، ومنح السلطان أبي عبد الله الصغير وأفراد أسرته وحاشيته حق ملكية أبدية لمنطقة البشرات حول أندرش (Láujar de Andarax) وعَذْرَة (Adra)، ومنحة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي، وأن يحتفظ بأملاك أبيه أبي الحسن...الخ.

وقرر السلطان أبو عبد الله الصغير ورجاله تسليم غرناطة قبل التاريخ المتفق عليه، بعد أن خاف من غضب شعب غرناطة، فاتفق أن يكون التسليم بتاريخ الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ/ الثاني من يناير سنة ١٤٩٢ م، وهكذا سُلِّمَتْ الحاضرةُ الإسلامية بقصورها، وأرباضها، ومساجدها، وأسواقها، ومدارسها، وأهلها، للعدو الحاقد في يوم مشؤوم، وصفه القشتاليون في كتبهم وصفًا دقيقًا.

واستلم الكاردينال مندوثا (Mendoza) مفاتيح الحمراء من يد الوزير يوسف بن كماشة- الذي تنصَّر بعد ذلك وانتظم في سلك الرهبان- وكان أول عمل قام به الكاردينال عند دخول الحمراء هو نصب الصليب فوق أعلى أبراجها، وترتيل صلاة "الحمد" الكاثوليكية، وقدم أبو عبد الله الصغير خاتمه الملكي للكونت دي تندليا، ثم انتقل بأهله- بعد أن أكد ولاءه للملكين الكاثوليكيين- إلى أندرش حيث كان مقامه إلى حين.

وهكذا انقرضت دولة الإسلام في الأندلس، وصارت ذكرى يرويها التاريخ، ومرثية يبكيها الشعراء.

وما زال الإسبان يحتفلون كل عام بهذا التاريخ (الثاني من يناير سنة ١٤٩٢ م) أمام تنديد العديد من الجمعيات الحقوقية بإقليم أندلوثيا (Andalucia)- جنوب إسبانيا- التي تعتبر هذا الاحتفال تهميشًا لمرحلة تاريخية مهمة، وترسيخًا لنظرة عدائية ضد عنصر ثقافي مهم يمثل أحد مكونات الهوية الأندلسية المعاصرة.

- **زفرة المورو .. حقيقة أم أسطورة؟**

يطلق اسم «منفذ زفرة المورو» (Puerto del Suspiro del Moro) على منطقة بنواحي غرناطة،أو ممر جبلي بالقرب من غرناطة، يزعمون أن أبا عبد الله الصغير وقف هناك لتوديع الحمراء وغرناطة لآخر مرة، وغلبه التأثر فبكى، فوبخته والدته عائشة الحرة قائلة له: "ابكِ مثل النساء مُلْكًا مُضَاعًا، لم تحافظ عليه مثل الرجال".

والحقيقة التاريخية تؤكد أن هذه الحكاية لا أصل لها في المصادر التاريخية العربية، ولا وجود لها إلا في المصادر القشتالية، كما تختلف هذه الأخيرة فيما بينها عند سرد التفاصيل، حتى إن هناك رواية تؤكد أن مقولة: «ابكِ مثل النساء مُلْكًا مُضَاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال» لم تصدر عن الحرة لابنها أبي عبد الله في طريق الرحيل، بل بقصبة الحمراء.

ومن المؤرخين من يطعن في صحة الرواية من الأساس مثل الكاتب الغرناطي «ليوناردو بيينا» (Leonardo Villena) مؤلف كتاب: «الزفرة الأخيرة للملك أبو عبديل (El último suspiro del Rey Boabdil)، كما يعتقد لويس دي مارمول كاربخال (Luis de Marmol Carvajal) أن الحدث ليس له أي خلفية تاريخية، بل مجرد قصة من خيال أسقف قادش «أنطونيو دي غيفارا» (Antonio de Guevara)، رواها في صيف سنة ١٥٢٦ م للإمبراطور كارلوس الخامس (Carlos V) لإثارة الانتباه، بل يؤكد أن أبا عبد الله لم يمر من هناك بالأساس.

بالإضافة إلى ذلك فإن أبا عبد الله لم يرغب يومًا في الذهاب إلى المنفى بالمغرب، خاصة أن الأحوال السياسية لم تكن مستقرة بفاس، ورُفِضت – رفضًا قاطعًا- أُمنيته بالبقاء؛ خوفًا من اندلاع أي ثورة مستقبلية بمساعدة أعوانه وتابعيه بالبشرات، وأصر الملكان الكاثوليكيان عن طريق «إيرناندو دي ثافرا» على رفض مقاومته للرحيل وخوفه من ترك أرضه وأرض أجداده إلى الأبد، ورغم ذلك فقد سافر أبو عبد الله- في محاولة أخيرة للتفاوض على بقائه بالبشرات- إلى برشلونة لمقابلة

فرديناند وإيزابيلا، لكنها كانت رحلة دون جدوى؛ إذ أصر الملكان الكاثوليكيان على أن يبيع ما تبقى من ممتلكاته ويرحل إلى فاس بالمغرب الأقصى.

غادر أبو عبد الله الصغير الأندلس، ونزل بمدينة غساسة الأثرية الموجودة بإقليم الناظور، ثم حل بفاس، وعاش هناك حياة لم يعرف أحدٌ عنها شيئًا حتى مات سنة ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣ م عن عمر يناهز خمسة وسبعين عامًا، متهمًا بالعار والخيانة والتفريط.

وبعد وقت قليل من تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين ابتدأت محنة الأندلسيين العظمى، حيث لم يفِ الإسبانُ بشيء من بنود معاهدة التسليم، ومضوا نحو غايتهم في إزالة كل أثر للإسلام من البلاد، وطردوا كثيرًا من المسلمين، وشنوا حرب إبادة على الآخرين، وأُجْبر البعض على التظاهر باعتناق النصرانية؛ لينجوَ من الموت... فأين ذلك من سماحة الإسلام وعدله ومعاملته الكريمة لأهل البلاد المفتوحة؟!

ولكن مَن المستفيد؟ ومَن الخاسر؟ لنترك الحديث هنا إلى شاهد منهم، وكاتب من أعظم كتَّابهم هو "بيثنتي بلاسكو إبانييث" (Vicente Blasco Ibáñez)، إذ يقول: "لم يأت تاريخ إسبانيا المجيد من الشمال، ولا من الكنيسة كما تظنون، بل من الجنوب، ومن العرب، مع العرب أتت إلى إسبانيا الحرية لشعبها المقيَّد تحت ملوك الدين ومطارنة الحروب.... وماذا عمل ملوك إسبانيا الذين أتوا من الشمال بعد كل ذلك؟ لقد طردوا الحضارة من إسبانيا....".

***

المحتويات

القسم الأول: ٣

مقدمة القسم الأول: ٥

الفصل الأول: مصر في ظلال الإسلام منذ الفتح الإسلامي ٧

أحوال مصر قبل الفتح الإسلامي: ٧

الفصل الثاني: (مصر في ظلال الإسلام زمن الطولونيين والإخشيديين) ٨١

الفصل الثالث: مصر في ظلال الإسلام زمن الفاطميين والأيوبيين) ١١٠

القسم الثاني: تاريخ المغر والأندلس ١٩٧

مقدمة ١٩٩

التمهيد ٢٠١

بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي ٢٠١

أولاً: المدلول التاريخي لبلاد المغرب: ٢٠١

الفصل الأول: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس ٢١١

الفصل الثاني: عصر الولاة في المغرب والأندلس ٢٣٥

الفصل الثالث: الدول المستقلة في المغرب والأندلس ٢٥٨

الفصل الرابع: المغرب والأندلس تحت حكم المرابطين والموحدين ٣٠٣

الفصل الخامس: مملكة غرناطة ونهاية الأندلس ٣٦٥